المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى مكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية
والحضارية

الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك

(٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٣٥٠-١٥١٧م)

دراسة تاريخية حضارية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد
سماح بنت سعيد عبد القادر باحويرث

بإشراف
الأستاذ الدكتور/ عبد الله بن سعيد محمد الغامدي

١٤٣١هـ/٢٠١٠م

الإهداء

وختاماً أشكر المولى عزوجل لما أمدني من قوة وصبر ، في سبيل وصولي إلى بر الأمان ، كما أشكر (والدتي الحبيبة) التي كللتني بدعواتها وأحاطتني بحبها ورعيتها ، قدر ما استطاعت ولا أنسى ذكر روح والدي الغالي (سعيد باحويرث) الذي كان يحلم بهذا اليوم لكن الموت غيبة عنا ، ولو كان هنا أعتقد أنه سيكون فخوراً بإ نجازي هذا، فرحمة الله تعالى ،كما أشكر زوجي العزيز (شاكر علي الزين) وأولادي (حسام الدين وتالة وملهم) الذين ساندون في كل مراحل دراستي وأمدوني بكل الدعم المادي والمعنوي فجزاه الله عني خير الجزاء .، لا أنسي شكر أخواتي الحبيبات وأبنتا عمي التي قمن بمساعدتي في طباعة أجزاء من الرسالة ، فجزاهن الله عني خير الجزاء ، كما لايفوتني شكر صديقتي وزميلتي التي ساندتني في كل مراحل كتابة الرسالة (سمر عبدالله الأحمدي) ،وكذالك أخص بالشكر والتقدير الدكتور الفاضل (معتز يحي سنبل) لما قدمه لي من مساندة ودعم للرقي بنفسي وتطوير ذاتي ، وأخيراً أشكر من عجزت كلمات الشكر عن شكره ،وصمتت كل معاني التقدير والعرفان والأمتان خجلاً ألاّ توفيه حقه .. إلى من تحملني .. وصبر على ..وراعى ظروفي الصحية والأسرية .. إلي من أمدني بكل الدعم ولم يتواني يوماً في مساندتي وتوجيهي ونصحي ..إلى أستاذي الفضل الدكتور (عبدالله بن سعيد الغامدي) ،أشكرك بكل اللغات وكل الحروف وجزآك الله عني خير الجزاء ، وجعله الله في ميزان حسناتك.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى عمادة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ممثلة في عميدها فضيلة الشيخ الدكتور(سعود بن إبراهيم الشريم) ، ورئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية الدكتور (عبدالله الشمبري) ، ووكيلتة الدكتورة الفاضلة (لمياء بنت أحمد شافعي) ، كما أشكر استاذتي الفاضلة وكيلة عميد الدراسات العليا لأستاذة الدكتورة(أميرة بنت علي مداح). كما أشكر عميدة قسم الطالبات بجامعة أم القرى الدكتورة(نور قاروت) ، ولايفوتنى كر أساتذتي وأستاذتي بقسمي الدراسات العليا التاريخية والحضارية والتاريخ والحضارة لإسلامية على جهودهم المبذولة في خدمة العلم وطلابه ،فجزآهم الله عنهم خير الجزاء.

والشكر والتقدير موصولا لعضوي لجنة المناقشة سعادة الدكتور (علي بن محمد الغامدي) وسعادة الدكتور (عدنان بن محمد الحارثي) على جهودهما المبذولة في قراءة هذه الرسالة وتقويمها لتظهر بشكل أفضل ، وأخيراً أرجوا من المولى عزوجل التوفيق و السداد للجميع ، و((الحمد الله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله))[1]، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبة وسلم .

---

(١) سورة الأعراف ،أية ٤٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل إنما يخشى الله من عباده العلماء، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد، الذي وصف علماء هذه الأمة بأنهم ورثة الأنبياء، الذين لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه، أخذ بحظ وافر، وعلى آله وصحبه الكرام ومن سار على هديهم إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً، .. وبعد :

فقد حظي تاريخ سلاطين دولة المماليك بنصيب وافر من عناية الدارسين والباحثين؛ إلا أن هذه الجهود انصبت في مجملها على إبراز ما لحكام هذه الدولة (سلاطين ونواب وأمراء) من أعمال وإنجازات في ميادين السياسة والإدارة والحرب. في حين أن ما أسهم به غيرهم من فئات المجتمع الأخرى في إدارة دفة هذه الدولة، لازال في حاجة ماسة إلى البحث والدراسة. لما لهذا الدور الذي قاموا به في كافة ميادين الحياة اليومية من أثر بالغ في صنع تاريخ امتنا الإسلامية. وذلك بتوجيه الأجيال القادمة لهذه الأمة إلى نماذج فاعلة ومتفردة تنبض بالحركة والعمل. وتجعل الخلف منها يقتدي بما فعله المخلصون من سلفها الصالح وليكون ذلك رداً قاطعاً لما يردده الحاقدون والمغرضون من أعدائنا ممن وصف تاريخ أمتنا بأنه لا يتجاوز كونه مجرد سير وتراجم حكام وأمراء وتجريده من سماته الحقيقية. وهو أنه تاريخ أمة يشمل فئاتها مجتمعة.

ومن عناصر مجتمع سلاطين دولة المماليك الذي أسهم بدور فاعل وملموس في إدارة دفة هذه الدولة، ولازال بحاجة إلى بحث وتقص

واستقراء فئة العلماء على اختلاف تخصصاتهم، الذين حملوا مع سلاطين ونواب وأمراء هذه الدولة هموم الأمة مدة ليست بالقصيرة، استمرت من سنة ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م. إلى مهامهم الأساسية الخاصة بإثراء الحياة العلمية والفكرية في هذه الدولة.

ومن هذا المنطلق فقد رأيت من الواجب أن أفكر في تناول تاريخ الربانية بدراسة شاملة، ليس في مجال إسهامات علمائها في الحياة العلمية التي نالت اهتمام الكثير من الدارسين والباحثين والكتاب، وإنما في مجالات أخرى، تتمثل في إسهامات هؤلاء العلماء الأجلاء في ميادين السيـــاسة والحكم وإصـــلاح و ما اعترى المجتمع المملوكي من مخالفات عقدية ومفاسد اجتماعية بين حين وآخر. وأن يكون موضوع أطروحتي لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي هو **"الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين دولة المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)"** إذ هو كما يبدو – موضوع جدير بالبحث والدراسة، خاصة وأنه – حسب علمي – لم تكتب رسالة علمية متخصصة فيه. وكل ما وجدته حول هذا الموضوع هو أطروحتين علميتين، تناولتا جزءاً بسيطاً من تاريخ العلماء في هذه الدولة، واقتصرت مباحثهما على دراسة دور العلماء في حركة الجهاد ضد المغول فقط، الأولى عنوانها **"دور ابن تيمية في الجهاد ضد المغول الايلخانيين من ٦-٧٢٨هـ"** للباحثة مريم بنت محمد عوض بن لادن، والثانية عنوانها **"دور العلماء المسلمين في الجهاد ضد المغول من ٦١٦-٧٣٠هـ"** للباحث عبد الله بن فراج الشهري. في حين أن دراستي ستشمل بعون الله تبارك وتعالى العصر المملوكي بأكمله

الذي استمر حتى الربع الأول من القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي. حيث ستتناول بالإضافة إلى الأثر السياسي والدور الإصلاحي، جهود هؤلاء العلماء في حركة الجهاد ضد بقية القوى المعادية لدولتهم، كمملكة أرمينية الصغرى في الطرف الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، وما عرف بالحروب الصليبية المتأخرة التي تعقب من خلالها سلاطين دولة المماليك فلول الجموع الصليبية التي تناثرت في جزر البحر المتوسط بعد طردهم من سواحل الشام سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م وخاصة ملوك أسرة لوزجنان في قبرص، وفرسان الداوية في رودس. إضافة إلى الخطر المغولي الذي استمر يهدد كيان دولة المماليك عبر الفرات وآسيا الصغرى لفترات لاحقة.

وقد اعتمدت الدراسة على مصادر أصلية ومراجع متخصصة من أهمها:-

- **كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، لجمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن واصل، المتوفى سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م. فقد تناول في مؤلفه هذا الحقبة الأولى من تاريخ دولة المماليك البحرية، وأمد البحث بمعلومات قيمة عن عصر الظاهر، وعلاقاته الخارجية، ومنها علاقته بالإمبراطور منفرد بن فردريك الثاني زعيم الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة، ووصف رحلته إلى جزيرة صقلية موفداً من قبل الظاهر بيبرس إلى الإمبراطور منفرد. وعندما انقطع ابن واصل عن الكتابة في آخر حياته أذن لنور الدين علي بن عبد الرحيم المعروف بابن المغيزل بعد أن التقاه في حماه بالتذييل على كتابه، حتى انتهى به الأمر إلى

حوادث سنة ٦٩٥هـ.[1]

- **كتابا الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، وتشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون.** وهما للقاضي محيي الدين أبي الفضل عبد الله بن رشيد بن عبد الظاهر، المتوفى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م. الذي تولى منصب كتابه الإنشاء في الدولة المملوكية. ويعد هذان المصدران من أهم مصادر الدراسة فمؤلفها من العلماء الذين أسهموا بدور كبير في الحياة السياسية في عصر بيبرس وقلاوون، كما شارك بنفسه معهما في حركات الجهاد ضد التي حدثت في عهدهما.

- **كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، لبيبرس المنصوري الدوادار المتوفى سنة ٧٢٥هـ/١٣٣٦م. فقد أفاد البحث من الجزء التاسع من هذا الكتاب الذي حققته الدكتورة زبيده عطا. وقد زود البحث بمعلومات مهمة عن كثير من الأدوار التي قام بها العلماء في حركة الجهاد ضد أعداء الأمة في ذلك الوقت وخاصة المغول والصليبيين.

- **كتاب ذيل مرآة الزمان**، لقطب الدين أبي الفتح موسى بن أحمد البعلبكي اليونيني، المتوفى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م. ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر الدراسة بحكم أن مؤلفه كان معاصراً للأحداث وشاهد عيان لها، وقد استفاد البحث منه في كثير من المواضع المتعلقة بالدور السياسي للعلماء في الدولة المملوكية.

- مؤلفات شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

---

(١) انظر، ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، مقدمة المحقق، ص٥ .

المتوفى سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م. ومنها موسوعة **فتاواه** الشهيرة، فقد استفاد منها البحث في مواضع كثيرة، وخاصة ما يتعلق بمبحث الحياة الفكرية، وكذلك مبحث دور العلماء في توجيه سياسة الدولة تجاه أهل الذمة، وكذلك مباحث الفصل الخامس المتعلقة بدور العلماء في التصدي لمظاهر الفساد بأنواعه في المجتمع المملوكي. كما أفاد البحث أيضاً من كتابه **قواعد الأديان** الذي تضمن ثلاث رسائل وجه الأولى إلى الشيعة والثانية إلى ملك قبرص، والثالثة إلى عامة الناس يحثهم على المشاركة في الجهاد ضد المغول، وقد جعلت مطلع نصوصها ملاحق للرسالة. كما أفاد البحث أيضاً كتابه الشهير **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، الذي جعله جواباً لرسالة وردت إليه من قبرص، منسوبة إلى بولس الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، تضمنت الطعن في صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن عيسى عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال، فضلاً عن التشكيك في القرآن الكريم، وزعم صحة العقائد النصرانية .. وغيرها.[1]

- **كتاب المختصر في أخبار البشر**، للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن شاهنشاه الأيوبي، المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م. فقد أمد هذا الكتاب الدراسة بمعلومات مهمة، فقد كان شاهد عيان للحوادث ومعاصراً لها. وأوضح لنا الأدوار التي قام بها عدد من العلماء في حركة الجهاد ضد المغول والصليبيين ومشاركاتهم الشخصية في ذلك، وكان هو واحداً منهم.

---

(١) للوقوف على مزيد من هذه الدعاوى، انظر، مريم عبد الرحمـــن زامل: موقف ابن تيمية من النصـــرانية، ص٨-١٥.

- **كتاب البداية والنهاية**، للحافظ إسماعيل بن عمر القرشي المعروف بابن كثير، المتوفى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م. وقد أمد هذا الكتاب وخاصة الجزئين الثالث عشر والرابع عشر للبحث بمعلومات مفصلة عن الحياة السياسية في الدولة المملوكية ودور العلماء فيها. وكذلك مواجهتهم لبعض مفاسد المجتمع، كما خص شيخه ابن تيمية بمعلومات قيمة، تحدث فيها عن أحواله مع بعض خصومه من رجال الدولة المملوكية، وكذلك مواقفه الصارمة من بعض القضايا، إضافة إلى كون هذا المصدر قد حوى تراجم مفصلة لكثير من العلماء الذين شاركوا في الحياة السياسية والاجتماعية في الدولة المملوكية. وقد أفاد منها البحث.

- **كتاب الدول والملوك**، المعروف بتاريخ ابن الفرات، لمؤلفه ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي، المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م. وقد تميزت كتاباته بالوضوح وقد استفادت منها الدراسة في كثير من مباحثها.

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م. وقد أفاد البحث من هذه الموسوعة العلمية التي تضمنت معلومات وافية عن الوظائف الدينية والسياسية في العصر المملوكي. خاصة وأن كتابات القلقشندي هي عبارة عن مشاهداته لما عاصره من حوادث في الدولة المملوكية، كما أن شغله لمنصب رئيس ديوان الإنشاء لمدة ليست بالقصيرة مكنه من الاطلاع على كثير من أسرار الدولة وبالتالي شرح لنا من خلالها عدداً كبيراً من هذه الوظائف وذكر أسماء من تولاها من العلماء وغيرهم.

- **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، لمؤلفه أحمد بن علي المقريزي، المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م. ويعد هذا الكتاب من أهم مصادر العصر المملوكي، وقد خدم البحث معظم مباحثه، ومما زاد من أهميته كمصدر للدراسة كون مؤلفه قد تقلد عدداً من الوظائف في الدولة المملوكية منها وظيفة محتسب القاهرة حاضرة الدولة. كما أفاد البحث أيضاً من كتاب آخر للمقريزي وهو **المقفى الكبير** الذي يحتوي على عدد كبير من التراجم النادرة التي يصعب العثور عليها في مصادره .

- **كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، لمؤلفه بدر الدين محمد بن أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين العيني، المتوفى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م. فقد اعتمد البحث على الثلاثة الأجزاء التي قام بتحقيقها الدكتور محمد محمد أمين والتي تحدثت عن سلاطين دولة المماليك البحرية، كما اعتمد في الوقت نفسه على قطعة أخرى محققة شملت حوادث السنوات من ٨١٥-٨٢٤هـ قام بتحقيقها الدكتور: عبد الرازق الطنطاوي القرموط، وقد أفاد البحث من هذه الأجزاء فائدة طيبة، خاصة وأن العيني كان من المقربين من سلاطين وأمراء دولة المماليك. إضافة إلى تولية منصب القضاء في دولتهم، ولهذا كان يكتب بقلم القاضي والمؤرخ والناقد.

- **كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، لمؤلفه أبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، المتوفى سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م. ويعد هذا الكتاب من أهم مصادر الدراسة نظراً لكون مؤلفه ينحدر ممن يطلق عليهم أولاد الأمراء. فقد تولى والده مناصب مهمة في الدولة المملوكية. وقد مكنه هذا من الاطلاع على كثير من الأمور

التي يصعب على غيره من المؤلفين الاطلاع عليها. ولهذا فإن المعلومات التي أوردها كانت في غاية الأهمية لأي باحث في تاريخ الدولة المملوكية. وقد استفادت الدراسة منه فائدة كبيرة، حيث شملت هذه الفائدة معظم مباحث فصول الدراسة، وزادت أهميته في المباحث الخاصة بعلاقة العلماء بالسلاطين والأمراء، وكذلك مبحث العلماء في مراكز النفوذ.

- **كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور**، لأبي البركات محمد بن أحمد ابن إياس الحنفي، المتوفى سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٣م. فقد استفاد البحث من هذا المصـــدر في معظم مباحث فصوله، وذلك لشموليته واعتماد صاحبه على مصادر أصلية معاصرة للأحداث التي سبقت عهده. وذلك لكون ابن إياس قد عاش في المدة الأخيرة من العصر المملوكي. والملاحظ أن أسلوب هذا المؤرخ قد تميز بالصراحة والنقد الصريح لكثير من المعلومات التي أوردها وخاصة تلك التي تحدث فيها عن حوادث ما بعد عام ٨٠٠هـ، والتي يبدو من خلال حديثه عنها أن رقابة الدولة على ما يكتبه العلماء وخاصة المؤرخين منهم بدأت تضعف.

وإلى جانب ما ورد ذكره في هذا العرض السريع لأهم مصادر الدراسة، فقد اعتمد البحث أيضاً على مصادر أخرى أصلية وخاصة كتب التراجم، إضافة إلى مراجع حديثة متخصصة. وجميعها مثبتة في حواشي الرسالة.

واحتوت الدراسة على مقدمة وخمسة فصول، اقتصرت المقدمة على بيان أهمية الموضوع وسبب اختياره، وعرض سريع لأهم مصادره. أما **الفصل الأول وعنوانه "دور العلماء في قيام دولة المماليك وتوسعها"** فقد شرح موقف العلماء من انفصال الأراضي المصرية عن جسم الدولة الأيوبية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م. وكذلك دورهم في ضم بلاد الشام لسلطنة المماليك بعد

الهزيمة النكراء التي ألحقها المماليك بالمغول في معركة عين جالوت، كما أوضح دور العلماء في دعم السلطان الظاهر بيبرس من أجل إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، ومن ثم دورهم الواضح في توجيه الحياة الفكرية في دولة المماليك بأكملها.

كما تناول **الفصل الثاني وعنوانه "العلماء والسلطة"** علاقة العلماء على اختلاف مذاهبهم بسلاطين دولة المماليك وأمرائها ونوابها. وكذلك نفوذهم في هذه الدولة من خلال توليهم عدداً من الوظائف الهامة بها، فضلاً عن الدور الملموس في درء بعض المفاسد الإدارية قبل وبعد ظهورها. كما أوضح أيضـاً أن عدداً من سلاطين هذه الدولة وأمرائها ونوابها كانوا من فئة العلماء.

وشرح الفصل الثالث الذي جاء بعنوان "دور العلماء في استتباب الأوضاع الداخلية" موقف العلماء من حركات العصيان والثورات الداخلية التي شهدتها الدولة المملوكية خلال عصريها البحري والبرجي، وكذلك موقفهم من الصراع بين الامراء وسعيهم الدؤوب من أجل إنهاء تلك الصراعات متى ظهرت . كما تناول هذا الفصل الأثر الواضح للعلماء في توجيه سياسة الدولة المملوكية تجاه أهل الذمة، والذي قام في مجمله على أساس تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية.

أما **الفصل الرابع وعنوانه "دور العلماء في العلاقات الخارجية"** فقد أوضح الدور الذي قام به العلماء في تجديد الدعوة إلى إحياء حركة الجهاد في أوساط الأمة، وإيضاح فرضية الجهاد متى داهم العدو بلاد المسلمين، وكذلك دور العلماء الواضح والملموس في إعداد الجيوش للجهاد وذلك بتشجيع الناس على المشاركة في حركة الجهاد ضد المغول والصليبيين. كما أوضح الفصل أيضاً قيام عدد من العلماء بدور الوفادة

والسفارة لسلاطين المماليك ونوابهم إلى حكام البلدان المجاورة فضلاً عن مشاركة العلماء بأموالهم وأنفسهم في حركة الجهاد.

أما الفصل الخامس والأخير وعنوانه "دور العلماء في إصلاح المجتمع المملوكي" فقد استعرض أبرز مظاهر الفساد التي شهدها المجتمع المملوكي، ثم تناول دور العلماء وجهودهم المباشرة في التصدي لمظاهر الفساد التي كان يشهدها المجتمع المملوكي من حين لآخر، كما أوضح بعض المشكلات والصعوبات التي واجهها العلماء جراء إنكارهم وتصديهم لهذه المفاسد.

وختمت الدراسة بخاتمة تضمنت أبرز النتائج التي توصل إليها البحث، وملاحق توضح بعض الحوادث والوقائع التي تضمنها البحث. ثم فهرس شمل مصادر ومراجع الرسالة.

الفصل الأول
دور العلماء في قيام دولة المماليك وتوسعها

- موقف العلماء من انفصال الأراضي المصرية عن جسم الدولة الأيوبية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.
- جهود العلماء في ضم بلاد الشام لسلطنة المماليك سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م.
- أثر العلماء في دعم مركز الخلافة العباسية في القاهرة.
- أثر العلماء في الحياة الفكرية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المبحث الأول

موقف العلماء من انفصال الأراضي المصرية عن جسم الدولة الأيوبية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م

دائماً وابدأ يقيض الله لهذه الأمة في أزماتها من يصونها ويحميها ففي زمن الحروب الصليبية سخر الله لهذه الأمة الدول التي حملت لواء الجهاد وقامت به خير قيام حتى إذا ما ضعفت دولة سخر الله لهذه الأمة من يحيى هذه الفريضة العظيمة التي ذكر فضلها القرآن الكريم(١)، وحثت عليه الأحاديث النبوية الشريفة(٢). وذلك أنه متى تخلت أو تقاعست الدولة عن أداء واجب الجهاد إذا هاجم العدو بلاد المسلمين، فقدت مبرر وجودها، وكان مآلها السقوط، لتحل محلها دولة أخرى تقيم هذه الفريضة(٣). وقد تجلى هذا المبدأ بوضوح تام زمن حركة الجهاد ضد العدوان الصليبي على المشرق الإسلامي الذي بدأ بنهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بعد أن نجح الغزاة الصليبيون

---

(١) قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [التوبة(٢٠)]. {اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ} [المائدة(٣٥)] {انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} [التوبة(٤١)]، {فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء(٩٥)] .

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجُهُ إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقا برسلي: فهو عليَّ ضَامِنٌ أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه. نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده إما من كلْم يكلّم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم وريحه مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين، ما قعدت خِلاَف سرية تغزو في سبيل الله أبداً. ولكن لا أجدُ سَعَةً فأحملهم ولا يجدون سعةً ويشق عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفس محمد بيده لَوَدِدتُ أَني أغزو في سبيل الله فَأقتلُ ثم أغزو فأقتلُ". صحيح مسلم، باب فضل الجهاد، حديث رقم (١٨٧٦)، ج٣، ص١٤٩٥. وقال صلى الله عليه وسلم " لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها". صحيح مسلم، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، ج٣، ص١٤٩٩. حديث رقم (١٨٨٠).

(٣) على الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ،ص ٤٧٥.

في فرض سيطرتهم على بعض بلاد المسلمين في شمال العراق وساحل بلاد الشام. وإقامة أربعة كيانات لهم في الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس[1]. فالدولة الزنكية قامت بإحياء فريضة الجهاد زمن عماد الدين زنكي[2] (٥٢٢-٥٤١هـ / ١١٢٨-١١٤٥م) وابنه نور الدين محمود[3] (٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٥-١١٧٣م) حيث توجت جهودهما باسترداد الرها من الصليبيين سنة (٥٣٩-٥٤٠هـ/ ١١٤٤-١١٤٥م)[4]، وحين عجزت عن مواصلة ذلك بعد وفاة نور الدين محمود ، حلت محلها الدولة الأيوبية بزعامة صلاح الدين

(١) لمزيد من المعلومات انظر سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١؛ حسن حبشي:الحرب الصليبية الأولى، علية الجنزوري، إمارة الرها الصليبية؛ نهى الجوهرى: إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادى /السابع الهجري؛ حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون.

(٢) هو عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله التركي، تركماني الأصل ولد سنة ٥١١هـ /١١١٧م، كان ولده من السياسيين البارزين في الدولة السلجوقية، تولى والده إمارة حلب وسار في الناس سيرة حسنة، نشأ عماد الدين في حلب وعندما توفي ولده وهو في العاشرة من عمره انتقل إلى الموصل ترعرع هناك في كنف رفاق والده وشاركهم الجهاد ضد الصليبيين في عدد من المعارك مما صقل شخصيته وأشرب حب الجهاد منذُ نعومة أظافره، وعندما لاحظ السلطان السلجوقي محمود سلجوق ما امتاز به عماد الدين زنكي من الشجاعة والإقدام في الحروب، أوكل إليه سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م إمارة كلّ من الموصل والجزيرة، ومن هنا بدأ رحلة النضال ضد الصليبيين ، قتله بعض مماليكه وهو يحاصر قلعة جعبر سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م وعمره ما يقارب الستين سنة .

عرف عنه الشجاعة والإقدام في الحروب، وكان ذا هيبة وحسن سياسة مع دهاء، وكان يحب الصيد والفروسية . الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص١٨٩- ١٩١، عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي ، ص٣١-٣٧، ١٦٩-١٨٧؛ محمد الناصر: الجهاد والتجديد ، ص١٦٤- ١٦٥.

(٣) الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك قسيم الدولة ، ولد سنة ٥١١هـ/١١١٧م ، حمل أعباء الجهاد بعد وفاة والده عماد الدين زنكي سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م فلاقى منه الصليبيون الأمرين، اتصف بالعدل والشجاعة وأبطل عدداً من الضرائب، وكان أول من بني دار العدل وخصص يوماً للجلوس بها مع القضاة للنظر في أحوال الرعية، كما عرف عنه حبه للعلم والعلماء وتقريبه لهم، وكتابة خط جيد وحب المطالعة، وكثرة الصلاة والصيام كما " روي الحديث وأسمعه بالإجازة" توفي نور الدين رحمه الله في شوال سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م .الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص ٥٣١- ٥٣٢؛ محمد الناصر: الجهاد والتجديد، ص٣٠٥- ٣٠٧.

(٤) عن استرداد الرها انظر، علية عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية. وعن دور عماد الدين زنكي ونور الدين محمود في الجهاد انظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١- ١٢؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحيه، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ؛ عماد الدين خليل؛ عماد الدين زنكي؛ حسن حبشي؛ نور الدين محمود والصليبيون؛ عبد الله الغامدي: مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين وابنه نور الدين محمود.

(٥٣٢-٥٨٩/١١٣٩- ١١٩٣م) الذي أقام فريضة الجهاد علـــى أكمـــل وجـــه وتوج جهوده في هذا المجال بإنزال هزيمة ساحقة بالصليبيين في معركة حطين الشهيرة سنة (٥٨٣هـــ / ١١٨٧م) ، ونجح بعد ذلك بمدة وجيـــزة فـــي فـــرض سيطرته على مدن الساحل الشامي واسترداد بيـــت المقـــدس، ومواجهـــة كـــل محاولات الصليبيين لاسترداده. حيث نجح في إفشال مهمة الحملـــة الصـــليبية الثالثة التي خرجت لاستعادة بيت المقدس والتي قادها ثلاثة من أعظـــم حكـــام الغرب الأوروبي آنذاك[١] وهم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا[٢] وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا[٣] وفيليب أغسطس ملك فرنسا[٤].

وعندما تقاعس سلاطين الدولة الأيوبية عن الوفاء بواجـــب الجهـــاد ضـــد الوجود الصليبي في ساحل بلاد الشام ، فضلاً عن عجزهم التام عـــن مواجهـــة خطر هجمات المغول التي داهمت بلاد الشام منـــذ منتصـــف القـــرن الســـابع

---

(١) **ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٩٤-٩٩؛ عن جهود صلاح الدين للحملة الصليبية الثالثـــة انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٣٦ وما بعدها؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية؛ عبد الله سعيد الغامدي: صلاح الدين والصليبيون "استرداد بيت المقـــدس"؛ وليد نويهض: صلاح الدين الأيوبي "سقوط القدس وتحريرها "؛ انظر ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ص ١٩١- ١٩٧؛ يوشع بـــراور: عالم الصليبيين، ص٦٠ وما بعدها.**

(٢) **فردريك الأول بربروسا: اعتلى عرش ألمانيا وهو في الثلاثـــين مـــن عمـــره (١١٥٢- ١١٩٠م) (٥٤٧-٥٨٦ هـــ) اتصف بالشجاعة والفصاحة والكبرياء، أخذ يعمل على اســـتعادة مجـــد ألمانيـــا بإخضاع أعداء البابوية حتى ينال رضاها. انظر سعيد عاشور: أوروبـــا العصـــور الوســـطى، ج١، ص٣٧٢.**

(٣) **ريتشارد قلب الأسد: حكم انجلترا خلفاً لوالده هنري الثـــاني (١١٨٩- ١١٩٩م) /(٥٨٥-٥٩٦هـــــ) اتصف بالشجاعة وحب القتال وكراهيته لليهود، سعيد عاشور: أوربا العصـــور الوســـطى، ج١، ص ٤٧٣- ٤٧٤، ص ٤٧٣- ٤٧٤.**

(٤) **فيليب أغسطس: "الثاني" (١١٨٠- ١٢٢٣م)/(٥٧٦-٦٢٠ هـــ)، قام بعدد من الإصلاحات الداخلية، كان الغرض منها زيادة هيمنة فرنسا واتساع نفوذها، امتاز بالصلابة التي ساعدته على تدبير الأمور ومواجهة الصعاب، سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج١، ص٢٥٩.**

الهجري الثالث/ عشر الميلادي[1]، وذلك بسبب الحروب الأهلية التي أعقبت وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) بين أبنائه وأفراد أسرته والتي تمخض عنها تقسيم أراضي الدولة الأيوبية في مصر والشام وشمال إقليم الجزيرة بين عدد كبير من أبنائه وأفراد أسرته وغدا كل واحد منهم حاكماً مستقلاً بذاته[2].

حيث تطور التنافس بينهم إلى حروب داخلية، أدت إلى ضياع الكثير من النجاحات التي تحققت للأمة الإسلامية في عهد صلاح الدين، والتي أدت إلى نجاح الصليبيين في السيطرة مرة أخرى على بعض المدن والقلاع في ساحل بلاد الشام. ورغم أن أحد أفراد الأسرة الأيوبية وهو السلطان العادل أبو بكر بن أيوب[3]، أخو صلاح الدين قد نجح في إعادة الوحدة للدولة الأيوبية لبعض الوقت، ونجح من خلال ذلك في التصدي لأطماع الصليبيين وإعادة الهيبة مرة أخرى للدولة الأيوبية، كما نجح من بعده أبناؤه الثلاثة المعظم عيسى[4]،

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، ج١، ص٣٠١؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٧٨؛ اليونين: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٧٨؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٨، ص٢٦٩؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤١١- ٤١٥- ٤١٦؛ السيد الباز العريني، المغول؛ عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ؛ عبد الله الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في بلاد الشام، ص٦٥- ٧١.

(٢) للوقوف على تفصيلات ذلك انظر: علي محمد الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٣٥- ٤٩.

(٣) الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب وهو السادس من ملوك بني أيوب، ولد سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، اكتسب خبرة واسعة في مجال الحروب والسياسة من أخيه صلاح الدين الأيوبي بحكم قربه منه ومساعدة له، تولى حكم حلب، وكان سفيراً لأخيه صلاح الدين في المفاوضات مع ريتشارد قلب الأسد أبان محاولة الصليبيين السيطرة على مصر، فذاع صيته في الغرب الأوربي، عرف عنه العدل والحلم والذكاء وحسن التدبير، وكان يحب العلماء ويقربهم. توفي سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م إثر استيلاء الصليبيين على برج السلسلة بدمياط حزناً على ذلك. انظر الحنبلي: شفاء القلوب، ص٢٤- ٢٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٦٨؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص١٣٣- ١٣٤.

(٤) هو عيسى بن محمد بن محمد بن أيوب بن شادي بن مروان الكردي الأيوبي، ولد بدمشق سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م، درس الفقه على المذهب الحنفي ودرس اللغة العربية والحديث، وعندما قام الملك العادل سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م بتقسيم دولته بين أبنائه، كان من نصيبه المنطقة الواقعة من العريش

والكامل محمد[1]، والأشرف موسى[2]، في إفشال مهمة الحملة الصليبية الخامسة التي خرجت من الغرب الأوروبي إلى ساحل بلاد الشام ومن ثم الأراضي المصرية سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)[3]. إلا أن الأخوة الثلاثة ما لبث أن دب الخلاف بينهم واشتعلت نار حرب أهلية بينهم ووصلت إلى حد الاستنجاد بالقوى الخارجية، حيث استنجد المعظم عيسى بجلال الدين

إلى حمص إضافة إلى الساحل والغور وفلسطين والقدس والكرك والشوبك وصرخد، وبعد وفاة ولده الملك العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م استحوذ المعظم على جميع أمواله ونادى بنفسه سلطاناً في دمشق، عرف عنه الشجاعة والكرم وحب العلم ، توفي سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٢٤٢-٢٤٩؛ المقريزي: المقفى، ج٤، ص ٣٨٧- ٣٩٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص١٢٠- ١٢٢.

(١) هو محمد بن محمد بن أيوب بن شادي بن مروان، ولد سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م بمصر، درس الحديث وأجاز له جماعة من العلماء ، حكم مصر ما يزيد عن أربعين عاماً، كان محباً للعلم وأهله، بنى دار الحديث بالقاهرة سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م ، كان يميل إلى العدل وكانت له هيبة في القلوب، كان في أيامه تسليم بيت المقدس لفردريك الأول، مما أثار غضب الناس عليه، توفي بدمشق سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٢٥٩؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص١٢٧- ١٣١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص١٥٨- ١٦١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٥٨؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص١٧٣.

(٢) هو الملك الأشرف مظفر الدين أبو الفتوح موسى بن محمد العادل بن أيوب بن شادي الأيوبي، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م، اهتم بالعلم وجلس لسماع الحديث ، كانت القدس تحت حكمه، وبعد تقسيم والده الملك العادل دولته بين أبنائه سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م امتلك حران والرها وخلاط، ثم ما لبث أن استولى على دمشق من الناصر، ثم استولى على مدينة خلاط ، أتصف بالكرم والجود والفروسية والشجاعة مع فضله وسماحته، توفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م، االبرزالي: المقتفي على كتاب الروضتين، ج١، ص٥٤١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ، ج٢٢، ص ١٢٢- ١٢٧؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٢٥١- ٢٥٩.

(٣) عن تطورات الحملة الصليبية الخامسة وفشلها في تحقيق أهدافها انظر محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٢٠- ٩٤١؛ علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٢٩- ٢٥٥.

الخوارزمي[١]، واتصل الكامل محمد بالإمبراطور الألماني فردريك الثاني[٢] خلال تواجده في جزيرة صقلية[٣]. الأمر الذي ضاعف من تدهور الأوضاع الداخلية للدولة الأيوبية حتى وصل الأمر إلى حد إقدام الكامل على تسليم بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثاني دون مبرر يذكر وذلك بموجب اتفاقية يافا التي عقدت بين الطرفين سنة (٦٢٦ه/١٢٢٩)[٤] ولم يقف الأمر عند هذا الحد فرغم نجاح أحد أمراء البيت الأيوبي[٥] وهو الناصر داود في استعادة بيت

---

(١) الدولة الخوارزمية: ٤٧٠– ٦٢٨هـ/١٠٧٧–١٢٣٠م. ويعتبر أنوشتكين أول أفراد هذه الأسرة وكان ساقي عند ملكشاه السلجوقي ثم عين ابنه قطب الدين محمد الذي عرف بحبه للعلم والأدب، عينه السلطان بركيا روق بن ملكشاه السلجوقي حاكما على بلاد خوارزم. ولقبه خوارزم شاه أي ملك خوارزم، وكان آخر سلاطين هذه الدولة جلال الدين منكبرتي الذي زالت دولته على يد المغول سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٤، ص٩٤ وما بعدها.

(٢) اعتبره المؤرخون من الشخصيات المهمة في العصور الوسطى، تعلم في صقلية وتأثر بالمؤثرات العربية والبيزنطية، وكان فيلسوفاً ملماً بالجدل والرياضيات، يجيد اللغة العربية ويحب الشعر العربي، إضافة إلى كونه سياسياً بارعاً ومحارباً، لقبه المؤرخون بـ " أعجوبة الدنيا " تولى الحكم من سنة (١٢١٢– ١٢٥٠م)/(٦٠٩–٦٤٨ هـ). سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج١، ص ٣٩٤–٣٩٥.

(٣) جزيرة صقلية:من جزر البحر المتوسط تقع مقابلة لبلاد المغرب، وهي مثلثة الشكل، بين كل ضلع من أضلع مثلثها مسيرة سبعة أيام، فتحت في أيام الدولة العباسية على يد القائد أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ/٨٢٧ م زمن المأمون، وأصبح بها عدد من المسلمين وبني بها المساجد، البغدادي: مراصد الإطلاع ، ج٢، ص ٨٤٧– ٨٤٨؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج٣، ص٤١٦– ٤١٩.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٧– ٢٤٨؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٢٣٠–٢٣١؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٦٥–٩٦٩؛ علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٢٦٤– ٢٦٧؛ ارنست باركر: الحروب الصليبية ص ١١٢– ١١٤؛ سعيد عاشور: الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، بحث ضمن بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص١٢٤– ١٢٥.

(٥) هو صلاح الدين أبو المفاخر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن العادل، ولد بمدينة دمشق سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م. تولي السلطة بعد موت ولده سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م، عرف عنه حبه للعلم فأجاز له عدد من العلماء، وصفه الذهبي بقوله " كان فقيهاً ذكياً، مناظراً، أديباً شاعراً بديع النظم،

المقدس من الصليبيين بعد ذلك بمدة وجيزة إلا أن الحرب الأهلية مـا لبثـت أن تجددت بين اثنين من أبناء البيت الأيوبي وهما الملـك الصـالح إسـماعيل[1] صاحب دمشق وابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيـوب[2] صـاحب الـديار المصرية، حيث اشتعلت بين الاثنين حرب ضروس أدت إلى استعانة الصـالح إسماعيل بالصليبيين الذين اشترطوا تسليم بيت المقـدس لهـم مقابـل إنجـاده فأجابهم إلى ذلك[3].

مشاركـــاً في علوم، جرت له عدة معارك وحروب مع عميْه الكامل والأشرف، حتـى انحصـر حكمه في الكرك وبعض المدن، توفي سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، ابن كثيـر: البدايـة والنهايـة، ج١٣، ص٢٥١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٧٦- ٣٨١؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣١٣- ٣٢٢.

(١) هو إسماعيل بن محمد بن أيوب، الملك الصالح عماد الدين أبو الجيش بن العادل كان سـيء السـيرة توفي سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج١، ص١٢٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢١٥؛ ابن العماد: شـذرات الـذهب ،ج٥، ص٢٤١؛ الحنبلـي: شفاء القلوب، ص٢٧٩- ٢٨٠.

(٢) هو أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شادي ، ولد سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م بالقاهرة، حكم مصر نائباً عن والده سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م الملك الكامل، بنى قلعة الروضة لمماليكه الصـالحية،وأطلـق عليهم مسمى المماليك البحرية، وصف بأنه عزيز النفس عفيف، طاهر اللسان وقور كثير الصـمت، وكان له سطوة في دولته توفي بالقاهرة سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، انظر الحنبلـي: شـفاء القلـوب، ص٣٢٩- ٣٤١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص١٨٧؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص١٧٨؛ المنهل الصافي، ج٣، ص٢٢٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٦٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٠٤- ٣٠٥؛ سعيد عاشور: مصر والشـام، ص١١١- ١١٢؛ قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٢٩- ١٣٠؛ علي الغامدي: بلاد الشام قبيـل الغزو المغولي، ص١٤٧-١٧٣ .

وعلى كلٍ فإن هذه الأوضاع السيئة التي اعترت الدولـة الأيوبيـة جـراء حروب الوراثة وكذلك الحروب الأهلية قد دفعت المخلصين مـن أبنـاء الأمـة الإسلامية آنذاك إلى تدارك الوضع، وقد اضطلع بذلك عنصر المماليـك الـذين كانوا في يوم من الأيام عبيداً لدى أسيادهم أبناء البيت الأيـوبي، إلا أن نظـام الجندية لدى الأيوبيين سمح لأولئك المماليـك بالالتحـاق بالخدمـة العسـكرية وبالتالي أثبت هؤلاء المماليك جدارتهم في هذه الخدمة ووصلوا إلـى مراتـب عليا في الدولة الأيوبية[1].

وقد أتيحت الفرصة لهؤلاء المماليك للانفراد بحكـم الأراضـي المصـرية عشية وفاة الصالح نجم الدين أيوب خلال تصديه لجمـوع الحملـة الصـليبية السابعة التي قادها على مصر الملك الفرنسي لويس التاسع سـنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)[2]. وذلك عندما نجحت زوجـة الصالح نجم الـدين "شـجر الدر" أم خليل[3] بما عرف عن المرأة المسلمة من دور فاعل فـي أوقـات الأزمـات.

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٢٧- ١٠٢٨؛ السيد الباز العريني: المماليـك، ص٥٩؛ قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٥٣- ١٥٤.

(٢) لويس التاسع (١٢٢٦- ١٢٧٠م) / (٦٢٤-٦٦٩ هـ): تولى حكم فرنسا وهو في الثانية عشرة وكان تحت وصاية والدته بلانش القشتالية، اشتهر بلقب القديس لويس لما اتصف به من تقوى وصـلاح، اقترن اسمه بالحملة الصليبية السابعة على الأراضي المصرية التي باءت بالفشـل، امتـازت دولتـه بالتنظيم الجيد والعدالة والمساواة في جمع الضرائب، اتخذ موقفاً معادياً ضد اليهـود وتطـرف فـي اضطهادهم، قاد حملة أخرى على تونس ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م وتوفي في السنة نفسها. سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص٢٧٢- ٢٧٧؛ لمزيد من المعلومات عن الحملة الصليبية السابعة انظر: جوانفيل: القديس لويس، ص ٨١- ٩٢؛ جوزيف نسيم يوسف :العدوان الصليبي على مصر، ص ٦٤- ٨٤؛ الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسـطى " الأيوبيـون" ص١٤٤- ١٤٥؛ محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة.

(٣) وهي أم خليل، اعتبرها المؤرخون أول سلاطين المماليك على الديار المصرية، وصفت بالذكاء والدهاء ورجاحة العقل وحسن التدبير، ساست البلاد ثمانين يوماً، ثم تزوجت بالمعز أيبك وتنازلت لـه عـن الحكم ، أذهبتها غيرتها فقد قتلت المعز أيبك لأنه أراد الزواج من أخـرى، فقتلهـا مماليكـه سـنة ٦٥٦ه،ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣،ص٢٣٤؛ ابن إياس: بدائع الزهـور، ج١، ق١، ص٢٨٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٦٨؛ علي إبراهيم حسن: نساء لهن فـي التـاريخ الإسـلامي نصيب، ص١٠٦-١١٠؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلـور، ص١٤٩-؛ عبـد الله إمـام: جيهان سيدة مصر الأولى والأخيرة، ص٧-١١ .

وأخذت تدير دفة الدولة ونجحت في ذلك حتى انقشعت الغمـة التـي داهمـت الأراضي المصرية آنذاك بهزيمة جموع الحملة الصليبية السـابعة. واسـتمرت في ذلك حتى تم استدعاء المعظم تورانشاه ابن الصالح أيـوب[١] مـن حصـن كيفا[٢] الذي كان حاكماً لها ، رغبة منها ومن أمراء المماليك في مصر فـي أن يخلف والده على حكم الأراضي المصرية. إلا أن تورانشاه لـم يكـن الرجـل المناسب في المكان المناسب الذي يخلف والده في حكم الأراضي المصرية[٣].

فبدلاً من أن يعمل على تهدئة الأمور ويضع يده في يد مماليك والده ويعمل على توطيد الأمور له في مصر، دخل مع كبار المماليك في منافسـات حـادة وخلافات ظاهرة جعلت بعض كبار الأمراء المماليك يقررون الـتخلص منـه، حيث قتل على أيديهم شر قتله،وذلك بأن تآمروا على اغتياله فجرحـوه أولاً ثـم أشعلوا النيران في البرج الذي تحصن به، فألقى بنفسه أخيراً فـي قنـاة النيـل فمات" جريحاً حريقاً غريقاً" على حد تعبير المقريزي[٤].

والذي يهمنا هنا هو أن الحكم في الأراضي المصرية آل إلى حكـام جـدد عُرفوا بالمماليك، وذلك بعد أن أدرك هؤلاء المماليك أن بقاء مصر بيد أمـراء البيت الأيوبي لم يعد مجدياً بسبب سوء تصرف تورانشاه ، واللافت للنظر هنـا أن الأمراء المماليك بمصر لم يقدموا على اختيار أحدهم ليكون سـلطاناً علـى الدولة المملوكية الفتية، رغم وجود عدد كبير منهم من ذوي الكفاءات الإداريـة،

---

(١) **المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين ابن الكامل ابن العادل ولد بمصر، وكان نائباً عن والده بحصن كيفا، وصف بسوء التدبير في مملكة والده، مع ذكاء وحب للعلم، تولى حكم مصر بعد وفـاة والده الملك الصالح نجم الدين أيوب في أول محرم سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وتوفي في ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٦- ٣٧.**

(٢) **حصن كيفا: أو قلعة الصخرة، تقع بأرض الجزيرة على الضفة اليمنى لنهر دجلة، يـاقوت الحمـوي. معجم البلدان، ج٤، ص٤٩٧.**

(٣) **المقريزي: الخطط، ج٣، ص٤١٢؛ سعيد عاشور: الحركة الصـليبية، ج٢، ص١٠٠٣ ومـا بعـدها؛ العبادي: قيام دولة المماليك في مصر والشام، ص١٠٥- ١٠٧.**

(٤) **المقريزي: السلوك،ج١، ق٢، ص٣٦٠؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٢٧- ١٠٢٨؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص١١٧- ١١٩.**

والخبرة بشؤون السياسة والإدارة والحـرب، بـل أسـندوا منصـب السـلطة المملوكية في مصر إلى "شجر الدر" أرملة الصالح نجم الدين أيـوب وأم ولـده خليل[1] الذي توفي في حياته، والتي تنحدر من أصول مملوكيـة ولهـذا عـدها المقريزي "أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك" حيث أُخذت لها البيعة بالسلطنة في ١٠ صفر من سنة ٦٤٨هـ/ مايو ١٢٥٠م ودعي لها على المنابر ونقش اسمها على السكة[2].

ويبدو أن إقدام الأمراء المماليك على تنصيب " شجر الدر" في سُدّة الحكـم كان بسبب حرصهم على عدم استثارة الرأي العام في مصـر والشـام آنـذاك وكون شجر الدر أرملة للصالح أيوب قد أنجبت منه ابناً، ربما قد يعمـل علـى تهدئة النفوس بعض الشيء، ويؤدي في الوقت ذاته إلى عدم الاستعجال في ردة الفعل لدى أفراد البيت الأيوبي، إذ تنصيبها سيكون في نظر البعض اسـتمراراً لحكم البيت الأيوبي، ولعل هذا السبب الذي جعل المؤرخ ابن إيـاس يعتبـر أن "شجرالدر" جزء من الدولة الأيوبية[3]. ولكن الحقيقة التي لا جدال حولها تؤكـد أن حكم الأيوبيين للأراضي المصرية انتهى كلياً بمقتل تورانشاه ابـن الصـالح نجم الدين أيوب، ولو كان هناك أدنى رغبة فـي الإبقـاء علـى حكـم البيـت الأيوبي للأراضي المصرية لما وجد المماليك صعوبات تذكر في أن يختـاروا من بين أفراد البيت الأيوبي سواء من كان منهم بمصر أو في بلاد الشـام مـن يقوم مقام توران شاه[4].

---

(١) هو خليل بن الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي ولد سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م ومات صغيراً. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٨٢.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٩٦؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٦؛ الخطـط، ج٣، ص٤١٣ ؛ سعيد عاشور مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص١٨٤- ١٨٥؛؛ العبـادي: قيام دولة المماليك ،ص١١٨؛ قاسـم عبده قاسـم: في تـاريخ الأيـوبيين والمماليـك، ص١٥٠- ١٥١.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٨٩؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص١٢٠.

(٤) العبادي: قيام دولة المماليك، ص١٢٠.

أما "شجرالدر" التي بدأت تمارس صلاحياتها الفعلية كحاكمة للأراضي المصرية وذلك بمباشرة مهام جلاء القوات الصليبية عن الأراضي المصرية بنفسها ، فإن ذلك يؤكد بداية فعلية لحكم المماليك لمصر، إذ لا جدال في أصل "شجرالدر" المملوكي بدليل أنها كانت جارية مملوكية للخليفة المستعصم بالله العباسي (٦٤٠- ٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م) قبل أن يشتريها منه الملك الصالح نجم الدين أيوب[١].

وعلى كل فإن الذي يسترعي الاهتمام هنا هو موقف العلماء من انتقال السلطة في الأراضي المصرية من البيت الأيوبي إلى مماليكهم. فبالرغم من أن أمراء البيت الأيوبي في بلاد الشام قد أصيبوا بصدمة عنيفة جراء ذلك التحول. وحاولوا الالتفاف حول الملك الناصر صلاح الدين يوسف[٢] صاحب حلب ودمشق[٣]. إلا أن الملاحظ أن استقلال المماليك بحكم مصر لم يقابل بالاعتراض من قبل العلماء، إلا فيما يخص مسألة مشروعية تولي امرأة لزمام الأمور في الأراضي المصرية، ويمكن إرجاع التزام العلماء لجانب الصمت في هذا الأمر إلى أمور عدة منها الوضع السيئ الذي آلت إليه الدولة الأيوبية في نهاية حكمها بسبب الخلافات والنزاعات على الحكم والسلطة فضلاً عن تخلي البيت الأيوبي عن الواجب المقدس الذي قامت الدولة من أجله وهو جهاد الصليبيين وطردهم من بلاد الشام، فنلاحظ أن أحد أفراد هذا البيت وهو الملك

---

(١) علي إبراهيم حسن: نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، ص١٠٦.

(٢) هو الناصر يوسف بن عبد العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، ولد سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م تولى مملكة حلب بعد وفاة والده سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م. اتصف بالحكمة والكرم، اضطرب الأمن خلال حكمه ،قتله هولاكو سنة ٦٥٩هـ. الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٣٦٤، ٣٧٢-٣٧٤؛ العبادي : قيام دولة المماليك، ص١١٧

(٣) المقريزي: السلوك ، ج١، ق٢، ص٣٦٦- ٣٦٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٨٦-٢٨٧؛ ابن شاهين الملطي: نزهة الأساطين، ص٦٨، هامش١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٣١.

الصالح إسماعيل صاحب دمشق وحلب يعقد صلحاً مع الصليبيين في بلاد الشام ويكوّن معهم حلفاً لمساعدته في قتال ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب صـــاحب مصر، الأمر الذي آثار حفيظة العلماء جراء هذا التصرف لدرجـــة أن أحـــدهم وهو الشيخ عز الدين بن عبد السلام[1] ترك الدعاء له في خطبة الجمعـــة، كمـــا أفتى بائعي السلاح في مدينة دمشق بتحريم بيع السلاح للصـــليبيين، كـــل تلـــك الأمور أثارت الصالح إسماعيل مما دفعه لعزل الشيخ واعتقاله ومن ثم خـــرج الشيخ من بلاد الشام معترضاً على أفعال الصالح إسماعيل وتوجه إلـــى مصـــر حيث استقبله الصالح نجم الدين أيوب أحسن استقبال وأحسن إليه[2].

هذا بالإضافة إلى أن العلماء كـــانوا يـــدركون أن الوضـــع العـــام للأمـــة الإسلامية في المشرق الإسلامي كان يمر بمنعطف خطـــر، فجحافـــل الجـــيش المغولي كانت تسير بخطى حثيثة لاكتساح دول المشرق الإســـلامي، والعـــدو الصليبي على ساحل بلاد الشام يتربص بالمسلمين الدوائر لتوسيع نفوذه، ولهـــذا كان هؤلاء العلماء يرون أن الأمة الإسلامية في أمس الحاجة إلى دماء جديـــدة تتحمل عبء مواجهة هذه الأخطار، ويبدو أنهم كانوا يرون أن هؤلاء المماليـــك سيقومون بهذا الدور خير قيام.

---

(١) هو شيخ الإسلام أبو محمد عبد العزيز بن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن الإمام العلامة، وحيد عصره وهو سلطان العلماء وقد بلغ رتبة الاجتهاد، لقبه تلميذه ابن دقيق العيـــد بـــ (سلطان العلماء) و (بائع الملوك). عاصر الدولتين الأيوبية والمملوكية وكانت له الهيبة والمكانة في دولة المماليك، (٥٧٨- ٦٦٠هـ/١١٨٢- ١٢٦١م). ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٧٤- ٢٧٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣١٧؛ ابن تغـــري بـــردي: الـــدليل الشـــافي، ج١، ص٤١٦؛ المنهل الصافي، ج٧، ص٢٨٦؛ ابن قنفذ القسنطيني: كتـــاب الوفيـــات، ص٣٢٧-٣٢٨، هامش٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، م٣، ج٥، ص٣٠١- ٣٠٢؛ سليم بن عيد الهلالـــي: صـــفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام، ص١١- ١٣.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٠٤- ٣٠٥؛ سعيد عاشور: مصر والشام، ص١١١- ١١٢؛ علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٩٠-٢٩٩؛ أحمد بدوي: الحياة الأدبية فـــي عصـــر الحروب الصليبية، ص٣٩٩.

أما فيما يتعلق بما أشارت إليه بعض المصادر من أن بعض العلمــاء قــد وقف موقفاً معارضاً من تولي امرأة زمام الأمور في مصر بحكم أنه أمــر لــم يألفه الناس، وأن الشيخ عز الدين بن عبد السلام قد اضطر إلــى مبايعتهــا[١]. فإنه يمكن إرجاع ذلك إلى الظروف الصعبة التي كانت تمر بها البلاد في تلــك الفترة ممثلة في حملة لويس التاسع على مصر. فلم يشأ الشيخ عز الدين إثــارة البلبلة وشق الصفوف بين المسلمين وهم في أمــس الحاجــة لوحــدة الصــف، إضافة إلى أنه اعتبرها أخف الضرر[٢] ولعل مما يؤيد ذلك ما ذكرتــه بعــض المصادر من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ألف " مقامــة " عــن ابــتلاء

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٨٦ – ٢٨٧؛ ابن شاهين الملطي: نزهة الأســاطين، ص٦٨ هامش ١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٣١.

(٢) ذكر الماوردي في الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص٣١، الشروط الواجب توفرها في من يلــي أمر المسلمين فقال: " وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة: "

- **أحدهما: العدالة على الشروط الجماعة.**
- **الثاني: العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.**
- **الثالث: سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصبح معها من السهل مباشرة ما يدرك بها.**
- **الرابع: سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.**
- **الخامس: الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.**
- **السادس: الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.**

وزاد القلقشندي: الذكورة والشجاعة، والنجدة، وصحة الرأي، والتدين. الأحكم الســلطانية. ص٣١، هامش١؛ وانظر أيضاً فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص٤٤. والملاحظ هنا أن هذه المسألة وهي تولي امرأة للحكم موضع خلاف بين العلماء، ومع اعتقادي أن الرجل هو الأقــدر على هذه المهمة الصعبة، إلا أن لكل قاعدة شواذاً. فالصفات التي تحلت بها شجرة الدر مــن حســن تدبير وبصيرة أهلتها لأن تكون سلطانة للبلاد المصرية لمدة ثمانين يوماً كانت من أحرج الفترات في التاريخ المصري، ولكن القاعدة الشرعية التي تنص على عدم تولي امرأة لهذه الوظيفة، كلها عوامل ساعدت شجرة الدر في التخلي عن هذه المهمة التي أوكلت إليها . وأنا أعتقد من منظوري الخــاص أنها رحمة من الله بالمرأة أنه لم يوجب عليها تولي الحكم أو السلطنة لأنها مــن الأمــور العظيمــة والشاقة التي تتطلب المجهود الذهني والعقلي الذي قد لا تقوى عليه المرأة.

المسلمين في مصر بولاية امرأة عليهم(١). ولم يكن صوت الشيخ عز الدين بن عبد السلام هو الصوت الوحيد المعارض، بل إن الخلافة العباسية في بغداد كانت معارضة لهذه الفكرة، فقد أرسل الخليفة العباسي المستعصم بالله"(٢) للأمراء هناك والعلماء وهم أهل الحل والعقد في هذا الوقت الحرج يقول لهم: "أعلمونا إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها، أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "لا يفلح قوم ولّو أمرهم امرأة"(٣).

وكذلك كان الحال في بلاد الشام فما أن وصل إليهم رسول "شجرالدر" وهو الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الأسعردي لاستحلافهم "لشجر الدر" حتى عارض الأمراء هناك سلطنتها، واستدعوا صاحب حلب الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب، وسلموا إليه مقاليد الأمور في دمشق(٤).

وأمام هذه التحركات المعارضة أقدمت " شجرالدر" على الزواج بالمعز أيبك(٥)، ثم ما لبثت أن تنازلت له عن الحكم وذلك في ١٩ ربيع الثاني عام

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق١، ص٢٨٦– ٢٨٧؛ ابن شاهين الملطي: نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ، ص٦٨، هامش ١؛ السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، ص٣١؛ قاسم عبده قاسم : في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٥١.

(٢) هو أبو أحمد بن المستنصر بالله، وهو آخر الخلفاء العباسيين في العراق، تولى الخلافة سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م حتى ٦٥٦هـ/١٢٥٨ م وهو قتيل التتار؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٢٨.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٨٧؛ قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٥١.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٦– ٣٦٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٨٦– ٢٨٧؛ ابن شاهين الملطي: نزهة الأساطين ، ص٦٨، هامش١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٣١.

(٥) هو الملك المعز عز الدنيا والدين أيبك التركماني الصالحي الجاشنكير، وهو من مماليك الصالح نجم الدين أيوب وصف بالعقل والدين والكرم ، تولى ملك مصر في ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وتوفي ٦٥٥هـ/١٢٥٧م بتدبير من زوجته شجرة الدر. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢٦٣– ٢٦٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٦٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٩٨ .

٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، بعد أن حكمت البلاد المصرية زهاء ثمانين يوماً[١]، جسدت خلالها ما تمتعت به المرأة المسلمة من قدرة على مواجهة المواقف الصعبة، وإدارة دفة الحكم. ويؤكد ذلك ما ذكره ابن تغري بردي من أن "شجر الدر" برهنت خلال حكمها للأراضي المصرية عن " حسن سيرتها وغزير علمها وجودة تدبيرها "[٢].

وصفوة القول فإن الذي يمكن تأكيده في نهاية هذا المبحث هو أنه باستقراء المصادر التي تيسر الاطلاع عليها، لم أجد من العلماء من اعترض على انتقال السلطة في مصر من يد الأيوبيين إلى عبيدهم المماليك. رغم ما قد يفسره البعض من أن ذلك يعد خروجاً من قبل المماليك على طاعة ولاة أمرهم الأيوبيين ،ولكن يبدو أن التزام العلماء وخاصة فقهاء الشريعة الإسلامية منهم الصمت حيال هذا التغير، يدل على مدى إقرارهم بأن مصلحة الأمة آنذاك تحتم انتقال السلطة في الأراضي المصرية ثم بلاد الشام لاحقاً إلى حكومة فتية تعمل على بعث روح الجهاد في نفوس الناس من جديد، للوقوف في وجه أعداء الأمة الذين أخذوا يتربصون بها الدوائر من كل مكان وخاصة المغول والصليبيين . فضلاً عمن تعاون معهم من الخونة وأصحاب الأثرة وحب الذات، من داخل الأمة الإسلامية ذاتها. وذلك تحقيقا لقول الحق تبارك وتعالى: {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}[٣].

---

(١) أحمد عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكة، ص٥٣.

(٢)المقريزي: السلوك، ج١،ق٢، ص٣٦٦-٣٦٧ ؛ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦،ص٣٧٣؛ سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص١٦١؛ الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٢٨- ١٠٢٩.

(٣) سورة محمد آية (٣٨).

المبحث الثاني

جهود العلماء في ضم بلاد الشام لسلطنة المماليك سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩

قسم المماليك بلاد الشام عشية سيطرتهم عليها نتيجة لانتصارهم على المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م، إلى عدد من النيابات التي أعطي حكامها نوعاً من الاستقلال التام بحكمها. وذلك لأن المماليك أدركوا أن هذا الأجراء هو أنسب الحلول لمواجهة الأخطار المتوقع حدوثها لاحقاً ضد حكمهم في بلاد الشام،وخاصة من قبل المغول الذين أجبروا على عبور الفرات، إلا أن نفوسهم كانت تتوق للعودة مرة أخرى إلى بلاد الشام متى لاحت لهم بذلك فرصة، إضافة إلى الوجود الصليبي الذي كانت بقاياه لا تزال جاثمة في بعض مدن الساحل الشامي، ناهيك عن مملكة أرمينية الصغرى[1] التي كانت وجودها في الطرف الجنوبي لآسيا الصغرى أشبه بمخلب قط يستخدمه الغرب الأوروبي ضد دولة المماليك بين آونة وأخرى.

وعليه فإنني سوف أعطي لمحة موجزة عن أهم هذه النيابات الشامية التي قامت بهذا الدور المنوط بها خير قيام، ومنها:

---

(١) أرمينية الصغرى: ذكرها ياقوت الحموي بأنها تتكون من تفليس ونواحيها، وهي عبارة عن مائة وثماني عشرة مملكة، تقع في جنوب غرب آسيا الصغرى، وقد تكونت هذه المملكة نتيجة للهجرات الأرمينية إلى المناطق الواقعة غربي الفرات وشماليه وذلك بعد أن تمكن السلاجقة من فتح هضبة أرمينية، وقد ظهر أمر هذه المملكة أبان الحروب الصليبية، عندما تحالفت هذه المملكة مع المغول ضد المماليك الذين أنزلوا بها ضربات موجعة بعد ذلك وتمكنوا من القضاء عليها سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م؛ لمزيد من التفصيل انظر: سعيد عاشور، المماليك ومملكة أرمينة الصغرى، ضمن كتاب بحوث دراسات في تاريخ العصور الوسطى ص٢٢٥-٢٧٨؛ علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزوالمغولي، ص٣٤٨؛ ارنست باركر: الحروب الصليبية، ص٩١، هامش١؛ عبد الله الغامدي: سياسة سلاطين دولة المماليك البحرية إزاء ميناء أياس الأرمني، بحث منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد التاسع والثلاثون، رجب١٤٢٣هـ، ص٧٨٩، هامش٢.

أولاً: نيابة دمشق :

تعد هذه النيابة من كبرى النيابات الشامية . وأعظمها قدراً ومكانة حتى أطلق عليها البعض " النيابة العظمى" و "نيابة الشام" [1] ويعد نائبها "من أعظم رجال المملكة سلطة"[2] وقد شملت مساحة شاسعة شملت عدداً من المدن والقرى الشامية، فحدودها تمتد من العريش[3] جنوباً إلى سلمية[4] شمالاً، ومن الرحبة[5] شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ونستثني من ذلك بعض المدن والقرى التي كانت تدخل ضمن نيابات ظهرت لاحقاً كصفد والكرك وطرابلس[6].

وقد أسست هذه النيابة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م[7] وأعطى نائبها صلاحيات كبيرة فاقت صلاحيات النيابات الأخرى لدرجة أنه أصبح يلقب بـ "كافل

---

(١) زين الدين بن زين التقاة: المواكب الإسلامية في الممالك الشامية، ص٨٦.

(٢) انظر: جان سوفاجيه: دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى عهد الانتداب، ص٩٣،ويضف محقق الكتاب في حاشية رقم ١، من نفس الصفحة أن نائب دمشق كان يسمى ،نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروسة ،ونيابته أرفع النيابات الممالوكية ببلاد الشام ،ويمارس عليها نوعاً من الوصايه.

(٣) العريش: هي أول المدن التي تقع في الطريق من الشام إلى مصر، وهي تقع على ساحل البحر المتوسط، وهي تقع في وسط منطقة رملية، على بعد مسيرة يوم من مدينة رفح. أبي الفداء: تقويم البلدان، ص١٠٩؛ البغدادي: مراصد الاطلاع، ج٢، ص٩٣٥.

(٤) سليمة: بلدة تقع شرقي مدينة حماة السورية. أبي الفداء: تقويم البلدان ص٣٦٤- ٣٦٥؛ محمد الناصر: الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري عهد نور الدين وصلاح الدين، ص٢٢.

(٥) أكرم العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص٣٠٣؛ والرحبة: تقع في ديار بكر وهي تقع على الفرات بين الرقة وعانة، وقد خربت المدينة القديمة، وقام شريكوه بن أحمد ببناء مدينة جديدة تبعد عن الرحبة القديمة بمقدار ميل وهي بلدة صغيرة لها قلعة ، كما أنها منطقة التقاء القوافل بين العراق والشام، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٨٠- ٢٨١ .

(٦) زين الدين بن زين التقاة: المواكب الإسلامية، ص٨٦؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٢١٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩١.

(٧)؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، م٧، ص٢٦٠ ؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٢٣-٤٣٣؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٢١-٢٩؛ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٠٧؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٢٠٩؛ الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٨٠- ١٠٨٥.

السلطنة الشريفة"[1] فهو المسئول الأول أمام السلطان المملوكي في القاهرة عن كافة الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية في بلاد الشام كلها، ولتفعيل هذا الأمر أنشأ سلاطين المماليك بدمشق جهازاً إدارياً وعسكرياً يخضع مباشرة لإشراف نائبها الذي يعينه السلطان بمرسوم منه، ولا يقل هذا الجهاز عن مثيله في القاهرة[2]. ورغم ذلك فإن اللافت للنظر أن الصلاحيات التي منحت لنائب دمشق والامتيازات التي كان يتمتع بها لم تشمل قلعة المدينة التي كانت تعد واحدة من أشهر قلاع المدن الشامية. إذ لم يكن يُسمح لنائب دمشق بالتدخل في شؤون قلعتها بل كانت القلعة تخضع لحاكم خاص بها يعينه السلطان المملوكي بنفسه ولا يسلم مفاتيحها لأحد إلا للسلطان نفسه أو لمن يأمره السلطان بتسليمها له[3].

السلطان المملوكي في القاهرة إذْ إنه أراد أن يكون كل من نائب النيابة أو حاكم القلعة عيناً على الآخر.

والذي يهمنا هنا أن نيابة دمشق التي حظيت طوال عهدها بدعم مادي ومعنوي من قبل سلاطين المماليك في القاهرة، قد قامت بدور فاعل في مواجهة الأخطار التي تعرضت لها بلاد الشام طوال العهد المملوكي حيث كانت بمثابة صخرة عظيمة تحطمت عليها معظم المحاولات المغولية المتكررة عبر نهر الفرات للعودة إلى بلاد الشام وإعادة النفوذ المغولي لها[4].

---

(١) زين الدين بن زين التقاة: المواكب الإسلامية في المماليك الشامية، ص٨٦.

(٢) أكرم العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص٣٠٣.

(٣) زين الدين بن زين التقاة: المواكب الإسلامية، ص٨٦؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٢١٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩١.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ص١٠٩ وما بعدها؛ سعيد عاشور: العصر المملوكي في مصر والشام، ص٤٢ – ٤٦.

وكذلك بالنسبة لبقايا الوجود الصليبي على ساحل بلاد الشام فقد قامت نيابة دمشق بدور فاعل في كبح جماح حكام مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا وحالت بينهم وبين أطماعهم التوسعية التي كانت تراودهم بين الفينة والأخرى، كما أسهمت هذه النيابة بجهد ريادي في عمليات تصفية الوجود الصليبي من ساحل بلاد الشام، وذلك عندما قام السلطان بيبرس[١] باسترداد أنطاكية[٢] منهم سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م[٣]. وكذلك عندما نجح الخليفة المنصور سيف الدين قلاوون[٤] في اقتحام أسوار طرابلس وإنهاء الحكم الصليبي بها سنة

---

(١) بيبرس: هو السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس بن عبد الله الصالحي النجمي البندقداري. اشتراه أيدكين البندقداري الصالحي ، ثم أخذه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فنسب لهما، وهو رابع ملوك الترك بمصر، عرفت عنه الشجاعة، وحسن تدبير الأمور ، كانت له حروب مع المغول والصليبيين. توفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م. العيني: عقد الجمان، ج٢، ص١٧٤- ١٧٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٧-٤٦٧؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج١، ص٢٠٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٤٩-٣٥٠؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٧-٢١٧؛ عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين، ص٩٨-٩٩؛ المقريزي: السلوك، ج١،ق٢، ص٤٣٦-٦٣٦-٦٣٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٠٨-٣٠٩؛ جمال يوسف الخلفات وبهاء الدين محمد أسعد: العسكرية الإسلامية وقادتها العظام، ص٢١٠- ٢١٣.

(٢) أنطاكية: هي من الثغور الشامية، بينها وبين حلب مسيرة يوم وليلة، تمتاز بالهواء الجيد وعذوبة الماء. ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج١،ص٢٢٦-٢٠٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، م٧، ص٢٩٣-٢٩٤.عن سلسلة الحروب التي خاضها السلطان الظاهر بيبرس ضد الصليبيين واسترداده لأنطاكية انظر المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٧-٥٦٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٢٦-١٢٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٣٠؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٢،ص٢١-٢٩؛سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ٥٨؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٠٢ وما بعدها؛ عبد الله الغامدي: جهاد المماليك ، ص١٦٢-١٩٩.

(٤) المنصور سيف الدين قلاوون: التركي الصالحي النجمي، لقب بالألفي، لأنه اشترى بألف دينار، كان من عظماء سلاطين المماليك، عرف بجهاده ضد الصليبيين والمغول، تولى سلطنة مصر سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م ، توفي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٤٧؛ الصفدي : الوافي الوفيات، ج٢٤، ص١٩٩-٢٠٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٤٠٩-٤١٠؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠٠؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٥، ص٥٤٨.

٦٨٨هـ/١٢٨٩م[١]كما كان رجالها في طليعة القوى الإسلامية التي قادها السلطان الأشرف خليل بن قلاوون[٢] الذي نجح في اقتحام عكا آخر معقل للصليبيين في بلاد الشام ويطهر بقية المدن الشامية التابعة لها وذلك في عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[٣].

كما أن هذه النيابة أيضاً قامت بجهود جبارة في معاقبة حكام مملكة أرمينية الصغرى لتعاونهم مع الغول أبان غزوهم لمدن بلاد الشام[٤] واستمر رجالها يقومون بدور فاعل في تلك الجهود التي بذلها سلاطين دولة المماليك ضد هذه المملكة والتي توجت بنجاح السلطان الأشرف شعبان[٥] بالسيطرة على

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٣، م٧، ص٣٦٦؛ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة، ص٢٨٤-٢٨٥، ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٤٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه في سيرة المنصور وبنيه، ج١، ص١٢٢ وما بعدها؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢١؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٧٠-٧٢.

(٢) الملك الأشرف خليل بن قلاوون: تولى السلطنة بعد والده الملك المنصور قلاوون لكنه قتل بعد ثلاث سنوات من حكمه غدراً سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م، كان له الفضل في تصفية الوجود الصليبي من سواحل بلاد الشام. ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٦٥. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص١٦٧؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١،ص٢٩٢-٢٩٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٤٢٢- ٤٢٣؛ الصفدي: الوافي، ج١٣، ص٢٤٩-٢٥٦؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠١.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٧٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص١٣٧؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢ وما بعدها؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٧٤-٧٦؛ عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٧٢-٢٨٥.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٠٧؛ عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، ص٩٩-١٠٠؛ عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص١٩٩-٢٠٧؛ فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، ص٨٣- ٨٦.

(٥) هو الملك الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون: تولى السلطنة سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م وعمره عشر سنوات، المقريزي: السلوك، ج٣، ق١،ص٨٣.

عاصمتها سيس[1] وإنهاء تلك المملكة الصليبية من الوجود[2]. واستمرت هـذه النيابة ركيزة أساسية يعتمد عليها سلاطين المماليك في دعم نفوذهم ببلاد الشـام إلى أن أصابها الوهن مع بعض النيابات الأخرى وانتهـاء أمرهـا بالخضـوع لجحافل الجيوش العثمانية عندما قرر السلطان سليم الأول[3] ضم بـلاد الشـام لممتلكات الدولة العثمانية وذلك سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م[4].

---

(١) سيس: مدينة كبيرة تقع في بلاد الأرمن، ولها قلعة وأسوار وهي ذات بساتين وبها يجري نهر صـغير وهي عاصمة ملك أرمينيا وقاعدة ملكه. أبي الفداء: تقويم البلدان ، ص٣٥٦- ٣٥٧.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢٣٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧،ص١٢٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٣٩؛ سعيد عاشور: الحركـة الصـليبية، ج٢، ص١١٥٥- ١١٦٢؛ أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص٧٦-٧٧؛ السير ويليام موير: تاريخ دولة المماليك في مصـر، ص١١٧-١١٨؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٥٣؛ سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى، من كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ٢٤١- ٢٧٨.

(٣) هو سليم بن أبي يزيد بن محمد، ولد في بلدة ماسية سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ، وقد سلم إليـه والـده السلطان بايزيد مقاليد الأمور في الدولة العثمانية بعد أن خلع نفسه من الحكـم وولـى ابنـه سـنة ٩١٨هـ/١٥١٢م وصفه ابن العماد بقوله: " كان السلطان سليم ملكاً قاهراً وسلطاناً جبـاراً قـوي البطش كثير السفك.. كان شديد اليقظة والتحفظ يحب مطالعة التواريخ وأخبار الملـوك ولـه نظـم بالفارسية والرومية والعربية" ملك بلاد الشام ومصر وبلاد الحجاز وأنهى الحكم المملوكي بها سـنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م. توفي في رمضان سنة ٩٢٦هـ/١٥١٩م بأدرنة .ابن العماد: شـذرات الـذهب ،ج٨، ص١٤٣-١٤٦؛ محمد فريد بـك المحـامي: تـاريخ الدولـة العليـة العثمانيـة، ص١٩٧؛ يلمازأوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١ ص٢٣٦-٢٣٩ .

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر ابن زنبل الرمال: آخرة المماليك، ص٧٧ وما بعدها؛ محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٩٦-٩٧؛ أميرة بنت علي وصفي مداح: نظرة متأنية في تـاريخ الدولة العثمانية، ص٤٦.

ثانياً: نيابة حلب :

تعد هذه النيابة ثاني أهم النيابات الشامية خلال العصر المملوكي، وتأتي أهميتها من موقعها الذي يميزها عن بقية النيابات الشامية لوقوعها على الأطراف الشمالية لدولة المماليك، حيث كانت مدن وقرى هذه النيابة همزة وصل ربطت بين شمال الشام وجنوب آسيا الصغرى وإقليم الجزيرة الفراتية[1]، الأمر الذي منحها دوراً مشرفاً على الحدود الشمالية والشرقية لدولة المماليك. وغدت بمرور الوقت تشكل حزاماً أمنياً يحمي دولة المماليك من ألد خصومها في ذلك الوقت وهم المغول الذين كانوا يهددون حدودها تارة عن طريق نهر الفرات وتارة أخرى عبر الأناضول[2].

وقد اشتملت هذه النيابة على عدد من المدن والقرى الشامية، وامتدت حدودها من المعرة[3] جنوباً، ومن الشرق نهر بردي[4] أخذاً إلى جبل الثلج[5] ثم الجلاب على أطراف بالس[6] ومنها إلى الفرات، ومن الشمال ما كان يعرف يعرف بأراضي سلاجقة الروم[7] وتمتد إلى ما وراء بهسنا وبلاد أرمينية الصغرى على ساحل البحر المتوسط[8].

---

(١) الجزيرة الفراتية: سميت بذلك لأن هذه المنطقة عبارةعن سهول يحيط بها نهر الفرات ودجلة من جميع الجهات، ومن أشهر مدنها الموصل وآمد والرقة. كي لستر نج: بلدان الخلافة الشرقية، ص١٧٠.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٥٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ،ج١، مقدمة المؤلف ص٧؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي ، ص ٢٠٨- ٢١٤.

(٣) المعرة: بلدة صغيرة قريبة من حلب بينهما خمس فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان. ج٥،ص١٥٥.

(٤) نهربردي: نهر عظيم من أنهار الشام.ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٨٧

(٥) جبل الثلج: بالقرب من صفد ويمتد إلى الشمال حيث يخرج عن دمشق. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٨٨.

(٦) الجلاب وبالس: من أعمال الجزيرة الفراتية غرب الرقة. كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص١٣٩

(٧) وسلاجقة الروم: كان ظهور هذه الدولة في بلاد الأناضول على يد مؤسسها سليمان الأول بن قطمش ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، وتمكنت من ضم آسيا الصغرى لها في أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي. وقد تمكن المغول من إسقاط هذه الدولة سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م. أنظر ابن البيبي: تاريخ سلاجقة الروم ، ص٤٦ وما بعدها؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٤، ص٨٩- ٢٤٣؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٦، ص٢٢٩

(٨) العمري: التعريف، ص٢٣٢؛ ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج١، مقدمة المؤلف، ص٧.

وقد حرص سلاطين المماليك منذ تأسيسها نهاية عام ٦٥٨هـــ/ ١٢٥٩م[١] على توسيع رقعتها ، حتى أضحت تشمل ثلاثة وعشرين عملاً مـــا بـــين مـــدن وقرى وحصون وقلاع[٢] وقد فرضت أهمية المكان بالنسبة لحلب على سلاطين سلاطين المماليك إقامة جهاز إداري وعسكري منظم بها يعد الثاني بعد الجهـــاز الإداري والعسكري لدمشق، ونظراً لوقوع نيابة حلب على الأطراف فقد اهـــتم سلاطين المماليك بها منذ بداية إعلانها ولاية مملوكية حيـــث أولـــوا أســـوارها وقلعتها وأبراجها[٣] جلّ اهتمامهم وحرصوا على أن يكون نوابها من بين أفضل أفضل الأمراء المماليك، وكذلك الحال بالنسبة لحاكم القلعة الذي لم يكـــن هـــو الآخر يخضع للنائب شأنه في ذلك شأن حاكم قلعـــة دمشـــق –كمـــا ســـبق أن أشرنا[٤].

ونظراً لكون سلاطين المماليك قد أوكلوا إلى نواب حلب مهام التصدي لكل الأخطار التي كانت تحدق بحدود دولتهم الشرقية والشمالية الشرقية حيث كانت هذه النيابة بمثابة خط الدفاع الأول من هاتين الناحيتين فقد كانـــت حلـــب عنـــد حسن ظنهم، وقامت بهذا الدور خير قيام، فعلى صـــخور دفاعـــاتهم تحطمـــت معظم المحاولات المغولية التي حاول فيها المغول عبور الفرات وتهديـــد مـــدن وقرى بلاد الشام من هذه الناحية، وكذلك الحال عندما حاول زعيم المغـــــــول أبغا خان[٥] اقتحام بلاد الشام عبر حدودها الشمالية عن طريـــق الأناضـــــول

---

(١)؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، م٧، ص٢٦٠ ؛سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٢٠٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٣٢–٢٣٩؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٥٠– ص٥٠–٥١؛ أكرم العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص٢٩–٣١؛ عادل حمزة: نيابة حلب، ج١، ص٩٦–٩٧.

(٣) عادل حمزة: نيابة حلب، ج١، ص٩٥؛ فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنـــان وفلســـطين، ج٢، ص٧٤؛ حسن الباشا: مدخل إلى الآثار الإسلامية، ص١٤٣.

(٤) ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص٢٥٩؛محمد أحمد دهمان:معجم الألفاظ التاريخية التاريخية ،ص١٠٦.

(٥) أبغا بن هولاكو بن جنكيز خان،تولى الحكم بعد وفاة أبيه، اتصف بالشجاعة والخبرة في الحروب كانت كانت له موقعة عظيمة مع الظاهر بيبرس في الأبليستين ســـنة ٦٧٥هـــ/١٢٧٦م، انتصـــر فيهـــا

حيث أسهمت قوى نيابة حلب إسهاماً فاعلاً في تلك الهزيمة النكراء التي أنزلها الجيش المملوكي بقيادة السلطان بيبرس في هزيمة المغول في معركة أبلستين الشهيرة سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٧م(١). والذي لا شك فيه أن نيابة حلب أسهمت بدور فاعل في تصفية الوجود الصليبي من ساحل بلاد الشام، والذي انتهى بسقوط عكا آخر المعاقل الصليبية ببلاد الشام سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م(٢). شاركت حلب شأنها في ذلك شأن بقية النيابات الشامية في تلك العمليات الجهادية البحرية التي شنها سلاطين المماليك ضد القوى الصليبية التي لجأت إلى بعض جزر البحر المتوسط لطردها من ساحل الشام،وكذلك بالنسبة لحركة الجهاد التي شنها المماليك ضد مملكة أرمينية الصغرى والتي انتهت باستئصال شأفتهم من على مسرح الوجود سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م(٣).

الظاهر. مات أبغا بهمذان سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م وعمره خمسين سنة. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص١٩٨-٢٠٠؛ الدليل الشافي، ج١، ص٣٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٦٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، م٧، ص٣٤٢.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٥٠-١٥٢؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١١١؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٤٦؛ الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٠٧؛ ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ص٨٤؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٢٨-٦٢٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣١٥؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص١٤٦-١٥٦؛ عادل حمزة: نيابة حلب، ج١، ص ١٠٠-١١١.

(٢) المقريزي: السلوك ،ج١، ق٣،ص٧٦٣- ٧٦٥؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٢٩٤-٢٩٩. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، م٧، ص٣٦٩-٣٧٠؛ العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٥٣-٦٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١،ص١٤٠-١٤٩-١٥٣؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٧٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور: ج١، ق١، ص٣٦٨؛قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢-١٢٣ وما بعدها؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٧٤-٧٦؛ عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٧٢-٢٨٥؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١١١٩-١١٢٦؛ ؛ عادل حمزة: نيابة حلب، ج١، ص١٣٦-١٤٤؛ ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق الآتينى، ص٢٦٩

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢٣٧-٢٣٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢،ص١٣٩؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٥٥-١١٦٢؛ أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص٧٦-٧٧؛ السير وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ١١٧-١١٨؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٥٣؛ سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى، من كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص٢٤١-٢٧٨؛ عادل حمزة : نيابة حلب، ج١،ص١٤٤-١٦٦.

وكذلك الحال بالنسبة للإمارات التركمانية التي ظهرت في منـــاطق آســـيا الصغرى، والتي لعبت دوراً مزدوجاً في تعاملها مع سلاطين دولة المماليك في الشام[(١)].

وختاماً فقد ظلت هذه النيابة تشكل دعماً أساسياً للوجود المملوكي في شمال الشام وبعض المناطق في آسيا الصغرى، ولم يضعف ذلك الوجود إلا بعـــد أن دب الوهن والضعف إلى جسم هذه النيابة وانتهى الأمر بسقوطها في يد القـــوى العثمانية بعد أن تأمر أحد نوابها[(٢)] مع العثمانيين والذي سهل الأمر للعثمـــانيين لدخولها وضمها إلى ممتلكاتهم ابتداء من سنة ٩٢٢هـ‍ـ/١٥١٦م[(٣)].

ثالثاً: نيابة حماة [(٤)]:

خضعت حماة كغيرها من مدن الشام للاحتلال المغولي بعض الوقت إلـــى أن نجح سلاطين المماليك في إخراج المغول منها عشية انتصارهم فـــي عـــين جالوت سنة ٦٥٨هـ‍ـ/١٢٥٩م، ولكن نظراً لكون حكامها من البيـــت الأيـــوبي

---

(١) الإمارات التركمانية: كانت هذه الإمارات عبارة عن قبائل عاشت في أطراف آســـيا الصـــغرى وبـــلاد النهرين، ومن أبرز هذه القبائل أو الدول دولة (بني دلغدار، ودولة بني رمضان، ودولة بني قرمان، ودولة الشاة البيضاء، ودولة الشاة السوداء). انظر: سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٢٦١ وما بعدها؛ وعن العلاقة بين المماليك والقبائل التركمانية انظر: أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص٨٧-٩٢؛ عادل حمزة: نيابة حلب، ج١، ص٢٠٢؛ محمد خير عيـــد: الإمـــارة الرمضـــانية التركمانيـــة، ص٥٠-٥٤.

(٢) هو الأمير خاير بك، تولى إمارة حماة في عهد السلطان الغوري ،وبعد سقوط دولـــة المماليـــك عينـــه السلطان سليم الأول نائباً على مصر ،وقد ظل في هذه النيابة حتى توفي ســـنة ٩٢٧هـــــ/١٥٢٠م. انظر: ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج٣، ص٤٥؛ ابن زنبل: آخرة المماليك، ص٢٨٣؛ عبـــدالمنعم ماجد: طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر، ص٢١٦-٢١٧.

(٣) لمزيد من المعلومات انظر: ابن زنبل الرمال: آخرة المماليك ، ص٧٦-٧٧-١٠١ وما بعـــدها؛ ابـــن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٦٩؛ محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولـــة العليـــة ، ص٩٦-٩٧؛ أميرة مداح : نظرة متأنية ، ص٤٦؛ عادل حمزة: نيابة حلب، ج١، ص٢٥٥-٢٧٢.

(٤) حماة: من المدن الكبيرة في بلاد الشام، تشرف على نهر العاصي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٠٠.

خالفوا السياسة التي اتبعها بعض أمـــــراء هذا البيت من تعاون مع المغول، إذ وقف حكامها منذ البداية في وجه الغزو المغولي، وكانوا خير نصـــير للجـــيش المملوكي في عين جالوت فقد كافأهم سلاطين المماليك بأن أبقوهم على حكمهـــا مدة ليست بالقصيرة(١)، وعلى الرغم من توتر العلاقات بين الملك المنصـــور(٢) صاحب حماة وبين السلطان الظاهر بيبرس، بسبب ســـوء تصـــرفات الملـــك المنصور وانشغاله باللهو عن تدبير مصالح المســـلمين، إلا أن الســـفارة التـــي أرسلها الملك المنصور برئاسة شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصـــاري(٣) ســـنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م ، إلى الملك الظاهر بيبرس، كان لها عظيم الأثر في تحســـين العلاقات بين الطرفين(٤) وبالتالي تثبيت أقدام البيت الأيوبي في حكم نيابة حمـــاة حيث ظلت تحت حكمهم مدة من الزمن، ولم يفكر سلاطين المماليك في تحويلها إلى نيابة تتبع القاهرة مباشرة إلا سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م. وذلـــك تحديـــداً بعـــد وفاة حاكمها الملك المظفر محمـــود الأيـــوبي(٥). إذ أدت وفاتـــه إلـــى تجديـــد

---

(١) أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٢١١، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٢٠-١٢١ ابن الوردي: تتمة المختصر: ج٢، ص٣٠٢؛ ابن كثير: البداية والنهايـــة، ج١٣، م٧، ص٢٦٠؛ العينـــي: عقـــد الجمان، ج١، ص ٢٩٢.

(٢) هو محمد بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي بن مروان، ولد سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م، تولى ملك حماة بعد وفاة والده الملك المظفر تقي الدين سنة ٦٤٢هـــ/١٢٤٤م، اتصـــف بـــالجود والكرم والحلم مع حب لأهل العلم. المقريزي: المقفى، ج٧، ص٧٨-٧٩.

(٣) هو شرف الدين عبد العزيز الأنصاري الحموي، ولد سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م، تولى مشـــيخة الشـــيوخ بحماة وهو من الشعراء البارزين توفي سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣١٩.

(٤) ابو الفداء: المختصر في أخبار البشر، مجلد ٢، ج٣، ص٢١٥.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٧٨؛ ابن كثير: البداية والنهايـــة، ج١٣، ص٤١٠. إيمـــان عبـــد الحليم تركستـــــاني: نيابة حماة في عصـــــر سلاطين المماليك، رسالةماجستير لم تطبـــــع، جامعة أم القرى، عام١٤٢٥هــ، ص٣١-٣٢. والملك المظفر محمود الأيوبي: هو الملك المنصـــور ناصـــر الدين أبو المعالي محمد بن الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماة. ولد في حماة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م، وتسلم ملك حماة بعد وفاة والده سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، وتوفي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، وكان عمره ٥١ سنة. العيني: عقد الجمان،

الصراعات الدموية بين أبناء البيت الأيوبي في حماة، الأمر الذي أثار مخـــاوف السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون(١) من تأثير ذلك على الوضع العام لهذه المملكة ، فتدخل مباشرة وحسم أمرها بأن أصدر مرسوماً ســـلطانياً نـــص على تعيين الأمير شمس الدين قرا ســـنقر المنصـــوري ليكـــون أول النـــواب المماليك عليها(٢).

ج٢، ص٣١٤-٣١٥؛ ابن تغري بردي: الدليل الشـــافي، ج٢، ص٧٠٣؛ الصـــفدي: الـــوافي، ج٥، ص٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٨٤.

(١) هو محمد ابن السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي ولد ســـنة ٦٨٤هـــ/١٢٨٥م، تولى الملك في محرم سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، بعد مقتل أخيه الأشرف خليل وكان عمره تسع سنين ، لكنه ما لبث أن عزل في محرم سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م، وتوجه إلى الكرك مع بعض مماليـــك والـــده، وعندما قتل السلطان المنصور حسام الدين لاجين سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، أعاد الأمراء الملك الناصر محمد للسلطنة في جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، للمرة الثانية واستمر في الحكم تحت وصاية الأميرين بيبرس وسلار الذيْن بالغا في التحكم والتضييق على الملك الناصر محمد مما جعله يتوجه إلى الكرك مع خواصة ويخلع نفسه من الحكم في شوال سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م بعد أن ظل تحت وصايتهما عشر سنوات وأربعة أشهر ، ثم ما لبث أن أعلن الثورة على السلطان بيبـــرس الجاشـــنكير واســـتعاد حكمه الضائع في أوائل شوال سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وسار في الحكم أفضل سيرة ووضع نظماً للحكم سار عليها اتباعه، وقد طالت أيامه حتى توفي في ذي الحجة سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م. وهو يعتبر بحق أفضل ملوك مصر.

ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص١٦٧- ٢١٢-٢١٣، ج٢، ص١٨؛ ابن تغـــري بـــردي: الـــدليل الشافي: ج٢، ص٦٧٤-٦٧٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٦، ص١٣٤-١٣٥.

(٢) للوقوف على تفصيلات الحكم الأيوبي لحماة، انظر:ابن حبيب :درة الأسلاك في دولة الأتراك ،ج١،ورقة ١٢ب ؛أحمد سبانو: مملكة حماة الأيوبية، ص٣٩؛ متعب بن حسين القثامي، مملكة حماة الأيوبيـــة، رسالة ماجستير من جامعة أم القرى، عام١٤١٣هـ، لم تطبع، إيمان تركســـتاني: نيابـــة حمـــاة، ص٣١- ٣٢.

ولقد اهتم سلاطين المماليك بأمر نيابة حماة رغم صغر مساحتها اهتماماً كبيراً، لكونها تتوسط النيابات المملوكية في بلاد الشام فهي بمثابة حلقة وصل بين تلك التي تقع في جنوبه والأخريات التي في شماله(١).

ولهذا فقد تم تزويدها من قبل سلاطين المماليك بجهاز إداري وعسكري محكم يتناسب مع هذه الأهمية ، كما حرصوا على أن يكون نائبها من فئة الأمراء ويتم تعيينه من قبل السلطان المملوكي نفسه بتشاريف خاصة به(٢).

وأعطى إلى جانب ذلك مطلق الحرية في توزيع الوظائف الإدارية والعسكرية على من يراه صالحاً لهذه المناصب من الرجال. وقد درج سلاطين المماليك على مكافأة من يثبت جدارته في حكم هذه النيابة بأن يرقى بعدها إلى نيابة حلب مباشرة(٣).

وعليه فقد قامت نيابة حماة بأدوار ملموسة في التصدي لتحركات الصليبيين التي كانت تظهر بين الحين والآخر سواء من خلال المدة التي كانوا

---

(١) أحمد سبانو: مملكة حماة الأيوبية، ص٣٩.

(٢) لمعرفة التفاصيل عن الجهاز الإداري الذي تكونت منه حماة انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص٢٤٣-٢٤٦؛ إيمان تركستاني، نيابة حماة، ص١١٦-١٤٥. والتشاريف الخاصة: جرت العادة على أن تكون هذه التشاريف التي يحصل عليها النائب عبارة عن سيف مذهب. وبعض الرايات التي ينقش عليها اسم السلطان وذلك تقديراً له بحكم توليه منصباً جديداً. ابن ناظر الجيش: تثقيف التعريف، ص١٣٣.

(٣) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٢٣؛ ابن ناظر الجيش: تثقيف التعريف، ص١١٣-١١٤.

يسيطرون خلالها على مدن الساحل الشامي أو بعد طردهم من ساحل الشام ولجوئهم إلى بعض جزر البحر المتوسط[1].

واستمرت هذه النيابة تؤدي دور فاعلاً على هذا المنوال إلى أن أصابها الوهن والضعف كغيرها من النيابات الشامية . وذهبت في نهاية المطاف ضحية للتوسع العثماني الذي شمل بلاد الشام بأكملها سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م[2].

رابعاً: نيابة صفد :

تم إعلان صفد وما جاورها من المدن والقرى نيابة مملوكية عشية نجاح السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في إخراج الصليبيين منها في شهر شوال من سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م[3]. إذ يبدو أن موقع صفد هام بحكم أنها تعد ملتقى لعدد من طرق القوافل التجارية بحكم وقوعها على الطريق الذي يربط بين أهم مدينتين في دولة المماليك وهي دمشق والقاهرة، فضلا عما كانت تتمتع به من نشاط ملموس في كافة المجالات مع مدن الساحل الشامي الأخرى بما فيها تلك المدن التي كانت لا تزال تقبع تحت الحكم الصليبي[4].

وقد اتسعت هذه النيابة مع مرور الوقت حتى شملت عدداً من المدن والقرى والقلاع والحصون والتي أوصلها بعض المؤرخين إلى أحد عشر

---

(١) لجهود المماليك في حربهم ضد المغول والصليبيين. انظر سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٨٦-١١٥٥-١١٢٦-١١٧١؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص٢٢١-٢٤٠؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١١٨- ١٣٣؛ عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص١٣٩-٢٨٥.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٦٩ وما بعدها؛ ابن زنبل الرمال: آخرة المماليك، ص٧٧؛ إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٥٩- ٦٠؛ أميرة مداح :نظرة متأنية، ص٤٦؛ إيمان تركستاني: نيابة حماة، ص٣٢٩-٣٣٨.

(٣)المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٤٥-٥٤٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٣، م٧، ص٢٨؛ شافع بن علي: حسن المناقب؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٢٤-١٢٥؛ عبد العزيز الخويطر: الملك الظاهر بيبرس، ص١٢١-٢٢٢؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص٢٢٣؛

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢،ص١١٧٧-١١٧٨؛ عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٧٣.

عملاً[١] وقد حرص سلاطين المماليك على الاهتمام بأمر هـذه النيابـة فعملـوا على ترميم أسوارها وقلاعها وأبراجها،وشحنوها بالرجـال والسـلاح والعتـاد تحسباً لما قد تتعرض له من اعتداءات من قبل القوى الصليبية القريبـة منهـا وذلك خلال المدة التي كانت فيها تلك القوى تتحكم في بعض مدن الساحل. كما غدت هذه النيابة بمثابة قاعدة عسكرية مهمة تنطلق منهـا القـوات المملوكيـة لملاحقة القوى الصليبية بعد ركوبها البحر مطرودة من مدن ساحل بلاد الشـام وتمركزها في عدد من جزر البحر المتوسط[٢]، هذا بالإضافة إلى تلـك الأدوار المشرفة التي قامت بها صفد في مجال التصدي للمحـاولات المغوليـة التـي كانت تهاجم بلاد الشام عبر الفرات بين آونة وأخرى[٣]، وبقيـت نيابـة صـفد تلعب دوراً مفصلياً في حفظ الكيان المملوكي حتى آخر عهدها، حيـث سـجلت كتب التاريخ أن عسكرها كان ضمن القوات المملوكية التي خرجـت للتصـدي للجيش العثماني في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م. والتي كان أحـد ضحاياها نائب صفد آنذاك الأمير طراباي[٤] حيث خضعت صـفد بعـد هـذا الحدث للهيمنة العثمانية التي كانت بمثابة أمرٍ واقعٍ للمدن الشامية عـن بكـرة أبيها[٥].

خامساً: نيابة طرابلس :

---

(١) العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٣٤؛ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١١.

(٢) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٣٥-٣٦.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر:طه الطرونة:مملكة صفد في عهد المماليك؛ عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص١٣٩-٢٢٢.

(٤) لم أقف له على ترجمة.

(٥) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج٢، ص٢٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٦٩-٧١؛ وليم مـوير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص١٩٠.

عندما استرد الظاهر بيبرس أنطاكية سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م[١]. وأسقط تلك الإمارة الصليبية التي ظل حكامها يمارسون دور المحتل الغاصب لهذه المدينة قرابة قرنين من الزمان، بدأ بعدها مباشرة يخطط لاستعادة طرابلس وإنهاء الوجود الصليبي بها، إلا أن القدر لم يمهله لينال ذلك الشرف حيث وافته المنية سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٩م [٢].

وكما هو معروف فقد حدث ما حدث بعد وفاته من اختلاف بين القادة المماليك على عرش الدولة المملوكية بسبب تسلطن ابن الظاهر بيبرس السعيد بركة[٣] ومن بعده أخيه العادل سلامش[٤]، واللذيْن لم يكونا بالمستوى الذي كان

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٧– ٥٦٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٣٠؛ العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٢٨؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٥٨؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٠٢ وما بعدها؛

(٢) عن محاولات الظاهر بيبرس استرداد طرابلس انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧،ص١٣٧؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٦؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص١٣٣؛ السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص٢٦٥– ٢٧١.

(٣) هو الملك السعيد محمد بركة خان بن السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحي، تولى الحكم بعد والده لمدة سنتين ثم خلع، وصف بالعدل ولين الجانب توفي سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وهو منفي بالكرك وكان عمره عشرين سنة. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٦٠٩؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه،ج١،ص٥٣؛ الصفدي: الوافي، ج٢، ص١٩٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣١٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٤٢؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠٠.

(٤) الملك العادل بدر الدين سلامش بن السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحي، تولى ملك مصر بعد أخيه السعيد بركة لمدة ثلاث شهور، ثم خلع ونفي إلى اسطنبول وتوفي هناك سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م وعمره اثنين وعشرين سنة؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠٠؛ المقريزي: السلوك،ج١، ق١، ص٦٥٦؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٣١٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١،ص١٤٢؛ الصفدي: الوافي، ج١٥، ص٢٠٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٤١١–٤١٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٤٦.

عليه والدهما بيبرس، الأمر الذي دفع الأمراء المماليك إلى حسم الأمر بعزلهما واختيار قلاوون سلطاناً على دولة المماليك حيث تلقب بالملك المنصور[١].

وبمجرد تربع قلاوون على سدة الحكم في القاهرة كانت إمـــارة طـــرابلس الصليبية هي شغله الشاغل حيث بدأ يخطـــط لتحقيـــق أحـــلام ســـلفه بيبـــرس بالسيطرة على هذه المدينة، وتخليصها من نير الاحتلال الصليبي، وقد تحقق له ذلك الأمر في محرم من سنة ٦٨٨هـــ/١٢٨٩م بعد أن فرض عليهـــا حصـــاراً محكماً استمر مدة ليست بالقصيرة ، انتهى بنجاح قواته في اقتحـــام أســـوارها ودخولها وإعلان السيطرة عليها . ونظراً لقربها مـــن الســـاحل فقـــد حـــرص قلاوون على هدم المدينة القديمة لقطع كل أمل للصـــليبيين فـــي العـــودة إليهـــا مستقبلاً، وبنى بدلاً عنها مدينة جديدة على بعد ميل من الساحل[٢] ومن ثم قـــرر جعلها حاضرة لنيابة جديدة عرفت بنيابة طرابلس، وأنشأ بهـــا جهـــازاً إدارياً وعسكرياً محكماً وعين عليها نائباً من قبله أطلق عليه لقب " الجانب العـــالي"[٣] ومنحه الصلاحيات المطلقة على الإشراف على المـــدن والقـــرى والحصـــون

---

(١) عن الصراع على السلطة بعد وفاة الظاهر بيبرس انظر: العيني: عقد الجمـــان، ج٢، ص٢٣٢-٢٣٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٣٠- ٢٣١، ص ٢٤٣- ٢٤٥؛ ابـــن المغيـــزل: ذيـــل مفرج الكروب، ص٩٢-٩٤؛ المقريزي: الســـلوك، ج١، ق٢، ص٦٤٣-٦٤٦، ٦٥١-٦٥٨؛ ابـــن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٤٢- ٣٤٧؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٦٦-٦٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١،ق٣، ص٧٤٦-٧٤٨؛ العيني: عقد الجمان، ج٢،ص٣٨٠- ٣٨١، حـــوادث سنة ٦٨٨هـــ/١٢٨٩م؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٤٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص١٢٢ وما بعدها؛ ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١٢٠- ١٢٤؛ ابـــن كثيـــر: البدايـــة والنهاية، ج١٣، م٧، ص٣٦١ ؛عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٦٢- ٢٧١؛ عبـــد العزيـــز سالم: طرابلس الشام، ص٢٨٧-٢٩٥.

(٣) العمري: التعريف، ص١٠٠.

والقلاع التي كانت تتبع هذه النيابة الجديدة والتـــي قـــدرها بعـــض المـــؤرخين بثمانية عشر عملاً[١].

وقد أدى هذا الاهتمام الذي حظيت به نيابة طرابلس مـــن قبـــل ســـلاطين المماليك إلى قيامها بأدوار مميزة وفعالة في الدفاع عن حدود دولة المماليك في بلاد الشام وذلك لمساعدة بقية النيابات في التصدي للمحاولات المغولية التي لـــم تكن تنفك عن تهديد الحدود الشرقية والشمالية لبلاد الشام، والأهم من ذلـــك أن هذه النيابة لعبت دوراً مفصلياً بعد ذلك في حركة الجهاد التـــي تزعمهـــا أبنـــاء المنصور قلاوون بعد ذلك سواء في مجال اقتلاع الوجود الصـــليبي فـــي بـــلاد الشام من جذوره أمْ في تعقب فلولهم بعد طردهم من مدن الساحل الشامي نهائياً سنة ٦٩٠هـــ/١٢٩١م[٢] واستقرارهم في بعض جزر البحر المتوسط ومـــن ثـــم تهديد مدن الساحل الشامي وكذلك الساحل المصري بين الفينة والأخرى[٣].

وأما عن نهاية هذه النيابة فإنها كانت بنفس الطريقـــة التـــي انتهـــت بهـــا النيابات الشامية، التي دبّ الضعف والهوان إلى أجسادها فـــي نهايـــة العصـــر

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٤٩- ١٥٤؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٢٦٤؛ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٨؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٤٨.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٤٥؛ ابن كثير: البداية والنهايـــة، ج١٣، م٧، ص٣٦١؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٢٨٤-٢٨٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١،ص١٢٢ وما بعـــدها؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص١٤٩؛ سعيد عاشور: العصر الممـــاليكي، ص٧٠- ٧٢؛ الحركـــة الصليبية، ج٢، ص١١٥٥- ١١٦٢؛ أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص٤١-٤٧؛ العبادي: قيـــام دولة المماليك، ص٢٣٤-٢٤٠؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٣؛ السير ويليام موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص٥٠-٧٠.

(٣) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٥٣؛ محمد عبد الغني الأشقر: الملحمة المصرية عصـــر المماليك الجراكسة ورد الاعتبار في عهد برسباي، ص٤٨- ٨٤.

المملوكي، ومن ثم وقعت فريسة سهلة لقوى العثمانيين في معركة مـرج دابـق ثم خضعت مع بقية المدن الشامية للحكم العثماني سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م[1].

سادساً: نيابة الكرك :

تعد الكرك من أقوى القلاع وأشدها حصانة في مناطق جنوب الشام خاصة، بل في بلاد الشام عامة، وذلك لكونها تتربع على قمة جبل عال. واللافت للنظر أن جميع القوى التي سيطرت على هذه القلعة قد بذلت جهوداً كبيرة في زيادة تحصيناتها خلال المدة التي خضعت فيها هذه القلعة لحكمها وذلك بالعمل على زيادة تحصينها وإحكام أسوارها وتعلية أبراجها وقلاعها[2].

وعندما نجح الأيوبيون بزعامة صلاح الدين[3] في تطهيرها من يد الاحتلال الصليبي سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م[4]. حرص جميع الأمراء الأيوبيون الذين تعاقبوا على حكمها على تطوير تحصيناتها وشحنها بالآلات والسلاح

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٦٩؛ ابن زنبل الرمال: آخرة المماليك، ص ٧٧ وما بعدها؛ فريد بك المحامي: الدولة العلية العثمانية، ص٩٦- ٩٧؛ إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية التاريخ الإسلامي الحديث، ص٥٩-٦٠.

(٢) يوسف غوانمة: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي ، ص٧٤-٧٥.

(٣) هو الملك الناصر أبو الظفر يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب، كردي الأصل ولد سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، اشتهر بحروبه ضد الصليبيين واسترداد بيت المقدس من أيديهم سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م في معركة حطين الشهيرة. توفى في ١٦ صفر سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م بدمشق، وكان عمره خمسة وخمسين سنة. بعد أن حكم عشرين سنة قضاها في حروبه ضد الصليبيين في سواحل بلاد الشام، وصفه ابن الأثير بأنه كان حليماً، كريماً متواضعاً، منقاداً للشرع ، سمع الحديث ودرسه. لمزيد من التفاصيل انظر، ابن شداد: النوادر السلطانيةوالمحاسن اليوسفية، ص٦-٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، م٧، ص٥-٩؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١١٢- ١١٣؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي،ج٢، ص٨٠٦؛ الصفدي: الوافي، ج٢٩، ص١٣٧- ١٤٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٩٨- ٢٩٩؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص٩١-٩٢.
وليد نويهض: صلاح الدين الأيوبي سقوط القدس وتحريرها ، ص١٢٠-١٢١.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، م٦، ص٨٥٠.؛ المقريزي: السلوك،ج١، ق١، ص٩٣-٩٥؛ انظر سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٩٢.

والعتاد وترميم أسوارها متى تعرضت لأي خلل . وعندما وقعت في يد السلطان الظاهر بيبرس مكاتبات دارت بين التتار وبين الملك المغيث الأيوبي[١] صاحب الكرك يحرضهم فيها على غزو بلاد الشام ومصر وأنه سيكون عوناً لهم في معاركهم ضد المماليك، عند ذلك أخذ الظاهر بيبرس يتحين الفرص للقبض على الملك المغيث وأرسل في طلبه، وظل الملك المغيث يماطل، إلى أن حانت الفرصة سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م، عندما سار السلطان الظاهر بيبرس إلى ناحية الكرك واستدعى الملك المغيث الذي لم يجد مفراً من المثول أمام السلطان الظاهر بيبرس حيث عقد له مجلساً حضره الفقهاء والقضاة والعلماء[٢]. وكان من جملتهم ابن خلكان[٣] وقام السلطان بإبراز المكتبات التي دارت بين التتار والملك المغيث، وتمخض عن هذا المجلس إصدار مرسوم يجيز قتل الملك المغيث، وقع عليه العلماء والفقهاء والقضاة بعد أن اطلعوا على المكاتبات، ومن ثم أُرسِل الملك المغيث إلى القاهرة مخفوراً وقُتِل هناك، والذي يهمنا هنا هو أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل أمراءه لتسلم الكرك وذلك يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة ٦٦١هـ/١٢٦٢م، وفي

---

(١) الملك المغيث عمر الأيوبي: هو فتح الدين أبو الفتح عمر بن الملك الفائز أبي إسحاق إبراهيم بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب. حدث بالإجازة عن أبي الروح عبد العزيز بن محمد الهروي، مات في ٢٧ من ذي الحجة سنة٦٦٢ هـ مسجوناً بخزانة البنود بالقاهرة. العيني: عقد الجمان، ج٢، ص١١٠ – ١١١؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٩٢؛ الصفدي: الوافي ، ج٢٢، ص٢٧٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣١٠.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٥٣٢؛ شافع علي: حسن المناقب السرية، ص٥٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص٤٩.

(٣) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان الشافعي، ولد سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م تولى قضاء قضاة دمشق، ونظر الأوقاف والبيمارستان ودرس بعدد من مدارس بلاد الشام منها العذراوية والعادلية، والناصرية وغيرها، ألف تاريخاً سماه "وفيات الأعيان"، كان عالماً وأديباً ومؤرخاً يكتب الشعروالنثر توفي سنة٦٨١هـ/١٢٨٢م. البرزالي: المقتفي، ج٢، ص١٢–١٣؛ المقريزي: المقفى، ج١، ص٣٧٦–٣٧٨؛ جمال محمد سالم عريكيز: فقهاء الشام في مواجهة الغزو الصليبي، ص٢١٥.

٢٧ رجب دخل الظاهر بيبرس الكرك في أبهة الملـــك[١] ورتـــب أمـــور هـــذه النيابة، واختار نائباً من خيرة رجاله، وهو الأمير عز الدين أيدمر العلائـــي[٢]. ثم أمده بما يحتاجه من الأموال والعتاد لكي يعمل على زيادة تحصـــيناتها، ثـــم أطلق له يد الحرية في توسيع نطاق مساحتها كنيابة مملوكية، وذلك بالسماح لـــه بضم مجموعة من الأعمال لكي تكون تابعة لها، حتى أصبحت حـــدودها تمتـــد من بحيرة سدوم[٣] شمالاً إلى العقبة[٤] جنوباً وإلى البلقاء[٥] شـــرقاً وصـــحراء سيناء[٦] غرباً[٧].

وقد حرص سلاطين المماليك على دعم هذه النيابة مادياً ومعنويـــاً، وذلـــك لشعورهم بأنها هي ونيابة غزة[٨] هما خط الـــدفاع الأخيـــر عـــن الأراضـــي المصرية، فضلاً عن تحكم الكرك في حركة القوافل التجارية بين بـــلاد الشـــام

---

(١) أبوالفداء : المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢١٧؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٥٣٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٧٨.

(٢) هو أيدمر بن عبد الله العلائ الصالحي الأمير عز الدين. كان من المقربين لدى الظاهر بيبرس عـــرف عنه الأمانة والتدين، توفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص١٦٧؛ المنهل الصافي، ج٣، ص١٦٩– ١٧٠؛ الصفدي: الوافي، ج١٠، ص٥– ٦.

(٣) بحيرة سدوم: وقد يطلق عليها اسم بحيرة لوط وتقع بين الحجاز والشام. القزوينـــي: آثـــار الـــبلاد، ص٢٠٢.

(٤) العقبة: ميناء بحري هام يقع على الطريق مكة قبل القاع على اللسان الشرقي للبحر الأحمروهو مـــن موانيئ الأردن الهامة. ياقوت: معجم البلدان ج٤، ص١٣٤.

(٥) البلقاء: هي من أعمال دمشق تقع بين الشام ووادي القرى. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٨٩.

(٦) صحراء سيناء: وهي تمتد في الجزء الشمالي من شبه جزيرة سيناء، وتقع بين البحر المتوسط شمالاً وهضبة التيه جنوبا، وأبرز مدنها العريش. أحمد رمضان: شبه جزيرة سيناء في العصور الوســطى، ص٥– ١٠؛ محمد صبري محسوب : العالم العربي: دراسة جغرافية ، ص٢١٤.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٧٨؛ سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص٤٧؛ يوسف غوانمة: أمارة الكرك الأيوبية، ص٣٢٥؛ عبد العزيز الخويطر، الملك الظاهر بيبرس، ص٤٣– ٤٤؛ إبـــراهيم علي الدين السيد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٣٦.

(٨) غزة: تقع في أقصى جنوب الشام من ناحية مصر غربي عسقـــلان. ياقوت: معجم البلـــدان، ج٤، ص٢٠٢–٢٠٣.

والأراضي المصرية من ناحية، وكذلك بين بلاد الشام وجزيرة العــرب[1] مــن ناحية أخرى اتخذها سلاطين المماليك منطلقاً لحملاتهم التأديبية ضــد حركــات العصيان التي كانت تظهر في نيابات الشام الشمالية والوسطى[2].

والذي يمكن تأكيده أن هذه النيابة قامت بهذه الأدوار في خدمــة ســلاطين المماليك في مصر خير قيام، واستمرت على هذا المنوال حتى ســقوطها هــي الأخرى بيد القوى العثمانية عندما قرر السلطان سليم الأول ضم جميــع مــدن الشام لحكمه سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م[3].

---

(١) أحمد جوارنة: تاريخ الأردن في العصر المملوكي، ص٥٦؛ يوسف غوانمة: التاريخ السياسي لشــرقي الأردن، ص٤٢؛ إمارة الكرك الأيوبية، ص٣٣٩؛ نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية، ص١٤٥- ١٦١.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٦٩ وما بعدها؛؛ الرمال: آخرة المماليــك، ص٧٧ ؛ فريــد بــك المحامي: الدولة العلية، ص٩٦-٩٧؛ إسماعيل ياغي: الدولة العثمانية، ص٥٩- ٦٠للوقوف علــى أسباب تحول العثمانيين لبسط نفوذهم على بلاد المشرق الإسلامي انظر: زكريا سليمان بيومي: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص٥٧- ٧٣؛ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: النشاط التجــاري في البحر الأحمر في العصر العثماني ١٥١٧م/٩٢٣هـ. مجلة الدارة، العدد الثاني والسنة السادسة، ربيع أول ١٤٠١هـ/ يناير ١٩٨١م.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠٤.

سابعاً: نيابة غزة :

كانت غزة في بداية عهد دولة المماليك تتبع نيابة الشام ودمشق[(١)]، ولكن يبدو أن موقع غزة الهام دفع سلاطين المماليك إلى التفكير في جعلها نيابة مستقلة بذاتها، كي تقوم بدور الخط الدفاعي الأخير الذي يحمي المدخل البري للأراضي المصرية، وقد تمتعت هذه النيابة بكل المميزات التي حظيت بها بقية النيابات الشامية الأخرى على المستويين الإداري والعسكري[(٢)]، وشملت نيابة غزة عدداً من الأعمال التابعة لها وهي المدن والقرى الساحلية الممتدة ما بين عسقلان[(٣)] والعريش، أما الداخلية فقد ضمت ما هو بين بيت المقدس وتيه بني إسرائيل[(٤)] في سيناء. وبهذا غدت هذه النيابة تشرف على الطريق الساحلي والبري اللذين يصلان الأراضي المصرية ببلاد الشام[(٥)].

ثامناً: نيابة بيت المقدس:

أشار المؤرخون إلى أن بيت المقدس تحولت إلى نيابة مستقلة منذ عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م[(٦)]. وكان نائبها الذي يعين بمرسوم سلطاني يتخذ من مكان مرموق بجانب الرواق العلوي للمسجد الأقصى المجاور لمنارة الغوانمة مقراً له[(٧)]. ونظراً لكون هذه النيابة تضم بين جنباتها مدينتين مقدستين لدى المسلمين المسلمين فقد أطلق على نائبها "ناظر الحرمين الشريفين" ونائب السلطنة بالقدس

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠٤.

(٢) يوسف غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص٥١- ٣٦.

(٣) عسقلان: تقع على الساحل بين غزة وبين جبرين. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص١٢٢.

(٤) تيه بني إسرائيل: يقع بين آيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة من أرض الشام. ياقوت : معجم البلدان، ج٢، ص٦٩.

(٥) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٨١؛ العمري: مسالك الأبصار، ج٤،ص٢١٦؛ ابن ناظر الجيش: تثقيف بالتعريف، ص٩٥؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك: ص١٣٤.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٥، ص٣٥٦؛ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢، ص٢٨٢؛ يوسف غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص١٥-١٦.

(٧) يوسف غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص٢٢؛ والغوانمة يرجع نسبهم إلى أحد أتباع الناصر صلاح الدين وهو غانم بن علي الأنصاري الذي كان يشغل منصب شيخ الخانقاه الصلاحية زمن صلاح الدين الأيوبي، وظل أبناء هذه الأسرة يقدمون الخدمات الجليلة للقدس وتقلدوا عدداً من الوظائف بها وظهر منهم العلماء والفقهاء، ولهذه الأسرة عدد من الآثار لا زالت قائمة في مدينة القدس كمنارة الغوانمة وباب الغوانمة وحارة الغوانمة. يوسف غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس: ص٢٢، هامش ٣.

وبلد سيدنا إبراهيم الخليل. والواقع أن إفراد بيت المقدس بنيابة مستقلة مرده هو خدمة الأماكن المقدسة وحمايتها من الأخطار التي كانت تهـددها بـين الفينـة والأخرى وخاصة من قبل بقايا القوى التي كانت تقبع في بعض مدن السـاحل الشامي لعكا وحدود بيروت وغيرها[1].

وبعد هذه العجالة التي استعرضنا من خلالها وبشكل موجز أهـم النيابـات الشامية التي حرص سلاطين دولة المماليك على إنشائها في بلاد الشـام. فـإن الذي يمكن للباحثة إجماله أنه كان للعلماء دور في ضم أجزاء من بـلاد الشـام مثل الكرك التي خضعت للحكم المملوكي بعد أن تمكن الظـاهر بيبـرس مـن القبض على الملك المغيث وعقد له مجلس بحضرة العلماء أثبـت فيـه خيانتـه ومكاتبته للمغول ،وتم بموجب ذلك الحكم علية بالقتل ،وبذلك دخلت نيابة الكرك تحت الحكم المملوكي في ٢٣/جمادي الأخر سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م[2] ،وكـذلك

---

(١) عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج١، ص١٣٩-١٤٣؛ علي عبد الحليم محمود: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص٢٥٢- ٢٥٤؛ يوسف غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس: ص١٩- ٢٠.

(٢) اليونيني :ذيل مرآة الزمان ،ج١،ص٥٣٢؛أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج٣،ص٣١٧؛ابن كثير: البداية والنهاية ،ج١٣،ص٢٧٨؛شافع بن علي : حسن المناقب السرية،ص٥٦.

الحال بالنسبة لنيابة حماة التي قام أحد العلماء البارزين في تلــك الفتــرة وهــو شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري بدور ملموس في تهدئــة الأوضــاع بــين صاحب حماة الملك المنصور وبين الظاهر بيبرس مما أثر في بقاء هذه النيابــة فترة من الزمن تحت حكم البيت الأيوبي وفي سنة ٦٩٨هــــ/١٢٩٨م تحولــت هذه المملكة الأيوبية إلى نيابة مملوكية تخضع لنواب وسلاطين المماليك

كما يجدر بالباحثة هنا أن تلفت النظر إلى أن العلماء أنفسهم قد قاموا بدور فعّال يغلب عليه الطابع السلمي وذلك بمحاولات جــادة وصــادقة مــنهم فــي مواجهة الكثير من حركات العصيان الداخلية التي كان يتزعمهــا نــواب هــذه النيابات وأسدوا بذلك خدمة جليلة لسلاطين دولة المماليك في القــاهرة كانــت محل تقديرهم واحترامهم. وهذا ما سنوضحه بالتفصيل في مبحــث لاحــق إن شاء الله[1].

(١) انظر: المبحث الأول من الفصل الثالث ص١٦٤-٢٠١.

المبحث الثالث
أثر العلماء في دعم مركز الخلافة العباسية في القاهرة

الملاحظ أن الخلافة العباسية في بغداد لم تحاول إقحام نفسها في الصـــراع الذي احتدم بين الأيوبيين والمماليك، بعد أن أعلن المماليـــك اســـتقلالهم التـــام بالأراضي المصرية عام ٦٤٨هــ/ ١٢٥٠م، أو مناصرة طـــرف ضـــد آخـــر، ويبدو أن هذا الموقف كان بسبب إدراك الخلافة أن تصـــرف المماليـــك كـــان طبيعياً وذلك لعجز الأيوبيين عن أداء الدور المطلوب مـــنهم، وهـــو مواجهـــة العدوان المغولي المتكرر على بلاد الشام، فضلا عن الوجود الصـــليبي الـــذي لازال يسيطر على بعض المدن الساحلية ولهذا فقد اكتفـــى الخليفـــة العباســـي بالتوسط بين الطرفين ومحاولة إصلاح ذات البين بينهما(١).

وعندما سقطت الخلافة العباســـية تحـــت ســـنابك خيـــل المغـــول ســـنة ٦٥٦هــ/١٢٥٨م(٢)، وظل العالم الإسلامي من غير خلافة لمدة ثلاث ســـنوات، أدرك سلاطين دولة المماليك في مصر حاجتهم الماسة للدور الذي طالما قامـــت به الخلافة، والمتمثل في حث عامة الناس على المشاركة فـــي حركـــة الجهـــاد

---

(١) تذكر المصادر أن الخليفة المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس في بغداد قام بالتوسط بين الناصـــر صلاح الدين الأيوبي صاحب دمشق والملك المعز أيبك في مصر من خلال وفد أرســـله إلـــى الشـــام ومصر بزعامة الشيخ نجم الدين البادرائي سنة ٦٥١هــ/١٢٥٣م. المقريزي: الســـلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٣؛ العبادي: قيام دولة المماليـــك، ص١٢٨؛ عزمي أبو عليان: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ص١٥.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن سقوط بغداد انظر: الصياد: المغول في التاريخ؛ الباز العريني: كتاب المغـــول؛ عبد الله الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ؛ عبد العزيز عبد السلام فهمـــي: تـــاريخ الدولة المغولية في إيران .

الشامل ضد أي عدوان خارجي. وقد ظهر ذلك بوضوح خلال مواجهة المماليك للمغول في معركة عين جالوت[1] سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، إذ اضطر قطز[2] إلى التودد إلى العلماء في ذلك الوقت الحرج لكي يعوض النقص الذي أحدثه غياب الخلافة، حيث اضطر إلى طلب الفتاوى من عدد من العلماء وفي مقدمتهم العلامة العز بن عبد السلام[3]. وعليه فإنه بمجرد أن تحقق النصر للمماليك على المغول في هذه المعركة كان أول شيء فكر فيه قادة الدولة المملوكية، هو إحياء الخلافة العباسية ونقل مقرها إلى القاهرة، وفي هذا المجال تذكر المصادر أن السلطان قطز عندما دخل دمشق بعد طرد المغول منها فكر في البحث عن شخص ينتمي إلى البيت العباسي ممن نجا منهم، حيث وقع اختياره على شخص يدعى أبو العباس أحمد وحاول استقدامه لمبايعته للخلافة

---

(١) للوقوف على تفاصيل معركة عين جالوت انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٥٨- ٢٦٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٠-٤٣٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١،ق١، ص٣٠٦-٣٠٧؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٦٩-٧٠؛ قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٨٨-١٩٩؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص١٦٤- ١٦٦؛ عبدالله الغامدي: جهاد المماليك، ص١٠٣-١٣٤.

(٢) هو سيف الدين قُطز بن عبد الله المعزي، هو من مماليك الملك المعز أيبك وعين نائب للسلطنة زمن المنصور ابن المعز أيبك، روى أن اسمه محمود بن ممدود وأنه ابن أخت خوارزم شاه جلال الدين، عرفت عنه الشجاعة والإقدام في الحروب، كسر المغول في عين جالوت ودحر قواهم، لكنه لم يهنأ بهذا النصر فقد قتل وهو في طريقه للقاهرة في ١٦ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٢٠٠- ٢٠١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤١٦- ٤١٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٢-٧٣، ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٠٢.

مستعيناً في ذلك بأمير العرب آنذاك عيسى بن مهنا[١] إلا أن مقتل قطز حال دون ذلك[٢].

وعندما اعتلى السلطان بيبرس عرش الدولة المملوكية، أخرج ذلك الأمر إلى حيز الوجود، حيث بعث رسولاً من قبله لإحضار شخص ينتمي إلى البيت العباسي اسمه أبو القاسم أحمد[٣]، وما أن سمع بيبرس بقرب دخوله إلى القاهرة حتى تزين وخرج للقائه ومعه جملةٌ من القضاة و العلماء يتقدمهم قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز[٤]. وبالغ السلطان في إكرامه والترحيب به، ثم أمر بيبرس بجمع القضاة وعلماء البلد وفقهائها وفي مقدمتهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، وجلس الجميع بحضرة السلطان وأبي القاسم وذلك بهدف إثبات نسب أبي القاسم إلى البيت العباسي. وكان أول من شهد بذلك

---

(١) هو من أمراء العرب وهو الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حذيفة، أوكل إليه السلطان الظاهر بيبرس إمارة العرب فسار فيهم سيرة حسنة، وامتازت أيامه بالاستقرار والهدوء، وعرف عنه حب الخير والتدين وحسن التصرف توفي سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م. انظر المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٢٦؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، الملاحق ص٢٩٠؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٥١٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب ، ج٥،ص٣٨٣.

(٢) قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢١٥؛ قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، ص١٥١- ١٥٢؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص١٨١.

(٣) كان أبو القاسم أحمد قد وصل إلى دمشق مع جماعة من العربان الذين تمكنوا من الفرار من بطش المغول حيث دخلوا دمشق ولاذوا بها واسمه أحمد بن الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله، توفي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٧٤؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٩٧.

(٤) هو عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي، و العلامي نسبة إلى قبيلة من لخم، والأعز نسبة إلى جده لأمه الصاحب الأعز فخر الدين وزير الملك الكامل الأيوبي، كان شاهداً لبيت المال في عهد السلطان الكامل، وفي عهد الملك الصالح أيوب ولي نظر الدواوين وفي سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م تولي قضاء مصر، حيث ولاه بيبرس منصب قاضي القضاة بالديار المصرية وظل بها حتى توفي سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م. السبكي: طبقات الشافعية، ج٥، ص١٣٣- ١٣٦؛ السخاوي: الذيل على رفع الإصر، ص٢٠١؛ ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر عن قضاة مصر، ص١٧٦- ١٧٨ .

مجموعة من أهل بغداد الذين كانوا قد لجأوا إلى القاهرة بعد دخول المغول بغداد، فضلاً عن أن بعضاً منهم قدموا للقاهرة بصحبة أبي القاسم، فقبل قاضي القضاة ابن بنت الأعز شهادتهم وأعلن ثبوت نسب أبي القاسم للبيت العباسي وأنه بالفعل ابن الخليفة العباسي الظاهر(١).

وكان أول من تقدم لمبايعة الخليفة ابن بنت الأعز نفسه.و من هذا تستطيع الباحثة أن تؤكد مدى الدور الذي قام به العلماء في هذا المجال إذ إن بيبرس جاء دوره في المبايعة بعد قاضي القضاة(٢). ثم جاء دور بقية العلماء والقضاة وأعيان البلد الذين تقدموا بعد ذلك صوب أبي القاسم وبايعوه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى إقامة مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأخذ الأموال من الناس بحقها وصرفها في مستحقاتها كما بايعوه أيضا على إقامة شريعة الجهاد في سبيل الله ضد أعداء الإسلام والمسلمين(٣).

---

(١) أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله، ولد سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م، تولى الخلافة سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م – ٦٢٣هـ/١٢٢٦م وسار في الناس سيرة حسنة وأبطل عدداً من الضرائب وأعاد الخراج، شبهّه ابن الأثير بعمر بن عبد العزيز في عدله، وكان كثير الإنفاق في أوجه الخير والبر، روى الحديث، وتوفي سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م . السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٢٤– ٣٢٥.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٩٩– ١٠١؛ بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ج٩، حوادث سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠٩– ١٠؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص٣٧– ٣٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٢٧٤– ٢٧٥؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٥– ٦؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧٧– ٤٧٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٣١٢– ٣١٥؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٩٧.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٤٨– ٤٤٩؛ الذهبي: دول الإسلام، ص٣٦٧؛ بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص١٥– ١٦؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مجلد١، ج١، ص٤٤١؛ أبي الفداء: المختصر في أخبار البشر، مجلد٢، ج٣، ص٢١٢– ٢١٥؛ شافع بن علي: حسن المناقب السرية، ص٣٧؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٣٦؛ ابن دقماق: نزهة الأنام، ص٢٧٦–٢٧٧؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٤؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٢٩؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص٩٩–١٠١؛ ابن إياس: بدائع الزهور: ج، ص٣١٢–٣١٥.

والذي يمكن توكيده هنا من خلال استقراء هذه المعلومات هو مدى الـدور الذي قام به العلماء من فقهاء وقضاة وغيرهم في مساعدة السلطان الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة لمعرفتهم المسبقة بالدور الفاعل الذي ستقوم به الخلافة بعد إحيائها في القاهرة على كافة الصعد، إذ إنه بالرغم من أن الخلافة العباسية قد فقدت دورها الفاعل في الميادين السياسية والعسكرية على المستوى الميداني، إلا أنها كانت تتمتع بمكانة روحية تجعل كافة طبقات المجتمع تكنّ لها احتراماً. فالحكام مثلاً لم يكن لهم غنى عن وجودها، كي تمنحهم صفة شرعية تجعل عامة الناس وخاصتهم يستجيبون لأوامرهم بحكم أنهم ولاة أمرهم، كما أن العلماء أيضا كانوا يدركون الأهمية البالغة للخلافة الإسلامية بحكم امتداد الخلافة الإسلامية التي نشأت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فهي في نظرهم تمثل الرمز الديني الذي ينضوي الجميع تحت لوائه، ولعل هذا يتوافق مع الفكرة التي أوردها أحد الباحثين المحدثين والتي مفادها " أن فكرة الزعامة الدينية تعمل في الرؤوس ما لا تعمله أساليب السياسة أياً كان نوعها، ومالا تناله أسنة السيوف مهما كانت أراقت من دماء"(١).

ويمكن للباحثة أن تضيف إلى ذلك أن هذا المبدأ يتأكد ويصبح أكثر فاعلية متى ما حظي بالتأييد الكامل من قبل علماء الأمة، الذين هم ورثة الأنبياء على الأرض .

---

(١) جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس، ص ٦١.

المبحث الرابع
أثر العلماء في الحياة الفكرية

رغم ما ذكره بعض المؤرخين من أن إحياء الخلافة العباسية في القاهرة على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م. كان بهدف قطع الطريق على الحفصيين الذين تطلعوا إلى إحيائها في تونس[١]. إضافة إلى ما ذكره البعض الأخر من أن بيبرس حرص على إحيائها من أجل إضفاء الصفة الشرعية على السلطنة المملوكية وسلاطينها. إلا أن الأمر الذي لا شك فيه هو أن إحياء الخلافة في القاهرة ترتب عليه أمر آخر هام، ألا وهو ترسيخ المذهب السني في أراضي الدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز وغيرها. إذ إن نجاح بيبرس في تحقق ذلك جعل من سلاطين المماليك حماة للخلافة العباسية التي تعد رمزاً لمذهب أهل السنة والجماعة. الأمر الذي جعل الكثير من العلماء وكذلك رسل الحكام والملوك من مختلف العالم الإسلامي يفدون إلى القاهرة لطلب التقليد لحكوماتهم، فضلاً عن العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين كانت وفودهم تتعاقب على مصر حتى غدت القاهرة "محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء" على حد تعبير المؤرخ السيوطي[٢].

والواقع أن هذا الحال الذي أصبحت عليها القاهرة ساعد بشكل واضح على محاربة البدع وغيرها من المذاهب المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في سلاطين المماليك، ص٦؛ يزعم الحفصيون أنهم ينتسبون إلى السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وذلك ما خولهم لأن يعلنوا أنفسهم خلفاء سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م على يد أبي عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي مستغلين فرصة خلوا العالم الإسلامي من خليفة شرعي وذلك بعد سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٧م. انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٤، ص٣١٧. وانظر أيضاً، روبار برنشفيك: تاريخ أفريقية في العهد الحفصي، ج١، ص٧٦-٧٨.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، ص٨١.

بسبب توافد علماء أهل السنة عليها، وقد أكد ذلك السيوطي خلال حديثه عن إحياء الخلافة في القاهرة بأن ذلك أدى إلى انتشار مذهب أهل السنة والجماعة "وعفت منها البدع "[١].

وكما شهدت الدولة المملوكية إلى جانب ذلك نشاطاً منقطع النظير في خدمة المذهب السني حيث عمل سلاطينها وعلماؤها على محاربة التشيع بكافة صوره، والذي كان يطل برأسه بين آونة وأخرى، من ذلك على سبيل المثال حركة الكوراني[٢]. كما أشار ابن تغري بردي إلى ظهور التشيع في بعض قرى الصعيد في مصر، ومنها قرية أصفون[٣]، التي شهدت في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي ظهور تجمعات لعدد من أهل البدع كالإسماعيلية والرافضة[٤] والإمامية[٥] والدروز الحاكمية[٦]. كما أن بعض

(١) السيوطي: حسن المحاضرة،ج٢، ص٨١.

(٢) الكوراني: نسبة إلى كوران وهي من قرى اسفرايين، وهي تقع في نيسابور. العبادي: قيام دولة المماليك، ص١٧٨، هامش ٢؛ عبد الله الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول، ص١٣٦، هامش ٣؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ص٨٧ – ٨٨.

(٣) قرية أصفون: هي قرية من قرى الصعيد الأعلى ، تقع على شاطئ غربي النيل، وهي على مرتفع. البغدادي: مراصد الاطلاع،ج٢، ص٨٨.

(٤) الروافض: هم الذين غالوا في محبة علي رضي الله عنه، ويكرهون كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعائشة، ولهم أقوال مختلفة في مسألة الإمامة وينقسمون إلى عشرين فرقة انظر: ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٢، ص١١٢؛ وبهامشه الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص٢١٨؛ المقريزي: الخطط، ج٤، ص١٧٩– ١٨٥؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٥٣؛ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص ٢٩٧– ٣٠٤..

(٥) الإمامية: هم القائلون بإمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهي من الفرق التي حادت عن طريق الحق، فأحكامها تتعارض تماماً مع أحكام أهل السنة والجماعة انظر: ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٢، ص١١٢؛ وبهامشه الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص٢١٨؛ المقريزي: الخطط، ج٤، ص١٧٩– ١٨٥؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٥٣؛ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص ٢٩٧– ٣٠٤.

(٦)الدروز: تعتبر هذه الفرقة من الفرق الباطنية التى تنسب إلى مؤسسها محمد بن إسماعيل الدرزي، الذين ألهوا الحاكم بأمر الله الفاطمي، وقد انبثقت معظم عقائد هذه الفرقة من الإسماعيلية، ونشأت في مصر ثم تمركزت في بلاد الشام وخاصة لبنان، ومن أبرز معتقداتها تأليه الحاكم بأمر الله وإنكار الأنبياء والرسل، وكرههم الشديد للمسلمين السنين، ومن أبرز زعمائهم حمزة بن علي بن محمد

الأشراف الذين كانوا موضع رعاية سلاطين المماليك بحكم انتمائهم إلى آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم كان معظمهم على المذهب الزيدي و لا يتورعون الجهر بذلك كإضافة " حي على خير العمل"[1]. وكذلك ما ذكره المقريزي من أن بعض الثوار عندما يخرجون في شوارع القاهرة للتعبير عن بعض احتجاجاتهم على السلطة كانوا ينادون بأصوات جماعية "يآل علي" وذلك في الميادين العامة والأسواق[2].

والواقع أن المجال هنا لا يتسع لحصر حركات التشيع التي ظهرت في مصر في عصر المماليك، ولكن الذي يهم هو الدور الذي قام به سلاطين المماليك يعاونهم في ذلك نخبة من علمائهم في محاربة التشيع ودرء خطره على الأراضي المصرية، والذي تبناه سلاطين المماليك منذ بداية ظهور دولتهم، فقد أشارت المصادر أن السلطان بيبرس لم يكتف في محاربة التشيع بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة، بل تعدى ذلك بأن أمر سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م بحمل الناس على اتباع المذاهب السنية الأربعة، ومنع الناس اتباع ما عداها ، كما حصر وظائف القضاء ومهام التدريس والخطابة وإمامة المساجد على اتباع هذه المذاهب[3].

والواقع أن هذا الإجراء الذي أقدم عليه بيبرس يعد – في نظر الباحثة – إجراء في منتهى الحكمة والسداد إذ إنه أراد بذلك ترسيخ المذهب السني في

الزوزني (٣٧٥هـ- ٤٣٠هـ)/ (٩٨٥-١٠٣٨م) ويعتبر المؤسس لهذه الفرقة، أما أبرز زعمائهم الحاليين فهم أسرة جنبلاط بلبنان.

لمزيد من المعلومات انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص٢٢٣- ٢٢٧؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٤، ص٢٥٩؛ علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، ص٣١٩-٣٢٠؛ يوسف الشيخ عيد: أثر الحركات الباطنية، ص١٠٣- ١٠٩ .

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٥٤.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٤٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣- ١٤؛ المقريزي: الخطط، ج٤، ص١٦٧؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٣٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢١؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٥٦.

الأراضي المصرية وغيرها من البلدان التي خضعت للدولة المملوكيــة، وذلــك بطريقة هادئة تؤدي لتصحيح الاتجاه الفكري لدى عامة الناس وخاصتهم. إذ إن التعليم والقضاء والخطابة والإمامة تعد الركيزة الأولــى فــي توجيــه الاتجــاه الفكري لأي مجتمع من المجتمعات، وقد تحقق هذا بالفعل على يــد عــدد مــن علماء مصر الأجلاء وقضاتها وأئمتها الذين قاموا بالمهمة التي أوكلهــا إلــيهم بيبرس ونجحوا إلى حد كبير في تقليص التشيع في الأراضي المصرية، ولعــل خير وصف لهذا الأمر هو ما ذكره أحد المؤرخين الذي كان قد وصف التشــيع في مصر "جف حتى خف"[١] بأنه بعد أن بلغ أبشع صوره قبل قيام دولة الأيوبيــة و المماليك ، إلا أن محاربته من قبل سلاطين دولة المماليك وعلمائها أدى إلــى تراجعه بعد أن كان قــد تفشــى فــي أراضــي الصــعيد و خاصــة مــذهب الرافضة.الذي يمكن استنتاجه من هذه العبارة وغيرها أن التشيع في الأراضــي المصرية لم تستأصل شافته كلياً ، يؤكد ذلك قول المؤرخ نفسه في موضع أخر من كتابه : " أنه خف بل وقل"[٢]. وعليه فقد استمر علماء أهل السنة والجماعة بالدولة المملوكية في محاربة التشيع بكل ما أتوا من حجة، ولعل أبلغ دليل على ذلك تلك الفتوى الشهيرة الذي أصدرها أعظم علماء ذلك العصــر وهــو شــيخ

---

(١)الآدفوي: الطالع السعيد، ص٣٨.

(٢)الآدفوي: الطالع السعيد، ص٣٩.

الإسلام ابن تيمية ضد بعض الطوائف الشيعة وخاصة الرافضة منهم والذين اعتبرهم أشد خطراً على أمة الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس وأفتى بمحاربتهم[(١)].

وإذا ما انتقلنا للحديث عن التوجه الفكري لدولة المماليك في بلاد الشام فإن الأمر – يبدو للباحثة – أكثر خطورة منه في الأراضي المصرية إذ كانت بلاد الشام مرتعاً لعدد كبير من طوائف التشيع وأهل البدع، ويأتي في طليعة الفرق الضالة التي واجهها العلماء في بلاد الشام خلال العصر المملوكي طائفة الإسماعيلية[(٢)]. التي اشتهر أفرادها بتنفيذ حوادث الاغتيالات ضد خصومهم وخاصة أهل السنة والجماعة فضلاً عن تحالفهم مع الصليبيين[(١)].

---

(١) ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج١٨، ص٩١.

(٢) الإسماعيلية: صنفهم الشهر ستاني على اعتبار أنهم فرقة من فرق الشيعة، وقد يطلق عليهم لفظ الحشاشون أو الباطنية، وتنسب هذه الفرقة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، أما مؤسسها فهو الحسن بن محمد الصباح، وهو واضع مبادئها، وباستيلائه على قلعة الموت عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م بدأت تظهر الإسماعيلية ككيان مستقل. ومن أبرز ما اتصفت به هذه الطائفة سلسلة الاغتيالات التي كانت تقوم بها ضد الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي. وإضافة إلى قلعة الموت فقد استولى على عدة قلاع أخرى هي مصياف والقدموس وبانياس والخوابي والكهف والمرقب والعليقة. لمزيد من المعلومات انظر: الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١٩٥؛. محمد بن أبي الفضائل: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة وكيفية مذهبهم وبيان اعتقادهم . النوبختي: فرق الشيعه، ص٧١ وما

ورغم أن هؤلاء الإسماعيلية بادروا بإرسال وفد إلى بيبرس يحمل الهدايا الثمينة حيث استقبلهم بالكرك سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢ م. إلا أن بيبرس كان يضمر في نفسه التخلص منهم، لمعرفته المسبقة بأن لا أمان لهم ولا عهود. وكانت الخطوة الأولى التي اتبعها ضدهم هو أنه أجبرهم على التوقف عن دفع الجزية للصليبيين خاصة تلك المبالغ التي كانوا يحملونها لفرسان الداوية[٢]

بعدها؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج٣، ص٧٥٧- ٧٨١؛ الموسوعة الميسرة في الأديان ، ص٤٥- ٥٢؛ عثمان عبد الحميد العشري: الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ٤٩١- ٦٩١هـ / ١٠٩٧- ١٢٩١م، ص٢-٣٥؛ علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ٥٨٩- ٦٥٧هـ/ ١١٩٣- ١٢٥٨م، ص ٢٢٧- ٢٢٨، هامش ٢؛ فرهاد دفتري: مختصر تاريخ الإسماعيليين؛ عادل العبد الجادر:كشف الأسرار ونقل الأفكار؛ أنور الجندي: تاريخ الإسلام في مواجهة =التحديات، ص١٢٢- ١٢٤؛ عبد المنعم النمر: المؤامرة على الكعبة من القرامطة إلى الخميني تاريخ ووثائق ؛محمد المقدم: الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة، زمن الحروب الصليبية ،ص٦٦-٧٤.

(١) للوقوف على تفاصيل أكثر انظر العشري: الإسماعيليون في بلاد الشام، ص٢٠٧- ٢٠٩؛ عبد المنعم النمر: المؤامرة على الكعبة؛ يوسف الشيخ عيد: أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين.

(٢) الداوية: عرفت هذه الفرقة باسم " فرسان المعبد" أو الداوية أو الديوية أو "جنود السيد المسيح الفقراء" وكان ظهور هذه الفرقة بعد بداية الحروب الصليبية وتمركز الصليبيين داخل بلاد الشام عام ١١١٨م/٥١٢هـ، وكان الهدف من إنشاء هذه الفرقة حماية طرق الحجاج من هجمات المسلمين عليها، وقد بدأت تظهر فكرة تأسيس هذه الفرقة عندما وصل إلى الأرض المقدسة فرسان من أصل فرنسي، وأعطى هؤلاء الفرسان من قبل بطريك بيت المقدس جاريموند والملك بالدوين الثاني تقليداً سنة ١١١٨م/٥١٢هـ بإنشاء هيئة حربية، تقوم بحماية المسيحيين ومحاربة المسلمين، وكان لهذه

والاسبتارية[1] في بلاد الشام ، حيث أجبرهم على حمل تلك المبالغ إلى مصـــر لإنفاقها في عملية الجهاد ضد الصليبيين والمغول معاً[2].

وبما أن سلاطين المماليك اتخذوا من العلمـــاء وزراء ومستشـــارين فمـــن الأرجح أن يكون للعلماء دور في تأيد هذه الإجـــراء الـــذي اتخـــذه بيبـــرس ، بتحويل تلك الإتاوة التي كان يدفعها الإسماعيلية للصليبيين إلى خزانة بيت مـــال المسلمين، ورغم ذلك فإن بيبرس كما ذكرنا سابقاً لم يكن يأمن مكرهم، لهذا بدأ بإجراءات فعلية لاستئصال شافتهم من بلاد الشام ، وكانت الخطوة الأولى فـــي هذا المجال هي إقدام بيبرس على إصدار قرار بعزل زعيمهم في الشام ، نجـــم الدين حسن الشعراني[3]، بسبب تجرئه على مطالبة السلطان بيبرس بتخفـــيض المبالغ التي كان يدفعها الإسماعيليون إلى بيت المال، وتعيـــين صـــارم الـــدين

الفرقة لباس خاص بهم وهو عبارة عن رداء أبيض وضع عليه شعار الصليب بلـــون أحمـــر، وقـــد امتازت هذه الفرقة بالتنظيم والترتيب والشجاعة وحسن التدريب، وما لبثت هذه الفرقة أن أصـــبحت فرقة حربية في المقام الأول وأصبحت ذات ثروات هائلة وبالتالي صارت كيان سياسي مستقل. نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشـــر، ص٦، ١٨، ٢٠ -٢٥.

(١) الاسبتارية: ظهرت هذه الفرقة بغرض الاعتناء بالمرضى وتأسيس مستشفيات على طول طريق الحـــج للعناية بالحجاج النصارى، وكان هذا قبل بداية الحروب الصليبية، وقد قامت هذه الطائفة على أسس ثلاث هي الفقر والعفة والطاعة، كما ارتدى أفراد هذه الطائفة رداءً أسود طويلاً وضع عليه شـــعار= =الصليب بلون " أبيض"، وقد بدأت هذه الطائفة بالانخراط تدريجياً في صفوف المقاتلين الصـــليبيين حتى أصبحت من ضمن أشهر الفرق المحاربة ضد المسلمين أبان الحروب الصليبية، وعلى الـــرغم من تغير مفهومها من فرقة بدأت من أجل تمريض الحجاج والعناية بهم إلى فرقة حربية في المقـــام الأول إلا أنها لا زالت رغم ذلك متمسكة بهذا العمل الذي نشأت من أجله. نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الرهبان، ص ١٨، ٢٤- ٢٠.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٥٧؛ العشري: الاسماعيليون في بـــلاد الشـــام، ص٢٠٧- ٢٠٩؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٦٥؛ الحركة الصليبية، ج١، ص٤٨٦.

(٣) لم أقف له على ترجمة.

مبارك ابن الرضا[1] بدلاً عنه حيث تسلم صارم الدين زعامة الإسماعيلية في حصن مصياف[2] وذلك سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م. وزيادة في الاحتياط منهم، حرص بيبرس على أن يرافق صارم الدين نائبٌ عنه في إدارة الحصن[3] ثم أتبع بيبرس هذه الخطوة بخطوة أخرى أكثر جرأة وهو أنه أصدر قراراً آخر نص على ضرورة السيطرة المباشرة وتطويعهم بحيث أصبحوا خاضعين الأوامره [4].

ولم يقتصر الأمر في بلاد الشام على طائفة الإسماعيلية، بل كان إلى جانبهم طائفة أخرى تعرف بالنصيرية[5] التي كانت عبارة عن معول هدم

---

(١) لم أقف له على ترجمة.

(٢) حصن مصياف: هوقاعدة حصون الإسماعيلية التي تقع في بلاد الشام وهو يقع شرقي طرابلس وحماة وبها قلعة حصينة في أعلى جبل اللكام ،وهي بلدة عظيمة وبها عدد من الأنهار.القلقشندي: صبح الأعشي، ج٤، ص١١٧.

(٣) انظر سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص٨٣؛ عثمان عبد الحميد عشري: الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ٤٩١- ٦٩١هـ/ ١٠٩٧- ١٢٩١م، ص٢١١. يبدو أن خوف بيبرس من خيانة صارم الدين هو الذي دفعه إلى تعيين نائب من قبله مع صارم الدين ليكون عين بيبرس يزوده أولاً بأول بكل تصرفات صارم الدين.

(٤) انظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٧٩- ٢٩٨- ٣٠٢- ٣٠٤- ٣٠٧؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٥٩؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٢١٩- ٢٢٠.
من هذا يتضح للباحثة أن بيبرس قصد بذلك أن ينقل الإسماعيلية إلى مصر ليراقب تصرفاتهم عن كثب، ولينصهروا في المجتمع المصري السني فتختفي تلك الطائفة تلقائياً، ولكن الذي سكتت عنه المصادر التي بين أيدينا والتي تسنّى لنا الاطلاع عليها هو: هل أثر الإسماعيلية في المجتمع المصري، وهل أخذوا يدعون لمبادئهم ودعوتهم داخل المجتمع المصري ؟ ذك الذي لم نتمكن من الوصول إليه.

(٥) يوسف إبراهيم الشيخ عيد: أثر الحركات الباطنية، ص٩٧. والنصيرية: تعتبر فرقة من الفرق الشيعية وهم من المتشددين لمبادئهم ؛ بدأت بالظهور في القرن الثالث الهجري؛ أسس هذه الفرقة أبو شعيب محمد بن نصير النميري (ت ٢٧٠هـ/٨٨٣م) وهو ذو أصل فارسي، من أهم عقائدهم تأليه على بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وتعظيم الخمر، الإباحية، ولا يلتزمون بالطهارة والصلاة وصلاة الجماعة وينكرون الحج والزكاة. ولهم طقوس أخرى خاصة بهم. لمزيد من المعلومات انظر: أبو الفتح الشهرستاني: المال والنحل ج٢، ص٢٤. الموسوعة الميسرة في الأديان ، ص٥١١- ٥١٦؛ على الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، ص٣٢٠؛ يوسف الشيخ عيد، أثر الحركات الباطنية،

آخر في جدار الأمة الإسلامية في بلاد الشام على مدى قرون عدة، فقد وصفهم شيخ الإسلام ابن تيمية بأنهم "مع كل عدو للمسلمين" واشتهروا بمعاداتهم العلنية لأهل السنة والجماعة، والواقع أن سلاطين المسلمين تنبهوا لهذه الطائفة وخطورتها على المجتمع الإسلامي ،وقد حاول صلاح الدين الأيوبي إصلاح هذه الطائفة في القرن ٦هـ/١٢م، حيث قام ببناء المساجد وإقامة الصلاة جمعة وجماعة في ديارهم فأطاعوه لبعض الوقت، ثم ما لبثوا أن نكسوا على أعقابهم بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي وخربوا المساجد، وجعلوها زرائب للحيوانات[١] وعندما نجح سلاطين المماليك في ضم بلاد الشام إلى سلطتهم سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، ألزمهم بيبرس ببناء تلك المساجد وإقامة الصلاة الجمعة والجماعة في ديارهم فامتثلوا لأمره، ولكن ذلك لمجرد تقية منهم ـ على ما يبدو- حيث حرصوا بمكرهم المعهود على جعل تلك المساجد خارج نطاق العمارة في ديارهم ولم يكونوا يرتادونها إلا نادراً وذلك مراءاة لبيبرس، أما عندما يأمنون عقابه فإن تلك المساجد تكون مأوى لمواشيهم ودوابهم . واللافت للنظر هنا أن الغريب من أهل السنة والجماعة إذا مر بديارهم في طريق سفره يأوي إلى تلك المساجد فيؤذن فيها ولا يجيبه أحد، بل إن البعض منهم كانوا يتهكمون به ويخاطبونه كما يخاطبون البهائم، فقد ذكر الرحالة ابن بطوطة أن من العبارات التي كانوا يرددونها قولهم " لا تنهق علفك يأتيك"[٢].

ولا شك أنه كان للعلماء دور كبير في مواجهة هذه الطائفة منذ وقت مبكر وذلك لما عليه أصحابها من فساد المعتقد، وقد استمر ذلك التصدي لهذه الطائفة طوال العصور السابقة،وبلغ أوجه في العصر المملوكي، ولعل أبلغ دليل على هذا الفتوى الشهيرة التي أصدرها شيخ الإسلام ابن تيمية حين

ص٩٧- ١٠٣ دائرة المعارف الإسلامية، مادة نصيري؛ الزركلي: الأعلام،ج٢، ص٢٥٤. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ، ج٤، ص٢٦٥.

(١) يوسف الشيخ عيد: أثر الحركات الباطنية، ص١٠٢.

(٢) انظر: رحلة ابن بطوطة، ج١، ص٦٥.

حرض سلاطين المماليك على قتالهم واعتبر جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات وأن خطرهم على المسلمين أكثر من خطر المشركين وكذلك اليهود والنصارى والمجوس، كما حذر من استخدامهم في ثغور المسلمين وحصونهم واعتبر استخدامهم بمنزلة من يستخدم " الذئاب لرعي الغنم وأنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمرهم وأن على ولاة أمر المسلمين أن يستخدموا بدلاً عنهم من يحتاجونهم من الرجال المأمونين على دين الإسلام "[1].

وما قيل عن النصيرية يمكن أن يقال أيضا عن الدروز. الذين كانوا يمثلون شريحة من شرائح سكان بلاد الشام في ذلك الوقت، والواقع أن هذه الطائفة كانت عامل هدم آخر في جدار وحدة الأمة آنذاك، ولذلك سعى الحكام المسلمون وبتأييد كامل من علماء أهل السنة والجماعة للتصدي لضلالتهم وبدعهم ودحر معتقداتهم الفاسدة وتحذير عامة الناس وخاصتهم من مذهبهم، وقد تصدى لهم علماء الأمة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي. ويكفي هنا أن نشير إلى فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية فيهم حيث وصفهم بقوله: " كفر هؤلاء مما لا يختلف فيه المسلمون، بل من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم، لا هم بمنزلة أهل الكتاب ولا المشركين ، بل هم الكفرة فلا يباح أكل طعامهم، وتسبى نساؤهم، وتؤخذ أموالهم. فإنهم زنادقة مرتدون لا تقبل توبتهم، بل يقتلون أينما ثقفوا، ويلعنون كما وصفوا، ولا يجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفاظ

---

(١) "هؤلاء "الدرزية" و"النصيرية" كفار باتفاق المسلمين، لا يحل أكل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم، بل ولا يقرون بالجزية، فإنهم مرتدون عن دين الإسلام ليسوا مسلمين؛ ولا يهود ولا نصارى ... "انظر نص الفتوى لابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ج١٨، ص٩١- ٩٨؛ يوسف الشيخ عيد، أثر الحركات الباطنية، ص٢٨١- ٢٨٤. كما رد ابن تيمية على غلاة الشيعة في كتابه "منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية" انظر ابن تيمية: منهاج السنة، ج٨ ص١٣٤، نقلا عن مي شحاتة: المغول في كتابات ابن تيمية، ص٩٨؛ رسالة ماجستير لم تطبع، جامعة الملك عبد العزيز، عام ١٤٢٧هـ.

ويجب قتل علمائهم وصلحائهم لئلا يضلوا غيرهم، ويحرم النـوم معهـم فـي بيوتهم ورفقتهم، والمشي معهم ، وتشييع جنائزهم إذا علم موتها، ويحرم علـى ولاة أمور المسلمين إضافة ما أمر الله من إقامة الحدود عليهم بأي شيء يـراه المقيم لا المقام عليه والله المستعان وعليه التكلان(١).

وختاماً نقول: إن علماء الدولة المملوكية، قد قاموا بدور فاعل في مواجهة أتباع هذه الفرق الضالة، وحاولوا بكل ما أوتوا من قوة القضاء علـى الـبعض منها والتضييق على البعض الآخر وتحذير ولاة الأمـر مـن الركـون إلـيهم والاستعانة بهم في تسيير أمور دولتهم .

(١) ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج١٨، ص ٩٨- ٩٩.

الفصل الثاني

العلمـــــــــاء والســــلطة

- علاقة العلماء بالسلاطين والأمراء.
- العلماء في مواقع النفوذ.
- جهود العلماء في درء المفاسد الإدارية.
- العلماء حكاماً ونواباً.

المبحث الأول
علاقة العلماء بالسلاطين والأمراء

كان قيام دولة المماليك في مصر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وليد ظروف سياسيه و حربية معينة فرضتها عليها الأوضاع السيئة التي مر بها العالم الإسلامي آنذاك ، ففي مصر كانت بقايا الحملة الصليبية السابعة التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع على الأجزاء الشمالية من مصر لم تكن قد انتهت، وفي الشام لازال الصليبيون يحتلون عدداً من المدن الساحلية، إضافة إلى أن جحافل المغول كانت تدكّ حصون مدن الدول الإسلامية الواحدة تلو الأخرى.

كل تلك العوامل والأسباب جعلت من دولة المماليك دولة جهادية في المقام الأول، الأمر الذي دفع سلاطين دولة المماليك إلى إحاطة دولتهم الفتية بكوكبة من العلماء الأجلاء المشهود لهم بالاستقامة ليكسبوها صبغة دينية، وحتى تكون هذه الدولة موضع قبول وثقة لدى العامة والخاصة قد حرص سلاطين هذه الدولة على تقريب العلماء واستشارتهم في أحلك الظروف، وهذا ما فعله السلطان قطز عشية التجهيز لمعركة عين جالوت حيث استفتى العالم الجليل العز بن عبد السلام في أخذ أموال الناس للاستعانة بها في تعبئة الجيش، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في قلوب الناس، خاصة بعد غياب الخلافة العباسية عن مسرح الأحداث، وذلك بعد سقوطها على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ومن ثم إقدام الظاهر بيبرس من إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م ليضفي بهذا العمل على القاهرة صفة الزعامة الدينية إلى جانب الزعامة السياسية بحكم أنها عاصمة دولة المماليك، حيث أصبحت القاهرة تضم بين جنباتها الخلافة والسلطة، وأضحت محط رحال العلماء والأدباء يفد إليها كل صاحب علم، وبذلك احتل العلماء مكانة مرموقة في المجتمع المملوكي. زخرت مجالس سلاطين المماليك بالعلماء والفقهاء والأدباء، الذين كانوا يؤمنون إيماناً تاماً بأنه، "باتفاق العلماء وأصحاب السلطان وتعاونهم في الخير يصلح أمر البلاد والعباد، فالعلماء ورثوا من مقام النبوة

العلم ، وأهل السلطان ورثوا من مقام النبوة القوة"[1] كما يصدق على هذا الحال مقولة أبي الأسود الدؤلي[2] التي جاء فيها أنه: "ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك"[3] ومن هذا الأقوال تتضح لنا أهمية تقريب السلاطين والأمراء للعلماء، وذلك لإبداء النصح والمشورة لهم، فضلاً عن أن العلماء يعتبرون في غالب الأحيان عين السلاطين على الشعوب ينقلون إليهم همومهم ومتاعبهم واستياءهم من الولاة، وفيما يلي سنعرض بعض جوانب علاقة السلاطين والأمراء بالعلماء، ونبدؤها بمسألة مشاركة العلماء في عزل سلطان وإقامة آخر مكانه، فالمعروف أن سلاطين دولة المماليك لم يستطيعوا الخلاص من ظاهرة اعتلاء عرش الدولة سلاطين صغار السن ويكونون أداة طيعة في أيدي بعض الأمراء الكبار أو المنفذين الذين مارسوا سلطتهم كأوصياء على أولئك السلاطين القصر، الأمر الذي طالما أفضي إلى تدهور واضح في الأوضاع السياسية والاقتصادية والإدارية، وإلى حدوث ثورات وحركات عصيان داخلية، وذلك بسبب تنافس الأمراء، وانعدام سلطة الحاكم الفعلية والذي ينتهي في الغالب إلى عزل السلطان الصغير وتعيين آخر مكانه يكون قادراً على تحمل أعباء الحكم. ويكون للعلماء كلّ دور فاعل وواضح في هذا المجال، من ذلك ما حدث عام٦٥٧هـ / ١٢٥٨م عندما كان المغول على مشارف بلاد الشام، وسلطان البلاد

---

(١) خلود البدنة: الأسرة العلمية في مكة المكرمة وأثرها على الحياة العلمية والعملية خلال العصر المملوكي (٦٤٨- ٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير لم تطبع، جامعة أم القري، عام ١٤٢٥هـ، ص١٤٨.

(٢) هو ظالم بن عمرو الدؤلي من كنانة، لازم على بن أبي طالب رضي الله عنه وشهد معه صفين، وأخذ عنه علم النحو، فهو الواضع لعلم النحو توفي بالبصرة سنة ٦٩هـ / ٦٨٨م. ابن العماد: شذرات، ج١، ص١١٤-١١٥. أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص١٦-٢٠.

(٣) خلود البدنة: الأسرة العلمية، ص١٤٨.

المصرية هو الملك المنصور علي[1] الذي كان صغيراً لا يحسن إدارة أمور الدولة ومواجهة ذلك الخطر الداهم، حيث أمر قطز بوصفه أحد الأمراء الغيورين على حال الأمة آنذاك بجمع الأمراء والأعيان والعلماء، وكان من جملتهم المؤرخ كمال الدين بن العديم الحنفي[2] حيث تشاوروا فيما بينهم حول مسألة استمرار المنصور على سلطاناً على الدولة أو عزله وذلك لصغر سنه ،ولعدم درايته وقدرته بتدبير أمور الدولة، وقد توصل المجتمعون في نهاية الأمر إلى ضرورة أن يتولي الحكم سلطان راشد يجمع كلمة المسلمين ويعد للأمر عدته وذلك بإعداد جيش يتمكن من مواجهة خطر المغول المرتقب، فوقع اختيار أهل الحل والعقد من الأمراء والعلماء في القاهرة على قطز نفسه ليتولى أمر سلطنة المماليك في القاهرة[3] لما كان يتمتع به من دراية بميادين السياسة والإدارة والحرب كي يتخذ التدابير الكافية والمناسبة لإنقاذ أراضي الدولة المملوكية في مصر من خطر الغزو المغولي المرتقب. وهذا ما حدث بالفعل فقد نجح قطز بفضل حكمته وشجاعته واستعانته بالرجال الأكفاء من العلماء والقادة وغيرهم في إنقاذ مصر من ذلك الخطر بعد أن تحقق له ذلك النصر المبهر في معركة عين جالوت التي دارت رحاها بين المماليك والمغول داخل العمق الفلسطيني في رمضان سنة ٦٥٨هـ /١٢٦٠م.

---

(١) المنصور علي: هو علي بن أيبك التركماني، تسلطن بعد مقتل والده سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م، وخلعه المظفر قطز سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م، وتوفي في القسطنطينية بعد أن نفاه الظاهر بيبرس إلى= =القسطنطينية هو وأخوه ووالدته . ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٥١؛ النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥٢.

(٢) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أحمد بن يحي بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة عامر بن ربيعة بن خويلد بن عوف بن عامر بن عقيل العقيلي الحلبي، ويلقب بأبي القاسم المعروف بكمال الدين بن العديم، ولد بحلب سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م، درس الحديث على يد والده وعمه، وقد درس وأفتى وألف الكتب وبرع في علوم عديدة. وقد ألف تاريخاً عظيماً لحلب. يعتبر من الرؤساء في الدولة الأيوبية، كما كانت له مكانة في دولة المماليك توفي بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م. العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٣٩-٣٤٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٠٣؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٩٣.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥٢.

والواقع أن دولة المماليك قد عانت كثيراً من مشكلات وراثة العرش وبالأخص عندما يتولى العرش سلاطين صغار السن، الأمر الذي دفع العلماء إلى التدخل لعزل سلطان وإحلال آخر محله، ومن ذلك ماحدث أيضاً سنة ٦٧٨هـ / ١٢٨٩م. فقد أقدم سيف الدين قلاوون على خلع الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس من الحكم وذلك لصغر سنه، وقد وافقه على ذلك عدد من الأمراء والأعيان والقضاة والعلماء الذين نادوا بقلاوون سلطان بدلاً عنه ولقبوه بالملك المنصور، والذي استطاع بما يتمتع به من صفات إدارية وحربية من مواجهة الأخطار التي كانت تهدد دولة المماليك في الشام من قبل المغول والصليبيين على حد سواء[1].

واللافت للنظر هنا أنه بالرغم من هذا الدور الإيجابي الذي قام به العلماء في عزل سلطان وتولية آخر متى ما ثبت عدم صلاحية لولاية أمر المسلمين، فإن هناك فئة من العلماء قد وقعت في المحظور وأقرت بولاية العهد لبعض الأمراء الذين لم يكونوا أهلاً لولاية أمر المسلمين.

من ذلك ما حدث عند إقدام بيبرس على أخذ موافقة كبار رجال الدولة على إسناد ولاية العرش إلى ابنه السعيد بركة سنة ٦٦٦هـ /١٢٦٧م حيث جمع عددا من القضاة والشهود والأعيان وأخذ موافقتهم لتحليف الأمراء والأجناد لابنه السعيد بركة الذي لم يكن مؤهلاً لأن يلي منصب السلطة في القاهرة[2]. لكونه لم يكن يمتلك من القدرات الإدارية والسياسية والعسكرية ما يؤهله لأن يخلُف والده في حكم الدولة المملوكية في مصر والشام.

---

(١) ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ج٦، ص٩٤؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٤٨؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢،ص٦٦٤-٦٦٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٤٤؛ قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٤٣.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٣٨؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٧٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠٣.

وقد تكرر الموقف ذاته مع الملك الناصر محمد بن قلاوون فبعد مقتل أخيه الملك الأشرف خليل بن قلاوون سنة٦٩٣هـ/١٢٩٣م، لم تكن هناك ولاية للعهد، لذلك اضطر الأمراء في مصر لإخفاء خبر وفاة الملك الأشرف على نوابه في بلاد الشام ، وذلك حتى يأخذوالبيعة للناصر محمد، فقد قام الأمير عز الدين أيبك الحموي[1] نائب دمشق بجمع "الأمراء والمقدمين والقضاة والأعيان" وقام بتحليفهم للملك الناصر محمد[2]، وذلك حتى يضمن ولاء نواب الشام للسلطان الناصر محمد. وقد شهدت ولايته الأولى كثيراً من الاضطرابات وذلك لصغر سنه[3]. وما قيل عن الأشرف خليل يمكن أن يقال عن الأشرف برسباي[4] فعندما أحس الأشرف بدنو أجله عقد مجلساً حضره الأمراء والخليفة المعتضد بالله[5] والقضاة الأربعة وذلك في سنة ٨٤١هـ ١٤٣٧م، كي يشهدهم على إسناد ولاية العهد لابنه سيدي يوسف[6]، ويأخذ إقرارهم بذلك[7].

---

(١) هو أيبك بن عبد الله التركي الحموي، تولى نيابة دمشق ثم صفد ثم حمص ومات بها سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي ن ج١ ، ص١٦٢.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٩٤-٧٩٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٨٤-٣٨٥؛ البرزالي: المقتفي، ج٢،ص٣٤٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١،ق١،ص٣٧٨؛ زيتريشتين: تاريخ سلاطين المماليك، ص٥٣-٥٤.

(٣) مؤرخ مجهول: تاريخ الملك الأشرف قايتباي، ص٦٤.

(٤) الملك الأشرف أبو النصر برسباي بن عبد الله الدقماقي الظاهر الجركسي، تولى السلطنة ٨ ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ ١٤٢١م، اعتبر من أعظم ملوك الجراكسة، توفي ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م. من أهم أعماله فتح قبرص. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص١٨٦؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠٩.

(٥) المعتضد بالله: أبو الفتح أبو بكر بن المستكفي سليمان بن الحكم أحمد العباسي، بويع بالخلافة سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م، توفي في جمادي الأولى سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٨٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١٩٧-١٩٨.

(٦) هو العزيز يوسف بن الأشرف برسباي، تولى السلطنة وعمره أربع عشرة سنة وسبعة أشهر، توفي بالإسكندرية في محرم سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م وعمره أربعين سنة. العيني: عقد الجمان، حوادث عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م، ص٥٠١، ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٧٩٩؛ ابن العماد: ج٧، ص٣٠٩.

(٧) المقريزي: السلوك، ج٤،ق٢،ص١٠٤٣- ١٠٤٤؛ العيني: عقد الجمان:تراجم و حوادث سنوات من (٨٢٤-٨٥٠هـ) ص٤٩٨-٨٩٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٠٣-١٠٤؛

والملاحظ أن بعض العلماء والقضاة فقد وظيفته ثمناً لإصراره على موقف معين في هذا المجال، من ذلك ما ذكره المؤرخ ابن كثير من أن القاضي تقي الدين بن رزين[1] عُزِلَ من منصب القضاء عندما رفض الموافقة على عزل الملك السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس من السلطنة وإحلال أخيه العادل سلامش محله . وذلك على يد العادل سلامش نفسه الذي أقدم على هذا الإجراء انتقاماً من هذا القاضي[2]، كما يبدو.

ومن هذا نخلص إلى حقيقة هامة وهي أن العلماء تارة يمارسون دوراً إيجابياً تجاه الحياة السياسية في الدولة المملوكية، وذلك بالمشاركة في عزل السلاطين متى ثبت تقصيرهم في رعاية مصالح الناس، بينما مارس فريق آخر منهم وهم قلة – كما يبدو للباحثة – دوراً سلبياً تمثل في محاباة السلاطين ،بمساعدتهم في تحقيق أهدافهم في إسناد ولاية العهد لأبنائهم دون مراعاة مدى أهليتهم لتولي السلطنة.

ومن مظاهر علاقة السلاطين بالعلماء تخلي العلماء عن مناصبهم التي كانوا يشغلونها احتجاجاً على السلطة الحاكمة، وعلى الأوضاع السياسية الخاطئة، وذلك عندما يعجز العلماء عن إقناع السلاطين أو الأمراء بتغيير تلك الأوضاع، من ذلك ما أقدم عليه قاضي القضاة ابن دقيق العيد عندما عزل نفسه من القضاء، وحاول الأمراء استرضاءه بأن يعود لمنصبه لكنه واجه محاولات إثنائه عن قراره ذلك بالرفض التام[3]. وذلك لما اعترى الدولة المملوكية آنذاك

الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٤١٤-٤١٧؛السخاوي : وجيز الكلام، ج٢،ص٥٥٤؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج٥، ص٣٣.

(١) هو تقي الدين أبو عبدالله محمد بن الحسين بن رزين بن موسى العامري الحموي الشافعي. شيخ الإسلام، وقد تولي عدداً من المناصب، توفي في ٣ رجب سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م. انظر: ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٦١٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٦٨-٣٦٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣١٣.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٢؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤، ص٤٨١-٤٨٣.

من تدهور في الأحوال السياسية والإدارية التي انتابت الكثير من مرافق الدولة، فقد عاصر هذا العالم الجليل حقبة التقلبات السياسية والصراعات التي حدثت بين عدد من الأمراء أبان حكم الناصر محمد بن قلاوون، حيث تشير المصادر إلى أن كبار الأمراء في دولة الناصر محمد حاولوا إجبار القاضي ابن دقيق العيد سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م على إصدار فتوى مفادها جواز أخذ أموال الرعية إذا طرق العدو بلاد المسلمين، وذلك بسبب اقتراب خطر المغول، لكن الشيخ رفض ذلك بسبب إسراف الأمراء وتنافسهم في الملبس والمأكل وغيرها من أساليب الترف والبذخ(١).

ومن الأدلة على ذلك أيضاً ما فعله القاضي عز الدين بن جماعة(٢) الذي عزل نفسه من منصب القضاء احتجاجاً على الأوضاع نفسها ، وأصر على تخليه عن منصب القضاء لدرجة أن "الأمير الكبير يلبغا"(٣)حاول استرضاءه، واستعان في ذلك بجماعة من القضاة والأعيان لكي يقنعوه بالعدول عن

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٩٧-٨٩٨ ؛ العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٧٢-٧٥؛ والذي يجدر ذكره هنا أن بعض المصادر أشارت إلى أن ابن دقيق العيد قد تراجع عن قراره هذا عندما أخبره بعض المقربين منه بأن السلطان المملوكي سيسند منصب قاضي القضاة إلى قاضي غير كفء، حيث بادر إلى قبول طلبهم بالعودة إلى منصب القضاء قائلاً "الآن وجب على قبول الولاية" انظر الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤، ص٤٨١-٤٨٣؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٣،ص١٢.

(٢) عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني، ولد سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، تولي قضاء الشام وحدث وأفتى بها، وله تصانيف كثيرة، عرف عنه الصلاح وحسن الأخلاق، برع في عدد من العلوم، كما درس الفقه والحديث، وتولى وكالة بيت المال إلى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م حيث عزل نفسه من جميع المناصب تعففاً، ثم حج وجاور بمكة المكرمة، توفي بها سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م وكان رحمه الله نافذ الكلمة محترماً ومبجلاً عند السلاطين والأمراء . السبكي: الطبقات، ج١٠، ص٧٩-٨١؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٣١،٤٢٤؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤١٨؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٠٨.

(٣) يلبغا العمري الحسني الناصري الخاصكي الأتابكي، أستاذ الملك الظاهر برقوق، هو من مماليك الملك الناصر حسن، عظم شأنه حتى أصبح مدبر أمور السلطنة في مصر، قتل أستاذه السلطان الناصر حسن، فقتله مماليكه في ١٠ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٥م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٧٩٣.

قـــراره والعودة لمنصب القضاء، لكنه لم يقبل ذلك وأصر على عزل نفســـه(١). كما أن من العوامل التي دفعت القضاة إلى عزل أنفسهم من منصـــب القضـــاء تدخل الأمراء في شؤون القضاة أنفسهم، وربما عزل القاضي نفسه من منصـــبه تعففاً منه عن المنصب. وقد يضطر بعض القضاة لقبول منصب القضاء نتيجـــة إلحاح السلطان عليه، وبذلك يجد القاضـــي فرصـــة لفـــرض شـــروطه علـــى السلطان، ومن أمثلة ذلك ما فعله القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز الذي ألـــح عليه السلطان الظاهر بيبرس في قبول منصب قاضي قضاة الـــديار المصـــرية سنة ٦٥٩هـــ / ١٢٦٠م. ولكنه كان يتمنع، حتى إنه لجأ لنوع مـــن المماطلـــة، ولم يقبل بذلك حتى فرض شروطاً قاسية على السلطان الظاهر بيبرس ، الـــذي لم يجد بداً من قبول شروطه والانصياع لها، وذلك لثقة السلطان به ورغبته في أن يتولي منصب قضاء الديار المصرية(٢).

ومن مظاهر علاقة السلاطين بالعلماء إنكار العلمـــاء لـــبعض التصـــرفات الخاطئة أو الجائرة، التي تصدر من بعض الســـلاطين أو النـــواب أو الأمـــراء نتيجة جهلهم بأمور الدين أو انصياعهم لمشورة البطانة الفاسدة التي تزين لهـــم فعل بعض الأمور الجائرة، ومن ذلك ما حدث سنة ٦٧٣هـــ / ١٢٧٤م، عنـــدما عزم السلطان الظاهر بيبرس الخروج من مصر،لاستعادة الأراضي التي كـــان المغول قد استولوا عليها في بلاد الشام، بهدف تقسيمها علـــى جنـــوده، حيـــث تصدى له العلماء وأنكروا عليه فعله ذلك، وكان في مقدمة هـــؤلاء العلمـــــاء الإمام النووي(٣) الذي نصح الظاهر بيبرس بالعدول عن أخـــذ أمـــلاك النـــاس

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٧٤١-٧٤٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٤.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ، ج١، ص٤٤١؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٢٨٩.

(٣) هو محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعـــة بـــن حـــزام النووي، ولد في محرم سنة ٦٣١هـــ / ١٢٣٣م، كان من أعلام العلماء، وقد برع في علوم كثيـــرة توفي سنة ٦٧٦هـــ /١٢٧٧م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٧٧٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٥٤-٣٥٦؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٢٤-٢٥.

وحادثه في ذلك مراراً وهو بدار العدل، ومن ثم أرسل له رسالة مطولة تضمنت عدم جواز أخذ الأراضي والأملاك من أصحابها، وذكره بأن من جملة أصحاب هذه الأملاك أيتام وأرامل وضعفاء ومساكين، والسلطان ممن ينقاد لأوامر الشرع، فالأولى أن يطبقها هنا، فرد عليه الظاهر برسالة فهم الإمام النووي من محتواها أن السلطان الظاهر يجهل بعض أحكام الجهاد، فرد عليه الإمام برسالة مطولة، أوضح له فيها بعض أحكام الجهاد الخاصة بأخذ الأراضي، وأن هؤلاء الأجناد يأخذون رواتب من الدولة، فلا يصح أن يأخذوا أراضي غيرهم من المسلمين أو أن تقسم بينهم(١). ولم يقتصر الأمر على موقف الإمام النووي بل استفتى الملك الظاهر بيبرس القاضي شمس الدين أبو الحسن الشهرزوري(٢) في أخذ أراضي وأملاك الناس في بلاد الشام من يد أصحابها ، فرد عليه بكلام حاسم جاء فيه: "الماء والكلاء والمرعى لله تعالى لا تملك، وكل من بيده ملك فهو له" ثم قام من المجلس الذي انتهى بكلامه(٣).

ووافق كلٌ من الإمام النووي والقاضي الشهرزوري، قاضي الحنفية شمس الدين الأذرعي(٤) الذي رفض هو الآخر أخذ أراضي بلاد الشام من

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص١٠٨-١٠٩.

(٢) هو علي بن محمود بن علي أبو الحسن الشهرزوري. درس بدمشق في المدرسة القيمرية، توفي في شوال سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م؛ السبكي: الطبقات، ج٨، ص٣٠٠-٣٠١؛ البرزالي: المقتفي، ج١، ص٣٧٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٢٢.

(٣) عبد الله الشهري: دور العلماء المسلمين في الجهاد الإسلامي ضد المغول (٦١٦-٧٢٠هـ) /(١٢١٩-١٣٢٠م)رسالة ماجستير لم تطبع ، جامعة أم القرى، عام ١٤١٦هـ، ص١٣٣-١٣٥.

(٤) هو محمد بن عطاء بن جبير بن جابر بن وهب الأذرعي، قاضي القضاة شمس الدين أبو محمد، ولد سنة ٥٩٥هـ/ ١٢٧٤م وتوفي سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م. البرزالي: المقتفي، ج١، ص٣١٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٦٨، العيني: عقد الجمان، ج٢، ص١٣٥؛ الصفدي، الوافي، ج١٧، ص٥٨٢-٥٨٣.

أصحابها[1]، وغضب غضباً شديداً من قول السلطان. وانصرف من مجلسه مما أغضب الظاهر بيبرس في بادئ الأمر، لكنه سرعان ما سكن غضبه وأصبح هذا القاضي ذا خصوصية عند الظاهر وكان يمتدحه ويقول: "لا تثبتوا كتباً إلاَّعنه"[2] فالملاحظ أن هذا العالم الجليل قد حظي بتقدير السلطان الظاهر بيبرس وذلك بسبب إنصافه للحق ووقوفه في وجه السلطان من أجل إعلاء كلمة الحق، ولم يخش في ذلك لومة لائم ولم يسكته عن قول الحق مهابته من السلطان الظاهر.

ومن المظالم التي استطاع القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز إلغاءها وإزاحتها عن عاتق الرعية، تلك الضريبة التي كانت تأخذ من أموال الناس، فقد جرت العادة أحياناً أنه متى غزا المغول بلاد المسلمين يأخذ السلطان أجرة شهرين من أملاك الناس كل سنة، إلا أن القاضي ابن بنت الأعز أنكر ذلك ونجح في إقناع السلطان بإسقاط هذه الضريبة وتخليص الناس منها[3].

ومن صور مواجهة العلماء لتسلط السلاطين والأمراء والصدع بقول الحق في وجوههم، ما حدث عندما أراد الظاهر أخذ أموال الناس للاستعانة بها في جهاده ضد المغول، ووافقه بعض العلماء وأفتوه بجواز ذلك، فاعترض الإمام النووي على هذه الفتوى وتكلم مع الظاهر بيبرس في ذلك كلاماً جاداً، وأصر على رفض ذلك الأمر ، فما كان من الظاهر إلا أن أمر بإخراجه من دمشق، وذلك سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م فأخرج منها إلى مدينة نوي[4]الأمر الذي أثار حفيظة بعض العلماء من ذلك القرار الذي اتخذه بيبرس. وقابلوا بيبرس

---

(١) للوقوف على المزيد من المعلومات عن مصادرة أملاك الناس زمن سلاطين المماليك انظر ،البيومي اسماعيل الشربيني : مصادرة الأملاك في الدولة المملوكية "عصر سلاطين المماليك ".

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣١٢؛ الشهري: دور العلماء المسلمين في الجهاد الإسلامي، ص١٣٣-١٣٥؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص١٣٥.

(٣) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، ج٢، ص٣٨٠-٣٨١.

(٤) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، ج٢، ص٣٨٠-٣٨١؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص٩٩؛ ومدينة نوى: بلدة صغيرة من مدن حوران. البغدادي: مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٣٩١.

وطلبوا منه التراجع عن ذلك القرار حيث قالوا له: "إن هذا من كبـــار علمائنـــا وصلحائنا ، وممن يقتدي بهم"[١] يقصدون الإمام النووي، فتراجع بيبـــرس عـــن قراره السابق ورسم بعودة الإمام النووي ، لكن الإمام امتنع من دخول دمشـــق حتى يخرج الظاهر منها، وفعلاً تم له ذلك بعد شهر من هـــذه الحادثـــة حيـــث توفي الظاهر بيبرس ، وبذلك عاد العالم الجليل إلى دمشق[٢].

والملاحظ من خلال هذا العرض أن المصادرـ التي تيسر لـــي الاطـــلاع عليهاـ لم تشر إلى أن بيبرس انتصر لنفسه بمعاقبة هؤلاء العلماء الذين طالما اعترضوا على بعض قراراته التي يعتمد فيها علـــى بعـــض العلمـــاء الـــذين اشتهروا بالتساهل في إصدار بعض الفتـــاوى مراعـــاة لمشـــاعر الســـلطان أو مجاملة له.

ومما يذكر في هذا الخصوص أنه عندما ابتلي المسلمون عام ٨٣٩هــــ / ١٤٣٥م بغزو شاه روخ بن تيمورلنك لبلاد الشام، استفتى الســـلطان الأشـــرف برسباي القضاة والعلماء في جواز أخذ أموال الرعية للاستعانة بها في تجهيـــز الجيش لدفع خطر شاه روخ ، لكن العلماء توقفوا عن هذه الفتوى. وأطلق فقيـــه لم تكشف المصادر عن اسمه مقولة مفادها "كيف أفتيه بأخذ أمـــوال المســـلمين وكان لبس زوجته يوم طهور ولدها – يعني الملك العزيز يوسف – مـــا قيمتـــه ثلاثون ألف دينار، وهي بدلة واحده، وإحدى نسائه!"[٣].

---

(١) عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص٩٩.

(٢) عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص٩٩.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٥٢؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمـــل، ج٤، ص٣٩٢.
وعن غزو شاه روخ لبلاد الشام انظر: المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٩٥٥–٩٦٨،٩٦٢–٩٦٩؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج٤، ص٣٩٨، ٣٩٠، ٣٨٤، ٣٧٩..

وعلى الرغم من أن المصادر ،لم تشر إلى أن العلماء منعوا السلطان من أخذ أموال الرعية ، إلا أن هذه المقولة التي انتشرت بين الناس اعتبرت في حد ذاتها فتوى، فالقارئ لهذه المقولة يستشف منها رفض العلماء لإصدار الفتوى التي تجيز للسلطان الأخذ من أموال الناس، وذلك بسبب إسرافه وبذخه هو وأهل بيته.

ومن مظاهر العلاقة بين السلاطين والعلماء في الدولة المملوكية مهابة السلاطين من العلماء، فالمعروف أن العلماء تمتعوا برأي مسموع، فالحاكم العادل يسعى سعياً حثيثاً إلى إيجاد البطانة الصالحة التي يصلح بها أمر دولته، فمتى أحسن الحاكم اختيار البطانة تظل دولته قوية صامدة في وجه كل الأخطار والتحديات مادامت تطبق تعاليم الشرع الحنيف وتبتعد عن المظالم، ولم يجد سلاطين المماليك أفضل من العلماء ليكونوا عوناً لهم على تسيير دفة حكم البلاد وأخذ نصحهم والإنصات لتوجيهاتهم، وحرّي بنا إن نقول: إن الذي دفع سلاطين المماليك خاصة في العصر الأول من حكمهم إلى أخذ رأي العلماء والانقياد لأوامرهم، هي تلك المهابة التي غرسها العلماء في قلوب السلاطين تجاههم، وذلك بحرصهم على إنفاذ شرع الله في الأرض، وعدم التهاون في الوقوف في وجه أي سلطان ظالم مهما علا شأنه. وبذلك خشيهم سلاطين المماليك وأخذوا بآرائهم في أمور السياسة والإدارة والحرب، فها هو السلطان الظاهر بيبرس يجل الشيخ العز بن عبد السلام ويعظمه ويهابه ويستشيره في أمور الدولة، بل ينقاد لأوامره التي يمليها عليه، فقد سأله الظاهر عما ينبغي أن يفعله ويكون فيه صلاح للدولة فأجابه الشيخ بقوله: "إن الدولة لا تقوم إلا بأمرين؟ أحدهما قيام الشرع الشريف. والثاني: تحصيل الأموال من وجوهها، ولا أرى لمنصب القضاة مثل تاج الدين بن عبد الوهاب، يريد ابن بنت الأعز ، وللوزارة مثل بهاء الدين علي"(١).

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص٤٦.

و قد أثني النويري على هذا التصرف الذي أقدم عليه بيبرس ، وأكد على أنه قد فعَّل هذه المشورة وأخذ، برأي العز ،ونصّب ابن بنت الأعز قاضياً وبهاء الدين وزيراً ،فقاما بواجبهما خير قيام(١).

وقد بلغت جرأة العز بن عبد السلام في هذا المجال، أنه وقف في السوق ينادي بجواز بيع الأمراء والمماليك، بعد أن أصدر الشيخ فتوى مفادها أن هؤلاء الأمراء لم يكونوا أحراراً فلا يصح منهم بيع ولا شراء ولا نكاح، وتعطلت مصالح الأمراء بسبب تلك الفتوى(٢)، وحاول بعض الأمراء إقناع العز بن عبد السلام بالعدول عن رأيه وفتواه تلك، وكان من جملة هؤلاء الأمراء نائب السلطنة الذي غضب من ذلك وقرر إيذاء العز بن عبد السلام، ويصف لنا المؤرخ السيوطي هذه الحادثة بقوله:

عندما سار النائب إلى بيت الشيخ العز بن عبد السلام وخرج إليه ووقع بصره على النائب، يبست يد النائب، وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له وقال: يا سيدي إيش تعمل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم. قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين. قال: من يقبضه؟ قال: أنا وفعلاً فقد انقاد النائب وجميع الأمراء لرغبة الشيخ، وتم له ما أراد، بل قد تغالى الشيخ في أثمان الأمراء(٣).

وعلى الرغم من محبة الظاهر بيبرس للشيخ العز بن عبد السلام إلا أنه كان يهابه ويخاف جرأته في الحق، وكان يخشى أن يزول حكمه على يديه متى ما ظهر منه مخالفة أو تجاوز، يدلنا على ذلك ما ذكرته المصادر المعاصرة من أنه عندما توفي العز خرجت جموع غفيرة في جنازته، وكان من ضمنهم

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص٤٦.

(٢) جاء في الفتوى: "أنتم الآن أرقاء، لا ينفذ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستَصحَبٌ عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمت على بيعكم" سليم الهلالي: صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام، ص٣١.

(٣) انظر سليم الهلالي: صفحات مطوية ،ص٣١- ٣٤؛ نص نقله بتصرّف من السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٤٠-١٤١ .

الظاهر بيبرس نفسه، فأصابته الدهشة من كثرة المشيعين، فعبر عن ذلك بقوله: "اليوم استقر أمري في الملك، لأن هذا لو كان قال للناس: اخرجوا عليه، لا انتزع الملك مني"[1] وعندما أراد السلطان الظاهر بيبرس زيارة الشيخ القباري[2]لم يقابله الشيخ ورفض أن يدخل عليه بيبرس، واكتفى بالدعاء له، وأوصاه بالمسلمين خيراً[3].

وقد بلغت جرأة العلماء ومهابتهم في نفوس السلاطين والأمراء المماليك أنه إذا وقع أحد السلاطين أو الأمراء في مخالفة شرعية، أو تعدى على أموال الناس أو ظلمهم، يؤنبه العالم ويفضح تجاوزاته، يدلنا على ذلك ما ذكر من أن السلطان الناصر محمد كان يخشى القاضي شمس الدين الحريري[4] وقد صرح بذلك في أحد مجالسه حيث قال: "إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريري قاضي قضاة الحنفية"[5] كما ذكرت المصادر أيضاً أن شيخ الإسلام شمس الدين

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣١٧-٣١٨؛ أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص٣٩٩-٤٠١.

(٢) هو محمد بن منصور بن يحي القباري الإسكندراني، هو أحد المشايخ الذين اشتهروا بالصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنكار ظلم الولاة، كان يقصده الناس للزيارة فلا يخرج لهم ،بل يحدثهم من نافذة المنزل، توفي ٦ شعبان سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٨٤؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٩٠-٣٩١.

(٣) شافع بن علي: حسن المناقب السرية، ص١٤٩؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٩٠-٣٩١.

(٤) شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي الحسن الدمشقي الحنفي الحريري، ولد في صفر سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م اتصف بالعدل والصرامة والتقى، توفي في جمادي الآخرة سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٨٨.

(٥)هيام صالح أبو الفرج: مجمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)، رسالة ماجستير، لم تطبع، عام ١٤١٩هـ، ص٢١٠.

الآقصرائي الحنفي[1] كان يعارض أوامر السلاطين التي فيها ظلم للرعية أو مخالفة للشرع، ومع ذلك فقد كان السلاطين والأمراء يهابونه ويعظمونه، وينقادون لأوامره ويتقبلون رأيه[2].

كما نجح العلماء في الوقوف في وجه استبداد الأمراء وأتباعهم وتخليص الناس من ظلمهم، ففي محرم سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م استدعي قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة [3]دوادار نائب السلطنة اقتمر الحنبلي[4]إلى مجلس الحكم ووبخه وأراد تعزيره بسبب شططه في الحكم بين الناس، فقد نمى إلى سمع القاضي أنه ضرب صاحب الدَّين أمام المدينين، ورغم أن النائب اقتمر الحنبلي توجه إلى القاضي في مجلسه ليعفوا عن دواداره و تم له ذلك، إلا أن

---

(١) شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنفي أصله من آقصراي من بلاد الروم، قدم القاهرة في أيام يلبغا، وقد درس في المدرسة الأيتمشية توفي سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٥٧٤-٥٧٥.

(٢) السيوطي: نظم العقيان، ص١٧٨.

(٣) هو إبراهيم بن الخطيب زين الدين أبي محمد عبد الرحيم بن قاضي مصر والشام بدر الدين محمد بن جماعة الكناني الحموي الأصل المقدسي الشافعي، ولد بمصر سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م، كان يعد من كبار فقهاء الشافعية، تلقي العلم من رجالات عصره صغيراً كالمزي والذهبي، وتولى خطابة بيت المقدس بعد وفاة والده وهو صغير السن، ودرس بالمدرسة الصالحية ثم تولي قضاء مصر مرات عديدة إضافة إلى قضاء دمشق والخطابة بها، اشتهر بالأخلاق الحسنة والصفات الحميدة وكان محبباً للناس عادلاً في أحكامه معارضاً للفساد توفي سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣١١-٣١٢؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص٩٧-٩٨.

(٤) هو من مماليك الصالح إسماعيل، تنقل في المناصب حتى أصبح نائب الشام، كان يحب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر توفي سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص١٤١. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٢٦٠.

هيبة القاضي وقعت في قلب الدوادار والنائب، وكل من تسول له نفسه ظلم الرعية ، أو التدخل في الأحكام[(١)].

وقد وصل تدخل العلماء في شؤون السلاطين والأمراء والمماليك إلى درجة اختيار الألقاب التي يتلقب بها السلطان، فقد اختار السلطان الظاهر بيبرس لنفسه لقب القاهر فاعترض عليه الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير[(٢)] وكان من العلماء المطلعين على التاريخ، وأشار عليه بأن يغير هذا اللقب؛ لأنه ما تلقب به أحد وتم أمره في السلطنة – حسب زعمه – وفعلاً نزل بيبرس عند رأيه وغير لقبه من القاهر إلى الظاهر[(٣)].

كما أشار الشيخ سراج الدين البلقيني[(٤)] على الظاهر برقوق[(٥)] بأن يتخذ لقب الظاهر، وذلك عندما تولي السلطنة سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م فنزل السلطان عند رأي الشيخ وتلقب بالظاهر برقوق[(٦)].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢٦٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٦٥.

(٢) هو يعقوب بن عبد الرفيع القرشي الزبيدي، يلقب بزين الدين أبي يوسف، كان وزيراً للسلطان قطز ثم بيبرس، ثم عزله بيبرس بتاج الدين ابن بنت الأعز فلم يشغل أي منصب بعد ذلك، توفي بالقاهرة سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص١١٠.

(٣)ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٦١؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٠٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٩٤؛

(٤) هو الحافظ سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير بن صالح ابن شهاب الدين بن محمد البلقيني الكناني، شيخ الإسلام، الشافعي، ولد سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٣م، اشتغل بالعلم صغيراً، وأفتى وله من العمر خمس عشرة سنة، تولي عدداً من المناصب منها إفتاء دار العدل وقضاء دمشق، له عدد من التصانيف، وامتاز بقوة حفظه، توفي في ١٠ذي القعدة سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٩٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٥١-٥٢.

(٥) هو برقوق بن أنص بن عبد الله الجركسى، كان اسمه الطنبغا فسماه من اشتراه وهو يلبغا الكبير برقوقاً لنتوء كان في عينيه، تولى السلطنة في رمضان سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، اتصف بالشجاعة والذكاء والفروسية، توفي سنة ١٣٩٨/٨٠١م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص١٨٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب: ج٧،ص٦-٧.

(٦) ابن شاهين الملطي: نزهة الأساطين، ص١٦، هامش (٦)، عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠٧.

كما حرص عدد من سلاطين المماليك وأمرائهم، على أن يتـولى العلمـاء الذين هم محل ثقتهم إدارة أمورهم الشخصية أو بعض الأعمال التـي تخـتص بأولادهم، من ذلك ما حدث لثروة الأمير عز الدين أيدمر الحلـي الصـالحي[1] الذي جمعت ثروته ووضعت في أحد أبراج القلعة وسلمت مفاتيحهـا للقاضـي سديد الدين التزمني[2] الذي اشتهر بالأمانة وهو من أعلام العلماء، فـتمكن مـن حفظ الأموال لابن هذا الأمير[3].

كما أشارت المصادر إلى أن السلطان المؤيد شيخ المحمودي[4] عندما قـرر جمع قدر من المال لتدعيم جيش الدولة، أودع ذلك المال عند قاضي القضاة شمس الدين الهروي الشافعي[5] وكذلك الحال بالنسبة للسلطان إينال العلائـي[6]. الذي أوكل إلى الشيخ علاء الدين الغزي[7] الحنفي مهام إقطاع ابنه أحمد[1].

---

(١) هو الأمير عز الدين الصالحي النجمي، هو أحد مماليك نجم الدين أيوب، كما أنه من الأمراء المقـربين عند الملك الظاهر بيبرس، توفي سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م وقيـل ٦٦٧هـ/١٢٦٨م. المقريـزي: المقفى، ج٢، ص٢٠٠.

(٢) لم أقف له على ترجمة.

(٣) شافع بن علي: حسن المناقب، ص١٤٥.

(٤) المؤيد شيخ بن عبد الله المحمودي، كان من مماليك الظاهر برقوق، كان أمير حاج ثم تولي نيابة الشام الشام ثم تسلطن يوم الإثنين شهر شعبان سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م، اتصـف بالشـجاعة ومعرفـة الحروب وكان محباً لأهل العلم مبتعداً عن البدع، توفي يوم الإثنين التاسع من محرم سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م؛ ابن تغري بردي: الدليل الشـافي، ج١، ص٣٤٦؛ ابـن العمـاد: شـذرات الـذهب، ج٧، ص١٦٤؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠٨.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٢٢٢؛والهروي هو: الشيخ شمس الدين بن شـمس بـن عطاء الهروي الرازي الشافعي، توفي ١٩ ذي الحجة سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص١٨٩-١٩٠.

(٦) هو الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال العلائي، هو من مماليك الظاهر برقوق، تولي السلطنة يوم الاثنين ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م توفي في جمادي الأولى سـنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص١٧٥-١٧٦؛ ابن العماد: شذرات الـذهب، ج٧، ص٣٠٤؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠٩.

(٧) علاء الدين علي بن خلف بن خليل بن عطاء الله الغزي الشافعي، قاضي غزة، ولد سـنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م، اختصر تاريخ الإسلام للذهبي وتوفي سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٢٣.

ومن ذلك أيضاً ما ذكرته المصادر من أن بعض السلاطين والأمراء إذا ما أراد المساهمة ببعض الأعمال الخيرية فإنه يوكل إلى العلماء القيام بهذه المهام كبناء المساجد والجوامع والأسبلة وغيرها من المرافق التي تخدم الناس، وهذا بلا شك يعود إلى ثقة السلاطين والأمراء بالعلماء الذين توكل إليهم هذه المهام وأنهم سينفقون الأموال التي تعطي في طرقها الصحيحة، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله نائب حلب قراسنقر[٢] الذي أوكل إلى القاضي شمس الدين بن صقر الحلبي أمر بناء جامع حلب سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م[٣]. وكذلك الحال بالنسبة لجامع الناصري[٤] الذي أمر ببنائه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م فقد كان المشرف على بنائه القاضي فخر الدين ناظر الجيوش[٥]، أما مدبرالجامع فكان القاضي كريم الدين[٦] وكيل

---

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ص٣٦٢؛ وأحمد ابن السلطان إينال هو الملك المؤيد الشهاب أبو الفتح أحمد بن الملك الأشرف إينال العلائي الظاهري الناصري، تولي السلطنة بعد والده يوم الأربعاء ١٤ جمادي الأولى سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م ثم خلع بعد ذلك بخمسة أشهر. وتوفي في صفر سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص١٠١؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٢، ص٣٥٤.

(٢) قراسنقر بن عبد الله المنصوري، هو أحد أمراء الألوف، تولي نيابة حلب ثم أصبح نائب السلطنة، وقد تولي نيابة دمشق أيضاً، واستقر به الحال في نيابة حلب، وقد هرب إلى التتار في عهد الناصر محمد بن قلاوون ومات هناك في شوال سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٥٣٩.؛ الصفدي: الوافي، ج٢٤، ص١٥٩-١٦٦.

(٣) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٦٤؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٥٨. جامع حلب: كان موضع هذا الجامع كنيسة للنصارى، ولما فتح المسلمون بلاد الشام صالحوا أهلها على أخذ هذه الكنيسة وتعميرها جامعاً، وقد قام الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بتجديد بناء هذا الجامع وزيادة زخرفته حتى أصبح يضاهي الجامع الأموي في دمشق، وقد احترق هذا الجامع سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م عند غزو المغول لبلاد الشام. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٦١-٦٤،٦٢.

(٤) الجامع الناصري: أنشأ هذا المسجد الملك الناصر محمد، ولهذا الجامع أربعة أبواب، ومائة وسبعة وثلاثون عموداً، وستة عشر شباكاً وهو يطل على النيل. المقريزي: الخطط، ج٤، ص١٠٢.

(٥) هو محمد بن فضل الله ناظر الجيوش بمصر، وهو من مسلمة القبط، كانت له أعمال بر وإحسان، واهتمام بأهل العلم، توفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٥٧٨.

(٦) هو عبد الكريم بن العلم هبة الله بن السديد، أسلم وهو كبير زمن السلطان بيبرس الجاشنكير، وتولى الكتابة في دولته، ثم أصبح وكيل السلطان الناصر محمد، اتصف بحسن الخلق، والدهاء والنفوذ

السلطان ، واختص القاضي فخرالدين بن المعلم والقاضـي عمـاد الـدين بـن السكري[١] بالإشراف على الأمور المالية للجامع[٢].

والذي يجدر ذكره في هذا المجال أنه عندما يتقاعس السـلاطين والنـواب والأمراء عن الاهتمام بعمارة المساجد وترميماتها فإن العلماء يقومـون بهـذا الدور من عند أنفسهم ، من ذلك ما فعله الشيخ شهاب الدين الذهبي[٣]الذي سافر من دمشق إلى القاهرة كي يجمع الأموال اللازمة من الأمراء والأعيـان وذلـك سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، وذلك لإجراء بعض الترميمات اللازمة للجامع الأموي بدمشق[٤].

والملاحظ هنا أن اتكال السلاطين والأمراء على العلمـاء فـي مهـامهم الخاصة بهم أو بأولادهم لم يكن وليد الصدفة، بل لثقـة السـلاطين والأمـراء بهؤلاء العلماء وبأخلاقهم وأمانتهم، وأنهم هم الفئة الوحيدة التي تستطيع حمايـة هذه الفئة من الظلم والجور والتعدي على الأملاك الخاصة بأولاد السـلاطين أو الأمراء.

وإلى جانب هذا فقد أُوكلت إلى العلماء في عصر المماليك، مهـامٌ أخـرى وكانت رمزاً للعلاقة المباشرة بينهم وبين السلاطين والأمـراء، منهـا التـدخل للإصلاح بين السلطان والأمراء أو بين الأمـراء أنفسـهم، أو بـين السـلطان والخليفة، من ذلك ما حدث عام ٧٩١هـ / ١٣٨٨م، فقد حضر الشـيخ سـراج

الواسع في الدولة، توفي سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م، ابن كثير: البداية والنهايـة، ج١، ص٥٣٢؛ ابـن العماد:شذرات الذهب، ج٦، ص٦٣.

(١) هو عماد الدين علي ابن الفخر عبد العزيز ابن قاضي القضاة عماد الدين عبد الرحمن بن عبد العلـي ابن السكري، خطيب جامع الحاكم، ودرس في الحسين، توفي سنة ٧١٣هـ / ١٣١٣م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٢.

(٢) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق١، ص٧٦.

(٣) هو أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الذهبي: المسند الرحالة، الدمشقي الحنبلي، توفي بدمشق في سـنة ٨٥٥هـ. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٥٢-٥٣.

(٤) ابن حجي: تاريخ ابن حجي، ج١، ص٥٤١.

الدين عمر البلقيني صلحاً تمّ بين السلطان المملـوكي الظـاهر برقـوق وبـين الخليفة العباسي المتوكل على الله[1] بسبب الوشاية التي حـدثت بينهمـا سـنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م بأن الخليفة يريد التخلص مـن الظـاهر برقـوق ويـروم تنصيب نفسه سلطاناً. ونجح في تسكين الأحوال بينهما[2]. كما قام العلماء أيضا بمهام إصلاح ذات البين بين الكثير من رموز الدولة المملوكية، فقد دُعي عـدد من القضاة والفقهاء في سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م من أجل التوسـط بـين الأميـر نوروز[3] والأمير شيخ، حيث نجح العلماء في إنهـاء الحـرب الـدائرة بـين الطرفين والامتثال لأوامر السلطان الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق[4].

ومن مظاهر علاقة السلاطين بالعلماء إكرام السلاطين والنواب والأمـراء للعلماء ،وقد تباين ذلك بحسب حاجاتهم وأوضاعهم ومنـزلتهم ، ففـي عـام ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م جرت حادثة لشيخ الحنابلة شمس الـدين[5] مـع الظـاهر

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن المعتضد أبو بكر بن المستكفي سليمان بن الحاكم أحمد العباسي. ولد سنة ٧٤٦هـ، تولي الخلافة سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م بعهد من والده، توفي سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م. ابن العماد: شذرات الذهب. ج٧، ص٧٨.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٤٩٤-٤٩٥-٥٩٥؛ ابن الفرات: تاريخ ابـن الفـرات، ج٩، ق١، ص٥٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٢١.

(٣) نوروز بن عبد الله الحافظي الظاهري برقوق، الأمير سيف الدين نائب الشام، كان رفيق شيخ في أيام عصيانه. ثم ما لبث بعد أن تسلطن شيخ أن خرج عليه، وقاتله حتى تمكن منه شيخ وقتله في ربيع الآخر ٨١٧هـ/ ١٤١٤م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٧٦٢-٧٦٣.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٥٤-٥٥؛ ابن إياس: بدائع الزهـور، ج١، ق٢، ص٧٧٩-٧٨٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢٥١. والناصر فرج: هو فرج بن برقوق بـن آنـص الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن السلطان الظاهر برقـوق، جركسـي الأصـل تـولي السلطنة بعد وفاة والده يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، قتله الأمير شيخ المحمودي والأمير نوروز الحافظي في قلعة دمشق ليلة السبت ١٦ صفر سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م. ابن تغـري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٢٥٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص١١٢.

(٥) هو محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسي الحنبلي، تولى قضاء قضاة الحنابلة في مصر، كمـا تولى مشيخة سعيد السعداء، وقد باشر منصب القضاء من غير أن يتقاضي أجراً عليه، عرف عنـه التواضع وكثرة الصدقات والبر، توفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م وهو معزول من منصب القضاء. ابـن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٢١-٣٢٢؛ ابن رجب :ذيل طبقات الحنابلة، ج٢، ص٢٩٤.

بيبرس، مضمونها أنه وصلت إلى الظاهر بيبرس ورقة أن الشيخ يكره السلطان؛ لأنه لم يشركه في التدريس في مدرسته التي أنشأها، ولم يعين أحد الحنابلة فيها، وأراد السلطان التأكد من صحة هذه الوشاية، فأرسل الورقة لشمس الدين الذي أنكر صحة هذه الورقة، بل أقسم على ذلك، وقد كانت هذه الفعلة وشاية من أحد العبيد الذي قام الشيخ بطرده، وقد أبدى السلطان تسامحه مع الشيخ وقال: "ولو شتمتني أنت في حل" وعاقب العبد على ما فعل(١). ومن ذلك أيضاً ما فعله السلطان المنصور قلاوون مع القاضي شمس الدين بن خلكان الذي أفتى بجواز خروج سنقر الأشقر(٢) عليه ،واستقلاله بحكم الشام وعندما تمكن المنصور قلاوون من إخماد فتنة سنقر الأشقر وإنهاء خروجه سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م قُبِضَ على ابن خلكان وعُزِلَ من منصبه وُطرِد من منزله، إلا أنه سرعان ما عفا عنه وأرسل إليه مع البريد خلعه، وطلب منه أن يعود إلى منصبه في القضاء، وذلك لما لهذا القاضي من أفعال سابقة يحمد عليها(٣).

ومن مظاهر إكرام السلاطين للعلماء إغداق الأموال والأعطيات والخلع عليهم، فقد بعث السلطان الناصر محمد سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م إلى أبي

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٨٣؛المقريزي: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٠٣.

(٢) هو سنقر الأشقر الصالحي النجمي، نائب دمشق، وهو من الأمراء المشهورين في دولة الظاهر بيبرس، خرج على المنصور قلاوون وأعلن نفسه سلطاناً بدمشق، ولقب نفسه بالملك الكامل، وقد تقلبت به الأمور حتى قبض عليه الأشرف خليل وقتله سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م. ابن حبيب: تذكرة النبية، ج١، ص٦٧؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٣٢٧؛ محمد عبد الغنى الأشقر: نائب السلطنة المملوكية في مصر، ص٣٦٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٧٨-٦٧٩. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص٤٣؛ البرزالي: المقتفي، ج١، ص٤٧٩-٤٨١؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٢٤٤-٢٤٥. النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٤٤.

الفداء[١] وهو بدمشق خلعة كما أعطاه بغلة، على أن يظل مقيماً في دمشق ويظل إقطاعه هو وجنده في حلب[٢].

ومن مظاهر إكرام السلاطين والأمراء للعلماء أيضاً استرضاؤهم عند الإساءة إليهم، من ذلك ما حدث للعالم شهاب الدين بن محمد الطبري[٣] الذي قرر مغادرة مكة احتجاجاً على فعل زعيم الأشراف الأدارسة[٤] الذى أساء معاملته . إلا أن الشريف اضطر إلى الاعتذار له وسعى لاسترضائه حتى نجح في إقناعه بالعدول عن قراره والبقاء بمكة[٥].

كما حرص السلاطين على الاحتفاء بالقضاة عند تقليدهم مناصبهم، من ذلك ما حدث يوم الأحد ٢٧ شعبان سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م حين استحضر السلطان الظاهر برقوق جمعاً من كبار أمراء دولته و معهم القاضي بدر الدين

---

(١) هو الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي، ولد في جمادي الأولى سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م، له تصانيف عديدة، أشهرها تاريخ أبي الفداء، وكتاب تقويم البلدان، تولي مملكة حماة سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، وكان محترماً معظماً عند الملك الناصر محمد بن قلاوون، توفي في محرم سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م؛ ابن أيبك: كنزالدرر، ص٢٩٧؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٩، ص٤٠٣-٤٠٤؛ أبو الفداء: المختصر ،ج٤،ص١٠٤؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٥٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٥٧٧؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص١٢٥؛ النويري: نهاية الأرب،ج٣٢، ص٢٤٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١٩-٩٨.

(٢) أبو الفداء: المختصر، م٢، ج٣، ص٥٩.

(٣) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطبري ، قاضي مكة وخطيبها، ولد سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، هو من بيت علم ورياسة وقضاء وحديث، توفي سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١٨٨.

(٤) الأشراف الأدارسة: هم قبائل تنسب إلى إدريس بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبى طالب، كان قد هرب عام ١٦٩هـ/٧٨٥م بعد معركة فخ إلى بلاد المغرب، وقام بتأسيس دولة الأدارسة في بلاد المغرب، توفي سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج١، ص٢٦٩؛ بدرية الغامدي: الأسرة الطبرية في مكة المكرمة في العهد المملوكي ٦٦٧-٩٢٣هـ/١٢٦٨-١٥١٧م، رسالة ماجستير لم تطبع، عام ١٤٢٥هـ، جامعة الملك عبد العزيز، ص١١٢، هامش٣.

(٥) بدرية الغامدي: الأسرة الطبرية ، ص١١٢.

ابن فضل الله كاتب السر[١] والقضاة الأربعة وأعيان الفقهاء من جميع المذاهب بالمدرسة الصالحية لحضور قراءة تقليد القاضي ناصر الدين بن المليق[٢] وذلك إكراماً لمقام القاضي وتشريفاً له[٣].

ومن مظاهر اهتمام السلاطين بالعلماء إكرام وفادتهم عليهم، ما حدث سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م عندما وصلت إلى السلطان الظاهر برقوق هدية من تيمورلنك[٤] وكانت عبارة عن تسعة مماليك وتسع جوار، اتضح للسلطان أنهم من أهل بغداد وأن تيمورلنك أسرهم بعد أن قتل أهلهم، وأن أحدهم ابن قاضي بغداد والآخر ابن وزيرها وأن فيهم أخا محتسب بغداد، عند ذلك سلمهم السلطان إلى قاضي القضاة جمال الدين محمود القيصري الحنفي[١] وأوصاه

---

(١) هو محمد بن محي الدين بن يحي بن فضل الله، ولد سنة ٧١٠هـ/١٣٠١م، تولى كتابة السر في مصر ودمشق، اتصف بالصفات الحسنة وحسن الخلق ورجاحة العقل، توفي سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١٥٠.

(٢) ناصر الدين محمد بن عبد الدايم بن محمد بن سلامة الشاذلي ابن بنت المليق، ولي القضاء، وكان يعظ الناس، توفي سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٥١. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٦٣٢.

(٣) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق١، ص١٥-١٦.

(٤) هو تيمورلنك بن ايتمش بن زنكى بن سيبا بن طارم طربن طغربك بن قليج بن سنقور بن كنجك بن طغر سبوقا، ومعنى اسمه صهر الملوك ،ولد سنة ٧٢٨هـ /١٣٢٧م، عمل في اللصوصية والسرقة مع جماعة من رفاقه، ثم ما لبث أن تولى الأتابكية لأحد أبناء طقتمش خان آخر الملوك من ذرية جنكيز خان، مما جعله يسيطر على مقاليد الأمور فيما بعد وخاض حروباً طويلة حتى استطاع بسط نفوذه، كان أعرجاً، جاداً لا يحب المزاح، بارعاً في اللغة التركية والفارسية والمغولية، ملماً بالتاريخ، يقرب العلماء الصلحاء، كثير البطش بكل من يخالفه، توفي سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٦٢-٦٣؛ وللمزيد عن ترجمتة انظر،أكرم العلبى:تيمورلنك وحكايته مع دمشق، ص١٥-٣٢؛ أحمد عبدالكريم سليمان :تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، مع ترجمةمقال الكاتب اللاتيني "دي ميجنانللي" عن حياة تيمورلنك، ص١١-١٤، وانظرأيضاً ص٧من ترجمة المقال.

بهم ، وشُهِد فيما بعد ابن قاضي بغداد وهو يركب في خدمة قاضي القضاة جمال الدين القيصري وهو يرتدي زي فقهاء مصر[٢].

وقد بلغ إكرام سلاطين المماليك للعلماء حد القيام لهم عند دخولهم عليهم فقد أُثر عن الظاهر جقمق[٣] حبه للعلماء والفقهاء والصلحاء وأنه كان يقوم لهم عندما يدخلون عليه، كما أنه يحب أن يسلم عليه الفقهاء والعلماء عند دخولهم مجلسه[٤] ويقبل شفاعة العلماء، فقد طلب منه الشيخ الصالح بن عمر العسقلاني البلقيني[٥] شفاعة في أمر ما، فأحس الشيخ عدم موافقة السلطان فقال له الشيخ: "العلماء يشفعون في الآخرة عند الله تعالى، تقبل شفاعتهم، فبالأحرى أنت "– يقصد السلطان– فاستجاب الظاهر لمطالبه[٦].

ولم تقتصر شفاعة العلماء على السلاطين، بل تعدتها إلى الأمراء، فقد سعي القاضي البلقيني في التوسط لأحد الفقهاء بالعودة إلى منصبه عند أحد الأمراء، فاستحيا منه الأمير ووافق على طلبه[٧]. ومن صور إكرام السلاطين

---

(١) هو جمال الدين محمود بن محمد بن علي بن عبد الله القيصري الرومي الحنفي المعروف بالعجمي، قدم القاهرة واشتغل بالعلم، وقد تولي الحسبة ونظر الأوقاف وعدداً من الوظائف الدينية، كان فصيحاً بالعربية والتركية والفارسية توفي ٧ربيع الأول سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م، ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٧٢٧ ؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٦٢.

(٢) ابن الفرات: تاريخ الفرات، م٩، ج٢، ص٣٦٢.

(٣) هو الملك الظاهر أبو سعيد جقمق، عبد الله العلائي الظاهري اتصف بحب العلماء والفقهاء والصلحاء والأيتام، خلع نفسه من السلطنة ٢١ محرم سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م، وسلطن ولده الملك المنصور عثمان بدلاً عنه ثم توفي بعد ذلك ١٢ يوماً سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢٤٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٩١-٢٩٢.

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ص٣٩٦.

(٥) هو علم الدين صالح بن عمر العسقلاني ابن شيخ الإسلام الدين عمر البلقيني الشافعي، ولد سنة ٧٩١هـ /١٣٨٨م، وقد تولي مناصب عديدة ومات يوم الأربعاء ٥ رجب سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٣٥١؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٠٧؛ السخاوي: الذيل، ص١٥٥-١٦٩.

(٦) السخاوي: الذيل، ص١٥٥-١٦٨.

(٧) السخاوي: الذيل، ص١٥٥-١٦٨.

والأمراء للعلماء، ما كان يقوم به السلاطين عند ختم صحيح البخاري، فقد أمر الأشرف برسباي عام ٨٢٧هـ/١٤٢٣م أن يبدأ القراء في قراءة صحيح البخاري من غرة شعبان ، وأن يحضر القراءة القضاة الأربعة، ومشايخ المذاهب كما حضر السلطان بنفسه قراءة البخاري، وعند ختم القراءة خلع السلطان على الفقهاء وعلى القاضي شمس الدين الهروي وعلي العيني[١] كما خلع على القارئ، وأعطى لأكثر من مئة طالب من طلبة العلم ألف درهم لكل واحد منهم [٢].

وفي عام ٨٧٨هـ /١٤٨٣م قام السلطان الأشرف قايتباي[٣]بتقسيم الخلع على القضاة والمشايخ، كما أعطى الفقهاء مبلغاً من المال[٤]. ولم يقتصر إكرام العلماء على السلاطين وحدهم، بل شمل الأمراء أيضاً فقد قام الأمير يشبك[٥] بتقسيم خمسمائة دينار على الفقراء من أهل العلم[٦] تشجيعاً لهم وقضاءً لحوائجهم. ومن ذلك ما قام به السلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م عندما وفد إليه من القاهرة وهو بدمشق القاضي

(١) هو بدر الدين أبو الثناء وأبو محمد محمود بن القاضي شهاب الدين أحمد بن القاضي شرف الدين موسى بن أحمد بن محمود العينتابي الشهير بالعيني، هو عمدة المؤرخين، ولد سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م تولي عدداً من الوظائف، كما صنف كثيراً من الكتب القيمة في فروع كثيرة من العلوم، توفي في ذي الحجة سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٧٢١؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٨٧-٢٨٨.

(٢) العيني: عقد الجمان، تراجم وحوادث سنوات من (٨٢٤-٨٥٠هـ) ، ص٢٣٦.

(٣) الملك الأشرف قايتباي الجركسي الظاهري، نسبة إلى الظاهر جقمق، تسلطن يوم الاثنين ٦ رجب سنة سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م، وتوفي يوم الأحد ١٧ ذي القعدة سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص٦-٩؛ الشرقاوي: التحفة الملوكية، ص١١٠.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٩٣.

(٥) هو يشبك بن سلمان شاه المؤيدي الفقيه أصله جركسي، تولي عدداً من الوظائف في الدولة منها رأس رأس نوبة الجمدارية وأمير عشره، وأمير طبلخانة نفي إلى دمياط ثم أعادة الأشرف قايتباي وتوفي سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م. السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص٢٧٠-٢٧١.

(٦) محمد بن اجا: العراك بين المماليك، ص١٤٠.

شهـــاب الدين بن الفرفور[١] فأكرم السلطان وفادته وقدم له خلعة سنية ، وألف دينار وغيرها من الهدايا. كما قدم له الأمـــراء المصـــريون هـــدايا لا يمكـــن حصرها، كما خرج لملاقاته جميع موظفي الدولة والأمراء الكبار ونائب الشـــام والقضاة والفقهاء، وعمل له موكب عظيم تقديراً وإجلالاً له[٢].

ولم يقتصر إكرام السلاطين والأمراء على العلماء وهم أحياء، بـــل تعـــدى ذلك بعد وفاتهم، وذلك بالمشاركة في أداء صلاة الميت عليهم وتشييع جنائزهم، فقد قام السلطان الظاهر بيبرس بالصلاة على الشيخ عز الدين بن عبـــد الســـلام وشيعه إلى المكان الذي دفن فيه سنة ٦٦٠هـــ / ١٢٦١م. وعندما توفي قاضـــي الشافعية بمصر العلامة شرف الدين بن مخلـــوف المنـــاوي ســـنة ٨٧١هــــ / ١٤٦٦م[٣]. صلى عليه السلطان الظاهر جقمق، وكانت له جنازة عظيمة[٤] كما كما شارك السلطان الأشرف قايتباي مع القضاة والأمراء في إقامة صلاة الميت على القاضي عز الدين أبي البركات العسقلاني[٥] الذي توفي سنة ٨٧٦هــــ / ١٤٧١م[٦].

---

(١) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمود بن عبد الله بن محمود الشهير بابن الفرفور الشافعي، ولـــد سنة ٨٥٢هـــ/ ١٤٤٨م، تولي قضاء الشافعية في دمشق ومصر ، توفي في ٧جمادي الآخرة ســـنة ٩١١هـــ/ ١٥٠٥م؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص٤٩-٥٠.

(٢) ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج١، ص٢٢٩.

(٣) هو شرف الدين يحي بن محمد بن محمد بن مخلوف بن عبد السلام المناوي ، قاضي قضاة الشـــافعية توفي سنة ٨٧١هـــ/ ١٤٦٦م؛ ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج١، ص١٠٨-١٠٩.

(٤) ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج١، ص١٠٨-١٠٩.

(٥) عز الدين أبو البركات أحمد بن إبراهيم بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن أبي الفتح بن هاشـــم بـــن نصر الله بن أحمد الكناني العسقلاني، الحنبلي، ولد سنة ٨٠٠هـــ/١٣٩٧م، ولي عدداً من الوظائف، وله عدد من التصانيف، توفي ليلة السبت ١١ جمادي الأولى سنة ٨٧٦هـــ/١٤٧١م. ابـــن العمـــاد: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٢١-٣٢٢.

(٦) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٢١-٣٢٢؛ خلود البدنة: الأسرالعلمية في مكة المكرمة وآثارها وآثارها على الحياة العلمية خلال العصر المملوكي(٦٤٨-٩٢٣ه/١٢٥٠-١٥١٧م)رسالة ماجســـتير لم تطبع ،١٤٢٥ه،جامعة أم القرى ،ص١٥٥.

ومن مظاهر علاقة سلاطين المماليك بالعلماء حرصهم علـــى حضـــورهم مجالسهم، ومرافقتهم لهم في الحل والترحال، وذلك لإدراكهم أن مـــن علامـــة محبة السلطان للعدل" مخالطته لأهل العلم ذوي الدين ورغبته فـــي محـــادثتهم؛ ليذكر ما يجب عليه من العدل الذي به سعادته في الآخرة ودوام ملكه في الـــدنيا وحسن سمعته في العالم وميل القلوب إليه وجريان الألسن بالدعاء لـــه"[١] فقـــد سئل القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز عن سبب كثرة ركوبـــه مـــع الســـلطان الظاهر بيبرس فقال: "ما أركب معه إلا لأجل الأمراء، ليـــوهمهم قربـــه منـــه وخصوصيته به"[٢] كما أن القاضي صدر الدين بن الأذرعي الحنفي[٣] كان مـــن خواص السلطان الظاهر بيبرس وكان يرافقه في سفره وإقامتـــه وفـــي جميـــع غزواته، كما رافق السلطان عندما خرج للحج سنة ٦٦٦هـــ / ١٢٦٧م[٤].

أما المؤرخ محمد بن إبراهيم الحلبي المعروف بابن شداد فقـــد كـــان مـــن المقربين عند السلطان الناصريوسف بن العزيز الأيوبي صاحب حلب، وعنـــدما استقر به المقام في مصر أصبحت له مكانة عند الملك الظاهر بيبرس وألف لـــه سيرة خاصة به، وكذلك اعتنى به السلطان المنصور سيف الـــدين قـــلاوون[٥] وكان القاضي بدر الدين العيني يجالس السلطان الأشرف قايتبـــاي ويســـامره، ويقرأ عليه كتب التاريخ باللغة التركية ، كما كان بمثابة المعلم للأشـــرف فـــي أمور الدين، فكان الأشرف يقول عنه: "لولاه لكان في إسلامنا شيء"[٦].

---

(١) خلود البدنة: الأسر العلمية، ص١٦٥-١٦٦.

(٢) ابن حجر: رفع الإصرعن قضاة مصر، ج٢، ص٣٧٥-٣٨٢.

(٣) صدر الدين سليمان بن أبي العز بن وهيب الأذرعي، درس بمصر ودمشق وانتهى إليه قضاء القضـــاة بدمشق بعد موت ابن العديم، له مصنفات عديدة ومفيدة، توفي في شعبان سنة ٦٧٧هـــ / ١٢٧٨م . ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص١-٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٥٧.

(٤) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٥٥٥؛ المقريزي: الســـلوك، ج١، ق٢، ص٥٨٠؛ ابـــن تغـــري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧٧، ص١٣١؛ السخاوي: الذيل على رفع الإصر، ص١٥١.

(٥) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص٢٧٠-٢٧١.

(٦) السخاوي: الذيل على رفع الإصر، ص٤٢٨-٤٣٣.

وعندما قرر الناصر محمد بن قلاوون الخروج للحج استدعى المؤرخ أبا الفداء ليصحبه في الحج وفعلاً كان ذلك سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨م وكانت نفقات هذه الحجة على السلطان الناصر محمد(١).

ومن صور العلاقة الوطيدة بين السلاطين والعلماء مشاركة العلماء في المواكب والاحتفالات الرسمية، إذ يعد حضور العلماء ومشاركتهم في المواكب والاحتفالات الرسمية من علامات رضا العلماء عن السلاطين وموافقتهم لهم، وفي ذات الوقت يعد ذلك أيضاً تقديراً للعلماء وإظهاراً لمكانتهم، وقد وصف المؤرخ القلقشندى إحد مواكب السلاطين وذلك عند جلوسه بدار العدل حيث قال "ويكون جلوسه على الكرسي الذي هو موضوع تحت سرير الملك...... ويجلس على يمينه قاضي القضاة من المذاهب الأربعة، ثم وكيل بيت المال، ثم الناظر في الحسبة. ويجلس على يساره كاتب السر، وقدامه ناظر الجيش وجماعة الموقعين تكملة حلقة دائرة. قال: وإن كان الوزير من أرباب الأقلام(٢)، كان بينه وبين كاتب السر، وإن كان من أرباب السيوف، كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف ...."(٣).

ونلاحظ من العرض الذي ذكره القلقشندى لجلوس السلاطين بدار العدل مكانة العلماء وقربهم من السلطان وأن الوزير أو النائب يضم إلى حلقة العلماء والقضاة إذا كان صاحب علم ويجلس معهم. أما إذا كان غير ذلك فإنه يقف بجانب أرباب الدولة. ومن أهم المناسبات التي شارك فيها العلماء في استقبال السلاطين وخاصة عند عودتهم منتصرين من المعارك التي خاضوها ضد أعدائهم، من ذلك ما حدث سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، عندما قرر قطز العودة للديار المصرية بعد انتصاره الحاسم على المغول في هذه المعركة حيث تزينت

---

(١) أبي الفداء: المختصر، م٢، ج٤، ص٨٥ وما بعدها.

(٢) نلاحظ من النص السابق مدى مكانة العلماء عند السلاطين.

(٣) صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥-٤٦.

القاهرة له ولبست أحلى حلتها، وكان من جملة من خرج للقائه قاضي القاهرة برهان الدين[1].

كما جرت العادة بأن يرافق السلطان عند خروجه لافتتاح أحد المشاريع الخيرية عدد من الأمراء والأعيان والفقهاء والقضاة والعلماء، من ذلك ما حدث عندما قام الأمير عز الدين أيدمر الحلي[2] بتجديد الجامع الأزهر سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م وإقامة صلاة الجمعة به حيث رافق السلطان عند خروجه لهذه المناسبة عدد من الأمراء والفقهاء والعلماء والقراء[3].

وعندما أنشأ المنصور قلاوون سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م المدرسة والبيمارستان ومكتب السبيل بين القصرين، ورتب لها أوقافاً خاصة بها، توجه لافتتاح هذه المنشآت وبصحبته عدد من القضاة والأمراء والعلماء والقراء والفقهاء، ورتب لكل منشأة ما تحتاج له فكانت هذه العمائر غاية في الإبداع[4].

كما أن القضاة الأربعة اعتادوا الصعود للقلعة ليهنئوا السلطان بحلول الشهر ، ويعتبر هذا اللقاء بمثابة اجتماع شهري بين السلطان والقضاة والخليفة ليتداولوا في الأمور المهمة ، يدلنا على ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما حدث في غرة صفر سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م عندما صعد القضاة الأربعة

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٩٣، وبرهان الدين السنجاري: هو الخضر بن الحسين بن علي بن عبد الله الزرزاري الكردي الشافعي ولد سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م وهو أول من تولى منصب القضاء مضافاً إليه الوزارة، كما درس بالمدرسة الصلاحية، توفي سنة٦٨٦هـ/١٢٨٧م. السخاوي: رفع الإصرعن قضاة مصر، ج١، ص٢٢١-٢٢٤؛ محمود رزق سليم: موسوعة عصر سلاطين المماليك، ج٢، ص٨٩.

(٢) أيدمر بن عبد الله الحلي الصالحي النجمي، ناب عن الظاهر بيبرس في ولاية القاهرة عند سفر الظاهر بيبرس، توفي سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص١٦٧-١٦٨.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٥٦-٥٥٧؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٨٧.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٧٠-٧٥.

ليهنئوا السلطان الأشرف برسباي بحلول الشهر، فتحدث معهم السلطان في وجوب إلزام العامة وأهل الأسواق بأداء الصلاة في أوقاتها، وعدم التهاون في أدائها، وقد قام القضاة والوالي والمحتسب بذلك الأمر خير قيام[١].

وقد استمرت هذه العادة وهي التهنئة بالشهر إلى نهاية العهد المملوكي ففي صفر سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م توجه الخليفة والقضاة لتهنئة السلطان قانصوه الغوري[٢] بالشهر، وفي هذا الاجتماع أمر السلطان الخليفة والقضاة بالتجهز للخروج لحرب العثمانيين[٣].

كذلك شارك العلماء والفقراء والقراء والقضاة في المواكب التي كانت تحمل كسوة الكعبة تطوف بها في أحياء القاهرة ومصر القديمة ، ففي عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م جهزت كسوة الكعبة وحملت على ظهور الدواب وطافت شوارع القاهرة ومصر القديمة وقد شارك في هذا الموكب العلماء والفقهاء والقراء وأئمة وخطباء المساجد[٤] وتاريخ المماليك ملئ بمثل هذه الأمثلة عن خروج المحمل وكسوة الكعبة ومشاركة العلماء فيه[٥].

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر،ج٣، ص٣٦٤؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل في الذيل على الدول، ج٤، ص١٨٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٠٤.

(٢) هوالملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن عبد الله الجركسي المشهور بالغوري نسبة إلى أحد الطبقات التي تعلم فيها، اتصف بالرأي السديد والفطنة والدهاء، قتل في مرج دابق ببلاد الشام سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص١١٣-١١٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص١٥.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ،ق٢ ، ص٥٠٢.

(٥) كان المقصود من دوران المحمل ليشاهد الناس كسوة الكعبة، وكنوع من التحفيز لخروج الناس للحج ، وقد كان دوران المحمل في شوارع مصر مرتين في السنة، في شهري رجب وشهر شوال، وكان عدد الجمال التي تخرج لحمل الكسوة ثمانية وعشرين جملاً كما وصفها الجزيرى، أما صفة دوران المحمل، فكانت الكسوة تسير محمولة وعن يمينها وشمالها فرسان السلطان على خيولهم مرتدين دروعهم وحاملين الرماح، كما يسير في مقدمة المحمل الوزير والقضاة الأربعة ومن خلفهم نوابهم والمحتسب وعدد من موظفي الدولة، وتدق خلف المحمل الطبول والصنوج والكوسات السلطانية، كما تلعب الرماحة أمام هذا الموكب. انظر الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، ج١، ص٣٧٢؛ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ص١٤٥-١٤٦؛ عائشة العبدلي: إمارة الحج، ص٦٢-٦٦.

كما اعتبرت مشاركة العلماء في مراسم تعيين السلطان المملوكي من أهم مظاهر العلاقة بين الطرفين فتنصيب سلطان جديد أو عزله لا يتم إلا بحضور القضاة والخليفة، وتاريخ المماليك غنى بمثل هذه الأمثلة، منها ما حدث عند مبايعة الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد[1]، للسلطان الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون[2] بالسلطنة سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م فقد حضر مراسم هذه البيعة قضاة مصر وقضاة دمشق والأمراء[3]. وعندما استقر رأي الأمراء سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م على سلطنة الأشرف شعبان بن حسين قاموا باستدعاء القضاة الأربعة والخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد، وذلك لإتمام مراسم تنصيب السلطان الجديد[4].

كما شارك القضاة الأربعة، وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني وكاتب السر فتح الله[5] والخليفة المتوكل على الله، في مراسم تقليد الناصر فرج فرج بن برقوق السلطنة سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م[6] كما لا ننسي مدى أهمية مشاركة العلماء في المواكب التي كانت تخرج لتلقي السلطان عند عودته من

---

(١) الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن الأمير أبي علي بن أبي بكر بن الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر العباسي، بويع بالخلافة سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م وبقي فيها ٤٠ سنة، توفي سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٢٨؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٣٧-٣٤٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٠٤-٣٠٥؛ ج٦، ص٢.

(٢) مؤرخ مجهول: تاريخ الملك الأشرف قايتباي ،ص٦٩؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٥٩٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج١، ص٤١-٤٣

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٤٩.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٨٣؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل،ج١، ص٣٥٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣.

(٥) هو فتح الله بن مستعصم بن نفيس، فتح الدين التبريزي الحنفي كاتب السر بمصر ، ولد سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م، اهتم بالطب وعمل رئيس الأطباء بالديار المصرية، ثم تولي كتابة السر بها، وظل في هذا المنصب إلى أن قتله المؤيد شيخ وصادرأمواله، ليلة الأحد ٥ ربيع الأول سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٥١٩.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص٩٥٩-٩٦٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ٤٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٣٦-٥٣٧.

إحدى المعارك أو عند قدومه من بلاد الشام أو عند عودته للقاهرة بعد أداء فريضة الحج.

ومن الأمثلة على ذلك خروج الخليفة المتوكل على الله وشيخ الإسلام سراج الدين البلقيني والعلماء والأمراء ورجال الدولة ، لاستقبال السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩ عندما تمكن من الخروج من منفاه بالكرك واستطاع التخلص من خصومه والعودة مرة أخرى للسلطنة ، و من ذلك أيضاً ما حدث عند عودة السلطان قايتباي عام ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م من رحلته التفقدية لبلاد الشام، فقد خرج القضاة والأمراء والنواب والعسكر لاستقباله،

وقد جرت العادة أن يلتقي القضاة المواكب خارج القاهرة، ثم يشق السلطان بهذا الموكب شوارع القاهرة، ويقف القضاة في مقدمة هذا الموكب حتى يصل إلى القلعة ويتم جلوس السلطان والقضاة بترتيب دقيق[١] كما وصفه القلقشندى سابقاً[٢].

ومن مظاهر العلاقة بين العلماء والسلاطين حضور العلماء جلوس خليفة جديد في منصب الخلافة، من ذلك ما حدث عندما اعتلى الخليفة المستعصم بالله سدة الخلافة في القاهرة سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م حيث تم ذلك بحضور السلطان الظاهر برقوق والقضاة الأربعة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني، ومفتي دار العدل الشيخ صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوي، وعندما انتهت مراسم التنصيب وفوض الخليفة للسلطان الظاهر برقوق أمور

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١٣٨.

(٢) انظر ما سبق ص٨٥.

البلاد والعباد والسلطات الدينية والدنيوية، نزل في موكب عظيم يتقدمه القضاة الأربعة وشيخ الإسلام وأرباب الوظائف حتى أوصلوه إلى منزله[1].

ومن ذلك أيضاً ما حدث عند تنصيب الخليفة المعتضد بالله أبي الفتح ، فقد بويع بالخلافة سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م وخرج القضاة والعلماء ووجوه الناس في موكبه الذي أوصله إلى داره[2].

ومن مظاهر العلاقة بين السلاطين والعلماء، حرص بعضهم على إقامة علاقات مصاهرة مع الآخر من ذلك ما ذكرته المصادر من أن الأمير أيدمر[3] زَوَّج أحد أبنائه من ابنة قاضي القضاة جلال الدين القزويني[4] الذي تولي قضاء مصر سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م[5].

وختاماً فقد اتضح من خلال العرض مدى العلاقة الوطيدة التي كانت تربط سلاطين دولة المماليك وأمراءهم بالعلماء والتي انطوت على الاحترام المتبادل، والسعي الحثيث للعمل على ما فيه مصلحة العباد والبلاد. وأن ذلك لم يقتصر على من كان داخل دولتهم، بل تعدى ذلك إلى من كان يفد عليهم حتى من خارج حدود دولتهم ،فقد حظي أحد العلماء المغاربة ويدعى شمس الدين محمد بن تازمرت المغربي[6] الذى قدم الى المشرق لأداء فريضة الحج ثم طاب له

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٥١-٥٥٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٧٧-٣٧٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٠٢.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ،ص٣٥٦-٣٥٧؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٢٧٣-٢٧٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٢.

(٣) هو أحد أمراء القاهرة في أيام الناصر محمد، كان أمير جاندار حج بالناس في عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م، وهي السنة التي حدث بها فتنة بين الحجاج بمنى، قتل فيها هذا الأمير هو وأحد أولاده، فغضب السلطان لمقتله وأمر بالأخذ بثأره. انظر ابن حجر : الدرر الكامنة، ج١، ص٢٣٨؛ المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٥٥.

(٤) محمد ابن عبد الرحمن بن عمر القزويني ولد سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م تولي قضاء مصر سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، خلفاً لابن جماعة لكنه عزل عن القضاء لأمور جرت من أولاده، ثم نقل إلى قضاء الشام توفي سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م. ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣-٤.

(٥) محمد سهيل بقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٧-٨.

(٦)لم أقف له على ترجمة.

المقام بالقاهرة ، فحظي باهتمام ورعاية كبيرة من قبـــل الســـلطان المملـــوكي الناصر ،ومكنه من التدريس بالجامع الأزهر ،وكان محـــل ثقتـــه فـــي الـــوعظ والارشاد[1].

---

(١) للوقوف على المزيد عن هذه المكانة انظر سامية مسعد: المغاربة ودورهم الثقافي في مصـــر، عصـــر سلاطين المماليك، ص٣٦ومابعدها.

المبحث الثاني
العلماء في مواقع النفوذ

حرص سلاطين دولة المماليك منذ قيام دولتهم في مصر سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م[1] على تقريب العلماء منهم، ولهذا فقد حظي العلماء بمكانة كبيرة ونفوذ واضح، في البلاط السلطاني ولدى السلاطين والأمراء، وبناءً على هذه المكانه المرموقة، فقد أوكل إليهم السلاطين والنواب مهامَّ وأعباءَ وظائف عدة في الدولة. اقتضت طبيعة هذه الوظائف أن يتولاها علماء أجلاء، وقد أثبت هؤلاء العلماء جدارتهم وكفاءتهم في إدارة هذه الوظائف التي أوكلت إليهم، فقد أوكل السلاطين للعلماء وظائف دينية وإدارية واقتصادية؛ وذلك لثقتهم بهم وشعورهم بكفاءة إدارة العلماء لتلك الوظائف، وبذلك فقد مارس العلماء نفوذهم وتأثيرهم في المجتمع المملوكي من خلال أعتلائهم لكثير من الوظائف المهمة في الدولة ويأتي في مقدمتها، **وظيفة القضاء** التي تعد أبرز الوظائف الدينية في العهد المملوكي فقد تمتع القضاة بصلاحيات واسعة، بحكم أنهم يمثلون السلطة التشريعية لهذه الدولة. ومما زاد من هيبة هذه الوظيفة أنه كان يشرف عليها رئيس أعلى يعرف بقاضي القضاة. والتي تعتبر من أعظم الوظائف وأجلها فإلى جانب اضطلاعه بالمهام الموكلة إليه فقد كان يقوم بتعيين النواب عنه في البلاد التابعة للدولة. وبناءً على انتشار المذهب الشافعي في مصر والشام فقد كان قاضي القضاة يعين من أتباع هذا المذهب، ولكن في عهد الظاهر بيبرس جعل في الدولة من كل مذهب قاضي قضاة، وذلك بسبب كثرة توقف القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز عن الفتوى في كثير من الأحكام، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل لقاضي قضاة الشافعية هيمنته ومكانته، فهو المتحدث في نظر

[1]عن قيام الدولة المملوكية انظر، العبادى:قيام دولة المماليك في مصر،ص١١٤-١٣٥؛ قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٣٩- ١٥١؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي "العهد المملوكي" ص ٢١- ٣٤.

الأيتام والأوقاف، إضافة إلى اختصاصه بتولية النواب عنه في جميع المنـــاطق وهي وظائف اختص بها قاضي قضاة الشافعية عن غيره من القضاة[١].

ونظرا للدور الجهادي الذي قامت به الدولـــة المملوكـــة ضـــد العـــدوان الصليبي والمغولي على حد سواء، فقد تطلـــب الأمراســـتقلال **وظيفـــة قضـــاء خاصة عرف صاحبها بقاضي العسكر**: وهي محكمة عســكرية تعمــل علـــى الفصل في قضايا الجند من قتل وسرقة وتعدي وعصـــيان الأوامـــر، وتـــدبير للثورات الداخلية، أو تأديبهم وغيرها، كذلك ما يتبعه من أحكـــام تصـــل إلـــى المصادرات المالية أو عقوبة الإعدام، ويتم تعيينه بموجب توقيع شريف من قبل الأبواب السلطانية[٢]. وكان هذا القاضي يختار من فئة العلماء المشـــهود لهـــم بالصلاح، ويكون مصاحباً للجند في حلهم وترحالهم، وعلـــى الـــرغم مـــن أن بعض المؤرخين أشاروا إلى وجود هذه الوظيفة منذ العصـــر الفـــاطمي إلا أن استقلالها عن القضاء لم يظهر جلياً إلا في العصرين الأيوبي والمملوكي[٣]، أما اختصاصات هذا القاضي فتتلخص في الإشراف على الإفتاء في كـــل الأمـــور التي تختص بشؤون العسكر[٤]، إضافة إلى الفصل في الخصومات التي تنشـــب بين الجند بسبب توزيع الغنائم أو لتقسيم ميراث الجنـــود المتـــوفين فـــي هـــذه المعارك[٥]، وقد ذكر القلقشندى أن قاضي العسكر يكون مـــن ضـــمن القضـــاة المتواجدين بدار العدل، وأنه يكون مرافقاً للســـلطان عنـــد خروجـــه للجهـــاد، وقضـــاة العسكر في مصر يكونون من أتبـــاع المـــذهب الشـــافعي والحنفـــي

---

[١] **القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٥-٣٧، ١٩٩؛ محمد البقلى: التعريف بمصطلحات صبح الأعشي، ص٢٦٦.**

[٢] **ابن ناظر الجيش : تثقيف التعريف، ص١٩٥؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٣٨؛ زين الدين ابن زين التقاة : المواكب الإسلامية ،ق٢،ص١٠٨؛ إيمان تركستاني: نيابة حماة:٢٤٤.**

[٣] **محمد البقلى: التعريف، ص٢٦٥.**

[٤] **محمد البقلى: التعريف، ص ٢٦٥.**

[٥] **ابن فضل الله العمري: التعريف، ص١٦١- ١٦٢، هامش٢؛ محمود نديم فهيم: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري ،ص ١٣٢.**

والمالكي، أما في الشام فيكون قاضي العسكر من أتباع المذهبين الشافعي والحنفي فقط، أما صاحب التعريف فيذكر أن قاضي العسكر قد يعين من أي مذهب[1]. واللافت للنظر أنه بالرغم من أن القضاة الأربعة غالباً ما يصحبون الجيش عند خروجه للحرب، كدليل على تأييد القضاة والعلماء لهذه الحرب التي يشنها السلطان، خاصة إذا كان هذا الجيش خارجاً لإخماد ثورة ما، إضافة إلى أن خروجهم كان نوعاً من التحفيز للمتطوعة للمشاركة والاستبسال في هذه الحرب، إلا أن السلطان كان يحرص على أن يرافقه قاضي العسكر لأداء الوظيفة التي أوكلت إليه وهي الفتوى والفصل بين الجند.

ومن العلماء الذين تولوا هذا المنصب: القاضي الشريف شمس الدين أبو عبد الله الحسيني الأرموي الشافعي[2]، والقاضي شهاب الدين أبو العباس العينتابي الحنفي[3] والقاضي شمس الدين الدميري المالكي[4].

ومن الوظائف الهامة التي شغلها العلماء في الدولة المملوكية وكان لها بالغ الأثر في تسيير أمور الدولة **وظيفة الفتيا**. ونخص بالذكر هنا ما كان يعرف **بإفتاء دار العدل**[5]: وهي عبارة عن موضع يجتمع فيه السلطان والقضاة ورئيس ديوان الإنشاء وكاتب الدست ،وذلك للنظر في المظالم

---

(1) ابن فضل الله العمري: التعريف، ص١٦١– ١٦٢، هامش٢؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩٩، ٣٧.

(2) هو محمد بن الحسين بن محمد العلوي الحسيني الأرموى الشافعي، برع في الفقه والأصول، توفي سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م. المقريزي: السلوك،ج١، ق٢، ص٣٨٥؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٧٦ .

(3) هو أحمد بن إبراهيم أيوب العينتابي، من العلماء الأعلام، تولي قضاء العسكر بدمشق، إضافة إلى الفتوى والتدريس والتصنيف، توفي سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١١،ص٧٢.

(4) هو محمد بن أحمد بن عبد الملك الدميري، تولى عدداً من الوظائف، إضافة إلى قضاء العسكر، توفي سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م . المقريزي: السلوك، ج٤،ق١،ص١٧٠.

(5) ذكر بعض المؤرخين أن أول من أنشأ هذه الدار هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وهو عبارة عن مكان يجتمع فيه مع كبار القضاة في دمشق، وعندما حل الأيوبيون محل الزنكيين في حكم مصر والشام نقل مقر هذه الدار إلى مصر، وعندما بني صلاح الدين الأيوبي قلعة القاهرة الشهيرة خصص لدارالعدل مكاناًبها، انظر المقريزي: الخطط ،ج٣،ص٣٦٣–٣٦٤؛ محمد البقلي: التعريف، ص١٣٠.

وإصدار الأحكام الخاصة بها[1]، ففي سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م، بني الظاهر بيبرس داراً للعدل في مكان يعرف بالطبلخاناه تحت القلعة، وكان يعرض عسكر بها يومي الاثنين والخميس، واستمر الحال على ذلك إلى أن أنشأ السلطان المنصور قلاوون الإيوان الذي عرف بدار العدل، وواظب على الحضور فيه يومي الاثنين والخميس، وذلك للنظر في المظالم، ويتم فيه أيضا مثول رسل الملوك بين يدي السلطان، وقد وصف المقريزي كيفية جلوس السلطان المملوكي بدار العدل بقوله:

" فإذا جلس للمظالم – يقصد السلطان – كان جلوسه على كرسي.. وكانت العادة أولاً أن يجلس قضاة القضاة من المذاهب الأربعة عن يمينه، وأكبرهم الشافعي، وهو الذي يلي السلطان، ثم إلى جانب الشافعي الحنفي، ثم المالكي، ثم الحنبلي، وإلى جانب الحنبلي الوكيل عن بيت المال، ثم الناظر في الحسبة بالقاهرة ويجلس عن يسار السلطان كاتب السر وإن كان الوزير من أرباب السيوف، كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف"[2].

وكانت إجراءات ذلك المجلس تبدأ بأن يقرأ كاتب السر وموقع الدست أوراق المظالم على السلطان، وما يحتاج منها لفتوى القضاة شاورهم السلطان فيه، وأوكل أمرها إليهم، أما ما يتعلق بالعسكر والجند فيقوم بقراءتها ناظر الجيش ويراجع السلطان فيها الحاجب وكاتب الجيش[3]. وقد تناوب على وظيفة إفتاء دار العدل عدد كبير من العلماء الأجلاء نذكر منهم على

---

(١) محمد البقلي: التعريف، ص١٣٠.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٣، ص٣٦٤. وقد ذكر القلقشندى هيئة الجلوس بدار العدل بنفس الترتيب الذي ذكره المقريزي، انظر صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥- ٤٦، كما ذكره السيوطي في حسن المحاضرة، ج٢، ص١١٠.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٣، ص٣٦٤- ٣٦٥ .

سبيل المثال لا الحصر: القاضي شهاب الدين أبو العباس البعلبكي[١]، وقاضي القضاة بهاء الدين السبكي[٢]، والإمام العلامة ركن الدين القرمي الحنفي[٣]، وشمس الدين التفهني[٤].

ومن الوظائف الهامة التي شغلها العلماء في السلطنة المملوكية **وظيفة وكالة بيت المال:** وهي من الوظائف الجلية التي لا يتولها إلا صاحب علم وديانة، ويكون جلوس وكيل بيت المال بدار العدل، وقد اختصت هذه الوظيفة بما يباع أو يشترى من متولي بيت المال من أراضي وعقارات وغيرها[٥]، وقد حرص سلاطين المماليك على إسناد هذه الوظيفة الهامة التي تعادل وزارة الخزانة أو المالية في العصر الحديث، إلى عدد من العلماء يأتي في طليعتهم

---

[١] هو أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم البعلبكي، وقد برع في الفقه على الإمام الشافعي، وتولى إفتاء دار العدل بدمشق وتوفي بها سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٨٦- ٨٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٩.

[٢] هومحمد أحمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي،ولد في القاهرة سنة ٧٤٥ه، درس وتفقه على جدة وأبيه ،درس بالسيفية والهكارية ،وبقبة الشافعي كما خطب بالجامع الطولوني ،كان شاباً ديناً عاقلاً توفي بالقاهرة بالطاعون سنة ٧٦٤ه. السبكي: طبقات الشافعية،ج٩،ص١٢٤-١٢٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٩١- ٥٩٢.

[٣] هو أحمد القرمي، عرف باسم قاضي قرم، برع في الإفتاء، وكان متقنا لمذهبه عالماً به، توفي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٤٦١- ٤٦٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٧٧.

[٤] هو محمد بن عبد الرحمن بن علي التفهني، أحد القضاة الأحناف الذين تولوا هذا المنصب، وقد توفي سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م السخاوي : التبر المسبوك، ج١، ص٢٨٤- ٢٨٥ .

[٥] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤،ص٣٧؛ ابن فضل الله العمري: التعريف، ص١٧٠، هامش ١٠.

قاضي القضاة قطب الدين السنباطي الشافعي[١]، وكذلك جمال الدين الطنبدي الشافعي[٢]، وأمين الدين القلانسي[٣]، والعالم القاضي تاج الدين أبو محمد السنجاري الحنفي[٤]، وغيرهم .

ومن الوظائف الهامة التي كان لأصحابها نفوذ في دولة المماليك، **وظيفة الحسبة** التي وصفها ابن تيمية بأنها " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاة والقضاة وأهل الديون ونحوهم "[٥] كما عرفها الشيزري بأنها:"أمر بمعروف ونهى عن منكر،وإصلاح بين الناس"[٦]، أما القلقشندى فقد قال في تعريفها: "وهي وظيفة جليلة رفيعة الشأن، وموضوعها التحدث في الأمر والنهي، والتحدث عن المعايش والصنائع، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته"[٧]، وقال عنها الماوردي:

---

(١) **هو محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر، يعد من العلماء والفقهاء البارعين في مذهبه، توفي سنة٧٢٢هـ/١٣٢٢م. المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ق٢٣٩-٢٤٠، ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص١٨٤.**

(٢) **هو محمد بن عرب الطنبدي، تولى وكالة بيت المال في مصر إضافة إلى عدد من الوظائف، توفي سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص١٢٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٣٦؛ السخاوي: التبر المسبوك، ج١، ص١٤٨- ١٤٩.**

(٣) **هو محمد بن الجمال أحمد بن أحمد بن محمد بن نصر الله بن المظفر بن أسعد بن حمزة المعروف بابن القلانسي التميمي، درس الفقه وتولى عدداً من الوظائف الدينية، توفي سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م. المقريزي: السلوك،ج٣،ق١،ص٧٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٧٦٤.**

(٤) **هو عبد الله بن علي بن عمر السنجاري، باشر وكالة بيت المال في دمشق، أتقن عدداً من العلوم منها الفقه والأصول والعربية، توفي سنة٨٠٠هـ/١٣٩٧م، ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص١٩٧.**

(٥) **ابن تيمية: الحسبة في الإسلام، ص١٦؛ الحسبة ومسئولية الحكومة الإسلامية، ص١٨.**

(٦) **عبد الرحمن بن نصر الشيزري: كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٥.**

(٧) **القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٨.**

"هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعلــه"[1] ووصفها ابن الإخوة :"أنها من قواعد الأمور الدينية، وقد كان أئمــة الصـــــــــدر الأول يباشــــــرونهــا بأنفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها، وهي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونَهْيٌ عن المنكر إذا ظهر فعله،وإصلاح بين النـــاس "[2]، وقــد أجمع العلماء الذين ألفوا المصنفات الرائعة في الحسبة أنهــا مــن الوظــائف الدينية التي ينبغي لمن يتولاها أن يكون عالماً ملماً بأحكام الشريعة[3]؛ليتسنى له له القيام بأعباء تلك الوظيفة العظيمة، وقد زخر التاريخ المملوكي بأسماء عــدد من العلماء البارزين الذين تقلدوا هذه الوظيفة الجليلة، مــنهم: القاضــي عــلاء الدين ابن بنت الأعز[4]، والمؤرخ الشهير تقي الــدين المقريــزي[5] وقاضـــي القضاة بدر الدين العيني الحنفي[6]، وغيرهم.

---

[1] الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص٣٩١.

[2] ابن الإخوة :معالم القربة ،ص١٣.

[3] لمزيد من التفاصيل عن الحسبة انظر: فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإســلامية، ص١٣٤-١٤٦؛ أنور الرفاعي: النظم الإسلامية، ص١٢٢- ١٢٨؛ عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى،ص٥٤-٥٦؛ حسام الدين السامرائى: المؤسسات الإدارية في الدولة العباســية، ص٣٠٦ ومابعدها؛ علي حسن الخربوطلى: الحضارة العربية الإسلامية، ص٤٣-٤٤.

[4] هو أحمد بن تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر العلامي الشــهير بــابن بنــت الأعــز الشافعي، تولي حسبة القاهرة وعدداً من الوظائف، واشتهر بالعلم والأدب والفصــاحة. المقريــزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٠٤؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٩٤- ٩٥؛ ابن تغري بردي: النجــوم، ج٨، ص١٥١.

[5] هو أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن تميم الحنفي، تولى حسبة القاهرة والوجه البحري، برع في الفقه والحديث، وكان عارفاً بالمذهبين الحنفي والشافعي، له مصنفات عظيمة في التاريخ من أشهرها السلوك لمعرفة دول المملوك، والمواعظ والاعتبار لمعرفة الدول والآثار، توفي رحمه الله سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٩٢٨-٩٣٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٣١- ٢٣٢؛ العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من (٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٥٧٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص٨٠.

[6] هو محمود بن القاضي شهاب الدين أحمد بن القاضي شرف الدين موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف يوسف بن محمود العينتابي أو العيني، عمدة المؤرخين، ولد سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م ؛ تولى عدداً من الوظائف منها الحسبة، ونظر الأحباس، وصنف كتباً مفيدة في كثير من فروع العلم منها التاريخ

ومن الوظائف الهامة التي شغلها العلماء في الدولة المملوكيـــة، **وظيفـــة نقابة الأشراف**:ومهمة متوليها الإشراف على أمور آل البيت من أولاد فاطمـــة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي رضي الله عنهما، وذلك بالتحقق من نسبهم وقضاء حوائجهم، كما يجـــب عليـــه زيـــارة مرضـــاهم والمشـــي فـــي جنائزهم[١]. وممن تولى هذه الوظيفة من العلماء الشريف شمس الدين الحســـني الأرموي[٢]، والشريف شرف الدين أبو الحسن الحسيني[٣]، والشـــريف شـــهاب الدين الحسيني[٤].

كما تسلم عدد من العلماء **وظيفة نظر الأحباس المبرورة**: والحبس: نظـــام إسلامي يوقف فيه الإنسان ما يملكه من أراضٍ أو عقار ونحـــو ذلـــك وقفـــا مؤبدا ويتنازل فيه عن دخله لجهات البـــر والإحســـان تقربـــا إلـــى الله تعـــالى باعتبارها من الصدقات الجارية، ويسمى الوقف فـــي هـــذه الحالـــة (الوقـــف الخيري)، وإذا كان على الأسرة والذرية سمي (بـــالوقف الأهلـــي). ويشـــرف صاحب هذه الوظيفة على أمـــوال الجوامـــع والمســـاجد والأربطـــة والزوايـــا والمدارس وغير ذلك مما يكـــون موقـــــوفاً على سبيـــــل الصـــــــدقات

الكبير، وطبقات الشعراء وطبقات الحنفية والتاريخ الصغير وتاريخه المسمى عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، توفي سنة٨٥٥هـ/١٤٥١م. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٧٢١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص١٧٠؛ الدليل الشافي ، ج٢، ص٧٢١؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج٢، ص١٢٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٨٧-٨٨؛ السخاوي: ذيل على رفع الإصـــر، ص٤٢٨-٤٤٠.

[١] القلقشندى: صبح الأعشى، ٤٢، ص٣٨؛ محمد البقلى: التعريف، ص٣٥١.

[٢] هو محمد بن الحسين بن محمد العلوي أبو عبد الله، تولي عدداً من الوظائف، واتصف بحسن الأخلاق، توفي سنة٦٥٠هـ/١٢٥٢م؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٥؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٧٦.

[٣] هو علي بن الحسين بن السيد شرف الدين الحسيني، وهو من العلماء الفضلاء، وقد تولى وكالة بيت المال، توفي سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م؛ السبكي : طبقات الشافعية، ج١٠، ص١٣٧؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١، ص٢٥٢.

[٤] هو أحمد بن علي بن إبراهيم بن عدنان الحسيني، تولى كتابة السر؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٨٠٩.

كما أن هذا الموظف يشرف على الأوقاف الخاصة والعامة التي تصــرف فــي هذه المجالات[1].

ومن العلماء الذين شغلوا هذا المنصب :الشــيخ شــمس الــدين الســنجاري[2]، والقاضي تاج الدين المليجي المعروف بصائم الدهر[3]، والقاضي شهاب الــدين الصفدي[4].

أما الوظائف الإدارية أو الديوانية كما ذكرها القلقشندى فهي كثيــرة جــداً وقد أوكلت بعضها للعلماء وكان من جملة هذه **الوظائف الوزارة:**

وهي من الوظائف المهمة في الدولة،ويكون متوليها قريباً مــن الســلطان مطلعاً على أحواله وأحوال الرعية، وقد عرفها الماوردى علــى ثلاثــة أَوْجــه فقال: " أحدها: أنه مأخوذ من الوزْر وهو الثقل لأنه يحمل عن الملــك أثقــال. الثاني: مأخوذ من الوَزَرَ، وهو الملجأ، ومنه قوله تعالى: {كَــلا لا وَزَرَ} أي لا ملجأ، فسمي بذلك لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته.والثالث: أنه مــأخوذ مــن الأزر، وهو الظهر، لأن الملك يقوي بوزيره"[5].

كما عرفها ابن خلدون بقوله: "هي أم الخطط السلطــانية والرواتــب الملوكيــة لأن اسمها يدل على مطلق الإعــانة؛ فإن الوزارة مأخوذة إما مــن المــؤازرةِ

---

[1] القلقشندى، ج٤، ص٣٩؛ ابن فضل الله العمري: التعريف، ص١٥٣، هامش٤؛ محمد البقلى: التعريف، ص٣٤١.

[2] هو عيسى بن الصاحب برهان الخضري، ناب عن والده في منصب الوزارة، كما باشرالتدريس في إحدى مدارس القاهرة، توفي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٢١.

[3] هو محمد بن محمد بن محمد المليجي، عرف بصائم الدهر، تولى الحسبة والأحباس، وكان خطيب مدرسة السلطان حسن، اتصف بالصفات الحسنة والخير والصلاح، توفي سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٨٢١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص١٨.

[4] هو أحمد بن أبي أحمد، تولى نظر المارستان وناظر الأحباس، توفي سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٣، ص٢٨١- ٢٨٢، المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٣٧٥.

[5] الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٦٤.

وهي المعاونة. أو من الوِزْرِ وهو الثقل"[1]. ومن أبرز العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، والصاحب فتح الدين القيسراني الحلبي[2].

ومن الوظائف التي اعتبرها القلقشندى تابعةً للوزارة **وظيفة نظر الدولة أو ناظر النظار أو الصحبة الشريفة:** ويعتبر ناظر الدولة شريكاً للوزير في التصرف في الأمور المالية، وله تقريباً نفس صلاحيات الوزير، ولكن الناظر يعتبر تابعاً للوزير[3]. ومن العلماء الذين تقلدوا هذا المنصب القاضي موفق الدين هبة الله بن سعيد الدولة إبراهيم[4]، وضياء الدين ابن خطيب بيت الآبار[5]، والقاضي كريم الدين كاتب جكم[6].

أما الوظيفة الثانية التي تتبع الوزارة فهي **استيفاء الصحبة:** ويعتبر هذا الديوان من أعلى دواوين الأموال شأناً، وجميع دواوين الأموال تعتبر فرعاً منه، وهو يحوي التواقيع والمراسيم السلطانية، وصاحب هذه الوظيفة يتحدث في جميع الأمور المالية التي تخص الدولة سواءً في مصر أم في

---

[1] ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص٢١٧.

[2] هو عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد بن محمد بن نصر القرشي المخزومي، أبو محمد. تولى وزارة دمشق، عرف بالتدين والأخلاق الحسنة، توفي بالقاهرة سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م. العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٣٢٨.

[3] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٩؛ محمد البقلي: التعريف، ص٣٤٤.

[4] المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢٤٨.

[5] هو يوسف بن أبي بكر بن محمد ابن المحاسن، المعروف بالضياء بن خطيب بيت الآبار الشامي، تولي الحسبة ونظر المارستان، اتصف بالأمانة. توفي سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٥٧.

[6] هو عبد الكريم بن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جكم، تولي عدداً من المناصب منها، ناظر الخاص واستيفاء الدولة، اتصف بالأخلاق الحسنة، توفي سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م. العيني: عقد الجمان، تراجم وحوادث سنوات من(٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٢٢٥- ٢٢٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٢٥- ٣٢٦.

الشـــــــام، كما يشرف هذا الموظف على كتابة الأعمال الموكلة إليهم والتـــي يأمر بها الوزير[١]، ومن العلماء الذين أوكل لهم هذا المنصـــب :مكـــين الـــدين إبراهيم ابن قرَوينة[٢]، والقاضي تاج الدين بن سعد الدين ابن البقـــري[٣]. أمـــا **وظيفة مشير الدولة:** فهو لقب يطلق على الوزير أو من يقوم بإســـداء النصـــح والمشورة للسلطان في الدولة[٤]. ومـــن العلمـــاء الـــذين أطلـــق علـــيهم هـــذا اللقب:القاضي سعد الدين غراب[٥].

أما وظيفة **كاتب السر** فهي من الوظائف المهمة في الدولة، حيـــث يقـــوم متوليها بقراءة الرسائل التي ترد إلى السلطان، ومن ثم الرد على هذه الرســـائل سواء كانت واردة من داخل السلطنة أم خارجها، إضافة إلى حضور صـــاحب هذه الوظيفة في مجلس دار العدل وقيامه بقراءة أوراق المظـــــــالم الـــواردة

---

[١] **القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٩؛ ابن فضل الله العمري: التعريف، ص١٥٢، هامش٣؛ محمد البقلى: التعريف، ص٣٠؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج٣، ص١٠٨٨.**

[٢] **هو من كبار الكتاب تولي نظر البيوت ونظر الجيش، توفي سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٠، ص١٩١.**

[٣] **ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق١، ص٢٠٦؛ تاج الدين ابن البقري: هو عبد الله بن الصاحب سعد الدين بن البقري توفي سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص٤١؛ وجيز الكلام، ج١، ص٣٨٧.**

[٤] **محمد البقلى: التعريف، ص٣١٣.**

[٥] **هو إبراهيم بن عبد الرزاق، القاضي الأمير سعد الدين بن علم الدين بن شمس الدين، وهو من أولاد مسالمة الأقباط، عظم أمره في الدولة، وترقي في المناصب فولي نظر الخاص ونظر الجيش و الأستادرية وكتابة السر وغيرها من الوظائف، عرف عنه الدهاء مع الكرم وحب العطاء للناس، وكان محبباً للعامة، توفي سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م. ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٣٢٨– ٣٢٩؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص١٠٤– ١١٢؛ الدليل الشافي، ج١، ص٢١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٦٥؛ وجيز الكلام ، ج١، ص٣٨٧.**

على السلطان والتي يحملها صاحب البريد والتوقيع عليها[1]. وقد تـولى هـذه الوظيفة الجليلة كوكبة من العلماء الأجلاء[2]، يأتي في طليعتهم :المؤرخ محـي الدين بن عبد الظاهر[3]، وعدد من أبناء أسرة ابـن فضـل الله العمـري وهـم القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله العمري[4]، ومحـي الـدين بـن فضل الله العمري وأولاده[5]، وعلى رأسهم العلامة المؤرخ شهاب الـدين بـن فضل الله العمري[6]، كما ورث هذه الوظيفة بعض أحفاد محـي الـدين حيـث أداروها بكفاءة بارعة وأثبتوا جدارة فائقة في ذلك.

---

(1) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٢، ص٣٠؛ محمد البقلي: التعريف، ص٢٣٨.

(2) ذكر ابن شاهين الظاهري في كتابه زبدة كشف الممالك وصف لكاتب الإنشاء فقال: (وصاحبها المباشر لها في خدمة السلطان، معدود من أكابر الأعضاء والأعوان، قائم في اهتمام مقاصده وأغراضه مقام الترجمان، فأنزل منه منزلة القلب واللسان من الإنسان، فإنه المطلع على الأسرار، المجتمع لديه خفايا الأخبار، المنتفع بهي في طريق النفع والأضرار) ص٩٩، كما يصف أحد الكتاب المحدثين ديوان الإنشاء بقوله: "وهذا الديوان يعد بمثابة وزارة الخارجية في تنظيمات الدول الحديثة". فهد ابن عبد العزيز الدامغ،التاريخ السياسي لبلاد اليمامة منذ سقوط دولة الأخيضريين حتى قيام امارة الدرعية، مجلة الدرعية، العدد ٣٢، ذو الحجة ١٤٢٦هـ، ص٥٥.

(3) هو أول من تلقب بلقب كاتب السر، وقد تولى هذه الوظيفة لاثنين من السلاطين هما المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل، تولى كتابة السر بالقاهرة ثم دمشق، كما برع في الأدب، واتصف برجاحة العقل والوقار والتدين والأمانة، وتوفي سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م، المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٧٨-١٧٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧٠-١٧١ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٥٢؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية،ص٩٢٣.

(4) هو عبد الوهاب بن فضل الله بن مجلي العدوى، تولى كتابة السر في كل من مصر ودمشق، عرفت عنه الخصال الحسنة من عفة وتدين كما اشتهر بالخط الجيد والإنشاء الرائع، توفي بدمشق سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م . ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٤٦.

(5) هو يحيى بن فضل الله بن مجلي العمري، تولي كتابة السر بدمشق ثم بمصر، توفي سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، وقد تولي هذه الوظيفة هو وأبنائه الذين برعوا في فن الكتابة. ابن فضـل الله العمري: التعـريف، مقدمة المحقق، ص ٤-٥ .

(6) هو أحمد بن محي الدين يحي بن فضل الله العمري، ولد بدمشق سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، تولي كتابة السر بدمشق، ثم بمصر عوناً لوالده محي الدين، وقد كان إماماً فقيهاً بارعاً، ألف عدداً من التصانيف المفيدة، منها موسوعته الكبرى "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" و "التعريف بالمصطلح الشريف" توفي باطلاً عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٠، ص١٨٥؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مقدمة المحقق، ص ٧-٨؛ العمري: التعريف، مقدمة المحقق،ص ٣-٧.

ويشمل العمل بديوان الإنشاء عدداً من الوظائف التي تكون تابعة ومكملة لعمل صاحب ديوان الإنشاء، منها **كاتب الدست** :ومتولي هذه الوظيفة يقوم بإعادة قراءة الأوراق على السلطان بعد قراءة كاتب السر لها، وذلك في مجلس دار العدل، ثم يقوم هذا الموظف بالتوقيع على الأوراق بأمر كاتب السر، وقد سمى متولي هذه الوظيفة بهذا الاسم نسبة إلى مرتبة السلطان التي يجلس عليها، لأنهم يجلسون عنده للكتابة[(١)]، ومن العلماء الذين باشروا هذه الوظيفة: المؤرخ ابن أيبك الصفدي[(٢)]، والقاضي شرف الدين الحلبي[(٣)]، والقاضي علاء الدين علي البيري[(٤)].

ومن هذه الوظائف أيضاً ما عرف **بكتَّاب الدَّرْج** :وهم الذين يقومون بكتابة ما يوقع عليه كاتب السر أو كاتب الدست، أو أي أوامر تصدر عن النائب أو الوزير أو الدوادار، سواء كانت تلك الأوامر مكاتبات أو تواقيع أو تقليديات أو مراسيم أو غيرها. واسم هذا الموظف مشتق من دُرُوج الورق التي

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠؛ ج١، ص١٧٢؛ محمد البقلي: التعريف ،ص٢٨١.

(٢) هو صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك الصفدي الشافعي، وهو من العلماء الأجلاء والرؤساء المشهورين بالأدب والفصاحة وحب النظم والنثر، إضافة إلى العلم الواسع، تولي توقيع الدست بدمشق ثم كتابة السر بها ثم بالقاهرة، له تصانيف في الأدب والتاريخ، توفي سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م. السبكي: طبقات الشافعية، ج١٠، ص٥-٦، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص٢٦٨- ٢٧١ .

(٣) هو موسى بن القاضي بدر الدين محمد بن محمد بن شهاب الدين محمود الحلبي الحنبلي، كان من أسرة اشتهرت بالكتابة والإنشاء، توفي بالرملة سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥١١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٢٤٥.

(٤) المقريزي: السلوك ، ج٩، ق٢، ص٦٣٩؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق١، ص١١٤.والقاضي ص١١٤.والقاضي علاء الدين البيري لم أقف له على ترجمة.

يكتبون داخلها، وممكن أن يطلق عليهم كتاب الإنشاء[1]. ومن أشـــهر العلمـــاء الذين تولوا هذه الوظيفة الشيخ كمال الدين بن العطار[2]، والقاضي فـــتح الـــدين ابن عقيل[3]ومن الوظائف المهمة التي تولاها العلماء **وظيفة نظر الخاص:**

وهي من الوظائف المحدثة التي أحدثها الناصر محمد عوضاً عن الوزارة ومن اختصاصتها الإشراف على الأموال الخاصـــة بالســـلطان، ولا يســـتطيع صاحبها إصدار أي أمر دون مشورة السلطان والرجوع إليـــه[4]، ومـــن أبـــرز

---

[1] القلقشندى: صبح الأعشى، ج١، ص١٧٢-١٧٣؛ ج٤، ص٣٠؛ محمد البقلي: التعـــــريف، ص٢٨٠- ٢٨١ .

[2] أحمد بن أبي الفتح محمود بن أبي الوحش أسد بن سلامة بن سليمان فتيان المعروف بابن العطار، هو من الأئمة المحدثين، له نظم ونثر رائق، وكان يحب تلاوة القرآن وسماع الحديث، توفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م. المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٤٥- ٩٤٦؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص١٦١- ١٦٢.

[3] المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٧٠-٥٧١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٢٥٦-٢٥٧. والقاضي فتح الدين بن عقيل:هو محمد بن قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل الشافعي، يعد من العلماء الأجلاء الفضلاء، توفي سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٧٠- ٥٧١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٢٥٦- ٢٥٧.

[4] القلقشندى: صبح الأعشى ، ج٤، ص٣٠؛ السيوطي : حسن المحاضرة، ج٢، ص١١٢؛ المقريزي: الخطط، ج٣، ص٣٩٥ محمد البقلي : التعريف بمصطلاحات صبح الأعشى، ص٣٤٣؛.

العلماء الذين تولوا هذا المنصب:القاضي كريم الدين بن كاتب جكم[1]، والقاضي عز الدين بن جماعة،و القاضي سعد الدين بن كاتب جكم[2].

كما تعد وظيفة **نظر الجيش** من أبرز الوظائف التي أسندت إدارتها إلى العلماء، ومن مهام صاحبها تسجيل أسماء الجنود وأسماء الأمراء الذين يتبعون لهم، وكذالك كل ما يتعلق بهم من نفقات وعتاد ومؤن، ناهيك عما يخصهم من إقطاعات[3]. ومن أبرز العلماء الذين تولوا هذا المنصب المهم:قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، والقاضي فخر الدين بن الحلي[4]، وكاتب السر كمال الدين بن البارزي[5]، والقاضي زين الدين عبد الباسط[1].

---

[1] هو عبد الكريم بن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جكم، وهو أول من تولي هذه الوظيفة سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م، اتصف بحسن الأخلاق وحب الخير وكثرة التصدق، توفي سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٢٧؛ العيني: عقد الجمان،حوادث وتراجم السنوات من(٨٢٤_٨٥٠)، ص٢٤٩- ٣٩٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص١٠٩.

[2] هو إبراهيم بن القاضي كريم الدين عبد الكريم المعروف بابن كاتب جاكم، تولى نظر الخاص بعد وفاة والده كريم الدين سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م ، وكان شاباً كريماً يحسن تدبير الأمور وسياستها، توفي سنة ٨٤١هـ /١٤٣٧م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٣٦٤-٣٧٠ .

[3] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٣١؛ المقريزي: الخطط، ص٣٩٥، محمد البقلي: التعريف، ص٣٤٢- ٣٤٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١١٤.

[4] محمد بن بهاء الدين عبد الله بن أحمد المعروف بابن الحلي، كان من الرؤساء المقدمين في الدولة، تولي نظر جيش دمشق وتوفي سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٨٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٢٣٦.

[5] هو محمد بن القاضي ناصر الدين أبو المعالي محمد بن القاضي كمال الدين محمد بن عثمان بن محمد بن عبد الرحيم البارزي الحموي الجهني الشافعي، ولد سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م، برع في الكتابة وتولي كتابة السر، وعرف بالصفات الحميدة التي أهلته للرياسة. لقب بالبارزي نسبة إلى باب أبرز

ويعاون ناظرَ الجيش عددٌ من الموظفين منهم **صـــاحب ديــوان الجــيش وكاتبه وشاهده، وصاحب ديوان المماليك، وكاتبهم وشهودهم**، ومن العلمـــاء الذين تولوا هذه الوظيفة القاضي تاج الدين بن شـــاهد الجمـــالي(٢)، والقاضـــي شمس الدين محمد بن الوحيد الدمشقي(٣)، أما **كتابة المماليك** فقد تقلدها عدد من العلماء منهم: القاضي عبد الكـــريم بـــن جلـــود(٤)، والقاضـــي شـــرف الـــدين الصغير(٥).

وممن تولى وظيفة **صاحب ديــوان الجــيش**: والـــذي يضـــطلع بجميـــع اختصاصات ووظائف ناظر الجيش، إضافة إلى النظر في أمـــر الاقتطاعـــات،

أحد الأبواب في مدينة بغداد توفي سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٢٩٠- ٢٩٤، ج١، ص١٥٣؛ السيوطي: نظم العقيان، ص١٦٨- ١٧٠.

(١) **هو عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم بن يعقوب الشافعي، عظيم الدولة في أيام الناصر فرج بن الأشرف برسباي، تولي عدداً من الوظائف، واشتهر بكثرة إنشائه للعمائر توفي سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٢٩؛ ج٢، ص٢٨٥- ٢٨٦؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٢٧٤- ٢٧٦؛ العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من (٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص١٥١- ١٥٢؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص ٥٨٦.**

(٢) **هو محمد بن بهاء الدين المالكي، تولي إفتاء دار العدل ووكالة الخاص، توفي سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م، المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص١٩٣، ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٠٣- ١٠٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٩٤.**

(٣) **تولي نظر المواريث والأوقاف، وتوفي سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢،ص٥٧٢.**

(٤) **هو عبد الكريم بن أبي الفضل محمد بن إسحاق القبطي، تولى هذا المنصب بهيبة وحرمة، وقد توفي بالطاعون سنة ٨٨١هـ/١٤٧٦م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١٢٢- ١٢٣ .**

(٥) **ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١١٨؛ ج٥، ص٥.**

العلامة معين الدين بن حشيش[1]، والقاضي شرف الدين بن الجيعان[2]، أما **نظر الدواوين:** أو ناظر الدولة والتي يقوم متوليها مقام الوزير، كما أنه يعتبر شريكاً للوزير في جميع الشؤون المالية ورواتب الموظفين[3]، فقد تولي هذه الوظيفة عدد من العلماء منهم : القاضي شرف الدين بن النابلسي[4]، والصاحب أمين الدين بن صرصري[5]،

والصاحب محي الدين بن النحاس[6]، وغيرهم.

كما شغل عدد من العلماء وظيفتين هامتين لهما علاقة مباشرة بخزانة الدولة: الأولي **وظيفة نظر الخزانة**، التي كانت موجودة في الدولة المملوكية قبل استحداث وظيفة نظر الخاص، والتي أصبحت بعد هذا تختص

---

(1) هو هبة الله بن علم الدين مسعود بن عبد الله بن حشيش، برع في الفقه والنحو والأدب والشعر، توفي سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م. المقريزي: السلوك ،ج٢، ق٢، ص٣١٥- ٣١٦؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٢٠٣.

(2) هو يحيى بن شاكر بن عبد الغني القبطي الشافعي، كان يعد من العلماء الفضلاء، برع في علم الفرائض، توفي سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م. بدائع الزهور: ج٣، ص١٦٨؛ ابن الجيعان: القول المستظرف في سفر مولانا الأشرف، ص١٠.

(3) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٣١؛ محمد البقلي: التعريف، ص٣٤٣.

(4) هو أبو طالب بن القاضي علاء الدين النابلسي، تولي هذه الوظيفة سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م. ابن عبد الظاهر: شريف الأيام والعصور، ص٥٨.

(5) هو سالم بن محمد بن سالم بن الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صرصري التغلبي، سمع الحديث وأسمعه، وكان من الرؤساء المقدمين في الدولة، تولى نظر الخزانة إضافة إلى الدواوين، لكنه ما لبث أن ترك جميع الوظائف وحج وجاور بمكة ثم عاد وأقام بدمشق حيث توفي هناك سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م. العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٤٧٦.

(6) هو محمد بن بدر الدين يعقوب بن إبراهيم بن هبة الله بن طارق بن سالم بن النحاس الأسدي الحلبي الحنفي. اشتغل بالعلوم، وسمع الحديث ودرس بمدارس دمشق، وتولي عدداً من الوظائف الدينية والديوانية، وعرف بحسن الخلق، توفي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م. ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٣، ص٣٩٧؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٢٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص١٩.

بالخلــع فقط[١]. أما الثانية فهي **وظيفة شهادة الخزانة**، التي كان متوليهــا يعنى بضبط أموال الديوان، وعمل الحســابات الخاصــة بــه مــن واردات ومصروفات[٢]. وقد تقلد الأولى عدد من العلماء منهم :قاضــي القضــاة تقــي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز[٣]، والشيخ نجم الدين بــن أبــي الطيــب[٤]، وقاضي القضاة تاج الدين الأخنائي[٥]، وغيرهم، أما الثانية فممن تقلدها الشــيخ الإمام عماد الدين بن الصائغ[٦]، وقاضي القضاة تقي الدين الأخنائي المالكي[٧].

المالكي[٧].

كما وصلت مهام العلماء إلى حد الإشــراف علــى منــازل الســلاطين وشؤونهم الخاصة، وذلك بالتحكم في نفقات بيوت السلاطين وتربيــة أولادهــم،

---

(١) **القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٣١؛ السيوطي: حسن المحضرة، ج٢، ص١١٤؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج٣، ص١٢٠٢ – ١٢٠٣.**

(٢) **محمد البقلى: التعريف، ص٢٠٦؛ حسن الباشا : الفنون الإسلامية، ج٢، ص٦٢١-٦٢٢.**

(٣) **المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٤١- ٧٤٢؛ تقي الدين بن بنت الأعز: هو عبد الرحمن بن تاج الدين العلائي الشافعي قاضي قضاة الديار المصرية، توفي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٣٩٧؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٠١؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٤٣١.**

(٤) **هو عمر بن أبي القاسم بن عبد الغني بن محمد بن الحسن بن أبي الطيب، تولي عدداً من الوظائف إضافة إلى التدريس، توفي سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م. الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص٤١- ٤٢؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٣- ١٤؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٤٧١.**

(٥) **هو محمد بن علم الدين محمد بن أبي بكر الأخنائي قاضي المالكية، كان فقيها فاضلاً، ومن الرؤساء المقدمين في الدولة توفي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م المقريزى: السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٢.**

(٦) **هو عبد العزيز بن محمد بن عبد القادر بن عبد الله بن خليل بن مقلد الأنصاري الدمشقي، برع في الحساب، وقد روى الحديث ودرس. توفي سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣١٤؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص١٥١.**

(٧) **هو محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران السعدي، هو من الفقهاء المحدثين، تولي قضاء الإسكندرية ودمشق. توفي سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م . ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٩٤.**

حيث تولى عدد من العلماء منصب "**الاستادار**"[1]، فرغم أن القلقشندي ذكــر أن صاحب هذه الوظيفة يكون من الأمــراء مقــدمي الالــف ويعــاونهم أمــراء طبلخانة[2]، إلا أن بعض المصادر أشارت إلى تولى عدد مــن العلمــاء لهــذه الوظيفة ومنهم القاضي سعد الدين محمد بن عطايا[3]، وجمال الدين السبكي[4]. السبكي[4]. ومن العلماء الذين تولوا منصب الاستادار: الصــاحب بــدر الــدين الإدكوي الفوّى[5]، والقاضي شرف الدين عبد الرحمن الخطيري[6]، وسعد الدين الدين بن الريش[7].

ومن الوظائف التى شغلها العلماء **وظيفة الخزندارية:** ويهتم صاحب هذه الوظيفة بالخلع والتشاريف[8] السلطانية، وممن تولى هذه الوظيفة: الشــيخ نجــم الدين أبي الطيب[1].

---

(1) الاستادارية: هو لفظ فارسي معناه المسئول عن تدبير شئون مساكن السلطان، أو الأمراء وتقنين وضبط مصاريفه.محمد البقلى: التعريف ، ص٢٨؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية،ج١، ص٥٠-٥١.

(2) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ٢١-٣١-٣٢؛ محمد البقلى: التعريف، ص٣٤٢؛ والطبلخانة: هي كلمة فارسية تعني بيت الطبل، وصاحب هذه الوظيفة يتولى الدق بالطبل على أبواب السلطان أو الأمراء، وكانت العادة أن تدق الطبلخانة كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب، كما أن هذه الطبلخانة تكون مصاحبة للسلطان في أسفاره وحروبه، وبه عدة موظفين آخرين، محمد البقلى: التعريف، ص٢٢٨.

(3) تولى الوزارة ونظر البيوت سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م . بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٤٠٨؛ النويري: النويري: نهاية الأرب، ج٣٢،ص٦٣.

(4) هو الحسين بن قاضي القضاة تقي الدين أبي الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن بن موسى الأنصاري، تولى عدداً من المناصب، إضافة إلى التدريس، اتصف بالصفات الحسنة، توفي سنة ٧٥٥هـ/١٤٥١م . المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص١٤.

(5) هو حسن بن نصر الله بن حسن بن محمد بن أحمد بن عبد الكريم بن عبد السلام، تولى عدداً من المناصب وتوفي سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م. السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص٥٨٧.

(6) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٦٧.

(7) ابن إياس: بدائع الزهور: ج١، ق٢، ص٣٧.

(8) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩٢.

ومن الوظائف الهامة والمرموقة التى تولاها العلماء **وظيفة نظر بيت المال:**

وصاحب هذه الوظيفة يقوم بالإشراف علـــى الأمـــور الماليـــة الـــواردة والمنصرفة من بيت المال، وذلك عن طريق القبض " أو بالتســـويغ محضـــراً وصرفاً" ولا يلي هذه الوظيفة إلا من تتوفر فيه الأمانة والعدل والدين من أهـــل العلم[٢]، ومن العلماء الذين تولوا هذا المنصب: الشيخ كمال الدين الإســـكندراني المقرئ[٣]، والقاضي شهاب الدين بن بنت الأعز[٤].

ومن ذلك أيضاً **وظيفة ديوان المفرد:**و يتولى نفقة المماليـــك الســـلطانية من الجامكيات وعليق وكسوة والإيرادات الواردة من البلاد المخصصـــة لهـــذا الديوان[٥]. وممن باشر هذه الوظيفة من العلماء: صلاح الدين بـــن الكـــويز[٦]، وكريم الدين بن كاتب المناخ[٧].

---

[١] **هو عمر بن أبي القاسم بن أبي الطيب، كان حسن السيرة، تولى عدداً من الوظائف، توفي سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م ، العيني ، عقد الجمان ، ج٤، ص٣٧١.**

[٢] **القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٢؛ محمد البقلى : التعريف ، ص٣٤٢.**

[٣] **إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو إسحاق، تولي عدداً من الوظائف، إضافة إلى إلمامه بالقراءات. توفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م . ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٣٤.**

[٤] **هو أحمد بن عبد الوهاب بن خلف بن بدر بن بنت الأعز الشامي ، شغل عدداً من الوظائف، وتوفي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٦٩؛ إبن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٨٥.**

[٥] **محمود نديم فهيم : الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي، ص٢١٤.**

[٦] **هو خليل بن زين الدين عبد الرحمن بن الكويز، توفي سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م. المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٥٤٥.**

[٧] **ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص١٠٠. أما كريم الدين بن كاتب المناخ: فهو كريم الدين بن عبد الكريم بن الصاحب؛ تاج الدين عبد الرزاق بن الشمسي عبد المصري القبطي، عرفت عنه السيرة الحسنة، توفي سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م. السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص٦٣٠- ٦٣١.**

وإلى جانب ذلك، **وظيفة نظر الإسطبلات السلطانية:** أو مباشر الإسطبلات، وصاحب هذه الوظيفة يشرف على إسطبلات السلطان وأنواع الخيول والبغال والدواب والجمال السلطانية، وكل ما يتعلق بها وما يرد إليها أو يصرف منها، ويتابع أحوال العاملين بهذه الإسطبلات[١]. وممن باشر هذه الوظيفة من العلماء : قاضي القضاة برهان الدين الديري[٢]، والقاضي زين الدين بن مزهر[٣]، والقاضي شمس الدين بن مزاحم[٤]. وغيرهم.

كما حرص سلاطين المماليك على أن يسندوا للعلماء بعض الوظائف التي لها علاقة بالمسائل الفقهية، من ذلك من كان يعرف **بنظر المواريث الحشرية:** تعني مال من توفي وليس له وريث، فيتولى هذا الديوان الإشراف على هذه الأموال[٥]. ومن العلماء الذين أشرفوا على هذا الديوان: رشيد الدين الحريشي[٦]،و القاضي صدر الدين القيصري[١]، وغيرهما.ومن ذلك أيضا ما

---

[١] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٢؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج٣،ص١١٨٢- ١١٨٣.

[٢] هو إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن سعد بن مصلح العبسي القدسي الحنفي، تولى عدداً من الوظائف الدينية، وكان من العلماء الأفاضل والرؤساء المقدمين في الدولة، توفي سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م. ابن إياس: بدائع الزهور ج٣، ص٩١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص١٤١- ١٢٦- ١٢٧.

[٣] هو أبو بكر بن القاضي بدر الدين محمد بن مزهر. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣١٤؛ابن تغري بردي: حوداث الدهور، ص٣٧٩- ٣٨٠.

[٤] هو محمد بن مزاحم الطرابلسي، شغل عدداً من الوظائف في الدولة، توفي سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٩٧.

[٥] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٣؛ محمد البقلى: التعريف، ٣٤٣؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية، الإسلامية، ج٣، ص١١٧٩- ١١٨٠.

[٦] هو رشيد بن كامل بن رشيد الشافعي، عمل بديوان الإنشاء، وبرع في النظم والنثر، تولى عدداً من الوظائف، وعرف بالأخلاق الحسنة، توفي سنة ٧١١هـ/١٣١١م. الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص١٢٥- ١٢٦.

كان يعرف **بديوان استيفاء المرتجع:** الذي يشرف على استرجاع الإقطاعيات التي تركها أصحابها بعد وفاتهم أو انتقالهم إلى إقطاع آخر، ويقوم العالم الـــذي يتولى هذا الديوان بالحكم في القضايا الديوانية الخاصة بهـــذه الإقطاعـــات [٢]، ومن العلماء الذين باشروا المهام :القاضي شمس الدين بن شطية[٣].

ومن الوظائف التي لها علاقة بالأمور العقدية وتسند ولايتها إلى الفقهـــاء **وظيفة ناظر الزكاة:** وصاحب هذه الوظيفة يقوم بالإشراف على الزكاة وطـــرق تحصيلها من المسلمين، وقد أصبحت هذه الوظيفة فـــي عهـــد المماليـــك مثـــل الجوالي، تقوم الدولة بتحصيلها فسميت زكاة الدولة[٤]. ومن العلماء الذين تولوا هذا المنصب:الإمام عماد الدين بن الفضل الشيرازي[٥].

ويجري مجري ناظر الزكاة **ناظر الوقــف:** ومهمتـــه الإشـــراف علـــى الأوقاف والحفاظ عليها ومراعاة أحوالها، وتدبير أمورها، وإحصاء إيراداتهـــا ومراقبة العاملين بها، وذلك حسب شروط صاحب الواقـــف[٦]، ومـــن العلمـــاء الذين باشروا نظر الأوقاف: الصاحب محي الدين بن النحاس الأسدي الحلبـــي،

---

[١] هو أحمد بن القاضي جمال الدين محمد بن نور الدين تولى عدداً من الوظائف، لكنه كان غير محمود السيرة في ولايته للوظائف وحدثت له بسبب ذلك نوازل عظيمة، توفي سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م. العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من (٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٣٨٩- ٣٩١.

[٢] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤،ص٣٤؛ قنديل: التعريف، ص٣٠؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج٣، ص١٠٨٨.

[٣] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق٢، ص ٣٠١.

[٤] محمد البقلى: التعريف، ص٣٤٣.

[٥] هو محمد بن قاضي القضاة شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله، تولي عدداً من المناصب في الدولة الأيوبية والمملوكية توفي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م. المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧١٨-٧١٩.

[٦] حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج٣، ص١٢١٥؛ محمد البقلى: التعريف ، ص٣٤١.

والقاضي علاء الدين بن أقبرس[١]، والشيخ نور الدين السخاوي[٢] [٣]. وغيرهم.

ومما يدخل تحت هذا النوع من الوظائف **متولي ناظر الكسوة:** وهو المسئول عن عمل كسوة الكعبة المشرفة كل عام، وكانت هذه الكسوة بعد الانتهاء من صنعها يطاف بها في شوارع القاهرة ليراها الناس قبل أن يتوجه بها إلى مكة المكرمة، ويسمى ذلك دوران المحمل[٤]. ومن العلماء الذين نالوا شرف هذه الوظيفة: الشيخ شرف الدين بن الجلال التباني[٥]، والقاضي بهاء الدين البرجي[٦]، والقاضي شرف الدين أبو الطيب الغزّي[٧].

---

[١] هو علي بن محمد بن أقبرس الشافعي، التركي الأصل، اشتغل بالعلم، كان من المقربين عند السلطان الظاهر جقمق، توفي سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢١٨- ٢٢٤- ٣٤٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٦٣؛ السخاوي: التبر المسبوك، ج١، ص١١٥.

[٢] هو علي بن محمد بن عبد النصير علي علاء الدين عصفور السخاوي الأصل، الملقب بعصفور الدمشقي، هو شيخ الكتاب في عصره، توفي سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٧٥٤ .

[٣] ابن إياس:بدائع الزهور،ج١، ق٢، ص٧٥٤.

[٤] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٥٨- ٥٩؛ محمد البقلى: التعريف، ص٣٤٣.

[٥] هو يعقوب بن جلال الدين رسول بن أحمد بن يوسف التباني الحنفي، تولى عدداً من الوظائف الدنية، إضافة إلى الإفتاء والتدريس والتصنيف، وقد برع في علوم عديدة، منها: الفقه والعربية والأصول توفي سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م. المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٢٣٧- ٢٣٨، ج٤، ق٢، ص٦٦٤- ٦٧٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٢٩٧؛ العيني، عقد الجمان،حوادث وتراجم السنوات من(٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٢٣٩- ٢٤٠.

[٦] هو محمد بن بدر الدين حسن بن عبد الله المعروف بالبرجي باشر عدداً من الوظائف الدينية، توفي سنة سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٥٩٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٧٢.

[٧] هو محمد بن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله، تولى ديوان الإنشاء ونظر الأوقاف وحمدت سيرته في في ولايته، توفي سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٨٤١- ٨٤٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص ٣٢٤ .

ومن الوظائف المهمة في الدولة **وظيفة نظر الجوالي:** ومهمته الإشـــراف على أخذ الجزية من أهل الذمة[1]، ومن العلماء الذين تقلـــدوا ذلـــك المنصـــب: القاضي برهان الدين إبراهيم الديري[2]، والقاضي زين الدين عبـــد الباســـط[3]، والقاضي زين الدين أبو العدل البلقيني[4].

ومن ذلك أيضاً متولي **نظر الأهراء:** ومهمتـــه الإشـــراف علـــى أمـــاكن تخزين الغلال حيث لا تفتح هذه المخازن إلا عند الضرورة، فهو يشرف علـــى الغلال الواردة إلى الأهـــــراء والخـــارجة منها إلى الإسطبلات الســـلطانية[5] أو المناخات السلطانية. ومن العلماء الذين أشرفوا على هذه الأهـــراء: شـــهاب الدين الفيشي[6].

أما **نظر دار الضرب:** فقد ذكر القلقشندى أن هذه الوظيفة والإشراف على عيارات دار الضرب بها لا يتولاها إلا قاضي القضاة أو من ينـــوب عنـــه[7]، وصاحب هذه الوظيفة يجب أن يكون ملماً بالعملة والسكة والنقوش، وبعيار هذه

---

(1) ابن مماتى: قوانين الدواوين، ص٣١٧-٣١٨؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٢- ٤٦٣؛ محمد البقلى: التعريف، ص٩٤.

(2) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص١٣٦.

(3) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٨٥- ٢٨٦؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص ٦٧٧.

(4) هو أبو العدل قاسم بن قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني الشافعي، اشتهر بالكرم والعلم، توفي سنة ٨٦١هـ/١٤٥٦م . العيني: عقد الجمان،حوادث وتراجم السنوات من(٨٢٤-٨٥٠هـ) ، ص١٩٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٦، ص١٦١.

(5) القلقشندى: ج٤، ص٣٣؛ محمد البقلى: التعريف، ص٥٢، ص ٣٤٢.

(6) هو أحمد بن محمد بن محمد الفيشي تولى نظر المواريث، توفي سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٢٥- ٥٢٦.

(7) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٥٣٤، هامش١.

المعاملات حتى لا يحدث فيها الغش[١]. ومن العلماء الذين باشروا نظر دار الضرب: القاضي شرف الدين أبو الطيب الغَزَي[٢]، وتقي الدين بن نصر الله[٣].

كما أسند سلاطين المماليك للعلماء في دولتهم أعباء **نظر ديوان الأسري:** ومهمة هذا الديوان الإشراف على الأوقاف التي يصرف ريعها على فداء الأسرى[٤]. ومن العلماء الذين باشروا هذه الوظيفة عز الدين الأسعردي[٥]، وعلاء الدين بن الصائغ[٦]، والعلامة عمر الملحي[٧]، والقاضي فتح الدين بن الشهيد[٨].

---

[١] القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٢، ص٤٥٤، هامش٢؛ محمد البقلى: التعريف، ص١٩٤.

[٢] المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٨٤١– ٨٤٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٣٢٤.

[٣] هو عبد الرحمن بن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله، تولي توقيع الدست ونظر جدة، توفي سنة. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٣، ص١٢١٥.

[٤] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩٨؛ محمد البقلى: التعريف، ص١٤٢.

[٥] هو علي بن عبد الخالق بن علي بن محمد بن الحسن أبو الحسن الأسعردي الأصل البعلبكي، برع في الكتابة والحساب، تولى عدداً من الوظائف، منها: نظر حمص وشهادة ديوان بعلبك، واشتهر بالأخلاق الحسنة. توفي سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٨٠.

[٦] هو محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق بن خليل بن مقلد الأنصاري الشافعي، اتصف بالصفات الحسنة، توفي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م . اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٩٦.

[٧] هو عمر بن مسلم بن سعيد بن عمر بن بدر بن مسلم القرشي الملحي، تولى مشيخة الشيوخ ووقف الأسرى، توفي سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م ابن طولون الصالحي: القلائد الجوهرية، ق١، ص١٧٣– ١٧٥.

[٨] هو أحمد بن القاضي فتح الدين محمد بن إبراهيم بن الشهيد، تولي قضاء العسكر، ودرس بعدد من المدارس، اتصف بالعقل والحكمة والخبرة بالأمور السياسية، إضافة إلى خبرته بالكتابة والإنشاء،

وإلى جانب المهام التي كان يقوم بها المحتسب فقد استحدث المماليك **وظيفة نظر الأسواق:** ويقوم المسئول عنها بالإشراف على عملية البيع والشراء في الأسواق، كما أن الظاهر من مسمى هذه الوظيفية أن العمل الذي يقوم به صاحبها، هو كتابة إيرادات الأسواق ورفعها إلى بيت المال، أما مهام الاحتساب فتختلف عن ذلك[1]، ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة: قاضي الإسكندرية شرف الدين الدماميني[2].

ويبدو أن جميع الوظائف التي حملت مسمى نظر أو ناظر كان يشرف عليها مشرف عام عرف بـ "**ناظرالنظار**" وأن هذا الموظف كان يتواجد في المدن الكبرى بالدولة المملوكية، فمن ذلك ما ذكره القلقشندى من أنه كان بدمشق موظف كبير يعرف بناظر نظار دمشق[3]، ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة:الشيخ جمال الدين أبو الطيب السبكي[4]. وكما يبدو أنه كان يأتمر بأمر ناظر النظار هذه مجموعة من النظار.

توفي سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م. ابن حجي: تاريخ ابن حجي، ج١، ص٣٠٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٢٩- ٣٣٠.

(١) **القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٢، ص٣٩٧، هامش١؛ محمد البقلى: التعريف، ص٢٢٠.**

(٢) **هو محمد بن المعين محمد بن بهاء الدين عبد الله بن الدماميني، تولي الحسبة ونظر الجيش والخاص، اشتهر بالذكاء والإحسان توفي سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م. ابن حجي: تاريخ ابن حجي، ج١، ص٤٥٣.**

(٣) **القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٣٧؛ محمد البقلى: التعريف، ص٣٤٤.**

(٤) **المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص١٤؛ جمال الدين السبكي: هو أبو الطيب الحسين بن علي بن عبد الكافي السبكي، درس بعدد من المدارس، توفي وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م. السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٧٧.**

ناظر جدة[1]: كان كل واحد منهم يشرف على مدينة بعينها، ومن العلمـــاء الذين انتدبوا لهذه الوظيفة: تقي الدين بن نصر الله[2].

وكذالك **ناظر ثغر الإسكندرية**: وممن تولي النظر بها الشيخ تـــاج الـــدين التنوخي[3]. **وناظر دمشق** القاضي: علاء الدين الحُرانـــي[4]. **ونـــاظر القـــدس والخليل**: الشيخ شمس الدين الهروى[5]. **ناظر الكرك والشوبك**: الأديـــب زكـــي الدين الحميري[6]. **ناظر حمص**: عز الدين الأسعردي[7].

---

[1] لقد نشأت هذه الوظيفة سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م في عهد السلطان برسباي، وهي من وظائف نظار الثغور، وكان يقيم هذا الموظف في مكة المكرمة حيث تتركز مهمته في جبي الضرائب المقررة على التجار المارين بجدة والقادمين من الهند واليمن، ويقوم بهذه الوظيفة أحد موظفي الدواوين من مصر. انظر حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج٣، ص١١٩٠ــ١١٩١.

[2] المقريزي: السلوك، ج٤، ق٣، ص١٢١٥.

[3] هو أبو عبد الله محمد بن أبي البقا صالح بن محارب التنوخي الحلى، كان يعد من الرؤساء الفضلاء، توفي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م. بيبرس الدوادار، زبدة الفكر، ص١٠٢؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٢٥.

[4] هو علي بن محمد بن مقاتل الحراني ثم الدمشقي، توفي سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٠، ص١٩٨.

[5] هو محمد بن عطاء الله الهروي، درس بالصالحية، كانت له منزلة عند المؤيد شيخ، توفي سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م . المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٤٤٠.

[6] هو المأمون الحميري المصري المالكي، من الأدباء الفضلاء، توفي سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م . أبوالفداء: المختصر في تاريخ البشر، م٢، ج٤، ص١١٥.

[7] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٨٠.

والي القاهرة: وهو القائم بحفظ النظام في القـاهرة، أو القـائم بأعمـال الشرطة[1]. ومن العلماء الذين تولوا هذا المنصب: القاضي شهاب الدين أحمـد القرشي[2].

ومن الوظائف الدينية التي مارس من خلالها العلماء نفوذهم في الدولة **وظيفـة شيخ الحرم الشريف أو ناظر الحـرم:** هي وظيفة جليلة يقوم صاحبها بالإشراف على الحرم الشريف وتوفير ما يلزمه، إضافة إلى الإشراف على جميع أعمـال البناء أو الترميم، كما يتولى الشيخ أو الناظر الإشـراف علـى العـاملين فـي المسجد الحرام، ومثله ناظر الحرم النبوي، وعلى الرغم من أن مهام صـاحب هذه الوظيفة إدارة الحرم والإشراف عليه إلا أن معظم من يتولى هذه الوظيفـة هم العلماء أو القضاة الذين يتبعون المذهب الشافعي، وحينما تسند هذه الوظيفـة شخص من غير العلماء لا يكون إلا من أتباع المذهب الشافعي[3]. ومن العلماء الذين نالوا شرف هذا المنصب: القاضي جمـال الـدين بـن ظهـيرة[4]، والقاضي كمال الدين أبو الفضل العقيلي النـويري[5]، والشـيخ عبـد الهـادي الطبري[6]. وغيرهم كثير.

---

[1] محمد البقلي: التعريف، ص٣٥٨.

[2] هو الشهاب أحمد بن الزين عمر بن مسلم القرشي الدمشقي ، قتل خنقاً سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م وهو محبوس في القاهرة، لأنه كان يحرض على السلطان الظاهر برقوق، السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٢٩٩؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٢٤٥.

[3] حسن الباشا: الفنون الإسلامية،ج٢، ص٦٢٧- ٦٣٦؛ بدرية الغامدي: الأسرة الطبرية، ص٤٢، هامش٤؛ ص ٧٧- ٧٩؛ خلود البدنة: الأسرة العلمية، ص٢٠٧- ٢٠٨ .

[4] هو محمد بن عفيف الدين عبد الله بن ظهيرة بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشي المكي الشافعي، أبو أبو حامد، تولي قضاء مكة والخطابة والإفتاء بالمسجد الحرام إضافة إلى عدد من الوظائف، كما درس في المسجد الحرام وعدد من المدارس،توفي سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م. ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، ج٣، ص٤٥- ٤٦، السخاوي: الضوء اللامع، ج٨، ص٩٢- ٩٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص١٢٥- ١٢٦.

[5] هو محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن القاسم العقيلي النويري، يعد من علماء مكة البارزين، تولى القضاء والإفتاء والتدريس بمكة، توفي سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م؛ ابن حجر: أنباء الغمر، ج١، ص٢٩٦؛ الدور الكامنة، ج٣، ص٣٢٦.

[6] هو محمد بن أحمد بن الرضي إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم، تولى الخطابة ونظر الحرم والحسبة بمكة، توفي سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م، ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢،

وإلى جانب ناظر الحرم المكي والحرم النبوي، كانت هناك وظيفة أخري مشابهة يعرف صاحبها **بناظر الحرمين:** ويقوم هذا النـــاظر بالإشـــراف علـــى المسجد الأقصى في القدس ومسجد إبراهيم الخليل عليه السلام فـــي الخليـــل، ومهمة هذا الناظرالإشراف على الأوقاف المخصصة لهذين للحرمين وصرفها في تدبير شؤون الحرمين[١]، ومن العلماء الذين باشروا النظر على الحـــرمين: قاضي القضاة شمس الدين بن عباس[٢]، والشيخ شمس الدين محمد بـــن عطـــاء الله الهروي[٣]. وغيرهما.

كما مارس من حمل لقب **شيخ الإســـلام**:و هو من الألقاب التي تلقب بها كبار الفقهاء في الدولة نفوذاً كبيراً في الدولة المملوكية[٤]. ومن العلمـــاء الـــذين حملوا هذا اللقب: شيخ الإسلام قاضي القضاء تقي الدين بـــن دقيـــق العيـــد[٥]، وشيخ الإسلام أحمد بن تيمية[٦]، وشيخ الإسلام العلامة علاء الـــدين العجمـــي الحنفي[٧]، وقاضي القضاة شيخ الإسلام محب الـــدين أبـــو الفضـــل التسـتُري

ص٣٣٠؛ السخاوي: التبر المسبوك، ج١، ص٩، ١٧٧ .للوقوف على المزيد عن دور هذه الأسرة في تاريخ مكة انظر: سليمان مالكي: الطبريون مؤرخو مكة .

(١) **حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج٣، ص١١٨٠.**

(٢) **ابن حجي: تاريخ ابن حجي، ج١، ص٥٣٩.**

(٣) **المقريزي : السلوك، ج٤، ق١، ص٤٤٠.**

(٤) **محمد البقلي: التعريف ، ص٢٠٩؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج٢، ص٦٣٣.**

(٥) **ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٥٤.**

(٦) **ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص١٨٥– ١٨٦.**

(٧) **هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد البخاري العجمي الحنفي، ولد ونشأ ببخاري، رحل في طلب العلم إلى مدن عدة، برع في المعقول والمنقول والمفهوم والمنظوم واللغة العربية، سافر إلى الهند وحظي عند ملوكها، كما رحل إلى مكة ودرس بها ثم عاد إلى مصر وعظم شأنه فيها، توفي بدمشق سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٣٦٧– ٣٦٨.**

البغدادي[١]، وشيخ الإسلام قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر العسـقلاني[٢]. وغيرهم.

ومن الوظائف الدينية الهامة التي كانت حكراً على الفقهاء **وظيفة قاضـي الركب:** وهو القاضي الذي يكون مرافقا لركب الحجاج طوال رحلـتهم للحـج، ويكون عالما بأحكام الحج عموما من مباحات ومحظورات[٣] ويكون كالمستشار كالمستشار لأمير الركب، وعليه أن يحسن معاملـة الحجـاج، ويتـولى كتابـة العقود، و يجب أن يتوفر في قاضي الركب عدد من الشروط أهمها: أن يكـون ذا أصول عربية سني من أحد المذاهب الأربعة[٤]، ومن العلماء الذين تولوا هذا هذا المنصب: القاضي شهاب الدين أحمد الحمصي[٥]، والقاضي بهاء الدين بـن سبع[٦]، والقاضي شمس الدين النتاي المالكي[٧].

---

[١] هو أحمد بن الشيخ جلال الدين نصر الله بن أحمد بن محمد بن عمر التستري الأصل البغدادي الحنبلي، هو من أعلام الحنابلة، وهو قاضي قضاة مصر، برع في الفقه وأصوله والحديث والعربية والتفسير، أفتى ودرس بالقاهرة، توفي سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٢٢٠-٢٢١.

[٢] هو أحمد بن نور الدين علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن حجر العسقلاني الأصل، لقب بأمير المؤمنين في الحديث النبوي الشريف، اشتهر بعلمه الواسع وحفظه الدقيق وشعره الجيد، كما عرف عنه الهيبة والوقار، مع التواضع وحسن التدبير وكثرة العبادة، له مؤلفات عظيمة من أشهرها؛ فتح الباري بشرح صحيح البخاري وأنباء الغمر؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٢٥٩- ٢٦٠ .

[٣] محمد البقلي: التعريف، ص٢٦٥؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج٢، ص٨٦٥.

[٤] عائشة العبدلي: إمارة الحج ، ص٣٧- ٣٩.

[٥] أحمد الشهاب الحمصي الدمشقي، كان ملماً بالفرائض، تولى منصب رئيس المؤذنين بالجامع الأموي، السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٢٥٧؛ البصراوي: تاريخ البصراوي، ص١٤٨.

[٦] ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٧٢٦.

[٧] ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٢٨.

المبحث الثالث

جهود العلماء في درء المفاسد الإدارية

بما أن العلماء بلغوا شأناً عظيماً في الدولة المملوكية، وكانت لهم الحظوة والمكانة لدى سلاطين وأمراء الدولة، إضافة إلى النفوذ الذي حظي به العلماء في البلاط السلطاني، فقد استغل العلماء ذلك النفوذ الذي تمتعوا به في محاولة إصلاح الأوضاع الإدارية في السلطنة، والوقوف في وجه الطغيان، وكانت لهم وقفات مشرفة من أجل إحقاق الحق، وسنعرض لبعض تلك المواقف المشرفة التي شملت مجالات عدة، منها على سبيل المثال لا الحصر: محاولات العلماء الحفاظ على الأوقاف بأنواعها سواء الأوقاف التي تتبع ديوان الأحباس[1]، أم أوقاف الحرمين وأعمال الخير، وهي ما يسمى "الأوقاف الحكمية"[2] أو "الأوقاف الأهلية" والتي هي مزيج من الوقف الخيري والوقف الأهلي[3].

---

(١) اختص ديوان الأحباس بالأراضي الزراعية التي يهبها السلاطين والخلفاء إلى بعض الناس، وذلك من باب الإنعام عليهم بها، كما أن هذه الأراضي كان يسقط ما عليها من ضرائب، وقد شهد العصر المملوكي أنواعاً من هذه الأراضي الموقوفة والتي عرفت بالرزق. انظر محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣م /(٢٨-٣١١هـ) ١٢٥٠م- ١٥١٧م/(٦٤٨-٩٢٣هـ)، ص ١٠٩- ١٠٨.

(٢) الأوقاف الحكمية: هي أوقاف على الحرمين والأوقاف التي يصرف ريعها لأعمال الخير، وبما أن هذه الأوقاف كانت من اختصاصات ووظائف قاضي القضاة الشافعي، فقد كان يقوم هذا القاضي بتعيين نواب عنه للنظر في أوقاف القاهرة وآخر لأوقاف الفسطاط، وكانت موارد هذه الأوقاف تصرف على أهل الحرمين، كما يصرف جزء منها على طلبة العلم والفقراء والمحتاجين في القاهرة ومصر، أما الأوقاف التي خصصت للصرف على أعمال البر في وجوه الإنفاق فهي كثيرة، منها: (الفقهاء من المذاهب الأربعة، والفقراء، الأسرى، عمارة المساجد، الأشراف، القراء، تجهيز الموتى، ابن السبيل والمريض الرباط والخوانق، المشاهد، مواطن العبادة، الصوفية، المجانين) وغيرهم، محمد أمين، الأوقاف، ص١١٣- ١١٦؛ مجدى عبد الرشيد بحر: القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، ص١٠٥-١٠٦.

(٣) الأوقاف الأهلية: هي التي تجمع بين الوقف الأهلي والوقف الخيري، فقد كان يشرف عليها قاضي القضاة الشافعي، وكان يختص كل وقف بناظر خاص به يعينه الواقف ويشرط شروطه في بنود الوقف، وكان الواقف غالبا ما يشرك في النظر على الوقف أحد ذريته أو عتقائه وأحد الأمراء أو السلاطين أو القضاة وذلك لضمان الحفاظ على الوقف من أيدي المعتدين. محمد أمين: الأوقاف، ص ١١٦- ١١٩؛ مجدى بحر:القرية المصرية، ص١٠٧-١٠٩.

وبما أن العصر المملوكي عرف نظام التقسيم والترتيب للأوقاف فقد سهل ذلك على القضاة أمر إدارتها والحفاظ عليها، فقد استقل ديوان الأحباس بناظر خاص به، وكذلك أوقاف الحرمين، والأوقاف الأهلية. التي كانت في الغالب تتبع شرط الواقف في تولية النظار عليها[١].

ومن أبرز الأعمال التي قام بها العلماء للحفاظ على هذه الأوقاف المحافظة على تطبيق شروط الواقف على الوقف. من ذلك ما قام به ضياء الدين يوسف بن أبي بكر بن محمد المعروف بالضياء بن خطيب بيت الآبار[٢] سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، حيث باشر نظر الأوقاف والنظر في شروط الواقف للأوقاف في بلاد الشام، كما اعتنى بتعميرها وترميمها[٣].

كما أشرف على نفس العمل عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م، في القاهرة قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر[٤]. وقد تجلت أبرز جهود العلماء في الحفاظ على الأوقاف في مواقفهم من السلاطين والأمراء عندما حاول البعض حل الأوقاف. وذلك لأسباب مختلفة إما رغبة منهم في أخذ أراضي الأوقاف وضمها إليهم أو لتقسيمها على شكل إقطاعات على الجنود في الجيش. من ذلك ما حدث عام ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م حين حاول الأمير صرغتمش حل أوقاف ابن الزنبور[٥] وبيعها والاستفادة منها، لكن قاضي القضاة عز الدين عبد

---

(١) محمد أمين، الأوقاف، ص١٠٨- ١٠٧.

(٢) ضياء الدين بن خطيب بيت الآبار: هو يوسف بن أبي بكر بن محمد أبو المحاسن، الشامي، تولي الحسبة ونظر المارستان، ونظر الصحبة، اتصف بالأمانة توفي سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٥٧.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص ٢٨٩.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٩٣٩.

(٥) هو عبد الله بن أحمد بن إبراهيم، الوزير عالم الدين بن تاج الدين القبطي المصري، تولى الوزارة في مصر ونظر الجيوش، ونظر الخاص. كان من عظماء الدولة، قبض عليه سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٣م، وأنزلت به أشد العقوبات لمدة ستين يوماً، ثم نفي إلى قوص حيث توفي بها سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص١٧٩؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٤٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٧، ص٦٩-٧١ .

العزيز بن جماعة وقاضي قضاة الحنابلة موفق الدين عبد الله الحنبلي كانا له بالمرصاد وعارضا حل هذه الأوقاف ووجهوا للأمير كلاماً قاسياً حتى ارتدع عما كان ينوي فعله تجاه هذا الوقف[١].

وقد تكررت محاولات حل الأوقاف لعدد من الأسباب ففي عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م، عقد الأمير الكبير برقوق مجلساً حضره القضاة والعلماء، حاول من خلاله السيطرة على بعض الأوقاف بحجة أن هذه الأراضي التي أوقفها السلاطين وأبناؤهم أو الأمراء لا يدخل بيت المال منها ضرائب، وذلك مما أضعف بيت المال وبالتالي أضعف جيش الإسلام.

وقد حاول عدد من القضاة الوقوف في وجه الأمير برقوق وردعه، يتقدمهم شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني ،ولكن محاولاتهم باءت بالفشل، وقام الأمراء بحل بعض الأوقاف وتحويلها إلى إقطاعات للجيش[٢]. ورغم ذلك فقد استمرحرص العلماء والقضاة على الأوقاف والحفاظ عليها وإصدار الإحكام فيها حتى إن أحد القضاة وهو شرف الدين بن منصور الحنفي عزل نفسه من القضاء عندما ألح عليه أحد الأمراء بالحكم له باستبدال وقفه بوقف آخر أفضل منه فرفض القاضي ذلك، فلما ألح عليه عزل القاضي نفسه تعففا عن المنصب وعن إصدار فتوى بجواز ذلك الاستبدال[٣].

ولم تقتصر جهود العلماء على إصدار الفتوى لحل الأوقاف أو استبدالها، بل كان للعلماء دور في الحفاظ على حسابات الأوقاف ومحاسبة من يقوم على نظارتها ففي عام ٧٩٤هـ/١٣٩١م، قام الأمير زين الدين بايزيد الدوادار والقاضي بدر الدين كاتب السر بأمر من السلطان الظاهر برقوق بالنظر في أوقاف الحرمين الشريفين، وأمر القاضي شمس الدين بن شطية مستوفي المرتجع بمحاسبة نظار الحرمين ،ورفع حسابات عشر سنين إليه، وذلك بسبب

---

(١) **المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص ٨٨٨- ٨٨٩؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج١، ص٢٥٠.**

(٢) **المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٤٧- ٣٤٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص١٣٦.**

(٣) **المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٧٠.**

خراب أوقاف الحرمين وحاجة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة للعمارة والترميم[1].

كما عمل العلماء والقضاة على إزاحة الظلم الذي وقع على الرعية بسبب الإفراط في فرض الضرائب والمكوس[2] الباهظة على عامة الشعب، وقد شهد العصر المملوكي تنوعاً في أنواع الضرائب والمكوس التي كانت تفرض على عامة الشعب وتثقل كاهله، وقد اعتبرها أحد المؤرخين أنها من موارد بيت المال غير الشرعية، كما وصف السلاطين بالشطط في فرضها وعدم اتخاذ نظام محدد لفرضها، بل كان نظام فرض الضرائب يخضع لأهواء السلاطين وحبهم لجمع المال، وقد تنوعت واختلفت هذه الضرائب حتى شملت جميع مرافق الحياة اليومية[3].

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق٢، ص٣٠١. الذي يجدر ذكره هنا أن مراقبة أوقاف الحرمين من قبل العلماء وصلت إلى حد تدخلهم في إبطال المصابيح والقناديل الزائدة عن الحاجة في المسجد النبوى، وذلك حفاظاً على كميات الزيت التي كانت تستخدم في إيقاد هذه المصابيح والقناديل. صالح محمد الربعى: الإضاءة في الحرمين الشريفيين، رسالة ماجستير لم تطبع، جامعة القصيم، عام ١٤٣٠هـ.

(٢) المكس: في اللغة هو الجباية، أما اصطلاحاً: دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية، وجمعه مكوس: وهي كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان أو لأصحاب الإقطاعات أو لموظفي الدولة خارجا عن الخراج الشرعي ،أو هي ضريبة تفرض على الإنتاج وعلى السلع الواردة والصادرة الموجودة في المواني. ابن منظور: لسان العرب، ج١٤، ص١١١- ١١٠؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٤٧٥؛ محمد البقلي: التعريف، ص٣٢٥.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٣١٤- ٣١٣؛ إيرا لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص٢٢٥.

ومن أنواع هذه الضرائب: مكس ساحل الغلة، وضرائب الحوائص والبغال، ومقرر السجون، وزكاة الدولة، ومقرر الفراريج، مكس ضريبة البشارة بفتح أحد الحصون، وضريبة وفاء النيل، وقد أبطل الناصر محمد سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م، عدداً كبيراً من هذه الضرائب والمكوس أراح بها العباد والبلاد. انظر ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٤٣- ٣٧؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٥٢- ١٥٠؛ الخطط:ج١، ص٢٠١- ١٩٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥٣٩- ٥٣٦ .

الأمر الذى كان له أكبر الأثر في تدهور الأوضاع الاقتصادية وسوء أحوال الرعية، وقد ساهم العلماء بشكل أو بآخر في التقليل من وطأة هذه الضرائب أو حتى محاولات إقناع السلاطين بإلغائها، ففي عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م، حاول بعض رجال الدولة إقناع السلطان الظاهر بيبرس بفرض بعض الضرائب على الناس، لكن الظاهر جمع العلماء والفقهاء والأمراء وعرض الأمر أمامهم وأشهدهم أنه تخلى عن كل حق للدولة حيث قال:

"اعلموا أني تركت لله تعالى ستمائة ألف دينار، من التصقيع والتقويم والراجل والعبد والجارية وتقويم النخل فعوضني الله من الحلال أكثر من ذلك، وطلبت جرائد الحساب فزادت بعد حط المظالم جملة، ومن ترك شيئاً عوضه الله خيرا"[١].

كما أن الاحتجاج وترك القضاة لوظائفهم كان نوعاً من أنواع الضغط الذي يمارسه القضاة على السلاطين حتى يرجع السلطان عن فرض أى نوع من الضرائب المزرية على الرعية، ومن ذلك:ما قام به قاضي القضاة الشافعي برهان الدين بن جماعة المقدسي سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، الذي رفض مباشرة وظيفته والحكم بين الناس والحضور بدار العدل، وعندما أرسل السلطان الأشرف شعبان يسأل القاضي عن سبب تغيبه عن الحضور بمجلس دار العدل أجابه بقوله: "بلغني إعادة ضمان المغاني والقراريط[٢] وهذا يوجب الفسق"

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٦؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٠- ٤٩٩.

(٢) المغاني: {أو مكوس الملاهي} عرفها المقريزي بأنها عبارة عن أخذ مال من النساء والبغايا، فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة، وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة" انظر: الخطط، ج١، ص٢٠٠.

إما القراريط: فهي ضريبة تفرض على كل من أراد شراء منزل فيدفع عن كل ألف درهم من ثمن ذلك المنزل وغيره عشرون درهما، كضريبة. المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢٦٧؛ الخطط، ج١، ص٢٠٠.

فحلف السلطان له أن ذلك لم يتم وأنه تراجع عن ذلك القرار وأرسل المراسيل إلى جميع نواحي مصر والقاهرة بعدم عودة تلك الضريبة(١).

كما أن جهود العلماء كانت واضحة في منع السلاطين من جباية الأموال بغير حقها من الرعية عند قدوم العدو، ففي عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، عقد مجلس حضره العلماء والقضاة ورجالات الدولة لأخذ فتوى القضاة في جواز أخذ أموال الناس بسبب وصول أخبار باقتراب تيمور لنك من سيواس(٢) والخوف من هجومه على بلاد الشام ومصر، وأن هذه الأموال سوف تصرف على العسكر لمساعدتهم على التجهيز للحرب، فرفض القضاة إصدار الفتوى وقالوا: "أنتم أصحاب اليد، وليس لكم معارض، وإن كان القصد الفتوى فلا يجوز أخذ مال أحد ويخاف من الدعاء على العسكر إن أخذ مال التجار"٣.

وفي عام ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م، أراد نائب الشام أخذ أموال التجار وأخذ أجرة شهرٍ أو شهرين من الناس حتى يستعين بها على قتال التركمان، فوافق بعض القضاة أهواء النائب ورضوا بما قال، لكن ثلة من العلماء ومن جملتهم المؤرخ ابن حجي(٤) رفضوا هذا الأمر وقال ابن حجي للنائب: " لا يؤخذ من

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص ١٠٢٩- ١٠٢٨.

(٢) سيواس: هي من مدن بلاد الروم، وهي مدينة كبيرة بها قلعة صغيرة ، تبعد عن قيسرية مسافة ستين ميلاً، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٣٨٤- ٣٨٥ ، البغدادي: مراصد الاطلاع، ج٢، ص٧٦٨.وعن حملة تيمورلنك على سيواس انظر،ابن عربشاه:غرائب المقدورفي أخبارتيمور، علي المحيميد: المغول في آسيا الصغرى، ص١٢٤-١٢٥.

٣) المقريزي :السلوك ،ج٣،ق٣،ص١٠٢٩-١٠٢٨.

(٤) المؤرخ ابن حجي: هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجي بن موسى بن أحمد بن سعد بن غشم بن غزوان الحسباني، الدمشقي، ولد سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، حفظ القرآن، ودرس الحديث والفقه والعربية والنحو، وله عدداً من المصنفات، منها " تاريخ ابن حجي " وكتاب" تعليق على كتاب الألغاز للأسنوي" و "الدارس في أخبار المدارس" وكتاب " شرح المحرر" في الحديث، تولى الخطابة ومشيخه الشيوخ في دمشق ، كانت له مكانة خاصة لدى الأمراء، توفي سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م. ابن حجي: تاريخ ابن حجي، ج١، ص٩-١٩؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص٢٦١- ٢٦٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٢٦٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص١٧٣ .

أحد شيء إلا برضاه " وتحدث أحد العلماء أيضا بذلك ووعظ النائب ونصحه بعدم أخذ أموال الناس، وانتهت المسألة بأخذ أجرة شهر واحد من الناس من غير عنف وبرضاهم[١] .

وقد تفنن سلاطين المماليك في فرض الضرائب والمكوس على الرعية وأخذ الأموال منهم من غير وجه حق، من ذلك ماحدث عام ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣هـ، جمع السلطان الأشرف برسباي القضاة الأربعة والعلماء واستفتاهم في " أخذ زكاة الأموال الباطنة والظاهرة من الناس" فرفض القضاة والعلماء ذلك الاقتراح وأوضحوا للسلطان أن المكوس قد أرهقت الرعية والتجار والمزارعين، وبطل ما كان أراده من أخذ المال من الناس[٢].

ومن أفدح المكوس التي فرضها بعض سلاطين المماليك على التجار تلك الضريبة التي كان يأخذها السطان الظاهر جقمق من التجار في جدة، فقد كان يأخذ عشر أموالهم، وحاول أخذ فتوى العلماء في ذلك[٣] فجمع الفقهاء وأمرهم بصياغة فتوى تتيح له أخذ أموال التجار في جدة يكون ظاهره شرعيا، وفعلاً تم له ما أراد، فقد كتب عدد من الفقهاء أن سبب أخذ هذه الأموال، حتى يصرفها السلطان في حماية التجار وتزويد ميناء جدة بالعسكر، وبظاهر هذه العبارات أفتى القضاة الأربعة في الديار المصرية بجواز أخذ العشور من التجار، ولم يكتف الظاهر جقمق باستصدار تلك الفتوى الشنيعة في القاهرة، بل

---

(١) ابن حجي: تاريخ ابن حجي، ج٢، ص ٧٢٥.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٩٣- ٩٢؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٦٦٣.

(٣) كان غرض السلطان الظاهر جقمق من إصدار تلك الفتوى هو التقليل من حدة الانتقادات التي وجهت له ولسلفه الأشرف برسباي، من قبل القان معين الدين شاه روخ ملك الشرق بسبب أخذ تلك الضريبة من التجار. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٣، ص ١١٨٨- ١١٨٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص١٠٠؛ آمنة حسن جلال: طرق الحج ومرافقها في الحجاز في العصر المملوكي، ص٢٠١- ٢٠٢.

تجرأ وأرسل نصها إلى مكة المكرمة لتقرأ في المسجد الحرام، الأمر الذي أثار حفيظة أغلب العلماء والفقهاء، وكان من جملة من أنكر على السلطان أخذ هذه الضريبة، ومن ثم إصدار فتوى بعدم مشروعيتها، الشيخ المؤرخ تقي الدين المقريزي الذي انتقد القضاة الأربعة وقال " إنهم يتبعون أهواء السلاطين حتى لا يخسروا مناصبهم وأن كل الضرائب التي تؤخذ من التجار سواء القادمين من بلاد الشام والعراق أم ما يؤخذ من التجار بالإسكندرية والقاهرة ومصر وغيرها كلها أموال محرمة ولا يجوز أخذها "وأن الآكل منه فاسق لا تقبل شهادته لسقوط عدالته"[١].

كما كان للعلماء دور بارز في إصلاح بعض النواحي الاقتصادية في المجتمع المملوكي خاصة فيمايتعلق بالغلاء أو القحط الذي كان يصيب المجتمع المصري وما يؤول إليه حال الفقراء من جوع وقحط، وقد أوضح المقريزي في كتابه "إغاثة الأمة بكشف الغمة" جميع فصول الغلاء التي تعرضت لها مصر منذ ما قبل الطوفان إلى عصر المماليك سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م، في عهد الأشرف شعبان والذي عاصره المقريزي وكان شاهد عيان لهذا القحط والغلاء.

حيث وصف أحوال الناس وما حل بهم من بلاء كما ذكر موقف سلاطين المماليك في مواجهة القحط والغلاء[٢].

وقد أرجع المقريزي أسباب حدوث الغلاء والقحط في الأراضي المصرية آنذاك إلى عدد من الأسباب منها :

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٣، ص ١١٨٨- ١١٨٧؛ ص ١١٩٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص١٠٠.

(٢) المقريزي : إغاثة الأمة في كشف الغمة، ص ٣٥,٥.

١- تولية المناصب الإدارية والدينية بالرشوة، وإسناد الأمر لغير أهله في هذه المناصب.

٢- زيادة أسعار الأراضي الزراعية لأسباب فصلها المقريزي.

٣- استخدام المعادن الرخيصة لسك النقود(١).

كما أرجع أحد المؤرخين سبب حدوث هذه الأزمات الاقتصادية في مصر إلى انخفاض مستوى ماء النيل وما ينتج عن ذلك من ندرة المحاصيل الزراعية وبالتالي ارتفاع أسعارها، إضافة إلى تزايد الأراضي غير الصالحة للزراعة بسبب زحف الصحراء عليها، وكذلك طبيعة الحكم المملوكي الذي لم يعتمد في حكمه على نظام ثابت، مما يؤدي إلى قيام الحروب والثورات الداخلية والتي بدورها تؤدي إلى تذبذب الأوضاع الاقتصادية وندرة الموارد الاستهلاكية وغلائها(٢).

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن حسن تصرف الولاة والمحتسبين في الدولة المملوكة كان له الدور الفاعل في استقرار الأوضاع الاقتصادية وتلافي وقوع الغلاء، ففي عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، تولى أمر الحسبة أحد علماء الأمة آنذاك وهو الشيخ برهان الدين إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الأخناي(٣)، الذي انصلحت بفضل سياسته الحكيمة تجاه أهل السوق أحوال الناس وأحوال البضائع وأثمانها(٤).

كما اتبع القاضي بدر الدين العيني سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م عندما تولى الحسبة نظاما لتفرقة البضائع في الأسواق وتوافرها فيها، مما أدى إلى انخفاض

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٣٨-٤٢.

(٢) نظير حسان سعداوي. صور ومظالم من عصر المماليك، ٩٨- ١٠٠ .

(٣) انظر ابن تيمية: الأموال المشتركة، ص٤٣.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٧١.

الأسعار وثبات الأحوال، كما قام أيضا بتعزير أهل السوق عندما يلجـأ أحـدهم إلى تكديس البضائع بغرض رفع أسعارها[١].

الأمر الذى أوجد نوعاً من الرخاء الاقتصادي بسبب توافر السلع، وبالتالي رخصها، وذلك بلاشك عائد إلى السياسة الحكيمة التي اتبعها القاضـي العينـي في توجيه أهل السوق.

ولم يكتف العلماء بذلك، بل قد صنف العلماء التصانيف المفيدة التي ترشـد الحكام إلى خير البلاد، وتحسين الأوضاع الاقتصادية فيها، فقـد اهـتم شـيخ الإسلام ابن تيمية بالاقتصاد الإسلامي وتحسينه من خلال المؤلفات التي صنفها في هذا المجال [٢].

كما حرص العلماء والفقهاء على حث الناس على التضرع إلى الله تعـالى في حالة وقوع الغلاء والقحط أو انخفاض منسوب النيـل، فقـد توجـه شـيخ الإسلام سراج الدين البلقيني في عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م إلى الجامع الأزهر هو وجمع كبير من الناس حتى يدعوا الله بكشف الغلاء[٣]. من ذلك أيضاً ما حـدث عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، عندما لاحظ الناس تناقص منسوب مياه النيل، واشـتد قلق الناس من تفاقم المشكلة، فاجتمع العلماء والقضاة والفقهاء في جامع عمـرو ابن العاص ورفعوا أكف الدعاء لله تعالى بزيادة ماء النيل[٤].وعندما وقع عام

٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢م، غلاء في الديار المصـرية أمـر السـلطان الظـاهر برقوق بإطلاق من سجن بسبب الدَّين، كما أصدر أوامره للقضاء بعـدم سـجن

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٦.

(٢) من هذه الكتب كتاب المظالم المشتركة، السياسة الشرعية، الأموال المشتركة،الحسبة ومسـؤولية الحكومة الإسلامية، الحسبة في الإسلام.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٨٢.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢١٨. عن خروج الناس لأداء صلاة الاستسقاء والتضرع إلى الله، انظر، رأفت النبراوى: أسعار السلع الغذائية والجوامك في عصر دولة المماليك الجراكسة،ص١٦٥.

أحد من الناس خلال أزمة الغلاء هذه[١]، وفي رأي الباحثة أن هذا العمل كان بمشورة العلماء أنفسهم، وإلا لما استكان القضاة ورضوا بقرار السلطان، وهذا على ما يبدو اقتداء بما فعله به عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عام الرمادة سنة١٨هـ[٢].

وعندما حاول السلطان الأشرف برسباي احتكار زراعة السكر سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م ومنع الناس من زراعته مما أضر بالناس، تصدى القاضي عبد الباسط للسلطان في هذا الأمر ونجح في إقناع السلطان بالتراجع عن قراره ذلك[٣].

وبما أن فساد النقود وفساد العملة كان من أهم أسباب حدوث الأزمات الاقتصادية فقد شارك العلماء في التصدي لهذه المشكلة وكشف أسرارها.

ففي عام ٨٢٦هـ/ ١٤٢م، جمع السلطان الأشرف برسباي العلماء والقضاة والتجار وأبدى قلقه من حال الفلوس[٤] التي أصبح يضاف إليها النحاس والحديد والرصاص وغدت تستخدم بالوزن لا بالعدد، وأراد السلطان أن يغير هذه الفلوس لكن المجتمعين أثنوه عن عزمه ، كي لا يقع الضرر على الناس ، كما وضع العلماء سعرا خاصا بالفلوس الخالصة من الإضافات وهو

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٤٦٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٠٣- ٣٠٢.

(٢) عن عام الرمادة انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك،ج٤،ص٩٦-١٠١؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١١٩؛ أبو زيد شلبي: الخلفاء الراشدون، ص١٣٧- ١٣٨.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ص١١٨، حامد زيدان: الأزمات الاقتصادية في مصر، عصر سلاطين المماليك، ص٥١- ٥٢.

(٤) الفلوس أو الفلس: وهي نوع من أنواع العملة الصغيرة، وكانت منذ أولها في مصر على نوعين أحدهما المطبوع بالسكة والثاني غير المطبوع، وهو عبارة عن قطع من النحاس الأحمر أو الأصفر، وقد عرفت بالعنق. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٦٣٠- ٦٢٩؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٤٦٠.

سبعة دراهم لكل رطل، أما المضاف إليها الحديد أو النحاس أو الرصاص فجعلوا الرطل بخمسة دراهم[1].

وفي عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م، عقد السلطان الأشرف برسباي مجلساً حضره الأمراء والقضاة والتجار وناقش إمكانية إلغاء التعامل بالعملة القبرصية المسماة بالإفرنتية[2]؛ لأنها عملة أجنبية وعليها شعار الصليبيين، وضرب عملة خاصة بالمسلمين، وفعلا فقد تم له ما أراد وسكّ عملة جديدة من الذهب الخالص عرفت بالأشرفية[3].

وعندما قام السلطان الأشرف إينال العلائي سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م باستشارة العلماء ورجال الدولة لضرب فضة خالصة جديدة وتم له ما أراد. فتمّ تعقب ضاربي الزغل[4] وأمر بتوسيطهم أو قطع أيديهم، مما كان له أكبر الأثر في رواج العملة الجديدة وتحسن أحوال العملات في ذلك العصر[5].

---

(١) المقريزي: السلوك ، ج٤، ق٢، ص٦٣٠ – ٩٢٩ .

(٢) العملة الإفرنتية: جمع إفرنتي وهي محرفة عن إفرنسي، وتسمى الدوكات نسبة إلى اسم الملك هناك فهو يطلق عليه اسم دوك أو دوق، وهي عملة ضربها البنادقة في القرن الثالث عشر الميلادي امتازت بجودتها وثباتها، فحازت بذلك ثقة المتعاملين بها وأدى ذلك لانتشارها، وهي تساوي تسعة عشر قيراطا ونصف قيراط من المصري، وقد نقش على أحد وجهيْ هذه العملة صورة الملك الذي ضربت هذه العملة في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبوليس.=
=القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥٠٨؛ عاشور: العصر المماليكي، ص٣١٨– ٣١٧؛ عبد الحافظ البنا:أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ص١٤٨؛ رأفت النبراوي: أسعار السلع الغذائية والجوامك، ص٤١–٤٢، هامش٢ .

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص١١٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٠٤؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٧٠٩.

(٤) الزغل: هي النقود المزيفة، أما الزغلية فهو من يقوم بتزييف النقود. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٤٤٥.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٤٤.

وفي عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م قبض السلطان الأشرف قايتباي على مثقال الساقي الطواشي[١] الظاهري رأس نوبة السقاة[٢] ، لأنه كان يعمل الزغل في داره[٣].

ومن المؤكد أن يكون أحد العلماء أو القضاة أو محتسب المدينة هو الذي أبلغ السلطان عن هذه الفعلة الشنيعة التي قام بها هؤلاء الجماعة من سك العملة المغشوشة مما يترتب عليه اضطراب الأوضاع الاقتصادية، لأن السلطان لا علم له بما يدور في أواسط الرعية سوى ما ينقله إليه المخلصون له في الدولة من أخبار.

وحينما أرسل السلطان من يقبض على الجناة من المؤكد أنه كان بصحبة من قام بهذه المهمة أحد القضاة أو المحتسب ليثبت تلك الفعلة الشنيعة.

ومن أنواع الظلم والطغيان التي حاول العلماء صدها ورفع الظلم الواقع على الرعية ما حدث عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م عندما دخل المغول حلب وعاثوا فيها فسادا.

فقد اجتمع القضاة والفقهاء وتوجهوا إلى قلعة حلب وحاولوا محادثة متولي القلعة من قبل المغول ورده عما يفعله المغول بالمسلمين، لكن جهودهم باءت بالفشل وطرد علماء المسلمين[٤].

ونحن نقول هنا أن محاولة العلماء إزالة الظلم الواقع على الناس هي في حد ذاتها عمل يشكر عليه العلماء، ويسطر لهم بمداد من ذهب في صفحات

---

(١) مثقال الطواشي: هو مثقال السودوني الظاهري جقمق الحبشي الطواشي الساقي رأس نوبة السقاة، تولى مشيخة الخدم بالمدينة المنورة توفي سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م. السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢٣٩- ٢٤٠.

(٢) رأس نوبة السقاة: هو كبير السقاة، والسقاة هم الذين يتولون نقل الماء إلى القصر، والظاهر أن رأس نوبة السقاة هو المشرف على السقاة الذين ينقلون الماء إلى القصر السلطاني. حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج٢، ص٥٤٩-٥٩٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣ ، ص٢٠٠.

(٤) العيني: عقد الجمان، ج١، ص ٢٤٣.

التاريخ، وهو يتوافق مع قول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم "أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"(١).

وقد حاول العلماء بشتى الوسائل وكافة الطرق إرساء قواعد الأمن ورفع الظلم عن الضعفاء والفقراء، ومن الأمثلة على ذلك موقف العلماء من الأعراب الذين أغاروا على الحجاج العائدين من الحج سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م وسرقوا أموالهم ونهبوا جمالهم، وكان الأمير سلار(٢)، قد حج في هذه السنة ومعه عدد من الأمراء، فأرسل الأمراء في أثر المعتدين وتمكنوا من القبض عليهم وإحضارهم إلى الأمير سيف الدين سلار، حيث أمر بترحيلهم إلى المدينة المنورة، واستفتى الأمير العلماء في هؤلاء المعتدين فأفتاه العلماء بمقتضى قوله تعالى: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أوتقطع أيديهم وأرجلهم من خِلافٍ أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم)(٣) عند ذلك نفذ الأمير سلار الحد فيهم وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف(٤).

وقد حرص السلاطين كما حرص العلماء على رفع الظلم ورد المظالم إلى أهلها، فها هو السلطان الأشرف برسباي يخصص يومي السبت والثلاثاء للجلوس بالإيوان الكبير للنظر في المظالم، ويرافقه في هذا المجلس القضاة

---

(١) اخرجه ابي داود في سننه ،حديث رقم ٤٣٤٤،ص٦٥٦.

(٢)الأمير سلار: هو سلار بن عبد الله المنصوري، تركي الأصل، تولى نيابة السلطنة، كاد أن يلي السلطنة بدلاً عن السلطان بيبرس الجاشنكير، لكنه رفض، قتله الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، وكان أميراً جليلاً كريما، مهاباً وشجاعاً. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٣١٤؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي،ج٦، ص٥- ١٣. وللمزيد عن دور هذا الأميرفي التاريخ =المملوكي انظر: محمد عبد الغني الأشقر: سلار الأمير التتري المسلم، نائب السلطنة المملوكية في مصر، ص٢١وما بعدها.

(٣) سورة المائدة، آية ٣٣.

(٤) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٣٥٠.

الأربعة، ويكلف شخصاً من قبله أن ينادي في القاهرة " من له ظلامة فليحضر بين يدي السلطان في الإيوان يوم السبت والثلاثاء"[(١)].

ونحن لا نشك في أن العلماء هم اليد الخفية التي أوعزت للسلطان بفعل ذلك، خاصة أن هذا المجلس أشبه ما يكون بديوان المظالم في العصور الحديثة.

وقد سعى العلماء جاهدين لدى السلاطين والأمراء بأن لا يتولى الوظائف الدينية إلا من يستحقها، فكانت لهم في ذلك مواقف مع الأمراء والسلاطين.

ففي عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م عين أحد الأمراء وهو علم الدين سنجر الجاولي شهاب الدين أحمد العسجدي[(٢)] في تدريس الحديث بالقبة المنصورية بين القصرين، حيث اعترض قاضي القضاة عز الدين بن جماعة وعدد العلماء على الأمير لتعيينه شهاب الدين، وقالوا إنه غير كفء لهذا المنصب، ورفع الأمر للسلطان الناصر محمد فأمر بعقد مجلس بين العلماء والأمير لمناقشة هذا الأمر، فاعترض العلماء الحاضرون على تولية شهاب الدين العسجدي لهذا المنصب، وفعلا أقر السلطان الناصر محمد ما أمر به القضاة والعلماء مما أغضب الأمير، وكاد أن يعزل نفسه من وظائفه لولا تدخل الأمراء الذين نجحوا في اقناعه العدول عن قراره[(٣)].

ومن تدخلات الأمراء في شؤون القضاة التي كان ينكرها القضاة :

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٧٤ – ١٧٣.

(٢) شهاب الدين العسجدي: هو أحمد بن محمد ابن عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد المحسن العسجدي، ولد سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، درس الحديث، وكان أديبا متديناً متواضعاً ملماً بأسماء الكتب ومؤلفيها، درس الحديث الشريف بالمدرسة المنصورية والفخرية توفي سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٦م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١٨٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٤٩.

ما حدث أيضاً عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م عندما اعترض القاضي زين الدين عبد الرحمن التفهني الحنفي(١) على الحاجب لتدخله في أحكام القضاة، وشكا ذلك للسلطان المؤيد شيخ، فأمر السلطان أن يُنادي في شوارع القاهرة " أن لا يتحدث في الأمور الشرعية إلا القضاة"، لكن هذا الأمر لم يرضِ الأمراء فسعوا إلى نقض ذلك القرار حتى تم لهم ما أرادوا(٢) إلا أنه كان للقضاة رأيهم حيث أصروا على معارضتهم للأمراء في تدخلهم في شؤونهم وأحكامهم، فقد نزل السلطان ططر سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م عند رغبة الشيخ ولي الدين أحمد بن الحفاظ زين الدين عبد الرحيم العراقي الشافعي(٣) عند توليته لمنصب قاضي قضاة الشافعية، الذي اشترط عدم قبوله شفاعة الأمراء في الأحكام الشرعية فقبل السلطان ذلك الشرط(٤) . وكذلك الحال بالنسبة للقاضي سعد الدين سعد الديري(٥) مع السلطان حيث شرط عليه ألا يقبل شفاعة الأمراء في الأحكام.. وألا يتدخل الأمراء في أحكامه، وذلك حتى يقبل منصب قاضي قضاة الحنفية في مصر سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، كما رفض العلماء تولي منصب القضاة لما

---

(١) هو عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن علي التفهني الحنفي،ولد سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م ، تربى في مكتب الأيتام بسبب موت والده، وقد لازم طلب العلم فبرع في الفقه والعربية والخط، تولي نيابة الحكم ودرس في الصرغتمشية، وتولى قضاء الحنفية عدداً من المرات، توفي سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م. ابن تغري بردي: الدليل الصافي، ج٧، ص١٩١- ١٩٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص٩٨- ١٠٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٢١٤.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٣٠.

(٣) هو أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقي الشافعي ، يكنى بأبي زرعة، ولد سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م وتلقي علمه منذ نعومة أظافره، وقد درس علوماً كثيرة، منها: الفقه والعربية والمعاني والبيان، وله تأليف وصفه أحد المؤرخين بأنه "الإمام ابن الإمام والحافظ ابن الحافظ وشيخ الإسلام ابن شيخ الإسلام" اتصف بالصلابة في الحكم وحسن الأخلاق، توفي سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي ،ج١، ص٣٣٢؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٣١١؛ السخاوي : الضوء اللامع، ج١، ص٣٣٦- ٣٣٤؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص١٧٣.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٤٢- ٤١.

(٥) هو سعد بن محمد بن عبد الله بن سعد بن أبي بكر بن مصلح، ولد سنة ٧٦٨هـ١٣٦٦م تفقه على عدد من علماء عصره، منهم شهاب الدين العلائي وبرهان الدين بن جماعة، برع في العربية والفقه والتفسير والأصول، وعظ وأفتى ودرس بالجامع المؤيدي. توفي سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٣٨٧- ٣٩٠.

يترتب على متولي هذا المنصب من ضرورة الانصياع لأوامر الأمراء والسلاطين، وفي عام ٧٨٢هـ /١٣٨٠م، رفض الشيخ جلال الدين التباني[١] تولي منصب قاضي قضاة الحنفية عندما عرضه عليه الأتابك برقوق، فقام الشيخ بإخراج مصحف صغير وقال للأتابك: "أسألك بحق هذا المصحف إلا أعتقتني من أمر القضاء" ورفض تولي هذا المنصب تعففاً منه[٢]. وربما يقوم القاضي بعزل نفسه من منصب القضاء احتجاجاً منه على تدخل الأمراء في شؤون القضاة، فقد عزل القاضي ولي الدين العراقي أبو زرعة نفسه من القضاء سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م لتدخل الأمراء ومعارضتهم له في تعيين النواب عنه في مناطق مصر المختلفة[٣].

وقد بلغ احترام السلاطين للعلماء وخوفهم من الوقوع في المحذور عند اتخاذ بعض قراراتهم الحاسمة أن السلطان لايصدر بعض أحكامه إلا باللجوء للعلماء والقضاة وأخذ فتواهم في ذلك، فقد جمع السلطان الأشرف برسباي القضاة الأربعة والعلماء واستفتاهم في أمر شاه روخ بن تيمور الذي كان يرسل للسلطان يستأذنه في إرسال كسوة للكعبة، ويذكر أنه نذر ذلك ويريد أن يوفي بنذره، وبعد جدال طويل مع العلماء والقضاة والفقهاء أفتاه القاضي الحنفي بدر الدين محمود العيني "بأن نذره لا ينعقد"[٤] أما ابن حجر العسقلاني فقد: "أفتى بأن كسوة الكعبة لا تجوز إلا لمن يتولى نظر الحرمين الشريفين في مكة والمدينة"[٥].

---

(١) هو رسول بن أحمد بن يوسف التباني الحنفي، درس بالمدرسة الصرغتمشية وغيرها، توفي سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م، السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٢٩٩- ٣٠٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٢٥.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٧٦.

يبدو أن سبب رفض العلماء تولي منصب القضاء راجع إلى السياسة المتعسفة التي اتبعها الحكام المماليك والأمراء في تدخلهم في شؤون القضاة، إضافة إلى سوء الأحوال السياسية أبان تولية السلاطين الصغار.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٤٣؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٥٨٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٥٩- ١٥٨.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٩٢٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٥٩- ١٥٨؛

كما حرص القضاة على محاولات إصلاح الأمور الإدارية في الدولة، فعملوا على مراقبة نوابهم وتقديم النصح والمواعظ لهم حتى يقوموا هم أيضا بدورهم في الحفاظ على حقوق الناس ومنع الظلم، ومن القضاة الذين اشتهروا بمتابعة نوابهم ومحاسبتهم على تصرفاتهم قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد، الذي كان يراقب نوابه في المناطق ويستقصي أخبارهم، كما كان يرسل إليهم برسائل الوعظ والإرشاد والتحذير لتخويفهم.. ولضمان كفاءتهم وانضباطهم في أداء المهام المنوطة بهم[1].

كما حرص القضاة على تقليص عدد نوابهم في البلد الواحد، وذلك لسبب ذكره المؤرخ المقريزي وهو أنهم: " يتكسبون من الحكم بين الناس، ويسجلون لذلك في مجالس من الجوامع أو المدارس أو حوانيت الشهود، ويقاسمون الشهود فيما يكتسبونه من تحملهم الشهادات للناس وعليهم "[2].كما سعى قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة في درء هذه المفسدة سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م، مما جعل الأتابك برقوق يصدر مرسوماً يحدد فيه عدد النواب لكل قاضٍ ويقلص عددهم إلى أربع نواب[3].

وفي عام ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م، أصدر السلطان الأشرف برسباي أوامره بمنع النواب من الحكم وتقليص أعدادهم إلى أربعة نواب للقاضي الشافعي وثلاثة للحنفي والمالكي، أما الحنفي فنائبان[4].

وكما حرص القضاة على مراقبة نوابهم حرصوا أيضاً على متابعة الشهود وهم:" الجالسون بالحوانيت للتكسب بالشهادة" ، وذلك لمعرفة العدول منهم فمنعوا من عرف منهم بجهله أو سوء أخلاقه من الشهادة ، كما حددوا أعدادهم

ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص ٢٣٧- ٢٣٦.

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص ٢٠٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٤٠٠- ٤٠١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٤٠٠-٤٠١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٢٧٦.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص١٧٩- ١٧٨.

في الحوانيت.ومما يذكر في هذا المجال أن القاضي ابن خلدون[١] أمـر سـنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م بقفل عدد من الحوانيت التي فتحت بعد تحديد عـدد الشـهود وحوانيت الشهادة[٢]. وقد اهتم قاضي القضاة شـمس الـدين محمـد الهـروي بالشهود، حيث استدعى شهود القاهرة واستعرضهم بنفسه، ثم أناب عشرة منهم وصـرف الباقين[٣]، وكل ذلك من باب حرص القضاة على عدم تفشي شـهادة الزور في المجتمع المملوكي .

وبما أن الإشراف على أموال الأيتام كان من اختصاصات قاضي القضـاة الشافعي، فقد حرص القضاة على المحافظة على هذه الأموال كما حرصوا على تحري الدقة في تسليم التركات إلى أصحابها ووقفوا في وجه بعـض الأمـراء الطامعين حتى لا يستولوا على هذه الأموال، ففي عام ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م أرسل منكوتمر[٤] إلى قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيـد شخصـاً ادعـى أنـه الوريث الوحيد لأحد التجار المتوفين ويطلب تسليمه إرثه، لكن القاضي رفـض ذلك ولم يقبل شهادة منكوتمر، وعندما ألح عليه منكوتمر وهو نائـب السـلطان المنصور لاجين، عزل القاضي ابن دقيق العيد نفسه من القضاء ومنع نوابه من الحكم وتوجه إلى داره وأغلق بابه، وعندما سمع السـلطان المنصـور لاجـين

---

(١) ابن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ابن خلدون الحضرمي، ولد سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م، في تونس ونشأ بها، حفظ القرآن على القراءات السبع، ودرس العربية من والده وعلماء عصره، كما درس الفقه والحديث، تولى الكتابة عن أبـي إسـحاق إبـراهيم بـن السلطان أبي بكر أحد ملوك الحفصيين،وتنقلت به الأحـوال حتـى توجـه إلـى الإسـكندرية سـنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، حيث سكن القاهرة، ودرس بالمدرسة القمحية والجامع الأزهر، ثم ولاّه السلطان الظاهر برقوق قضاء القضاة المالكية، تولى قضاء المالكية سبع مرات، توفي وهـو علـى منصـب القضاة سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م. ابن العماد: شذرات الذهب ،ج٧، ص٧٦- ٧٧؛ ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص٧-٨؛ رحلة ابن خلدون،مقدمة المحقق،ص٣-٤ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمـل، ج٣، ص١٣٣- ١٣٤؛ ابن حجر: أنباء الغمر،ج٢، ص٣٣٩- ٣٤٠.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق ٢، ص ٩٣٣.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٤٤٧- ٤٤٨.

(٤) هو سيف الدين منكوتمر، نائب السلطنة زمن السلطان المنصور لاجين، قتل على يد أحد الأمراء سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م. البرزالي: المقتفي، ج٢، ص٥٧٤؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٢، ص٤٤٠.

ذلك، بعث إليه الرسل لاسترضائه وبعد محاولات. بائسة مـــع القاضـــي، قبـــل الطلوع إلى القلعة ، حيث استقبله السلطان واسترضاه حتى قبـــل العـــودة إلـــى القضاء [١].

وفي عام ٧٨١هـــــ/ ١٣٧٩م أراد أحـــد الأمـــراء وهـــو الأميـــر بركـــة الجوباني[٢] الاستيلاء على ثروة أحد التجار وحرمان أبنائه من تلـــك الثـــروة، فوقف قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة في وجهه ومنعه من ذلـــك حتى ترك أموال التاجر لأبنائه[٣].

كما اضطر القضاة إلى التخلي عن مناصبهم بسبب مواقفهم المشرفة أمـــام السلاطين والأمراء الذين حاولوا الاستيلاء على أموال الأيتـــام، فقـــد رفـــض قاضي القضاة صدر الدين المناوي سنة ٧٩٦هـــ/ ١٣٩٣م إقـــراض الســـلطان الظاهر برقوق أموال الأيتام، لأن السلطان احتاج هذه الأموال بسبب خروجـــه لحرب تيمورلنك، فما كان من السلطان إلا أن عزل المناوي من القضاء وعـــين آخر مكانه قبل التنازل عن أموال الأيتام للسلطان مقابل هـــذا المنصـــب وهـــو القاضي بدر الدين أبو البقاء السبكي[٤]. كما حرص القضاة على تحـــري الدقـــة في إصدار أحكام أوفتاوى لمعاقبة شخص ما، فقـــد كـــان الســـلاطين يلجـــأون للقضاء يطلبون منهم إصدار الفتوى بالقتل أو تعزير أمير ما، بمجـــرد حـــنقهم عليه لكن القضاة تحروا الدقة ولم يصدروا أحكامهم جزافاً.من ذلك مـــا حـــدث عام ٨٤٢هـــ/ ١٤٣٨م عندما قدّم الأمير بخشباي الأشرفي أمير آخور ثـــاني[٥]

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٨٤٩ – ٨٤٨.

(٢) هو بركة بن عبد الله الجوباني اليلبغاوي، الأمير زين الدين، تركي الجنس، وهو من مماليـــك الأميـــر يلبخا الخاصكى العمري، توفي سنة ٧٨٢هـــ/١٣٨٠م. ابن تغري بـــردي: المنهـــل الصـــافي، ج٣، ص٣٥١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٦٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٥٠.

(٤) المقريزي: السلوك ج١، ق٢، ص٤٦٨– ٤٦٧.

(٥) يخشباي المؤيدي ثم الأشرفي برسباي، كان خاصكياً ثم دواداراً صغيراً ثم أمير آخور ثاني، ثم أميـــر عشرة ثم أمير طبلخانة، عرف عنه الشجاعة والقوة، توفي ســـنة ٨٤٢هـــــ/١٤٣٨م. الســـخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٦٨– ٢٦٩.

للمحاكمة بسبب أنه "سب شريفا، ولعن والديه" فحكم عليه أحد نواب القاضي الشافعي بحقن دمه، إلا أن هذه الفتوى لم ترض السلطان الظاهر جقمق وطلب من القاضي المالكي إصدار فتوى بقتله، إلا أن القاضي رفض ذلك واحتج بحكم الشافعي[١]

وبالرغم من أن القضاة حاولوا إصلاح الشؤون الإدارية في المجتمع المملوكي إلا أن طبقة العلماء والقضاة أنفسهم قد أصابها الضعف والوهن وتخلل إليها ما تفشى في المجتمع من رشوة وبرطلة([٢]) خاصة في عهد الظاهر برقوق ، ويصف لنا المؤرخ ابن إياس ذلك الوضع بقوله: "وكان الأتابكي برقوق في هذه الأيام صار يقع في حق القضاة والفقهاء بما لا يليق، بعدما كان القضاة والفقهاء عند الأمراء والأكابر يبجلونهم ويعظمونهم إلى الغاية، وقد انحط قدر القضاة والعلماء في آخر دولة الظاهر برقوق، وفي دولة ابنه الناصر فرج، وما بعد ذلك ينزلون عند أرباب الدولة منزلة السوء، حتى صار أقل الناس من الأراذل يخاطبونهم بكل قبيح، وقد ذلوا أنفسهم في طلب الدنيا وحب المناصب فلا حول ولا قوة إلا بالله "[٣].

ولنقارن قول ابن إياس بهذه الحادثة التي حصلت في عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م والتي تبين مكانة القضاة والعلماء وهيبتهم وسطوتهم عند السلاطين ورجالات الدولة، فعندما عزل القاضي عز الدين عبد العزيز محمد بن جماعة نفسه من القضاة نزل إلى داره الأتابك يلبغا وحاول استرضاءه للعودة لوظيفته، لكن القاضي رفض[٤] وأشار عليه بتولية أحد نوابه في هذا المنصب، والملاحظ من الحادثة السابقه أنه على الرغم من صغر سن السلطان وتحكم

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٨٩.

٢) البرطلة :البراطيل هي الأموال التي تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها ،وكان أول من أخذها ـ في الدولة المملوكية ـ الأمير شيخون ثم افحش في اخذها الظاهر برقوق .المقريزي:الخطط،ج١،ص١١١.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٩١.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٢٤.

الأمراء في شؤون الدولة إلا أنه لا زالت هناك هيبة ومكانة واحترام للقضـــاة، فإن نزول الأتابك يلبغا للقاضي عز الدين بن جماعة دليل واضح علـــى مـــدى مكانة القضاة والعلماء في ذلك العصر. وعلى النقيض من ذلـــك نـــرى حـــال القضاة في عهد الظاهر برقوق ودفعهم للرشوة مقابل الحصول علـــى منصـــب فذلوا أنفسهم، وقلت هيبتهم في نظر السلاطين والناس عامة، وإذا كان هذا هـــو حال القضاة فموظفو الدولة والعامة أدهى وأمر.

وقد جرت العادة أحياناً أن يلتزم القاضي بمبلغ معـــين للســـلطان، ويكتـــب بذلك إذا عينه السلطان في المنصب الذي طلبه ، ففي عـــام ٧٨٠هـــــ/ ١٣٧٨م صدر أمر بتعيين الشيخ سراج الدين عمر بن الملقن[١] في منصب قاضي قضاة الشافعية بمصر، ولما لم يتم الأمر دون دفع المال للسلطان، كتب القاضي عـــن نفسه ورقة تتضمن دفع مبلغ من المال للأمير الكبير برقوق إذا عينـــه قاضـــي قضاة الشافعية[٢]، وفي عام ٩٢١هــ/ ١٥١٥م عزل السلطان قانصوه الغـــوري قاضي القضاة الشافي علالي الدين الاخميمي ، الـــذي اتصـــف هـــذا القاضـــي بنزاهته وعدله في الأحكام ومحاربته للرشوة التي انتشرت في أيامه.

والغريب في الأمر أن يعزل هذا القاضي الذي اتصف بالصـــفات الحســـنة ويولى بدلا عنه قاضي آخر سعى لهذه الوظيفة بالمال وهو قاضي القضاة محي الدين عبد القادر بن النقيب الذي دفع مبلغ ثلاثة آلاف دينار مقابل تـــولي هـــذه الوظيفة[٣].

---

(١) هو عمر بن أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري الأندلسي المصـــري الشـــهير بابن الملقن، أبو حفص، ولد سنة ٧٢٣هــ/١٣٢٣م، توفي والده ورباه الشيخ شرف الدين عيســـى المغربي الملقن فعُرف به، وعلمه القرآن والعلوم، كما درس على يد عدد من علماء عصره فبـــرع وأفتى، ودرس وصنف وقد وصلت مصنفاته إلى ثلاثمائة مؤلف، تـــوفي ســـنة ٨٠٤هـــــ/١٤٠١م. السخاوي: الضوء: ج٦، ص١٠٠- ١٠٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص ٤٤- ٤٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٣) بن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٦١- ٤٦٠.

والملاحظ أن مسألة دفع المال للسلطان لتولي أحد المناصب أصبحت قضية مسلم بها في جميع المجالات حتى القضاء، وأصبح الأمر سيان بين عالم وشخص عادي، ولم يعبأ السلطان بأن يطلب الرشوة من أحد القضاة حتى يوليه منصب القضاء، فأصبح إظهار المنكر جهارا نهارا من سمات هذا المجتمع إلا من رحم ربي .

وختاماً نستطيع القول إن الاستغناء عن القضاة الذين تمتعوا بالنزاهة والإخلاص في العمل لهو أكبر الويلات للمجتمعات، فوضع الرجل المناسب في المكان المناسب هو من أهم مميزات المجتمعات الراقية، وما أضر هذه الأمة وجعلها في ركب الأمم المتخلفة إلا الاستغناء عن ذوي الكفاءات وإبعادهم عن المواقع التي يجب أن يكونوا فيها.

المبحث الرابع
العلماء حكاماً ونواباً

اتسمت دولة المماليك بعصريها البحري و البرجي بأنها دولة العلم والعلماء، فقد انتشرت المدارس في كافة ربوع هذه الدولة ،كما شهد عصريها ظهور عدد كبير من العلماء المميزين في علوم شتى. ولا شك أن هذه الميزة سرت بين كافة طبقات المجتمع المملوكي، بما في ذلك الطبقة الحاكمة من السلاطين والأمراء والنواب وغيرهم. ولهذا فلا غرابة إذا ما طالعتنا المصادر بذكر عدد من السلاطين والنواب ممن كانوا على قدر كبير من الاهتمام بالعلم والمعرفة واحترام العلم وأهله، ولعل أبلغ دليل على ذلك قول المقريزي " كان السلطان وأكابر الأمراء يبالغون في إجلال القضاة والفقهاء ويرون أن بهم عرفوا الإسلام وفي بركتهم يعيشون، وحسب أعظمهم قدراً أن يقبل يد الفقيه أو القاضي"[1].

ومن جملة هؤلاء السلاطين الذين اهتموا بالعلم والعلماء السلطان الظاهر بيبرس الذي نقل عنه المؤرخ السخاوي أنه كان يقول: "سماع التاريخ أعظم من التجارب"[2]. وقد اعتنى الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون الألفي[3]

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص١.
(٢) الضوء اللامع، ج٧، ص٢١٠؛ وانظر أيضاً سامية مصطفي مسعد: المغاربة ودروهم الثقافي، ص٣٢.
(٣) هو السلطان حسن بن محمد بن قلاوون ولد سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م تولى السلطنة بعد أخيه الملك المظفر حاجي يوم الثلاثاء ١٤ شهر رمضان سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م لكنه ما لبث أن خلع في رجب سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م وحبس حيث انكب في مدة حبسه على العلم، ثم أعيد للسلطنة سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م وكان هو المتصرف في شؤون البلاد واستبد بالحكم إلى أن ثار عليه أحد مماليكه وهو يلبغا العمري الخاصكي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م. وقتله .اتصف الناصر حسن بالذكاء وحب العلم والدهاء. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢٦٨- ٢٦٩؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٢-٢٣.

بالعلم، وقام بكتابة كتاب "دلائل النبوة" للبيهقي[١]. أما الملك المؤيد شيخ فقد حصل على إجازة من الحافظ شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني بقراءة صحيح البخاري كما كان يشارك العلماء الخوض في المسائل الفقهية[٢].

أما السلطان الظاهر ططر[٣] فقد وصفه المؤرخ ابن تغري بردي في عبارات موجزة بليغة بقوله: "وهو ثاني سلطان ملك الديار المصرية ممن له ذوق في العلوم والفنون الآداب ومعاشرة الفضلاء والأدباء والظرفاء من المماليك الذين مسهم الرق: الأول الملك المؤيد شيخ، والثاني ططر هذا غير أن الملك المؤيد طالت مدته فعلم حاله الناس أجمعون، والملك الظاهر هذا قصرت مدته فخفي أمره على الآخرين"[٤] . أما العيني فقد ذكر أن من أسباب أهليته واستحقاقه للسلطنة: "معرفته بالعلوم الشرعية، فإنه من بين الترك منفرداً بذلك لقدرته على استخراج المسائل الشرعية وغيرها من الكتب بمطالعته في كتب الفقه والتفسير وغير ذلك،وقدرته على البحث مع الفقهاء"[٥].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص١؛ مؤرخ مجهول: تاريخ الملك الأشرف قايتباي ص ٧٥. وكتاب دلائل النبوة طبع هذا الكتاب عدة مرات، منها: طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة= ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م بتحقيق السيد أحمد صقر، وطبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنورة بتحقيق عبد الرحمن عثمان، طبعة بيروت. مؤرخ مجهول: تاريخ الملك الأشرف، ص٧٥، هامش٣. والبيهقي هو أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله البيهقي الشافعي، يكنى بأبى بكر، وهو من الثقات، له مصنفات عظيمة، منها كتاب" الأسماء والصفات" وكتاب "دلائل النبوة"، توفي سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٦، ص٧١ هامش١؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٣، ص٣٠٤- ٣٠٥ .

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٦١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٢٥٧؛ سامية مصطفى مسعد: المغاربة ودورهم الثقافي، ص٣٢.

(٣) هو أبو الفتح ططر بن عبد الله الظاهري كان من مماليك الظاهر برقوق، وهو الوصي على أحمد بن الملك المؤيد شيخ، حيث خلعه من السلطنة وتسلطن هو في ٢٧رمضان سنة ٨٢٤هـ/ ١٤١٢م عرف عنه التواضع والحلم كان حنفي المذهب، توفي سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٣٦٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص١٦٥- ١٦٦؛ العيني: عقد الجمان،حوادث وتراجم السنوات (٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص١٥٧.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٤٧.

(٥) العيني: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر، ص٢٠.

أما الملك العزيز يوسف بن الملك الأشرف برسباي الدقماقي[١] فقد نفي إلى الإسكندرية بعد عزله فاستغل هذه العزلة الجبرية بالاشتغال بالعلم النافع[٢].

كما وصف المؤرخون السلطان الظاهر جقمق بحبه للعلم والعلماء وتواضعه لهم، ومعرفته للفقه على المذهب الحنفي، كما أن له مسائل صعبة في الفقه يستفتيه العلماء فيها، كما عرف عنه حبه لاقتناء الكتب النادرة والنفيسة ويدفع فيها المبالغ الطائلة[٣]. وقد سار ابن الظاهر جقمق الملك المنصور عثمان[٤] على نفس خطى أبيه في حبه للعلم وانكبابه عليه، فقد درس فقه المذهب الحنفي حتى وصل إلى درجة العلماء المرخص لهم بالفتوى[٥] .

---

(١) هو الملك العزيز يوسف بن الملك الأشرف برسباي الدقماقي، ولد سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م وتولى السلطنة وعمره خمس عشره سنة، بعد وفاة والده سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م وظل في السلطنة ثلاثة أشهر ثم خلع سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م حيث نفي إلى الإسكندرية وظل بها إلى أن توفي سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٤١٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٠٩؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص ١٠٩؛ السيوطي: نظم العقيان، ص١٧٩ .

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٤١٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٣١.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص١٩٩- ٢٠٠؛ حوادث الدهور، ص٣٩٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٠٠.

(٤) هو عثمان بن جقمق المنصور، ولد سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م، اهتم بالفروسية إضافة إلى اهتمامه بالعلوم كالفقه والحديث والتاريخ، تسلطن بعد والده الظاهر جقمق، لكنه ما لبث أن خلع عن الحكم بعد بضعة أشهر، وتسلطن بعده الأشرف ينال، وعندما عزل انقطع للعلم والصلاة والعبادة توفي بدمياط سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م. السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص ١٢٧- ١٢٨.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٣٧.

أما الملك المؤيد أحمد بن إينال العلائي[1]، فقد انصرف إلى الدراسة والعلم لبعض القراءات وإلمامه بالفقه والأدب واللغة العربية[2]. وذلك في مدة نفيه إلى الإسكندرية[3]. وعرف عن السلطان الظاهر خشقدم[4] إجادته لبعض القـراءات ،كما أنه كان ملم بالفقة والأدب ويتقن اللغة العربية ([5]).

أما السلطان الظاهر تمربغا الظاهري[6] فقد برع في الفقه الحنفي وفروعه، وفروعه، وكان ملماً بالتاريخ والشعر والأدب والحساب، وكان يحاضر ويذاكر بطريقة مميزة[7]. كما امتاز السلطان الأشرف قايتباي بكثرة القراءة والاشـتغال

---

(١) هو أحمد بن إينال العلائي، ولد بعد سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م. كان في أيام سلطنة والده أميـراً كبيـراً، وعندما مرض الملك الأشرف إينال ولاه السلطنة في١٤ جمادى الأولى سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م لكنه ما لبث أن خلع من السلطنة في ١٧ رمضان من نفس السنة ونفي إلى الإسـكندرية، تـوفي سـنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م. السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان، ص٤٠.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٦، ص٢٧٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٤٥٧.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور،ج٢،ص٤٥٧ .

(٤) هو السلطان خشقدم بن عبد الله الناصري المؤيدي شيخ ، كان خاصكياً وتنقل في المراتب حتى أصبح أمير عسكر فاختاره العسكر لتولي منصب السلطنة يوم الأحد ١٩ رمضان سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م ولقب بالظاهر، كان عاقلاً، مهاباً، صبوراً، بشوشاً مدبراً للأمور، توفي سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢٨٦؛ المنهل الصافي، ج٥، ص٢١٠– ٢١١؛ ابـن العمـاد: شذارت الذهب، ج٧، ص٣٢٦؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٧٥– ١٧٦.

٥) ابن تغري بردي :النجوم الزاهرة،ج١٦،ص٢٧٥؛ابن إياس :بدائع الزهور،ج٢،ص٤٥٧.

(٦) هو الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهر، اتصف بالصلاح وحب الناس، تولى السلطنة سنة ٨٧٢هـ/ ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م بعد خلع السلطان الظاهر بلباي المؤيدي، ونفي إلى الإسكندرية حيث توفى بهـا سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م. ابن العماد: شدرات الذهب، ج٧، ص٣١٥؛ الشرقاوي: تحفـة النـاظرين، ص١١٠.

(٧) ابن إياس: صفحات لم تنتشر من بدائع الزهور، ص٢٠٤؛ بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٧٦؛ ابن تغـري بردي: النجوم، ج١٦، ص ٣٣٥– ٣٣٦.

بالعلوم النافعة وقد أثرت عنه أذكار وأوراد كانت تقرأ في المساجد[١]. وكانت للسلطان الغوري[٢] اهتمامات أدبية وشعرية فقد أجاد نظم الشعر باللغة التركية، إضافة إلى حبه لقراءة التاريخ والسير والشعر[٣].

وإلى جانب اهتمام السلاطين بالعلم وبراعتهم فيه، فقد حرصوا أيضاً على أن ينال أبناؤهم قسطاً وافراً منه، فوفروا لهم كل سبل تحصيل العلم التي جعلتهم على درجة كبيرة من العلم والثقافة، ومن أبناء السلاطين الذين اهتموا بالعلم محمد بن السلطان الظاهر جقمق[٤] الذي حفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الفقه والفرائض والحديث إضافة إلى المنطق، كما قرأ على ابن حجر العسقلاني الذي أثنى عليه لحسن فهمه وحفظه وإقباله على العلم[٥].

وقد اعتنى قرقماس الأشرفي أمير سلاح[٦] بالشهابي أحمد ابن السلطان الأشرف برسباي[١]؛ لكونه زوج أمه حيث حرص على تربيته وتلقينه العلوم

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣٢٦؛ ابن أجا: العراك بين المماليك، ص٢٠٥.

(٢) هو السلطان قانصوه الغوري بن عبد الله الجركسي، وهو من مماليك الأشرف قايتباي، وقد لقب بالغوري نسبة إلى أحد الطبقات التي كان يسكن بها المماليك، ولد حدود سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م وتولى ملك مصر في بداية شهر شوال سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م وكان ذا رأي وعقل وفطنة ودهاء وبطش في قتل الأمراء، قتل في مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص١١٣- ١١٥.

(٣) ابن أجا: العراك بين المماليك، ص ٢١٣.

(٤) هو ناصر الدين أبوالمعالى، ولد سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م، وانكب على الدراسة والعلم منذ طفولتة، محباً محباً للعلماء مصاحباً لهم، مع حسن الأخلاق وكريم الصفات، تولي الإمارة في مدة سلطنة والده الظاهر جقمق، لكنه مرض، وتوفي جراء ذلك سنة٨٤٧هـ/١٤٤٣م. ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص٢٢٠-٢٢١.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص٢٢٠-٢٢١.

(٦) هو قرقماس الجَلبَ بن عبد الله الأشرفي، جركسي الأصل، ترقى في المناصب حتى صار في دولة الأشرف قايتباي أمير مائة وأمير مجلس، كان عاقلاً ساكناً حشماً وقوراً، توفي سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٥٤٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢١٨.

النافعة، كما أحضر له المدرسين البارعين ليعلموه قراءة القرآن وكتابة الخط المنسوب والعلوم المختلفة[٢] .

وكما اهتم السلاطين في دولة المماليك بالعلم وبتلقينه لأبنائهم، اهتم أيضاً نواب السلطنة سواءً في مصر أم في الشام بالعلوم المختلفة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الأمير جمال الدين بن يغمور[٣] الذي شغل منصب نيابة السلطنة بالقاهرة ودمشق، وكان له اهتمام بالحديث الشريف، وكان قد سمعه على أحد محدثي عصره[٤]. أما الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار[٥] نائب السلطنة بالديار المصرية فقد كان له إلمام ودراية بالتاريخ إضافة إلى معرفته بالكتابة[٦].

كما اهتم الأمير شمس الدين سنقر الألفي الذي تولى نيابة السلطنة بالديار المصرية بالأدب والكتابة[٧] ومن أشهر النواب الذين اهتموا بالعلوم والأدب والتاريخ المؤرخ الأمير بيبرس الدوادار المنصوري[٨] نائب السلطنة

---

(١) الشهابي أحمد بن برسباي، أمه أم ولد جركسية، مات أبوه وأمه حامل به توفي وعمره ٢٧ سنة عام ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م.

ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٠٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص ٢٤٧.

(٢) السيد الباز العريني: المماليك، ص ٩٥- ٩٦.

(٣) الأمير جمال الدين موسى بن يغمور بن جلدك بن بليمان بن عبد الله أبو الفتح، ولد سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م، كان من الأمراء المقدمين في دولة الظاهر بيبرس لخبرته بالأمور السياسية وحزمه مع الجود والكرم، توفي سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م. ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٧، ص١٩١؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٦٥٣- ٦٥٤.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص ١٩١.

(٥) هو بيلبك بن عبد الله الخازندار الظاهري بيبرس نائب السلطنة توفي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢١١؛ محمد عبد الغني الأشقر: نائب السلطنة المملوكية في مصر، ص٣٦٦.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٤٨.

(٧) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٦٧.

(٨) هو ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار، تولى نيابة السلطنة في دولة الناصر محمد سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، اتصف بالعقل الراجح والبر، وكان من الأمراء المقدمين في الدولة، توفي سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م.الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص٢٩١؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢٦٩؛ ابن أيبك الدوادار: كنز الدرر، ص ٣١٩؛ ابن حجر: الدرر الكامنة: ج١، ص٥٠٩- ٥١٠؛ الصفدي: الوافي، ج١٠، ص٣٥٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٦٦؛ بيبرس المنصوري: مختار الأخبار،

بالديار المصرية ، فقد اشتهر بمصنفاته في التاريخ، وكانت مادة جيدة لأخبار المماليك. إضافة إلى أسلوبه المميز في الكتابة الذي غلبت عليه السلاسة والمرونة. ومن أشهر مؤلفاته في التاريخ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، التحفة الملوكية في الدولة التركية، اللطائف في أخبار الخلائف، مواعظ الأبرار، مختار الأخبار ومختصر تاريخ بيبرس. وإضافة إلى التاريخ كان بيبرس مطلعاً على كتب الأدب والفقه على المذهب الحنفي[1]. كما اشتغل الأمير الكبير أرغون الناصري[2] نائب السلطنة بمصر بدراسة الأدب والخط المنسوب، والفقه وأصوله وسمع صحيح البخاري، كما أجاز له بعض العلماء بالإفتاء والتدريس، إضافة إلى إحاطته بدقائق المذهب الحنفي[3]. ومن بقايا البيت الأيوبي الذين تولوا النيابة وكان لهم إلمام بالعلوم الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء فقد درس الفقه والطب، كما ألف عدداً من الكتب الجيدة منها " تقويم البلدان " إضافة إلى كتابه "المختصر في أخبار البشر" وهو يتحدث عن التاريخ

ص٨٦؛ التحفة الملوكية، ص١١٢؛ أبي الفداء: المختصر، ج٤، ص٦٤- ٦٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٣٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٤٠. محمد عبد الغني الأشقر: نائب السلطنة المملوكية في مصر، ص٣٧٦.

(١) ابن أيبك الدوادار: كنز الدرر، ص٣١٩؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢٦٩؛ الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام ص٢٩١.

(٢) هو سيف الدين أرغون بن عبد الله الدويدار الناصري، من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، تولى نيابة السلطنة للناصر محمد بمصر ثم ناب في حلب، اشتهر بالتواضع، والديانة، توفي سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص٥٧٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٢١٠- ٢١١؛ الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص٣٦٠، محمد عبد الغني الأشقر: نائب السلطنة المملوكية في مصر، ص٣٧٦- ٣٧٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٥٧٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٢١٠- ٢١١؛ الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص٣٦٠.

إضافة إلى بعض الشعر الجيد، كما أنه نظم كتاب "الحاوي" في الفقه[١] كما اهتم الأمير نائب الشام تنكز[٢] بسماع صحيح البخاري وكتاب معاني الآثار للطحاوي وصحيح مسلم، وثلاثيات البخاري في المدينة المنورة[٣]. وكذلك الحال بالنسبة للأمير الكبير علم الدين الجاوي[٤] نائب غزة الذي اشتهر بإلمامه بالمذهب الشافعي، فقد درس "مسند الشافعي" وألف شرحاً لهذا المسند سماه " شرح مسند الشافعي "كما " شرح مسلم" للنووي، كما قام هذا الأمير خلال مدة اعتقاله بنسخ القرآن الكريم والحديث الشريف[٥].

أما الأمير صلاح الدين الدوادار الناصري[٦]، الذي تولى نيابتي طرابلس والإسكندرية، فإضافة إلى معرفته بالتاريخ والأدب وأيام الناس، قد كان

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٥٧٧؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٥٤؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٩، ص٤٠٣- ٤٠٤.

(٢) هو الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي الناصري، اشتراه الأشرف خليل، ثمّ صار من جملة مماليك المنصور لاجين، وصار في دولة الناصر محمد أمير عشرة وصاحبه عندما كان في الكرك، فلما عاد للملك ولاه الناصر نيابة الشام فظل في هذه النيابة ثمانية وعشرين سنة، وقد سار بالناس سيرة حسنة، وعظم أمره عند الناصر محمد، لكن الناصر تغير عليه واعتقله، حيث مات في معتقله بالإسكندرية سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، وكان رحمه الله عادلاً، محباً للعلماء، قمع المفسدين في بلاد الشام، وأمن الناس في عهده، وعمر بلاد الشام بعد خرابها على يد التتار، وقد تأسف عليه أهل الشام. ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١-٢، ص٣٠٨- ٣١٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص١١٧- ١١٨؛ الدليل الشافي، ج١، ص٢٢٨؛ المنهل الصافي، ج٤، ص١٥٦- ١٦٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص١١٧- ١١٨؛ السيد الباز العريني: المماليك ، ص٩٤.

(٤) هو الأمير علم الدين سنجر الجاولي، تولى نيابة السلطنة بغزة وحماة، وكان من الأمراء المقدمين عند الناصر محمد، وهو من الفضلاء المحبين للعلم، توفي في رمضان سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٠٤؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج٩، ص٧٣؛ السبكي: طبقات الشافعية: ج١٠، ص٤١؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج٣، ص٧٥- ٧٦.

(٥) ابن تغري بردي : النجوم ، ج١٠، ص٩٠؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج١٠، ص٤١؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص٧٥- ٧٦.

(٦) هو الأمير صلاح الدين يوسف بن أسعد الدوادار الناصري تولى نيابة الإسكندرية وكشف الجيزة والدوادرية في عهد السلطان الناصر، كما تولى إمارة طرابلس، كان من خيرة الأمراء، واتصف بحسن التدبير والسياسة، توفي سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م، المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٧٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٠، ص٩٣؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص٧٤.

ينظم الشعــــر ويجالــس الشعراء والعلمــــاء والأدباء ويتنــاقش معهــم[1]. ومثله الأمير شهاب الدين بن العديم نائب شيزر[2] الذي كــان ملمــاً بــالأدب والتاريخ، ألف في التاريخ[3]. أما نائب السلطنة بدمشق الأمير عــلاء الــدين الماردينى[4] فقد تفقه على المذهب الحنفي وبرع به[5].

كما اشتغل الأمير سيف منكلي بغا[6] الذي تنقل بين نيابات دمشق وحلــب وصفد وطرابلس بعدد من العلوم وبرع فيهــا[7]. أمــا الأميــر شــرف الــدين

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٧٥؛ ابن تغري بردي: النجوم،ج١٠،ص٦٣؛ ابن حبيب: تــذكرة النبيه، ج٣، ص٧٤.

(٢) شيزر:مدينة تقع على ضفة نهر العاصى الغربية، وصفها ابن العديم بأنها "مدينة صغيرة، وفواكههــا كثيرة لها قلعة حصينة، ومدينة تحت مدينة"انظر بغية الطالــب فــي تــاريخ حلــب، ج١، ص١٤٥، وللمزيد عن تاريخ شيزر انظر،محمد المشهدانى: تاريخ إمارة بني منقذ العربية،ص٩-١١؛عبــدالله الغامدي :شيزر منذ زوال حكم بني منقذ حتى أواخر القرن السابع الهجري، بحث منشــورفي مجلــة كلية اللغة العربية،جامعة القاهرة،فرع أســيوط،العدد التاســع عشــر، ســنة ١٤٢٠هــــ/٢٠٠٠م، ص١٩٣ومابعدها.

(٣)ا لمقريزي:السلوك، ج٣، ق١، ص٩٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٣؛ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص٢٧٤. وابن العديم: هو أحمد بن الجمال محمد بن عمر بن أحمد بن هبــة الله بــن محمد بن أبي جرادة العقيلي، المشهور بابن العديم، الحنفي، تــولى نيابــة شــيزر، وتــوفي ســنة ٧٦٥هــ/ ١٣٦٣م؛ ابن حبيب: تــذكرة النبيــه، ج٣، ص٢٧٤، المقريــزي: الســلوك، ج٣، ق١، ص٩٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٣.

(٤) هو الأمير الكبير علاء الدين علي الماردينى الناصري، تولى نيابة السلطنة بدمشق ثم مصر إضافة إلى إلى عدد من المناصب الأخرى، عرفت عنه الأخلاق الحسنة وحبه للناس واتبــاع أحكــام الشــريعة، توفي سنة ٧٧٢هــ/ ١٣٧٠م. ابن تغري بردي: النجــوم، ج١١، ص٩٢؛ الــدليل الشــافي، ج١، ص٤٨٤.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٩٢.

(٦) هو الأمير الكبير سيف منكلي بُغَا بن عبد الله الشمسيّ، تولى عدداً من النيابات في كــل مــن دمشــق وحلب وطرابلس وصفد، ثم أصبح أتابك العسكر في مصر، توفي سنة ٧٧٤هــ/ ١٣٧٢م. ابن تغري بردي : النجوم، ج١١، ص١٠٠.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص١٠٠.

شهرى[١] نائب سيس فقد كان فقيهاً شافعي المذهب، أذن له العلماء بالإفتـــاء، كما أنه كان يكتب الخط المنســـــوب[٢]. كما كان الأمير خليل بـــن عـــرام[٣] عارفاً بالتاريخ والأدب، وألف عدداً من المصنفات المفيدة في التـــاريخ[٤] وقـــد اشتهر الأمير طشتمر العلائي[٥] نائب دمشق باشتغاله بالعلوم المفيـــدة وإتقانـــه للخط المنسوب وحبه للشعر والأدب[٦]. كما برع الأمير ســـيف الـــدين بـــزلار العمري[٧] نائب دمشق أيضا في الخط المنسوب وعلوم أخرى، أبرزهـــا علـــم

---

(١) هو شرف الدين موسى بن محمد بن شهرى، نائب سيس، وهو من الأمراء العلماء الفضـــلاء، تـــوفي سنة ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٥١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص١٥٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٥١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم ، ج١١، ص١٥٩ .

(٣) هو صلاح الدين خليل بن عرام، تولي نيابة الإسكندرية والحجوبية والوزارة والأستادارية، إضافة إلـــى عدد من الوظائف الأخرى، كان فطناً ذكياً مهاباً ذا سياسة وعلم، توفي ســـنة ٧٨٢هـــ/ ١٣٨٠م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٥١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص١٥٠-١٥١؛ الـــدليل الشافي، ج١، ص٢٩١-٢٩٢؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٢٤٨-٢٤٩.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣،ق١، ص٣٩٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٧٥- ٢٧٦؛ ابـــن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص١٥٠- ١٥١؛ الدليل الشـــافي :ج١، ص٢٩١-٢٩٢؛ الســـخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٢٤٨- ٢٤٩.

(٥) هو الأمير الكبير سيف الدين طشتمر بن عبد الله العلائي الدوادار، كان أمير ألف، وتولى نيابة الشام، ثم أتابك العسكر بمصر، وتولى نيابة صفد ثم حماة، كان يحب مخالطة العلماء ومجالستهم، وهـــو ذو عفة وديانة، توفي سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م.

ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٥٧- ٣٥٨؛ ابن تغري بردي: النجـــوم، ج١١، ص٢٤٩؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٢٨- ٥٢٩.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٥٧- ٣٥٨؛ ابن تغري بـــردي: النجـــوم، ج١١، ص٢٤٩؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٢٨، ٥٢٩.

(٧) هو الأمير سيف الدين بزلار بن عبد الله العمري ثم الناصري، وهو من مماليك الملك الناصر حسن بن بن قلاوون، اشتراه وأحسن تربيته حتى برع في العلوم والفروسية، وعرف بالشجاعة والذكاء وحسن المحاضرة، تولى نيابة الإسكندرية ثم نيابة دمشق، ومات سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م.

ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق١، ص١٧٣؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٦٨٥؛ ابـــن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٣٢٠- ٣٢١.

الفلك والنجوم[١]. وقد اشتهر الأمير ناصـــر الدين التنـــــوخي المعــروف بابن العطار[٢] نائب الإسكندرية بمعرفته للتاريخ والشعر[٣].

كما عرف عن الأمير سودون الظاهري[٤] نائب دمياط بدراسته للنحو الذي الذي اجتهد في دراسته رغم ما لقيه من صعوبة في ذلك، إضافة إلـــى البحـــث والمناقشة في المسائل الفقهية[٥] واشتهر الأمير يلبغا البهائي[٦] نائب الإسكندرية الإسكندرية بكتابة الخط المنسوب واهتمامه بعلم الفقه، و نظراً لإلمامـــه التـــام باللغة العربية كان يحاضر "بالأيام السالفة"[٧].

أما الأمير تغري برمش[٨] الذي تولى نيابة قلعة الجبل[١] فقد عُدَّ من علمـــاء علماء الحديث العارفين بالرجال، حتى إن ابن حجر العسقلاني أجازه في علـــم

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق١، ص١٧٣؛ المقريزي: الســلوك، ج٣، ق٢،ص٦٨٥؛ ابـــن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٣٢٠-٣٢١ .

(٢) هو محمد بن أحمد بن عمر بن يوسف بن عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم التنوخي الحموي، عرف عرف بابن العطار، شغل عدداً من المناصب، منها نظر الخليل والحجوبية بها، كما تــولى الدواداريـــة لنائب الشام ثم نيابة الإسكندرية، توفي سنة ٨٢٨هـــ/ ١٤٢٤م.

ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٣٠٤- ٣٠٥.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص ٣٠٤- ٣٠٥.

(٤) هو الأمير سيف الدين سودون الظاهري المغربي، أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق، ولاه إمـــارة عشرة ثم الحجوبية، ثم نظر القدس، ثم نيابة دمياط، توفي سنة ٤٤٣هـــ/١٠٥١م؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٢١٦- ٢١٧.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٢١٥.

(٦) هو الأمير سيف الدين يلبغا بن عبد الله البهائي الظاهري، وهو من مماليك الملك الظاهر برقوق، كان أمير عشرة، تولى أمير طبلخانة والحجوبية الثانية، ثم صار نائب الإسكندرية، كان عاقلاً وديناً، توفي سنة ٨٤٣هـــ/ ١٤٣٩م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٢١٥.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٢١٥.

(٨) هو الأمير سيف الدين تغري برمش بن عبد الله الجلالي الناصري ثم المؤيـــدي الفقيـــه، أصـــله مـــن المماليك الظاهر جقمق، كان خاصكياً ثم أمير عشرة ثم نائباً لقلعة الجبل، شارك في فنون عديدة، وبرع في الفروسية، شارك في غزوات رودس، توفي سنة ٨٥٢هـــ/ ١٤٤٨م.

الحديث، كما كانت له معرفة بالتاريخ والأدب وأيام الناس، إضافة إلـى كتابـة الشعر باللغتين العربية والتركية وإجادته للخط المنسوب[٢]، كما عد أمير مكـة الشريف بركات[٣] من علماء الحديث أيضاً فقد أجاز له عدد من العلماء، مـنهم البرهان بن صديق وعائشة بنت عبد الهادي، كما حدث عنه آخرون[٤].

كما أشار السيوطي في أحد مؤلفاته إلى الوزير ابن مكانس القبطي[٥] وزير دمشق الذي ذكر أنه من " فحول الشعراء"[٦]. أما على باي بن برقوق[٧] نائـب الشام فقد اشتغل بالعلوم المختلفة وكتب الشعر[١] .

ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٢٥٦– ٢٥٨؛ حوادث الدهور، ص١٤٦– ١٤٧؛ الدليل الشافي، ج١، ص٢١٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٦٧.

(١) قلعة الجبل: تُشرف هذه القلعة على مدينة القاهرة ومصر والنيل والقرافة، فتصبح القاهرة في الجهـة البحرية من القلعة ومدينة مصر والقرافة وبركة الحبش في الجهة القبلية الغربية، أما النيـل فيقـع =غربها، وجبل المقطم الذي يعتبر جزءاً منها يقع خلفها من الشرق، أنشأها الملك الناصـر صـلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، وهي تعتبر مركز الحكم في مصر، والغرض من بنائها إنشـاء مركز مستقل للحكم بعيداً عن أتباع الفاطمين الشيعة. المقريـزي: الخطـط، ج٣، ص ٣٥١– ٣٥٨؛ وانظر أيضاً، عبدالرحمن زكى: قلعة صلاح الدين وماحولها من الآثـار،ص٣١–٣٣؛ أبـو الحمـد فرغلى:الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة،١٤٤–١٤٦.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٢٥٦–٢٥٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور،ج٢ ،ص٢٦٧؛ السيد الباز العريني: المماليك، ص٤٩.

(٣) هو بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة بن أسعد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الشريف أبو زهير الحسيني، ولد سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م وتوفي سنة ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م.

السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان، ص١٠٠.

(٤) السيوطي: نظم العقيان، ص١٠٠.

(٥) هو فخر الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق القبطي، تولى الوزارة بدمشق وكان ناظر الدولة بمصر، وهو من الشعراء المشهورين، توفي سنة ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م.

السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٩٤.

(٦) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٤٩٤.

(٧) توفي سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٨٨.

ومن الأمراء المماليك الذين برعوا في عدد من العلوم وشغلوا مناصب في الدولة الأمير جمال الدين أيدغدي[٢] الذي حضر مجالس الحديث وأُجيز له فحدث[٣]. كما عد الأمير شمس الدين الهُكّاري[٤] متولي الإسكندرية من الشعراء والأدباء الذين أجادوا النظم[٥]. أما الأمير علم الدين سنجر[٦] برع في الحديث حتى أجيز له فحدث[٧] أما الأمير سنجر البرنلي[٨] فقد وصفه أحد المؤرخين بأنه عالم محّدث، حفظ القرآن الكريم، وكتاب الإشارة

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور، ج٣، ص٢٨٨، علي باي بن برقوق الظاهري، من الأمراء المشهورين بالذكاء وحب العمل، توفي سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م. السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص١٢٨٤.

(٢) هو أيدغدي بن عبد الله الأمير جمال الدين العزيزي، من كبار الأمراء في دولة الظاهر بيبرس، يرجع إليه وإلى رأيه في جميع المسائل الدينية، وهو الذي أشار على الظاهر بتولية أربعة قضاة من كل مذهب قاضٍ، توفي متأثراً بجراحه في معركة صفد سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م. النويري: نهايه الأرب، ج٣٠،ص٨٥؛ ابن طولون الصالحي: القلائد الجوهرية،ق١، ص١٥٤؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٥٠-٣٥٤.

(٣) النويري: نهايه الأرب، ج٣، ص٨٥؛ ابن طولون الصالحي: القلائد الجوهرية، ق١، ص١٥٤؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان ،ج٢، ص٣٥٠-٣٥٤.

(٤) هو محمد بن باخل توفي سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، عرف عنه الفضل والكرم. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٦٠٧.

(٥) السيوطي: نظم العقيان، ص١٠٠.

(٦) هو علم الدين سنجر من الأمراء الناصرية اتصف بالشجاعة وحب الخير والجهاد للناس، توفي سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م.

المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٥٠؛ ابن تغري بردي : الدليل الشافي، ج١، ص٣٢٥؛ المنهل الصافي، ج٦، ص٧٨- ٧٩.

(٧) المقريزي: السلوك،ج١ ،ق٢، ص٨٥٠؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي ،ج١، ص٣٢٥؛ المنهل الصافي، ج٦، ص٧٨-٧٩.

(٨) هو سنجر الدواداري التركي البرنلي، أبو موسى، اتصف بالشجاعة والتدين والهيبة والوقار، كان أمير ألف، قاد الجيوش في غزوة سيس زمن المنصور لاجين، توفي سنة ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م. العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١١٤- ١١٥؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٣٢٣- ٣٢٤.

في الفقـــه واهتم بالحديث كثــــيراً فخّرج له المزي[1] وابن الظاهري[2]، كمـــا روى عن عدد من علماء عصره منهم العز ابن عبد السلام والحافظ زكي الدين عبدالعظيم المنذري[3] وغيرهم[4] .

أما الأمير المؤرخ اليوسفي[5] فقد اشتهر بحبه للتاريخ ونظم الشعر، وألــف كتاباً في تاريخ أسماه نزهة الناظرين[6] وقد ألف الأمير عز الــدين ابــن أبـــي الهيجاء الأربلي[7] متولي نظر دمشق كتاباً في التاريخ ابتدأه من عصر الرسول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحرب مع قازان المعرف بتاريخ ابــن أبـــي الهيجاء، كما اشتهر بحب الشعر والأدب[8].

---

(١) هو يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك الحلبي جمال الدين الحــافظ، ولــد ســنة ٦٥٤هــ/ ١٢٥٦م أخذ الحديث من أحمد بن أبي الخير والنووي، كما سافر لطلب العلم إلــى أمــاكن =كثيرة، منها مكة والمدينة ومصر وحلب، قال عنه الذهبي " خاتمة الحفاظ " توفي سنة ٧٤٢هـــ/ ١٣٤١م. ابن العماد: ج٦، ص١٣٦– ١٣٧ .

(٢) لم اقف له على ترجمة.

(٣) لم اقف له على ترجمة.

(٤) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٤– ١١٥؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٣٢٣– ٣٢٤.

(٥) هو موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي المصري، عماد الدين، اشتهر بابن الشيخ يحيى، ولــد ســنة ٦٧٦هــ/ ١٢٧٧م، كان من الأمراء المقدمين في الجيوش، شارك في الحملة على الــيمن ومعركــة وادي الخزاندار وغزو بلاد الأرمن، توفي سنة ٧٥٩هـــ/١٣٥٧م. اليوســفي: نزهــة النــاظرين، ص٤٢– ٤٥.

(٦) اليوسفي: نزهة الناظرين، ص٤٢–٤٥.

(٧) هو محمد بن أبي الهيجاء الهمذاني الأربلي، ولد سنة ٦٢٠هــ/ ١٢٢٣م عــرف بــالأخلاق الحســنة والسيرة الجيدة، توفي سنة ٧٠٠هــ/١٣٠٠م. المقريزي: الســلوك، ج١، ق٣، ص٩١٨؛ العينـــي: عقد الجمان، ج٤، ص١٥٥؛ تاريخ ابن أبي الهيجاء، مقدمة المحقق، ص ٧–١٠.

(٨) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٨؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٥٥، تاريخ ابن أبي الهيجاء، الهيجاء، مقدمة المحقق، ص ٧–١٠.

أما الأمير المحدث العالم علاء الدين بلبان الفارسي[١]، فقد كان فقيهاً حنفي المذهب، ومحدثاً سمع من الشيخ الدمياطي، ومن محمد بن علي بن مساعد ومن البهاء بن عساكر، كما قام بترتيب " صحيح ابن حبان" و "المعجم الكبير" للطبراني على هيئة أبواب، كما أجيز له بالتدريس فحدث عن البهاء بن عساكر. ذكر الذهبي أن هذا الأمير كان أهلاً لتولي منصب القضاء للصفات الجيدة التي توفرت فيه، إضافة لعلمه بدقائق المذهب الحنفي وأصوله، ومعرفته بالنحو والشعر[٢].

كما وُصِفَ الأمير ناصر الدين جنكلي بن البابا[٣] بأنه فقيه أديب وشاعر[٤]. أما الأمير علاء الدين علي بن بيبرس[٥] فقد عرف عنه حبه للشعر للشعر والأدب، وكان حسن المحاضرة[٦]. أما الأمير الكبير سيف الدين صرغتمش[٧] فقد اعتنى بالفقه الحنفي ودرسه، إضافة إلى إجادته اللغة العربية وكتابة الخط الجيد[٨] .

كما اعتنى الأمير سيف الدين بيلبك الفقيه[٩] بكتابة الخط المنسوب والفقه وعدد من العلوم الأخرى[١]. وعرف عن الأمير آلان باي الشعباني[٢] اشتغاله

---

(١) هو علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، أبو الحسن المصري الجندي الحنفي، ولد سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م وتوفي سنة ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م. الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص٤٦٢- ٤٦٣.

(٢) الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص٤٦٢-٤٦٣ .

(٣) هو الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا، كان يعد من أعيان الأمراء، توفي سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م. ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٢٤٠.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٢٤٠؛ الآن باي الشعباني: الحسني، اتصف بالشجاعة، السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٢٥٨.

(٥) هو علاء الدين بن علي بن بيبرس، تولى منصب حاجب الحجاب في دمشق ثم في حلب، عرف عنه الفضل والذكاء، توفي سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٥٢.

(٦) ابن تغري بردي: الدليل الشافي ، ج١، ص٤٥٢.

(٧) الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري، اعتنى بتدبير أمور الدولة مدة من الزمان، توفي قتلاً سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م. المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٤٤.

(٨)ا لمقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٤٤.

(٩) هو الأمير سيف الدين بيلبك بن عبد الله الفقيه الزراق، كان من أمراء الألوف بمصر، توفي سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٨٣.

بعدد من العلوم[٣]. وانكب الأمير ناصر الدين أرقطاي[٤] على سماع الحديث الشريف، ودراسة الفقه الحنفي[٥].

وقد عد الأمير تمر بن عبد الله الشهابي[٦] من الفقهاء الذين برعوا في المذهب الحنفي وفروعه[٧]. كما شارك الأمير ناصر الدين محمد البيد مري[٨] في دراسة وتدريس عدد من العلوم والأدب وقرأ القرآن الكريم[٩]. أما المؤرخ الأمير صارم الدين بن دقماق[١٠] فقد وصف بأنه "مؤرخ الديار المصرية "[١١].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٨٣.

(٢) هو أمير سلاح، توفي سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٨٧.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٨٧.

(٤) هو الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير شرف الدين موسى بن سيف الدين أرقْطاي بن الأمير جمال الدين يوسف، أمير عشرة ، توفي سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م.؛ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص١١٠.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص١١٠.

(٦) هو الأمير سيف الدين تمر بن عبد الله الشهابي الحاجب، كان أمير طبلخانة في مصر، اتصف بالشجاعة والإقدام، توفي سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م.

ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص١١٧؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق٢، ص٤٤٦.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص١١٧؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق٢، ص٤٤٦.

(٨) هو الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير صارم الدين إبراهيم بن عمر البيد مري، كان أمير طبلخانة وتولى شد الخاص بمصر، اتصف بالمروءة وقضاء حوائج الناس، توفي سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م.

ابن حجي: تاريخ ابن حجي، ج٢، ص٦٠٦.

(٩) ابن حجي: تاريخ ابن حجي، ج٢، ص٦٠٦.

(١٠) هو الأمير صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي الشهير بابن دقماق القاهري الحنفي، ولد سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، تولى دمياط ولم يمكث بها طويلاً حيث عاد للقاهرة، مات هناك سنة ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م. ابن دقماق: نزهة الأنام، ص٩- ١٢.

(١١) ابن دقماق: نزهة الأنام، ص ٩- ١٠.

كما شتهر كل من الأمير زين الدين الأشقمري[١] رأس نوبة الجمدارية[٢] والأمير تغري برمش الفقيه التركماني[٣] الحنفي بمعرفتهما للفقه الحنفي[٤]. وقد شارك الأمير الكبير سيف الدين يشبك الساقي الأعرج[٥] في دراسة وتدريس عدد من العلوم، منها الفقه والقراءات وكتب الخط المنسوب وحفظ القرآن الكريم[٦]. أما الأمير بكتمر السعدي[٧] فقد برع في الأدب والفقه واللغه واللغه والروسية واللغتين العربية والتركية وفي "كل علم وفن" على حد تعبير المؤرخ ابن تغري بردي[٨].

أما الأمير جوهر الحبشي القنقباي[٩] الذي كان طوشياً[١] عند زوجة الملك الملك الظاهر برقوق، فقد اهتم بالعلوم خاصة الفقه الشافعي الذي برع فيه حتى

---

(١) هو مقبل بن عبد الله الأشقمري الطواشي الرومي، عرف بحبه للبر والمعروف، توفي سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي ، ج٢، ص٧٤٠.

(٢) رأس نوبة: أي كبير النواب، والجمدار مؤلف من كلمتين جاما أو جامه وتعني الثوب ودار وتعني ممسك الثوب وهو الشخص الذي يتولى إلباس السلطان ويقوم بحراسته أيضاً. انظر حسن الباشا:الفنون الإسلامية، ج١، ص٣٥٦- ٣٥٧، ج٢، ص٥٤٥- ٥٤٦.

(٣) هو الأمير تغري برمش بن يوسف الفقيه الجندي التركماني الحنفي المعروف بزين الدين أبي المحاسن المحاسن الحنفي، تولى أمر صدقات مكة المكرمة في زمن المؤيد شيخ، وتوفي سنة ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م.ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢١٨.

(٤) ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص ٢١٨؛ ج٢، ص ٧٤٠.

(٥) هو الأمير سيف الدين يشبك بن عبد الله الساقي الظاهري الأعرج، كان من الأمراء الألوف في مصر، وهو أتابك العسكر بالديار المصرية، كان عاقلاً حازماً مع دهاء ومعرفة بالأمور ، توفي سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م.
ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٣١٨- ٣١٩؛ العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من(٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٣٤٦- ٣٤٨

(٦) ابن تغري بردي: النجوم، ج٤، ص٣١٨-٣١٩؛ العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من(٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٣٤٦-٣٤٨.

(٧) هو الأمير الفقيه سيف الدين بكتمر بن عبد الله السعدي، كان أمير طبلخانة في مصر، اشتهر بالشجاعة بالشجاعة والعفة والديانة مع العلم والبشاشة والكرم، توفي سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١، ص ١٤٨- ٣١٥- ٣١٦ .

(٨) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص١٤٨، ٣١٥- ٣١٦.

(٩) هو الأمير جوهر الحبشي بن عبد الله القنقبائي الخازندار والزمام دار، كان من الرؤساء في دولة الأشرف برسباي، بنى المدرسة الجوهرية التي بالقرب من الجامع الأزهر، توفي سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م كان عاقلاً، عارفاً بتصريف الأمور، وهو جركسي الأصل. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢،

تولى قضاء دمياط[٢]. وقد اشتهر الأمير تغري بردي[٣] بإلمامه بالفقه وأحكامه، كما كان يكتب الخط الجيد ويحفظ شيئاً من التواريخ[٤].

كما درس الأمير سيف الدين آقْطُلوه الظاهري الفقه[٥] وشارك في مناقشة بعض المسائل الفقهية[٦]. ودرس الأمير جانبك الزردكَاش[٧] بعض العلوم، كما برع في أنواع كثيرة من أنواع الفروسية[٨]. ومن أمراء العرب الذين عدوا من العلماء الأمير شرف الدين الهواري[٩] الذي درس الفقه على المذهب المالكي[١٠]. وقد برع الأمير كمشبغا المؤيدي[١] في رمي النشاب حتى أصبح

ص٢٢٧؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢٥٤؛ المنهل الصافي، ج٥، ص٣٨- ٤٣؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٨٢- ٨٣.

(١) الطواشي: هو مسمى يطلق على الخصيان عموماً، ولكن في عصر المماليك أصبح يطلق على جنود الأمراء. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص٣٨٢.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٢١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٨٢- ٨٣.

(٣) هو الأمير تغريٍ بردي بن عبد الله الرومي البكلمشي الدوادار اشتهر بالمؤذي، كان أمير مائة ومقدم ألف ،ثم دواداراً كبيراً، بنى مدرسة بالقرب من جامع ابن طولون، توفي سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م. السخاوي: التبر المسبوك، ج١، ص١٢٨- ١٢٩؛ الضوء اللامع، ج٣، ص٢٧- ٢٨؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢١٧- ٢١٨؛ المنهل الصافي، ج٤، ص٥٤- ٥٦.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٢٧- ٢٨؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢١٧- ٢١٨.

(٥) هو الأمير سيف الدين آقْطُلوه بن عبد الله الموساوي الظاهري، كان من مماليك الظاهر برقوق، كان أمير طبلخانة ثم أمير عشرة، توفي سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص ٢٥٢- ٢٥٣.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص ٢٥٢- ٢٥٣.

(٧) هو الأمير جانبك بن عبد الله اليَشْبْلي الزردْكاش، كان من مماليك الأمير يشبك الجمكي، وهو من الأمراء الكبار في دولة الظاهر ططر، كان جانبك أمير عشرة ثم صار رأس نوبة، ثم تولى منصب ولاية القاهرة والحجوبية والحسبة، عرفت عنه الأخلاق الحسنة، توفي سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م.

ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ص ٣٩٧.

(٨) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ص ٣٧٩.

(٩) هو عيسى بن عمر الهواري المعروف بشرف الدين، عرف عنه الدين والعفة وحبه للخير، توفي سنة ٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٥١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٦، ص١٧٥.

(١٠) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٥١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٦ ،ص١٧٥.

علاّمة في هذا الفن، إضافة إلى دراسته لبعض العلوم خاصة الفقه[٢]. ومن العلماء أيضاً الذين درسوا الفقه الأمير سيف الدين سودون المؤيدي الفقيه[٣]. أما الأمير الحاجب الزيني قاسم بن تمر باي[٤] فقد عرف عنه حبه للعلم وبراعته في بعض العلوم[٥]. أما مؤرخنا ومؤرخ التاريخ المملوكي الجمالي يوسف ابن تغري بردي[٦] فقد كان من نوادر عصره في حبه للعلم وانصرافه إليه، فقد برع في التاريخ وألف المصنفات المفيدة فيه، ومن أشهر كتبه "النجوم الزاهرة في الملوك مصر والقاهرة، والمنهل الصافي، ومورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة، وحوادث الدهور، والدليل الشافي على المنهل الصافي" وغيرها[٧].

أما الأمير الدوادار الكبير يشبك الفقيه[٨] فقد درس عدداً من العلوم خاصة كتب الفقه[٩] ونهج منهجه عدد من الأمراء منهم الأميرجقمق الفقيه الخاصكي[١٠] والأمير جاني بك الفقيه[١] والأمير خاير بك بن حديد الذين كانوا

---

(١) هو كمشبغا شبشق المؤيدي، أحد أمراء العشرة، اتصف بالتدين وحب الخير والتصدق، توفي سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٤١١.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٤١١.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٦، ص٣١١؛ ابن إياس: صفحات لم تنشر من بدائع الزهور، ص١٦٢. أما الفقيه فهو: الأمير سيف الدين سودون بن عبد الله المؤيدي الفقيه الأشقر، اعتقه الملك المؤيد شيخ، تولى أمر عشرة، واشتهر بالدين والصلاح وحب الخير، توفي سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٦، ص٣١١؛ ابن إياس: صفحات لم تنشر من بدائع الزهور، ص١٦٢.

(٤) عرف باسم صلوةَ، توفي سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٤٤١.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٤٤١؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص٨، ٨١٨؛ الضوء اللامع، ج٨، ص٢٨٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٣١٧- ٣١٨.

(٦) هو يوسف بن تغري بردي البشبغاوى الرومي، كان والده أتابك ونائباً للشام، أما الجمالي يوسف فقد كان من الرؤساء الفضلاء في الدولة، وهو حنفي المذهب، ولد سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م وتوفي سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٤٦.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٤٦.

(٨) هو الأمير يشبك الفقيه بن سلمان شاه المؤيدي، تولى الدوادارية في دولة الظاهر خشقدم لكنه ما لبث أن نفي إلى دمياط، ثم عاد بعد أن شفع فيه، توفى سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٩١.

(٩)ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٩١.

(١٠) اشتهر بالدين وحب الخير، توفي سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١٩.

يعدون من الفقهاء وزاد خايربك بأن برع أيضا في الخط واللغـــة[٢]، والأميـــر مُغلباي الفقيه[٣]، وكذلك الزيني خضر بن ســـنان[٤] الـــذي درس الفقـــه علـــى المذهب الحنفي[٥].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١٤٨؛ جاني بك الفقيه ويعرف بجاني بك من ططخ، هو من مماليك الظاهر جقمق، كان أمير آخور كبير، ثم أمير سلاح، نفى إلى القدس ومات هنـــاك ســـنة ٨٨٣هـــــ/ ١٤٧٨م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١٤٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١٩٤؛ والأمير خايربك، كان من مماليك الأشرف برسباي، وله علم بالفروسية توفي سنة ٨٨٧هـــ/ ١٤٨٢م،ابن إياس :بدائع الزهور،ج٣،ص١٩٤.

(٣) هو أحد أمراء العشرة بمصر، وهومن مماليك الملك العزيز، توفي سنة ٨٨٨هـــ/ ١٤٨٣م. ابن إياس : بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٠٢.

(٤) الزيني خضر بن سنان النوروزي الجركسي، وهو من أولاد الناس، توفي سنة ٨٩٥هـــ/ ١٤٨٩م. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٧٢.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٧٢.

الفصل الثالث

- موقف العلماء من حركات العصيان والثورات الداخلية.
- أثر العلماء في توجيه سياسة الدولة تجاه أهل الذمة.

موقف العلماء من حركات العصيان والثورات الداخلية

لقد برهن المماليك للعالم الإسلامي بأسره عشية انتصارهم في معركة عين جالوت الحاسمة على قدرتهم على السيطرة على زمام الأمور، وتسيير دفة الحكم في الدولة الإسلامية سواءً في مصر أم بلاد الشام بشكل يتوافق مع الأخطار التي كانت تهدد أمن دولتهم، وبما أن هذه الدولة كان أصل نشأتها حربياً، فقد أسهم علماؤها جنباً إلى جنب مع السلاطين والأمراء في معظم أمور هذه الدولة، وكان من أبرز مشاركات العلماء في تكوين هذه الدولة مساهماتهم الجليلة بشكل أو بآخر في قمع حركات العصيان التي كانت تنشب في ربوع دولة المماليك بين آونة وأخرى، وكانت من أوائل هذه المشاركات والإسهامات، ما قام به القاضي برهان الدين السنجاري عندما وصلت إليه أخبار مقتل المظفر قطز وتسلطن الظاهر بيبرس وما واكب ذلك من تذمر من بعض الأمراء وقادة العسكر، فما كان من هذا القاضي إلا أن قام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م بتحليف العسكر للملك الظاهر بيبرس(١).

وهذا موقف حكيم من قاضٍ أراد به درء الفتن عن الأمة الإسلامية، وهي في أحلك الظروف التي تمر بها عشية الغزو المغولي لبلاد المسلمين، وذلك لإيمانه التام بما أشارت إليه الآية القرآنية من أن (الفتنة أشد من القتل) (٢) كما أن تصرفه هذا كان بمثابة مساندة لسلطنة الظاهر بيبرس وتأكيد شرعيتها.

ومن الأمثلة التي نسوقها في هذا المجال، ما أسهم به العلماء بشكل واضح في تفادي ثورة الأمراء ضد الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس، عندما خرج عليه عدد من كبار الأمراء الظاهرية، بسبب استهتاره وتهاونه بهم إضافة إلى حبسهم وتقريب صغار الأمراء منه، وقد تزعم هذه الحركة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي، الذي حرص على عدم الاشتباك مع السعيد ودارت

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٠٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٩٢-٩٣.

(٢) سورة البقرة، أية ١٩١.

مراسلات بينه وبين الملك السعيد، انتهت بتخلي السعيد عن الحكم على أن يكون له ولأخيه نجم الدين خضر الكرك[١] والشوبك[٢] ،ولتأكيد هذا الاتفاق أرسل الملك السعيد بركة في ٧ ربيع الآخر ٦٧٨هـ/١٢٧٩م الأمير علم الدين سنجر الحلبي[٣] والقاضي تاج الدين بن الأثير[٤] لتحليف الأمير سيف الدين قلاوون والأمراء على الالتزام بما وعده به طالما يتخلى عن السلطنة[٥]. وفعلاً تنازل الملك السعيد عن السلطنة بحضرة الخليفة والقضاة والعلماء، كما أشهدهم على أنه سيلتزم البقاء في الكرك والشوبك، على أن يلتزم عدم إثارة الفتن والقلاقل[٦].

ورغم أن الأمور سارت كما خطط لها المنصور قلاوون، حيث عين سلامش بن الظاهر بيبرس خلفاً لأخيه السعيد بركة، وقام بتنصيب نفسه وصياً عليه، وأعطى لنفسه حق التصرف في جميع شؤون البلاد، إلا أنه لم تكد تمضي مدة وجيزة حتى أقدم المنصور قلاوون على خلع سلامش من الحكم، واعتلى هو عرش السلطنة بمصر وذلك سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م وكان أول ردة

---

(١) الكرك: قرية تقع في جنوب الأردن، وهي قلعة حصينة تقع في أطراف بلاد الشام، بين أيله والبحر الأحمر وبيت المقدس، على رأس جبل عال يحيط بها الأودية من جميع الجهات إلا جهة الربض، أبوالفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٦-٢٤٧؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٢-٤٥٣.

(٢) الشوبك: قلعة حصينة تقع في أطراف بلاد الشام، بين عمان وأيلة والبحر الأحمر جنوب البحر الميت في منطقة مرتفعة، وتقع الشوبك بالقرب من الكرك. أبو الفداء:تقويم البلدان، ص٢٤٦-٢٤٧؛ ياقوت:معجم البلدان،ج٣،ص٣٧٠.

(٣) هو سنجر بن عبد الله الحلبي ، كان من أمراء الملك المظفر قطز ، تولي نيابة دمشق في زمن المظفر قطز، ثم ثار على الظاهر بيبرس بعد مقتل قطز ، وأخمد ثورته وولاه إمارة في القاهرة، وكان من الأمراء البارزين في دولة المنصور قلاوون ، توفي سنة ٦٩٢هـ /١٢٩٢م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٦، ص٧٦-٧٨.

(٤) هو أحمد بن سعيد من محمد الحلبي، تولي كتابة الإنشاء بدمشق، ثم بمصر للملك الظاهر بيبرس، ثم للمنصور قلاوون. توفي سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص٣٠٠-٣٠٢.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٢٣٠-٢٣١؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٥؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ٦٥٥.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٥٥؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٥.

فعل واجهها المنصورقلاوون خروج الأمير سنقر الأشقر بدمشق عليه وذلك في العام ذاته[١] حيث لم يرض بما أقدم عليه المنصور قلاوون من خلع سلامش واعتلائه عرش السلطنة، فأعلن نفسه سلطاناً على بلاد الشام وتلقب بالملك الكامل[٢]، وعلى الرغم من أن المصادر أشارت إلى أن ثورة سنقر الأشقر كانت قد لقيت رضاً من بعض العلماء، أمثال شمس الدين بن خلكان الذي أفتى بجواز خروجه على السلطان المنصور قلاوون وقتاله؛ لأنه قتل بعض الأمراء حينما تسلطن[٣]. وكذلك الحال من بعض قضاة وعلماء دمشق حيث استدعى سنقر الأشقر عدداً من القضاة والعلماء والأمراء وأعيان دمشق من مدنين وعسكريين إلى مسجد أبي الدرداء وحلفهم على الولاء له[٤]. وبما أن أن هذه الثورة قد انتهت بعودة بلاد الشام مجدداً تحت حكم المنصور قلاوون ،إلا أن العالم شمس الدين أحمد بن خلكان دفع ضريبة تلك الفتوى التي أفتى بها لسنقر الأشقر وتأييده له في حركته ضد المنصور قلاوون، فبعد عودة الأمور إلى نصابها في بلاد الشام أصدر المنصور قلاوون أوامره بشنق ابن خلكان ،وهنا تذكر المصادر، أنه ما لبث أن وصل كتاب بالأمان لأهالي دمشق وذلك في٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م من السلطان قلاوون، اشتمل على عفو شامل لأهل دمشق، ومنهم ابن خلكان حيث شمله العفو، واكتفى النائب بعزله من منصبه، لكن سرعانما وصل البريد من القاهرة بالعفو عن ابن خلكان وإعادته إلى وظائفه كما أرسل إليه السلطان خلعة، وذلك لما لهذا القاضي من أيادٍ بيضاء

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٢٩٢-٢٩٣.

يرى ابن عبد الظاهر أن سبب هذه الثورة هو رغبة سنقر الأشقر الاستقلال ببلاد الشام، وجعلها جزءاً مستقلاً عن مصر، كما كان عليه الوضع زمن الأيوبيين. انظر: تشريف الأيام والعصور، ج٦١؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص١٦؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٢٣٤-٢٣٥؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص١٦٣.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٧٠-٦٧١.

(٣) ابن الفوطي: كتاب الحوادث الجامعة، ص٤٤٧؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٧٨.

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٣٤.

على السلطان[1]. كما شهد عهـد الأشـرف خليـل بـن قـلاوون فـي عـام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م حركة عصيان أخرى قادها عدد من كبار الأمراء في دولتـه وذلك بسبب سوء تصرفات الأشرف معهم، واستهتاره بهم، وعزل عـدد مـنهم ممن كان في دولة أبيه يشغل مناصب عليا في الدولة، وزج بهم في السـجون، إضافة إلى سوء تصرفات وزيره ابن السلعوس[2] وتحريضه علـى الأمـراء، وفي مقدمة هؤلاء الأمراء الأمير بيدرا[3] نائب الإسكندرية الذي وبخه وأهانـه بحضرة عدد من الأمراء، وأمر بمصادرة بعض أملاكـه، فـاتفق بيـدرا مـع جماعة من الأمراء الحانقين على السلطان[4] وكتبوا دعـوى ضـده وقـدموها للعلماء، الذين أجازوا بموجبها قتل السلطان الأشرف خليـل، وكانـت صـيغة الدعوى على النحو التالى: (ما يقول السادة الفقهاء في رجل يشرب الخمر فـي شهر رمضان، ويفسق بالمردان ولا يصلي؟ فهـل قتالـه ذنـب أم لا؟ فكتـب جوابها: "يقتل ولا إثم على قاتله")[5] وقد أسفرت هذه الثورة عن مقتل الأشـرف خليل وسلطنة الأمير بيدرا الذي تلقب بالملك الأوحد، لكـن مماليـك الأشـرف

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٣٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٤٣-٤٤؛ ابـن عبـد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٦٨-٧٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٧٨-٦٧٩.

(٢) هو محمد بن عثمان التنوخي الدمشقي، لقب بشمس الدين، تولى الحسبة في دمشق أولاً ثم الوزارة في عهد الأشرف خليل بن قلاوون، فتكبر على الناس، وتجبر، حتى توفي في أبشع صورة بعد أن ضرب ضرباً مبرحاً سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣،ص٣٨٨؛ ابن تغري بـردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٦٥٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٤٢٤.

(٣) هو بيدرا بن عبد الله المنصوري الأمير بدر الدين، من مماليك المنصور قلاوون، تولي نيابة السـلطنة في أيام الأشرف خليل بن قلاوون، كان ذا عقل ودين، مطلع على العلوم تسلطن بعد أن قتل الأشرف خليل، لكن مماليك الأشرف لم يمهلوه وقتلوه هو أيضاً ثـأراً لأسـتاذهم . فـي ١٣ محـرم سـنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م . ابن تغري بردي: المنهل الصافي ، ج٣ ، ص٤٩٣-٤٩٥.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٨٨-٧٨٩؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص١٠٨؛ الأيوبيون والمماليك، ص٢٦٠؛ فايزة الجعيد: حركات العصيان في بلاد الشام زمن سلاطين المماليك، رسـالة ماجستير لم تطبع، جامعة أم القري، عام ١٤٢٨هـ، ص٩٨-١٠٠.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٩٢-٧٩٣. في اعتقاد الباحثة أن صياغة نص الدعوى الذي ُقدم للعلماء كان له تأثير على الفتوى أو الحكم الذي أصدره العلماء، فلو صرح السائل في نص الدعوى أن الشخص الذي قدمت من أجله الفتوى هو سلطان البلاد، لما أصدر العلماء تلك الفتوى ضده، وذلك لدرء المفاسد، وتجنب وقوع فتنة ين المسلمين خاصة في تلك الفترة العصيبة من تاريخ المسلمين ، إضـافة إلى كون الأشرف خليل طهر بلاد الشام كلياً من الصليبيين سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م. فترى الباحثة أن هذا العمل وحده كان كفيلاً بأن يتغاضى عنه العلماء ويكتفوا بتقديم النصح له بدلاً من قتله. والله أعلم.

خليل لم يمهلوه حيث قتلوه سنة ٦٩٣/١٢٩٣م. كردة فعل لما فعلــه بأســتاذهم الأشرف خليل، وانتهت هذه الثورة بتنصيب الناصر محمد بــن قــلاوون ســنة ٦٩٣هــ /١٢٩٣م. سلطاناً على البلاد على أن يكون زين الدين كتبغا[١] نائبــاً للسلطنة[٢]. لكن الأمورسارت في اتجاه آخر، حينما خلع كتبغا الناصــر محمــد من السلطنة سنة ٦٩٤هــ/ ١٢٩٤ ونادى بنفسه سلطاناً علــى الــبلاد، و كمــا تدين تدان فسرعان ما ثار حسام الدين لاجين على كتبغا وخلعه مــن الســلطنة سنة ٦٩٦هــ / ١٢٩٦م مستغلاً خروج العادل كتبغا إلى بلاد الشام فثار عليــه في القاهرة ونادى بنفسه سلطاناً على البلاد، عند ذلك توجه العادل كتبغــا إلــى نائب الشام الذي قام بجمع القضاة ومنهم القاضي بــدر الــدين بــن جماعــة[٣] وحسام الدين الحنفي[٤] وغيرهما من العلماء وكبار الأمــراء، وقــام بتحلــيفهم مجدداً للسلطان للعادل كتبغا وذلك بحضور القضاة[٥]، إلا أنــه مــا إن ســيطر

---

(١) هو كتبغا بن عبدالله المنصوري، تلقب بالملك العادل عندما تسلطن سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م، وقد عــزل بعد سنتين من حكمه، وبقي في قلعة صرخد إلى سلطنة الناصر محمد الثانية، حيــث تــولى نيابــة حماة، وظل بها إلى أن توفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م وهو من مشتريات الملك المنصــور قــلاوون، مغولي الأصل، كان قليل الشر شجاعاً ديناً. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص١٦٩ هامش ١؛ ابــن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص١٥٨-١٥٩.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٣١٢-٣١٥؛ التحفة الملوكية، ص١٣٦- ١٣٨؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ص١٦٧-١٦٩، ابن تغري بردي: النجــوم، ج٨، ص١٤-١٩؛ ابــن حجــر: الــدرر، ج٣، ص١٥٨-١٥٩.

(٣) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن علي بن جماعة بن حازم ،تــولى الحكــم والخطابــة ومشــيخة الشيوخ، برع في التفسير والحديث والفقه والعربية والأصول ،توفي سنة ٧٣٣هــــ/١٣٣٢م. ابــن حبيب: تذكرة النبيه،ج٢، ص٢٣٦؛ اليوسفي: نزهــة النــاظر، ص١٣٣؛ الصــفدي: الــوفي، ج٢، ص١٨.

(٤)هو الحسن بن أحمد بن الحسن أنوشروان الرازي الحنفي، والد سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م تولى القضــاء في مدينة ملطية لمدة عشرين سنة ثم في ثم مصر، وشارك في معركة وادي الخزندار ضد المغــول وفقد هناك، وعرف عنه الفضل والمعرفة بعدد من العلوم، وجميل الشعر،توفي سنة٦٩٩هـ/١٢٩٩م ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٢٠-٤٢١؛ البرزالي: المقتفي: ج٣، ص٢٥؛ العيني: عقــد الجمان، ج٤، ص٨٩-٩٠؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٦٣.

(٥) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٣١٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٩٨-٣٩٩؛ ابن تغــري بردي: النجوم، ج٨٨، ص٦٩٥؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٩-٨٢٤.

المنصور لاجين على زمام الأمور في القاهرة، حتى طلب من السلطان العادل كتبغا التخلي عن منافسته في الحكم، ولكي يتقى المنصور عواقب الاصطدام مع كتبغا طلب من بعض أمرائه ومنهم الأمير حسام الدين الأستادار[1] والأمير سنقر الأشقر والقاضي بدر الدين بن جماعة التوجه إلى كتبغا، لإقناعه بضرورة التنازل عن الحكم مقابل تأمينه على حياته وعائلته ونفيه في أي مكان يختاره، فوافقه لاجين على ما اشترطه كتبغا، وعينه نائباً على صرخد[2] بعد أن أعطاه الأمان، واشهد على ذلك عدداً من العلماء والقضاة، وذلك سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م.

ومن الأمثلة على دور العلماء في مواجهة الثورات الداخلية، ماحدث سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م. عندما خرجت جموع العربان بالصعيد، ونظموا ثورة ضد السلطان، وقاموا بقطع الطريق على التجار المارين بهم والمسافرين، وفرضوا عليهم جبايات وضرائب باهظة مقابل السماح لهم بعبور أراضيهم، كما امتنعوا عن دفع الخراج، وأظهروا نوعاً من الاستقلال عن السلطة في القاهرة، وتلقب زعماؤهم بالأمراء، وحكموا بين الناس وأخرجوا من أرادوا من السجون، وعندما علمت السلطة في القاهرة بأمرهم استفتت العلماء والقضاة بجواز قتالهم، وخرجت الجيوش لردع هؤلاء الخارجين عن الطاعة من أهل الصعيد، ومُنعَ الناس من السفر إلى بلاد الصعيد وتمكن العسكر من القضاء على ثورتهم وتأديبهم[3].

وعندما ثار أهالي جبل كسروان سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م وخرجوا عن طاعة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعث إليهم الناصر محمد الشيخ تقي الدين بن تيمية لوعظهم وإقناعهم بالعودة إلى طاعة السلطان، وعندما لم ينجح

---

(١) لم أقف له على ترجمة.

(٢) صرخد: هي قلعة من أعمال دمشق، وهي تقع بجوار بلدة حوران. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٨-٢٥٩؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٣،٤٠١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٢.

في إقناعهم بالعدول عن خروجهم جرد إليهم الناصر محمد جيشاً استطاع تأديبهم والقضاء على تمردهم(١).

ومن الأمثلة الهامة على دور العلماء في مواجهة حركات العصيان والثورات الداخلية أيضاً في عهد السلطان الناصر محمد ،ماحدث عندما تسلطن المظفر بيبرس الجاشنكير(٢)، وذلك عندما نجح الناصر في جمع عدد كبير من الأمراء والمماليك حوله وهو بالكرك واستقوى بهم وتشجع على محاولة استرداد عرش السلطنة بالقاهرة. فبلغ الخبر الجاشنكير في القاهرة، حيث جمع كبار أمراء القاهرة وأطلعهم على ما عزم عليه الناصر، فأشاروا عليه بأن يرسل إلى الناصر رسولاً ذا عقل راجح ، يعرض عليه استعداده للتنازل عن عرش السلطنة، مقابل أن يعوضه الناصر مكان آخر يذهب إليه، واختار الكرك أو حماة أو حصن صهيون، على أن يرافقه مئة مملوك من خواصه .فاختار الأمراء لهذه المهمة الأمير بيبرس الدوادار، باعتباره أحد ومفكري القاهرة في ذلك الوقت، وتنفيذا لما وعد به المظفر أحضر عدداً من القضاة وأشهدهم على خلع نفسه من السلطنة. وحمل بيبرس الدوادار تلك الشروط وشهادة القضاة إلى

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٢؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٣٨٤-٣٨٥؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ج٩، ص١٧٨-١٧٩.

(٢) هو الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، وهو من مماليك المنصور قلاوون، كان من كبار الأمراء في دولة الناصر محمد وهو المتصرف في جميع الأمور مع بيبرس، حتى ضاق الملك الناصر محمد بهما ذرعاً بسبب تسلطهم عليه، فخلع نفسه من السلطنة وتوجه إلى الكرك، وبذلك صفى المكان لبيبرس الذي تسلطن سنة٧٠٨هـ/١٣٠٨م لكن الناصر محمد مالبث أن طالب بعرشه سنة٧٠٩هـ/١٣٠٩م وعاد إلى سدة الحكم وخلع بيبرس الجاشنكير من السلطنة، ثم ما لبث أن قتله الناصر، وقد اتصف بيبرس بالديانة و فعل الخير والعفة . بيبرس المنصوري: كنز الدرر،ج٩،ص١٦٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية ،ج١٤، ص٥٢؛ ابن حجر: الدرر، ج٥، ص٢٩٦-٢٩٩؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠١.

الناصر محمد الذي وافق على شروط المظفر وأعطاه صهيون و مئـــة مملــوك [(١)]. وبهذه الطريقة نجح المؤرخ بيبرس الدوادار في وأد هذه الفتنه في مهدها.

ويرى أحد الباحثين المحدثين، أنه نتيجه للظروف الصــعبة التــى مربهــا السلطان الناصر محمد بن قلاوون طوال مراحل حكمه الثلاث، والتى دفعته في كثير من الأحيان الى تقريب الأمراء وإغداق المناصب والألقاب عليهم، فإنه لم يكن يتورع في الإطاحة بهم عندما يتوهم منهم الخيانة والغدر فيقتلهم[(٢)].

ومن جملة هؤلاء الأمراء الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري نائــب دمشق الذي تخوف من الملك الناصر محمد، فما كان منــه إلا أن خــرج عــن طاعة السلطان الناصر محمــد وتوجــه إلــى بــلاد المغــول ومعــه بعــض الأمراء[(٣)].كما كاتب الأمراء في دمشق يحثهم على شق الطاعة والثورة علــى السلطان واللحاق به،والذي يهمنا هنا أنه كان للمؤرخ النويري دور بــارز فــي وعظ الأمراء وتحذيرهم من مغبة الخروج عن طاعة الســلطان، وقــد حكــى النويري ذلك بنفسه بقوله: (فقمت حين وصلت كتبه (أى الأمير شــمس الــدين قراسنقر) واجتمعت بأعيان الأمراء ونهيتهم عن الدخول في الأمــر، وعــرفتهم

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٦٦-٦٧؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣ ، ص٥٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٢٨-٤٢٩؛ النويري: نهايــة الأرب، ج٣٢، ص١٠٩-١١٧؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٩-١٣٠؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكيــة، ج٩، ص٢٠١-٢٠٢؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص١٢١-١٢٢؛ محمد عبد الغني الأشــقر: سلار الأمير التتري المسلم، ص٣٤-٣٩.

(٢) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص١٢٥؛ من هؤلاء الأمراء الذين قربهم الناصر إليه ثم قتلهم الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار والأمير سيف الدين كراي نائب دمشق والأمير قطلوبــك نائــب صــفد. بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٣) منهم نائب طرابلس الأمير جمال الدين أقوش الأفرم الدواداري. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٣٧؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص٢٣٥-٢٣٦؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملــوك والسلاطين، ص١٥١.

سوء عاقبة الخروج عن الطاعة ، ومفارقة الجماعة، وجـددت علـى أكثـرهم الأيمان للسلطان الملك الناصر فحلفوا) [١].

ويبدو للباحثة أن هذا الدور، الذي قام به النويري لوأد هذه الفتنة في مهدها وتلافي ما قد يحصل للأمة على أثرها من نتائج سيئة كـان مـن غيـر طلـب رسمي من السلطان، مما يعنى أن علماء الأمة في ذلك كـانوا حريصـين كـل الحرص على استقرار الأمور السياسية في دولـتهم. وتوجيـه جهـود الدولـة المملوكية إلى ما يخدم مصلحة البلاد والعباد.

كما أسهم العلماء في دعم الجيوش التي كانـت تخـرج لتأديـب الثـوار والخارجين عن طاعة السلطان، من ذلك ماحدث عام ٧١٥هـ /١٣١٥م عنـدما خرج جيش بقيادة الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام ليغزو مدينـة ملطيـة[٢] ويؤدب أهلها بسبب إيوائهم بعض الخارجين عن طاعـة السـلطان الناصـر [٣]

---

(١) أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص٦٤؛ ابن حبيب: تـذكرة النبيـه، ج٢، ص٣٧؛ نهايـة الأرب، ج٣٢، ص١٤٣.

(٢) ملطيه: بلدة من بلاد الروم مجاورة لبلاد الشام،كانت قاعدة الثغور الإسلامية هناك، تقع بـالقرب مـن كختا وكركر، يوجد بها نهر صغير، وكثير من الأشجار. أبو الفداء: التقويم، ص٣٨٤-٣٨٥؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص١٩٢-١٩٣.

(٣) وصف المقريزي سبب خروج جيش لتأديب ملطيه بقوله: (وسبب غزو ملطية أن السـلطان الناصـر محمد بعث فداوية من أهل مصياب لقتل قرا سنقر، فصار هناك رجل من الأكراد يقال له مندوه، يدل على قصاد السلطان، أخذ منهم جماعة فشق ذلك على السلطان وأخذ في العمل عليه. فبلغه أنه صار يجبي خراج ملطية، وكان نائبها من جهة جوبان يقال له بدر الدين ميزامير نور الدين، فخاف مـن مندوه أن يأخذ منه نيابة ملطية، فما زال السلطان يتحايل حتى كاتبه ميزامير، وقرر معـه أن يسـلم البلد لعساكره). انظر السلوك، ج٢، ق١، ص١٤٢-١٤٣.

محمد وكان بصحبة هذا الجيش قاضي القضاة نجم الدين صصري الشـــافعي[1] وصاحب ديوان الإنشاء شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله العمـــري. وقـــد أسهم العلماء بشكل واضح وفاعل في إخماد هذه الثورة، حيث كان لذلك أثـــره البالغ في خروج متولي بلدة ملطية وقاضي البلدة وعدد مـــن وجهـــاء أهلهـــا يطلبون الأمان، فوافق نائب الشام تنكز على اعطائهم الأمـــان، شـــريطة أن لا يشمل هذا الأمان النصارى المقيمين في البلد، وتم الاتفاق علـــى ذلـــك ودخـــل رجال تنكز إلى ملطية وقتلوا عدداً من النصارى وسبوا نساءهم وأخذوا غنـــائم ثم رجعوا منصورين[2].

كما نلاحظ أن دور العلماء في هذا المجال لـــم يقتصـــر علـــى مواجهـــة الثورات الداخلية وحركات العصيان التي كانت تدبر ضد الســـلطان المملـــوكي ،بل تعدى ذلك إلى تقديم النصح للسلطان نفسه متى لاحظوا منه تجاوزات. مـــن ذلك ماحدث٧٣١هـ /١٣٣٠م عندما بلغ السلطان الناصر أن بعض الأشـــراف قد أثاروا الفتن في مكة وخرجوا عن طاعة السلطان، فعزم الناصر محمد علـــى إرســـــال جيش إلى مكة المكرمة بقيادة الأمـــــير ســـيف الـــدين أيـــتمش[3]

---

(١) هو أحمد بن محمد بن سالم بن صصري الحافظ أبو المواهب نجم الدين، جلس للتـــدريس والفتـــوى، وكان يعد من الأدباء الفضلاء ، تولي كتابة الإنشاء والقضاء. ولد سنة ٦٥٥هـــ/١٢٥٧م وعـــرف عنه التعفف في القضاء والنزاهة في الأحكام. توفي سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٩٧-٩٩.

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٦٦؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٤٢-١٤٣؛ الذهبي: دول الإسلام، ص٤٠٧-٧٠٨؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص١٥٤.

(٣) هو أيتمش أو أرتمش بن عبد الله الأشرف، من مماليك الأشرف خليل بن قلاوون، تولي نيابتي الكـــرك وصفد، وكان له إلمام باللغة المغولية وآدابها وتاريخها، توفي سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م. ابـــن تغـــري بردي: المنهل، ج٢، ص٢٩١-٢٩٣.

لتأديب الأشراف بها وإخراجهم من مكة، وقال السلطان لقائد الجيش وهو بـــدار العدل وبحضور القضاة والعلماء: "لا تدع في مكة أحداً من الأشراف ولا مـــن القواد[1] ولا عبيدهم، وناد بها من أقام منهم حل دمه ثـــم احـــرق جميـــع واديْ نخلة[2]، وألق في نخلها النار حتى لا تدع شـــجرة مثمـــرة ولا دمنـــة عـــامرة، وخرب ما حول مكة من المساكن وأخرج حرم الأشراف منها ، وأقم بها بمـــن معك حتى يأتيك عسكر آخر". وعندما سمع قاضي القضاة جلال الـــدين محمـــد القزويني[3] هذا القول بين للسلطان أن هذه الأفعال محرمة في مكة، وأن مكـــة المكرمة لها قدسيتها، ومن الواجب تعظيم الحرم في مكة، ومن الشنيع فعل تلك الأفعال بها ،ونجح في إقناع السلطان الناصر محمد بالعدول عـــن مـــا عـــزم عليه، وانتهى الأمر بإرسال كتاب أمان و إصلاح ذات البـــين بـــين الأخـــوين

---

(١) القواد: هم "أكابر أتباع أشراف مكة"، "وهم بمثابة الأمراء للملوك" وهم عبارة عن قوة عسكرية مستقلة تكونت من عتقاء الأشراف أو من عبيدهم، وربما كان القواد من بعض القبائل العربية، وعلى الرغم من عدم وجود جيش منظم لهذه الفرقة، إلا أن هذه القوة كان لها أكبر الأثر في تغير مجريات الحياة السياسية في مكة المكرمة. انظر عبد الحفيظ الســـالمي: الثـــورات الداخليـــة والحمـــلات العســـكرية الخارجية على مكة المكرمة وأثرها على الأوضاع العامة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، رســـالة دكتوراه لم تطبع ،جامعة أم القرى، عام ١٤٢٩هـــ، ص٦٨، هامش١؛ عبد الرحمن بـــن مـــديرس المديرس: نفوذ القواد العمرة والحميضات لدى أشراف مكـــة المكرمـــة (٧٣٧-٨٧٣هـــ/١٣٣٦-١٤٦٨م)، ص٢٧٩-٢٨٩، مجلة الدارة، العدد الثالث- السنة الحادية والثلاثون١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(٢) واديْ نخلة: عبارة عن نخلتين إحداهما شامية وأخرى يمانية، وهما واديان لقبيلة هذيل، أمـــا النخلـــة الشامية فهي تبدأ من جبال هدأة الطائف وتسير حتى تصل إلـــى المضـــيق، وهـــي منطقـــة خاصـــة بالأشراف، أما النخلة اليمانية فنقطة انطلاقها من منطقة البهيتة عند بلدة السيل الكبير وتسير لتلتقي مع النخلة الشامية عند المضيق. ياقوت: معجم البلدان، ج٨،ص٣٨٠؛ عبد الحفيظ السالمي: الثورات الداخلية، ص٢٨، هامش١.

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم العجمي القزويني الشافعي، ولـــد بالموصل سنة ٦٦٦هـــ/١٢٦٧م، وقدم إلى دمشق وتولى القضاء والخطابة، بها ثـــم تـــولى قضـــاء مصر، توفي سنة ٧٣٩هـــ/١٣٣٨م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١٢٣-١٢٤.

المتنافسين على إمارة مكة عطيفة ورميثة، حيث أعطى السلطان رميثة تقليداً بإمارة مكة[١].

وعندما آلت السلطنة في القاهرة إلى السلطان الأشرف شعبان سنة٧٤٦هـ/١٣٤٥م. وهو لازال صغير السن شارك العلماء في تهدئة الثوار والأمراء الخارجين عن الطاعة بتحليفهم وأخذ المواثيق عليهم للسلطان، وكذلك الحال ما حدث سنة ٧٦٨هـ /١٣٦٦م عندما ثار عدد من الأمراء على الأمير أسندمر[٢] بسبب ما وصل إليه من الاستبداد بالأمور في عهد السلطان الأشرف شعبان، ورغم أن الأمير أسندمر أستطاع مواجهة هؤلاء الثوار و قمع ثورتهم[٣]. ألا أن السلطان الأشرف شعبان بعد انتهاء هذه الفتنة جمع الأمراء والمماليك بحضرة القضاة الأربعة وقاموا بتحليفهم على البقاء على طاعة السلطان وعدم إثارة الفتن ضده[٤].

أما مراسم تعيين المنصور على بن الأشرف شعبان[٥] سلطاناً ، فقد كانت في حد ذاتها ثورة، فقد استغل بعض الأمراء خروج الأشرف شعبان للحج سنة ٧٧٨هـ /١٣٧٦هـ وأشاعوا خبر وفاة السلطان الأشرف شعبان، وطلبوا حضور ابنه الأميرعلى من الدور السلطانية وسلطنوه عليهم وذلك بعد أخذ موافقة العلماء والقضاة على سلطنته، وكان من أهم نتائج هذه الثورة سلطنة

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٢٩؛ وللوقوف على تفصيل هذا النزاع بين الأخوين انظر: عبد الحفيظ السالمي: الثورات الداخلية، ص٥١-١٧٣.

(٢) أسندمر بن عبد الله الأتابكي الناصري الأمير سيف الدين، هو من مماليك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، كان أتابك العسكر بمصر، ثار على الأشرف شعبان فقبض عليه وسجنه بالإسكندرية حتى توفي سنة ٧٦٩هـ١٣٦٧م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٤٤٠-٤٤٣؛ الدليل الشافي، ج١، ص١٣٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٨٦.

(٣) السلوك، ج٣، ق١، ص١٤٢-١٤٣؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص٣٠١.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢، ص٥٨-٥٩.

(٥) هو علي بن شعبان بن الناصر حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون، ويعرف بالأمير علي أو بابن الأسياد ، توفي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م. السخاوي: الضوء اللامع ،ج٥،ص٢٣١؛ ابن الوكيل: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، ص٦٤.

الملك المنصور علي ومقتل أبيه الأشرف شعبان(١). والغريب في الأمر أن ركب الحج الذي خرج فيه السلطان كان يضم كبار العلماء في ذلك العصر أمثال القاضي الشافعي برهان الدين بن جماعة(٢) وجلال الدين جار الله الحنفي(٣) والقاضي سراج الدين عمر البلقيني(٤) الذين لم يعترضوا على تصرفات بعض الأمراء و المماليك الذين أقدموا على قتل السلطان الأشرف شعبان.

وقد أرجع أحد المؤرخين المحدثين سبب كثرة الثورات في عهد أحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون لعدد من الأسباب. أهمها تولية سلاطين صغار في السن يكونون ألعوبة وأداة طيعة في أيدي الأمراء ، وبالتالي أصبح لهؤلاء الأمراء نفوذ وسطوة تضاهي سطوة السلاطين حتى تجرأ هؤلاء الأمراء على عزل السلاطين وقتلهم وتنصيب آخرين مكانهم متى وكيف شاءوا، وذلك بسبب ازدياد نفوذ الأمراء، ومن ثم ازدياد التنافس فيما بينهم وظهرت فرق كثيرة منهم تتعصب كل طائفة أو فرقة لأميرها الذي ترى أن مصالحها الشخصية تتحقق من خلال توليته .اضافة إلى تمتع

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧٤-٢٧٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٧٤-١٨١؛ سحر دعدع: ولاة القاهرة الكبري خلال العصر المملوكي، ص١٨٧-١٨٨،رسالة ماجستير لم تطبع ،جامعة أم القرى،١٤٢٦هـ.

(٢) هو إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، ولد سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، توفي سنة ٧٩٠هـ /١٣٨٨م. ابن حجر: رفع الإصر، ج١، ص٢٩.

(٣) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن محمود، برع في الطب والعلوم العقلية، تولي مشيخة سعيد السعداء ودرس في المنصورية وجامع ابن طولون. توفي في رجب سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٧٧.

(٤) هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح بن شهاب الدين بن عبد الخالق البلقيني الكناني الشافعي، ولد في شعبان سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م وتوفي سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٥١-٥٢.

المماليك البرجية أو الجركسية بنفوذ واسع حتى استطاعوا القضاء على المماليك البحرية وتولية سلاطين من طائفة المماليك البرجية سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢م[١].كما لايكمن إغفال الأطماع الخارجية التي كانت تتعرض لها دولة المماليك خاصةً من قبل بقايا الصليبين في جزيرتي قبرص ورودوس.

ولم تسلم دولة المماليك الجراكسة أيضاً، من حدوث حركات عصيان وثورات داخلية، من ذلك ماحدث عام ٧٨٥هـ/١٣٨٣م حينما وصلت أخبار إلى السلطان الظاهر برقوق بأن الخليفة العباسي المتوكل على الله اجتمع ببعض الأمراء يريد الثورة على السلطان وعزله من السلطنة بسبب ظلمه وأخذه أموال الناس بالباطل ــ حسب زعمه ــ وعندما سأل السلطان الخليفة المتوكل على الله عن صحة هذه الأخبار أنكر ذلك بشدة، إلا أن بعض الأمراء المتورطين في هذه القضية شهدوا على صحة هذه الأقوال وعلى تورط الخليفة في الإعداد لهذه الثورة، وتزعمه لها، عند ذلك أراد السلطان قتل الخليفة، لكن بعض الأمراء منعه من ذلك ، فحاول السلطان برقوق إيجاد طريقة أخرى شرعية توجب قتله، فجمع القضاة الأربعة وشرح لهم ما قام به الخليفة المتوكل على الله، وسألهم عن حكم قتله جزاء ما فعل، فلم يجز القضاة ذلك ، فاكتفي بسجنه في القلعة وخلعه من الخلافة وعين بدلاً عنه الخليفة الواثق بالله، كما أنزل عقوبة رادعة بالأمراء المتورطين معه في هذه القضية[٢] .. ولم يكد ينته السلطان الظاهر برقوق من هذه الفتنة حتى ظهرت ضده ثورة أخرى في بلاد الشام سنة ٧٩١هـ /١٣٨٨م تزعمها عدد من النواب الأتراك نتيجة تمييزه بين

---

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص١٣٤-١٣٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٤٩٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٣٢-٣٣٣، الواثق بالله: أبو حفص عمر بن المستعطي إبراهيم بن المستمسك، تولى الخلافة سنة٧٨٥هـ/١٣٨٣م توفي سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٥٣-٣٥٤؛ ابن الطولوني: النزهة السنية، ص١٢٨.

الجراكسة والأتراك وتفضيله للجنس الجركسي، وكانت أولى هذه الثورات ثورة يلبغا الناصري نائب حلب[1]، وقد اقتضى الرأي بعد مشورة الأمراء والعلماء أن يرسل السلطان إلى يلبغا الناصري وفداً من القضاة والعلماء لنصحه، وذلك قبل أن تبدأ المواجهات العسكرية.وفعلاً توجه وفد من القضاة والعلماء في محاولة منهم لإثناء يلبغا الناصري وإقناعه بعدم الخروج عن الطاعة وقالوا له: "جئنا في الصلح وتطيع لهذا السلطان فإنه حاكم وإمام، قال الله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)[2] فطاعته واجبة على كل مسلم ولا ينبغي مخالفته، وقتال المسلمين وإراقة دمائهم ليس برأي، والصواب في ذلك إخماد الفتنة بإطاعة الإمام"، فرد عليهم بقوله: "ياعلماء الزمان، ليس في قولكم شك ولا ريب.ما تقولون فيمن يريد قتل نفس مؤمنة بغير حق؟ ماذا يجب عليه؟ "فأطرقوا في الأرض فقال: "ما تقولوا؟ قالوا: "إذا كان قصده هذا يقتل شرعاً" فقال لهم: "اكتبوا خطوطكم" فكتبوا خطوطهم . فلما كتبوا أخرج لهم خطوط القضاة والعلماء المقيمين بحلب وحماة"[3]. والملاحظ هنا أن هذه الجهود لم تفلح في إثناء هذا الأمير عن ثورته ففي ١٤ صفر سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م ولما علم السلطان الظاهر برقوق بنوايا يلبغا الناصري وإصراره على الخروج عن الطاعة، استدعى شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني والقضاة والعلماء وكبار الأمراء إلى القلعة ومعهم الخليفة المتوكل على الله، حيث رحب بهم جميعاً وقام بتحليف الأمراء والخليفة على الطاعة له وذلك بحضرة القضاة والعلماء[4]. والذي يمكن توكيده أن السلطان برقوق أراد بهذا الإجراء ممارسة ضغوط غير مباشرة ضد الأمير الخارج يلبغا الناصري؛ ليؤكد له أن السلطة

---

(١) هو يلبغا الناصري سيف الدين وهو من أتباع يلبغا الكبير الناصري، فنسب إلية، تولى نيابة حلب، أظهر العصيان مع منطاش، قبض علية برقوق وقتله بقلعة حلب.ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٧٩٤-٧٩٤.

(٢) سورة النساء، أية ٥٩.

(٣) ابن صصري: الدرة المضيئة، ص٥-٩؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٩٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٦٠٢، ص٥٩٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ح١١، ص٢٢١.

الدينية ممثلة بالخليفة والعلماء والقضاة وكذلك السلطة السياسية ممثلة بالأمراء مذعنين له بالطاعة، وأن خروجه بات غير مبرر. وأن استمرار عصيانه سيجعل استخدام القوة ضده أمراً لا مفر منه. وهذا ما حدث فعلاً، ففي ١٨ صفر ٧٩١هـ /١٣٨٨م وبعدما تيقن الظاهر برقوق من استمرار خروج الناصري عن طاعته ،عقد مجلساً للتشاور مع كبار الأمراء والقضاة والعلماء في أمره، وتمخض هذا الاجتماع عن اتفاق المجتمعين على إرسال فرقة من الجيش لحرب يلبغا الناصري، كما قام السلطان مرة أخرى بتحليف الأمراء بحضرة القضاة على طاعته وعدم الخروج عليه[١].

وعلى مشارف دمشق التقي العسكر المصري بالعسكر الشامي بقيادة يلبغا الناصري، ودارت بين الطرفين معركة انتهت بالهزيمة الساحقة للعسكر المصري وأحكم الناصري قبضته على دمشق، وقد وصلت أنباء الهزيمة إلى القاهرة، مما أدى إلى زيادة الأوضاع سوءاً فيها، ومن ثم أوكل السلطان الظاهر برقوق إلى الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني ونائب السلطنة، الأمير سودون الشيخوني[٢] مهمة الخروج في موكب تحذيري للعامة في الطرقات بهدف استمالة عواطف الناس ليبين لهم من خلاله أن العلماء والخليفة يقفون معه في مواجهة خروج يلبغا الناصري، كما أوكل إلى رجل كان يمشي أمام هذا الموكب بأن ينادى في الناس على لسان السلطان الظاهر برقوق بقوله: (إن السلطان قد أزال المظالم، وهو يأمر الناس بتقوى الله، ولزوم الطاعة، وإنا قد سألنا العدو الباغي في الصلح، فأبى وقد قوي أمره، فاحفظوا دوركم وأمتعتكم، وأقيموا الدروب على

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٢١٣؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٩٢-٥٩٣. لمزيد من التفاصيل عن ثورة يلبغا الناصري على الظاهر برقوق انظر فائزة الجعيد: حركات العصيان، ص١٤٢-١٤٨.

(٢) هو سودون الفخري الشيخوني، تولى نيابة السلطنة في مصر، كانت له مكانة خاصة عند الظاهر برقوق، وهو من القادة البارزين في الدولة، توفي سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م. ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٣٠٣؛ السخاوي: وجيز الكلام،ج١،ص٣٢٣.

الحارات والسكك وقاتلوا عن أنفسكم وحريمكم)[1] ، وكما ذكرنا سابقاً فإن خروج الخليفة والعلماء والقضاة وشيخ الإسلام في هذا الموكب أعطى للناس انطباعاً عن شرعية موقف الظاهر برقوق تجاه يلبغا الناصري، كما أن القارئ لهذا النص يستشف منه الحالة النفسية الصعبة التي كان يمر بها الظاهر برقوق، إذ يبدوأنه أدرك قرب زوال دولته، وعباراته تدل على ذلك، ولكنه كان يريد أن يترك انطباعاً جيداً لدى العامة بإزالة المظالم، وأنه هو السلطان المؤيد من قبل الخليفة والعلماء، فهو السلطان الشرعي، ويلبغا خارج على طاعته ممقوت من قبل الخليفة والعلماء، ويبدو للباحثه أن هذا الانطباع الذي تركه الظاهر برقوق لدى العامة هو الذي ساعده فيما بعد للعودة مرة أُخرى إلى سدة الحكم، إضافة إلى عدد من الأسباب التي قدرها الله له.

فرغم أن هذه الجهود التي بذلها العلماء والقضاة لمواجهة استمرار خروج يلبغا الناصري عن طاعة برقوق لم تفلح في إثناء يلبغا عن عصيانه هذا . حيث بلغ الأمر بيلبغا بعد أن انضم له منطاش نائب ملطية الذي ثار هو الآخر على السلطان ثم زحفا بقواتهما على مصر، وتمكنا من دخول القاهرة وعزل الظاهر برقوق من السلطنة ونفيه إلى الكرك وتولية السلطنة إلى الملك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان الذي لقب بالمنصور[2] ،إلا أن الأمور لم تسر وفق ما خطط لها يلبغا الناصري ومنطاش[3] فسرعان ما ساءت الأوضاع بينهما،

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٦٠٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٢٢٢.

(٢) هو حاجى بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، الملك الصالح ، تولى سلطنة مصر مرتين ، تلقب في الأولى بالصالح (٧٨٣ -٧٨٤هـ/١٣٨١-١٣٨٢م) وفي الثانية بالمنصور،(٧٩١-٧٩٢هـ/١٣٨٨-١٣٨٩م) وقد تم خلعه عند عودة الملك الظاهر برقوق للحكم، وظل في قلعة الجبل حتى توفي سنة٨٢٤هـ/١٤٢١م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢٥٨؛ ابن الوكيل: تحفة الأحباب، ص٦٥.

(٣) هو منطاش الأشرفي ،كان يدعى تمربغا، وهو من مماليك الأشرف شعبان، تولى نيابة ملطية، لكنه أعلن العصيان وجمع التركمان وكثير من المماليك الأشرفية، حيث دارت بينه وبين نواب حلب حروب انتهت باعتقاله، ثم قتله سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م، وقد كان شجاعاً كثير الأعطيات سفاكاً للدماء. ابن حجر: الدرر الكامنة، ص٢٢٣-٢٢٤

بسبب تخوف كل منهما من الآخر حيث التف أهل الكرك حول برقوق وبـــايعوه بالسلطنة سنة ٧٩١هـــ /١٣٨٨م واستطاع أن يكون لهُ أعوان من الجراكســـة المقيمين في بلاد الشام ومن المماليك القادمين عليه من مصر[١].

و اللافت للنظر هنا أنه عندما وصلت هذه الأخبار إلى منطاش ويلبغا فـــي القاهرة قاما بجمع القضاة والخليفة والعلماء ، وذلك لاستصدار فتوى تجيز قتال برقوق وذلك على شكل سؤال عن حكم:

"رجل خلع الخليفة والسلطان وقتل شريفاً[٢] في الشهر الحرام والبلد الحرام وهو مُحرِم، واستحل أخذ أموال الناس وقتل الأنفس"[٣] وزيد فيها: "أنه يســـتعين على قتال المسلمين بالنصارى"[٤]) وكُتب منها عددٌ من النســـخ ليكتـــب عليهـــا القضاة والفقهاء فكان ممن كتب عليها شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينـــي ووافقه القاضي جلال الدين عبد الرحمن[٥] قاضي العسكر وعدد من القضاة أما الشيخ شمس الدين الركراكي المالكي[٦] فقد امتنـــع مـــن الكتابـــة علـــى هـــذه الفتوى[٧].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٩٢٠-٥٦٥؛ ابن تغري بـــردي: النجـــوم، ج١١، ص٢٢٦-٢٣٥؛ ابن إياس: بدائع الزهـــور، ج١، ق٢، ص٤٠٠-٤٠٣؛ ســـعيد عاشـــور: العصـــــــر الممـــاليكي، ص١٦١-١٦٣.

(٢) هو أحمد بن عجلان، شريف مكة، المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٦٧٠، هامش٣.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٦٦٩-٦٧٠؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق١، ص١٥٧-١٦٠.

(٤) زعموا أن الملك الظاهر برقوق استعان بجماعة من نصارى الشوبك في القتال، وهذا أمر غير صحيح. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق١، ص١٦٠.

(٥) هو عبد الرحمن بن عمر بن رسلان بن نصر بن صالح بن شهاب البلقيني، ولد فـــي رمضـــان ســـنة ٧٦٣هـــ/١٣٦١م، تولي قضاء العسكر وتوقيع الدست، ودرس في البرقوقية وابن طولـــون. تـــوفي سنة ٨٠٦هـــ/١٤٠٣م ابن حجر: رفع الإصر، ج١، ص٣٣٢-٣٢٦.

(٦) هو محمد بن سوف الركراكي أبو عبد الله المالكي، تولي قضاء الشام، وهو من علمائها البارزين توفي سنة ٧٩٣هـــ/١٣٩٠م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٣١.

(٧) ابن الفرات: تاريخ ابن الفـــرات، ج٩، ق١، ص١٦٢؛ المقـــــريزي: الســـلوك، ج٣، ق٢، ص٦٧٣-٦٧٥.

والذي يهمنا هنا أن السلطان الظاهر برقوق لم يبالِ بهذه الفتوى، بل عزم على الخروج من الكرك والتوجه إلى القاهرة هو وأتباعه الذين تجمعوا خارج أسوار الكرك يتقدمهم قاضي الكرك عماد الدين أحمد بن عيسى المقيري[1] ثم سار السلطان ومعه أنصاره من مصر وبلاد الشام وعبروا الحدود المصرية صوب القاهرة مباشرة[2].

وفي المقابل استعد الجيش المصري لملاقاة برقوق، حيث خرج الجيش من القاهرة في ١٧ ذي الحجة ٧٩١هـ /١٣٨٨م وعلى رأسه السلطان الجديد المنصور أمير حاج[3] واصطحب معه الخليفة المتوكل على الله وقضاة مصر الأربعة وفي مقدمتهم القاضي الشافعي أبي البقاء السبكي[4] والقاضي الحنفي شمس الدين محمد الطرابلسي[5] والقاضي المالكي تاج الدين بن بهرام الزبيري[6] والقاضي الحنبلي ناصر الدين نصر الله بن محمد العسقلاني[7].

---

(١) هو أحمد بن عيسى بن موسى بن عيسى بن سليم بن سالم بن جميل، ولد بالكرك سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م تولي قضاء الكرك والتدريس بالمدرسة الصالحية، مات في ربيع الأول سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م. ابن حجر: رفع الإصر، ج١، ص٩٢-٩٦.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٢٩٤؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٦٦٥-٦٦٧.

(٣) هو الملك المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون، ولد سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م، كان سيئ السيرة مقبلاً على اللهو والنساء ، تمكن كبار الأمراء في دولته من القبض عليه وقتله سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م. ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص ٢٩-٣٠؛الصفدي: الوافي، ج٩، ص٢٩٤-٢٩٦؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ج١، ص١٠٣.

(٤) هو محمد بن عبد البر بن يحيى بن على تمام السبكي، تولي القضاء والتدريس، ولد سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م. ومات سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م. السيوطي: حسن الحاضرة، ج١، ص٣٧٧.

(٥) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر الطرابلسي، قدم القاهرة وتولى القضاء بها ، توفي سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٠٨؛ ابن العماد: شذارت الذهب، ج٦، ص٣٦١.

(٦) هو بهرام بن عبدالله بن عبد العزيز بن عمر الزبيري المالكي، تولى قضاء الديار المصرية ودرس بها، بها، توفي سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م. ابن حجر: إنباء الغمر، ج٥، ص٩٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٩١؛ وجيز الكلام، ج١، ص٣٦٨.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٢١-٤٢٢؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٦٦٧-٦٧٨؛ ٦٧٨؛ أما القاضي ناصر الدين فهو: نصر الله بن أحمد بن محمد بن أبي الفتح بن هاشم ابن نصر الله بن أحمد الكناني العسقلاني. ولد سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، تولي قضاء الحنابلة أكثر من ٤٦ سنة

والملاحظ هنا أن سلاطين المماليك في هذه الأوقات الحرجة يتنافسون على كسب تأييد القضاة على اختلاف مذاهبهم، وكذلك كبار العلماء، واصطحابهم مع الخليفة العباسي، وذلك لإضفاء الصبغة الشرعية على معاركهم، و لكسب عواطف وقلوب العامة، لكى يثبتوا للعامة والرأي العام أن هذه المعركة كانت بتأييد العلماء وموافقتهم.وقد تأسف أحد المؤرخين على خروج هذا الجيش العظيم المنظم ليقاتل المسلمون بعضهم بعضا، وتمنى أن تكون تلك الجيوش خارجة لقتال الكفار حيث عبر عن ذلك بقوله: "وحصل لي أسف عظيم، حيث رأيت هذه الأطلاب كيف لم يكن خروجها لجهاد الكفار ونصرة دين الملك القهار فإنا لله وإنا إليه راجعون"(١). ويبدوأن النصر في هذا الصدام كان من نصيب الجيش الذي خرج من بلاد الشام في أوائل عام ٧٩٢هـ /١٣٨٩م فقد حدثت في شقحب معركة عظيمة بين السلطان المخلوع الظاهر برقوق والسلطان المنصور فكانت الهزيمة في أول الأمر من نصيب الظاهر برقوق الذي انكسر واختفى عن الأنظار، ودخل منطاش دمشق. أما الملك المنصور علي فقد لجأ هو وبعض العسكر إلى جبل قريب من دمشق، وكان صحبته الخليفة والقضاة وخزائن الأموال، فلما علم الظاهر برقوق بمكانه هجم عليه ليلاً، وتمكن من القبض على الملك المنصور، وعندما سمع به العسكر بدأوا يفدون عليه حيث جمع جيشاً التقى به منطاش مرة أخرى في شقحب. والذي يهمنا هنا أن أحد الشيوخ قام بالتوسط في الصلح بين الظاهر برقوق والسلطان المنصور وهو شيخ الدين الصوفي(٢). وفعلاً نجح في عقد صلح بين الطرفين نص على أن يخلع الملك المنصور نفسه من السلطنة ويتنازل عن الحكم

=. درس بالشيخونية، توفي في شعبان سنة ٧٩٥هـ١٣٩٢م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٤٣ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٤١٦.

(١) تاريخ ابن الفرات، ج٩، ص٥١.

(٢) لم أقف له على ترجمة، سوى أنه توفي سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م. السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٣٤٢.

للسلطان برقوق، وأحضر الخليفة والقضاة وأشهدهم على خلع نفسه من السلطنة مقابل، طلب الأمان من الظاهر برقوق الذي وافق علـــى ذلــك، وكتــب إلـــى المنصور علي بذلك وعاد الظاهر برقوق من جديد سلطاناً على البلاد[1].

وعندما هدأت الأمور وعاد السلطان الظاهر برقوق إلى السلطنة، بدأ يعمل على تصفية حساباته مع كل من وقف ضده وعاون الناصري ومنطـــاش، ولـــم يسلم من وقف معهما مــن العلمـــاء أيضـــاً مـــن بطشـــه، ففـــي ١٩ صـــفر ٧٩٣هــ/١٣٩٠م أمر الظاهر برقوق بإحضار قاضي الحنابلة بطرابلس شهاب الدين أحمد بن محمد بن الحبال[2] وضُرِبَ أمـــام الســـلطان بســـبب مســـاندته لمنطاش، وإصداره فتوى له تجيز خروجه على السلطان الظـــاهر برقـــوق[3]. كما أمر الظاهر برقــــوق في ٤ جمادي الأولى من ســـنة ٧٩٣هــــ /١٣٩٠م بإحضار قاضي دمشق شهاب الدين أحمد بن عمر القرشي[4] ،وكاتب السر بها فتح الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بـــن الشـــهيد[5] فقـــد أفتـــى هذاالقاضي الناس بوجوب قتال برقوق وحرضهم على ذلك بقولـــه: "إن قتـــال برقوق أوجب من صلاة الجمعة" ووبخهما أمام الناس علـــى التصـــرف الـــذي قاموا به ضده خلال مدة عزله، ثم أمر بهما وأودعا السجن مع مجموعـــة مـــن الأمراء المعارضين له[6].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٦٩٢-٦٩٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٢٧-٤٢٨.

(٢) هو أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن أبي غانم الشـــهاب الأنصـــاري الحلبـــي الأصـــل الصـــالحي السكندري، درس على عدد من مشاهير عصره، وحدث، ووصف بالشيخ الفاضل الجليـــل المســـند، توفي سنة ٨٢٥هــ/١٤٢١م. السخاوي: الضوء ،ج٢، ص١٦٨.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٧٣٥؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م٩، ج٢، ص٢٤٨.

(٤) هو أحمد بن عمر بن مسلم بن ســـعيد بـــن عمـــر أبـــو العبـــاس القرشـــي الشـــافعي، ولـــد ســـنة ٧٣٤هــ/١٣٣٣م، تولي القضاء بدمشق ودرس وأفتى بها، توفي في رجب سنة ٧٩٣هــ/١٣٩٠م، بعد أحداث الثورة على الملك الظاهر برقوق. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٤٥-٤٨.

(٥) هو محمد بن إبراهيم بن محمد النابلسي الشافعي، عرف بابن الشهيد، ولد ســـنة ٧٠٢هـــــ/١٣٠٢م، درس بعدد من مدارس دمشق، وكان فصيحا وصاحب علم وبلاغة وحسن خطابـــة، قتلـــه الظـــاهر برقوق بالقاهرة سنة ٨٩٣هــ/١٤٨٧م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٢٩-٣٣٠.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٧٣٦-٧٣٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٤٥.

ومن الثورات التي هزت الأمن في ربوع الدولة المملوكية وكـان للعلمـاء دور في أخمادها ثورة تنم الحسني[1] نائب دمشق الذي شق عصا الطاعة علـى الناصر فرج في ٢٨ شوال سنة ٨٠١هـ /١٣٩٨م، وكان من أهم أسباب هـذه الثورة صغر سن السلطان الناصر فرج وبالتالي طمع كبار الأمراء أمثال تـنم الحسني في السلطة وتذرعوا بحجج واهية للثورة على السـلطان[2] وقـد لجـأ السلطان الناصر فرج إلى الطرق العسكرية لإخماد هذه الفتنـة، فـدارت بينـه وبين تنم الحسني رحى معركتين، الأولى كانت فـي رجـب سـنة ٨٠٢هـ /١٣٩٩م في مكان يدعى تل العجول[3]، انتصر فيها الناصر فرج وتمكن بعدها من الاستيلاء على غزة، ثم حاول بعد ذلك إقناع تنم بالصـلح والعـدول عـن الحرب. والذي يهمنا هنا أن السلطان حرص على اصطحاب الخليفة المتوكـل على الله والقضاة الأربعة[4]؛ ليكسب جيشه ومعركته الصبغة الشرعية ومباركة ومباركة وموافقة الخليفة والعلماء ليقوموا بدور إصلاح ذات البين بينـه وبـين خصمه تنم، وذلك بتذكيره بضرورة حقن دماء المسلمين وادخارها للجهاد ضـد الأعداء، وبالفعل فقد قام الناصر فرج بأرسال قاضي القضاة صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوي[5] إلى الأمير، حيث قام بنصحه وحذره من عواقـب شـق

---

(١) هو الأمير سيف الدين تنم بن عبد الله الحسني الظاهر، من مماليك الظاهر برقوق، تنقل في المناصـب حتى تولي سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م نيابة دمشق، وبقى بها حتى خرج علـى الناصـر فـرج سـنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، حيث تمكن الناصر فرج من القبض عليه وقتله سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، عـرف عنه الوقار والدهاء ومعرفة بالحروب. السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٤٤؛ ابن تغـري بـردي: المنهل الصافي، ج٤، ص١٦٨-١٧٤.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص٩٦٥-٩٦٦.

(٣) تل العجول: هو تل يقع في طريق الشام، بالقرب من غزة. ابن حجر: إنبـاء الغمـر، ج٢، ص١٠٠، هامش١.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٧٢؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٠٣-١٠٠٥.

(٥) هو محمد بن إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن السلمي المناوي الشافعي، ولد في رمضان رمضان سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م ناب في الحكم، والإفتاء فـي دار العـدل، كمـا درس بالشـيخونية والمنصورية مات غريقاً في نهر الفرات في شوال سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م. ابـن العمـاد: شـذرات الذهب، ج٧، ص٣٤.

طاعة السلطان، لكن تنم الحسني أصر على موقفه وأبدى اســتعداده للحــرب، وفعلاً التقي الجيشان الشامي والمصري في رجب ســنة ٨٠٢هـــ/١٣٩٩م و دارت بين الطرفين معركة عنيفة انتهت بانتصار السلطان الناصر فرج، وتمكن على أثر هذا النصر من دخول دمشق والقضاء على هــذه الثــورة بقتــل تــنم الحسني(١).

ومن الثورات التي أقلقت مضجع الدولة المملوكية وسلاطينها وكان للعلماء دور في إخمادها ثورة الأمراء نوروز(٢) وجكم(٣) وسودون(٤)، فكانــت أولــى هذه الثورات ، في ١١ شوال سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م حيث خــرج جكــم إلــى بركة الحبش(٥) وجمع العسكر حوله، فحاول السلطان استرضاءه، بتعيينه نائبــاً على صفد ، لكنه رفض ذلك، وطلب جماعة من الأمراء يسلمهم السلطان إليه ، فأرسل السلطان الناصر فرج الأمير نوروز الحافظي والقاضي ناصــر الــدين محمد بن الصالحي(٦) وناصر الدين الرماح أمير أخور(١) لمحاولة الصلح بــين

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٠٨-١٠١٠؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص١٦٣-١٦٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٧٧-٥٧٨؛ فائزة الجعيد: حركات العصــيان، ص١٥٤-١٥٧.

(٢) هو الأمير سيف الدين نوروز بن عبد الله الحافظي الظاهري برقوق. تولي عدداً من الوظــائف منهــا نيابة دمشق، قتله المؤيد شيخ في ربيع الآخر سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م. ابن إياس: بــدائع الزهــور، ج١، ق٢، ص٦٥٠-٦٥١.

(٣) هو الأمير سيف الدين جكم بن عبد الله بن عوض الظاهري، أعتقه الظاهر برقوق تنقل في المناصــب حتى أصبح دواداراً كبيراً، ثم ثار على الناصر فرج وأعلن نفسه سلطاناً في حلب، وتلقــب بالملــك العادل، لكن لم يتم أمره وقتل في حربة مع التركمان في آمد في ذي القعدة سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م. ابن تغري بردي: المنهل، ج٤، ص٣١٣-٣٢٤.

(٤) هو سودون بن عبد الله بن علي بك الظاهري برقوق، توفي سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م. ابن تغري بردي: المنهل، ج٦، ص١١١-١١٥؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٣٦٤-٣٦٦.

(٥) بركة الحبش: هي أرض واسعة مطلة على نهر النيل، خلف القرافة، بها عدد كبير من البساتين تعتبر من منتزهات مصر. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٠١؛ عبد الرحمن زكــي: موســوعة مدينــة القاهرة، ص٢٩.

(٦) هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن أبو عبد الله، تولي قضاء الشافعية، توفي سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م. ٨٠٦هـ/١٤٠٣م. السخاوي: الذيل على رفع الإصر، ص٣٤٣-٣٤٤.

الأمراء، لكن الأمير جكم رفض الصلح، وأصر على لقاء الأميـــر يشـــبك[٢] – نقيب جيش الملك الناصر فرج وصاحب الحل والعقد في الدولة– فـــي معركـــة انتهت بالقبض على الأمير يشبك وأُرسل إلى سجن الإسكندرية[٣].

وفي صفر سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م حدثت ثورة مرة أخـــرى بـــين الأمـــراء بسبب أن السلطان الناصر فرج عين للأمراء تولى نيابات في بـــلاد الشـــام[٤]، فرفض الأمراء الخروج لبلاد الشام، فأرسل السلطان الناصـــر فـــرج للخليفـــة والقضاة الأربعة بأن يشفعوا في الأمراء الذين كـــانوا ســـينفون فـــاتفقوا علـــى خروج الأمراء إلى نيابتهم التي عينها السلطان في بلاد الشام[٥].

وفي رمضان من السنة ذاتها، تكرر خروج الأمراء أنفسهم على الســـلطان وكان سبب عصيانهم، صغر سن السلطان الناصر فـــرج، وتســـلط عـــدد مـــن الأمراء عليه، وعدم الانصياع لأوامره ومراسيمه التي يصدرها، فكانـــت هـــذه الثورة أولاً بين الأميرين نوروز وجكم العوضي وسودون طاز الذين امتنعا من الحضور عند السلطان والصعود للقلعة، واستفحل الأمر بين هـــؤلاء الأمـــراء حتى نشبت الحرب بينهم، والتقوا في الرملـــة[٦] وعنـــدما حـــاول السلطـــــان الناصر فرج التوسط للصلح بين الأمراء أرسل إليهم الخليفة المتوكل علـــى الله

---

(١) المعلم نصر الدين محمد الرماح أمير أخور. ابن تغري البردي: النجوم، ج١٢، ص٢٠٥؛ المنهل، ج٤، ص١٧١، هامش٦.

(٢) هو يشبك بن أزدمر الظاهري برقوق، جركسي الأصل، تولى نيابة حماة ثم حلب، عرفت عنه الشجاعة والفروسية، كان ممن ثار على المؤيد شيخ فقتله سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م. ابن حجر: إنبـــاء الغمـــر، ج٣،ص٥١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٧٠؛ وجيز الكلام: ج٢، ص٤٣٦.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٢٥-٦٢٩؛ ابن تغري بـــردي: النجـــوم، ج١٢، ص٢١٤-٢١٥.

(٤) عين السلطان كلاً من الأمير شيخ المحمودي في نيابة طرابلس، والأمير دقماق المحمدى فـــي نيابـــة صفد، والأميرتمربغا المنجكى بنيابة دمشق. ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٢٤.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٢٥-٦٢٩؛ ابن تغري بـــردي: النجـــوم، ج١٢، ص٢٢٠؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٧٨.

(٦) الرملة: مدينة تقع في فلسطين، بني فيها سليمان بن عبد الملك قصراً و مسجداً، وكان أول من بنـــي فيها ذلك، وعرفت بهوائها الجيد وكثرة بساتينها. ياقوت: معجم البلدان،ج٣، ص٦٩.

وشيخ الإسلام سراج الدين البلقيني والقضاة الأربعة، فنجحوا في إيقاف القتال بين الأمراء ،ثم طلب السلطان من الخليفة وشيخ الإسلام والقضاة الأربعة بأن يتوجهوا إلى بيوت الأمراء المتحاربين لتحليفهم على السمع والطاعة له وعدم إثارة الفتن.وقد وصف ابن إياس أيمانهم تلك بقوله: "فكانت أيمانهم كما قال القائل:

حلفتها أن لاتخون عهودها فكأنْما حلفت لنا أن لا تفي"[1]

إذ لم يلبث أن تجمع هؤلاء الأمراء في ١٤ شوال سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م. مرة أخرى بقيادة جكم ونوروز قاصدين الحرب ضد السلطان، فلما علم السلطان الناصر فرج بخروجهم للحرب، خرج إليهم بنفسه ومعه الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة مؤيدين له ومناصرين له، وتوجه إلى بركة الحبش وحدثت هناك معركة كبيرة بين الطرفين انتصر فيها الناصر فرج وأسر عدداً من الأمراء[2].

ولكن الظاهر أن هؤلاء الأمراء في دولة الناصر فرج، كانوا قد جبلوا على الثورات والعصيان، ففي عام ٨٠٧هـ /١٤٠٤م عاود جكم العوضي النائب السابق لحلب،والأمير يشبك وهو المتصرف بشئون البلاد في مصر الثورة مجدداً ، وقد ذكرنا سابقاً أن أسباب هذه الثورات المتتالية في عهد الناصر فرج هو صغر سن السلطان واستخفاف الأمراء بأوامره وعدم الانقياد لها، إضافة إلى تحكم كبار الأمراء أمثال الأمير يشبك في زمام الأمور، وليس ذلك فحسب بل تمادى به الأمر إلى عزل من يشاء وتولية من يشاء من الأمراء، وكان أصل هذه الفتنة هي إصراره على عزل الأمير أينال باي بن الأمير قيجماس[3] ابن عم الملك الظاهر برقوق وصهره، وذلك لقربة من

---

(١) ابن إياس :بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٥-٦٥١.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٨٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص٢٢١-٢٢٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٥٠-٦٥١.

(٣) هو الأمير سيف الدين إينال باي بن قجماس الظاهري، كان والده ابن عم الظاهر برقوق، قدم إلى القاهرة صغيراً، ثم تزوج بنت الظاهر برقوق، فعظم أمره في دولة الناصر فرج، وقد حدثت بسببه فتنة بين السلطان وأمرائه انتهت بمقتله سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م . ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص٢١٧-٢١٩.

الناصر فرج واختصاصه به، وعندما رفض السلطان عزل أينال بـــاي حـــدثت الفتنة بين يشبك وأينال، وهنا حاول الناصر فرج الإصلاح بينهما ووسط قضاة القاهرة في الأمر، إلا أن جهودهم لم تفلح في إنهاء هذه الفتنـــة، حيـــث أعلـــن يشبك الحرب ضد السلطان الناصر فرج والأمير أينال باي معاً، وقام بحصـــار السلطان والأمراء في القلعة عدة أيام حتى تمكن المماليك الســلطانية مـــن رده والانتصار على يشبك وأتباعه مما اضطرهم إلى الخروج إلى الرملة والتوجـــه إلى بلاد الشام[١]. ويبدو أن قضاة القاهرة وعلماءها قد انضموا إلـــى الســـلطان في هذا الصراع، الذي انتهى بهزيمة الأمراء الخارجين عن الطاعة.

وقد انضم الثوار الفارون من مصر إلى الأمير شيخ نائب دمشـــق وجكـــم ونوروز وأعلنوا جميعاً الثورة على السلطان الناصر فرج، وعاونهم فـــي هـــذه الثورة قرا يوسف التركماني[٢]، فاستطاعوا ضم أكثر مدن الشام إلى حـــوزتهم منها حلب وحماة وطرابلس وصفد، ثم توجه هؤلاء الثوار إلى مصـــر وحـــدثت بيـــنهم وبـــين الســـلطان الناصـــر فـــرج مناوشـــات فـــي ذي الحجـــة ســـنة ٨٠٧هـــ/١٤٠٤م ثم أرسل الثوار إلى السلطان في طلب الصـــلح شـــريطة أن يعطي أينال باي إمارة في بلاد الشام، ويعطي كلٌّ مـــن يشـــبك وشـــيخ وجكـــم إمارات تليق بهم ،و لكن السلطان لـــم يلتفـــت لشـــروطهم، والتقـــى الجيشـــان المصري والشامي ودارت بين الطرفين معركة عنيفـــة وانهـــزم المصـــريون وتمكن الشاميون من الوصول إلى مشارف القلعـــة، وهنـــاك ظهـــرت بعـــض الخيانات حيث أظهر بعض الثوار الطاعـــة للســـلطان ممـــا أضـــعف موقـــف الشـــــاميين وولوا الأدبار تجاه بلاد الشام[٣]. وعندما علم الأمير شـــيخ بـــذلك

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١١٣٦–١١٣٨؛ ابن حجر: إنبـــاء الغمـــر، ج٢، ص٢٩٠–٢٩٦؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٣٧٦–٣٧٧.

(٢) هو قرايوسف بن قرا محمد التركماني، من الأمراء التركمان الذين حكموا كلاً من تبريز وبغداد، كان ذا سيرة سيئة، توفي سنة ٨٢٣هـــ/١٤٢٠م. ابن حجر:إنباء الغمر، ج٧، ص٣٩٧؛ السخاوي: الضوء، ج٦، ص٢١٦؛ وجيز الكلام، ج٢، ص٤٦٣–٤٦٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١١٤٦–١١٦٥.

أرسل في ٦ محرم سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م رسالة مع القاضي شهاب الدين أحمد ابن حجي[١] ونقيب الأشراف بدمشق السيد ناصر الدين محمد بن الشريف علاء الدين علي[٢]، تضمنت طلب الصفح عنه والاعتذار عما بدا منه[٣]. ورغم رفض السلطان في بداية الأمر قبول اعتذاره إلا أنه ما لبث أمام إلحاح شيخ أن قَبل ذلك، وأرسل إلى شيخ تقليداً بنيابة حلب وكتاب أمان لهما، مع قاضي القضاة نجم الدين عمر بن حجي الشافعي وقاضي القضاة صدر الدين علي بن الآمدي الحنفي[٤] وعدد من الأمراء[٥].

ومن هذا نلاحظ أن القضاة والعلماء غالباً ما يكونوا هم الواسطة بين الثوار في طلب الصلح أو التفاوض، وذلك لمنزلة العلماء ومكانتهم في المجتمع المملوكي ، إضافة إلى المصداقية التي تتسم بها المفاوضات أو إرسال تقليد أو أمان إلى الثوار عندما يكون حامل ذلك التقليد وغيره من العلماء.

كما تجدد دور العلماء مرة أخرى في هذه المسألة عندما ساءت الأمور بين السلطان الناصر فرج والأمير شيخ في شوال سنة ٨١١هـ /١٤٠٨م عندما نما إلى مسامع السلطان بوادر عصيان من الأمير شيخ ، فما كان من الأمير شيخ إلا أن جمع العلماء والقضاة وأشهدهم على أنه باقٍ على الطاعة، وكتب بذلك كتاباً إلى السلطان الناصر فرج شهد عليه العلماء والقضاة، وأرسله إلى السلطان مع القاضي نجم الدين عمر بن حجي، ورغم أن السلطان لم يقبل

---

(١) هو أحمد بن حجي بن مرسي بن أحمد بن سعد، ولد سنة ٧١٥هـ/١٤١٢م، ولد بدمشق، وبرع في الفقه والحديث، تولي الخطابة في الجامع الأموي، ودرس وأفتى، توفي سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م. ابن تغري بردي: المنهل، ج١، ص٢٦١-٢٦٢.

(٢) لم أقف له على ترجمة.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٦٩؛ فائزة الجعيد، حركات العصيان، ص١٥٩-١٦٠.

(٤) هو على بن محمد بن أحمد أبو بكر أبو الحسن بن أمين الدمشقي الحنفي، ولد سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م، وناب في الحكم وتولي كتابة سر دمشق، ونظر جيشها وولي قضاء الحنفية، توفي سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م. ابن حجر: رفع الإصر، ج٢، ص٤٠٣-٤٠٤ ؛ السخاوي: الذيل على رفع الإصر، ص١٨٦-١٨٩.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٧٨٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٣، ص٣٤.

ذلك الكتاب وأصر على الخروج لحرب الأمير شيخ في دمشق[١] لخوفه من تجدد عصيانه، إلا أن دور القضاة والعلماء ومن قبلهم الخليفة العباسي ظل ماثلاً للعيان. فعندما قرر السلطان الناصر فرج الخروج من مصر في محرم سنة ٨١٢هـ /١٤٠٩م متوجهاً إلى دمشق لمواجهة تجدد خروج شيخ أصطحب معه الخليفة المستعين بالله والقضاة الأربعة[٢].

وما أن علم الأمير شيخ بخروج السلطان من مصر لحربه، حتى أعلن صراحة خروجه عن طاعة السلطان الناصر فرج، وقام بدوره أيضاً بجمع القضاة والفقهاء واستفتاهم في مشروعية حرب السلطان الناصر فرج، فأفتاه القاضي شهاب الدين أحمد بن الحسباني[٣] والقاضي شمس الدين محمد بن الجلال التباني الحنفي[٤] بجواز ذلك[٥].وفي مقابل هذا بعث السلطان الناصر كتباً إلى قضاة دمشق وأعيانها يقبح أفعال شيخ، وأنه إذا لم يمتثل لأوامر السلطان فهو معزول ، ويجب على العامة قتاله[٦].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٤٨-٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٣، ص٣٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٧٩٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٧٩٣؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٩٣.

(٣) هو أحمد بن إسماعيل بن خليفة بن عبد العال، أبو العباس الدمشقي الشافعي، ولد سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م ، برع في الفقه والحديث والعربية، تولي نيابة الحكم بدمشق ثم تولي قضاءها، وتوفي بدمشق سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٤) هو محمد بن جلال بن أحمد بن يوسف التركماني الأصل، تولي نظر الجامع الأموي، كما درس بالجمالية، وتولي قضاء العسكر، ثم عين قاضياً للحنفية في بلاد الشام، توفي سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص١٣٣-١٣٤.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٩٣.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٨١٢.

ومن هذا نلحظ مدى حاجة السلطان إلى دور العلماء في تحفيز العامة وبلورة أفكارهم، واستخدامهم درعاً واقياً متى ثار عليه نوابه في الولايات البعيدة عن مركز السلطة في القاهرة.

وعلى كلٍّ فقد تمكن السلطان الناصر فرج من دخول دمشق، وفر منها الأمير شيخ. وبمجرد أن دخلها بدأ بعملية تصفية للحسابات مع من بداخلها فاستدعى القاضي الشهاب أحمد الحسباني، وقبض عليه؛ لأنه أفتى الأمير شيخ بجواز قتال السلطان الناصر فرج والخروج عن طاعته[١] كما أنزل العقوبة بالقاضي جمال الدين الحسفاوي[٢] والقاضي الحنفي محب الدين محمد بن الشحنه[٣] لأنهما أفتيا بجواز سلطنة جكم[٤].

والحقيقة أنه بالرغم من تدخل العلماء والفقهاء والخليفة المستعين بالله[٥]، لإنهاء ثورات الأمير شيخ ضد السلطان الناصر، إلا أن ثورات شيخ استمرت ضد السلطان حتى نجح في إسقاطه وتولى السلطنة بدلاً عنه[٦]. وبذلك انتهت

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص١٠٨.

(٢) لم أقف له على ترجمة، لكن ربما حصل لبس عند المؤلف ويكون صاحب الترجمة هو جمال الدين الحفناوي، عوضاً عن الحسفاوي وجمال الدين الحفناوى:هو يوسف بن خالد بن أيوب الحفناوى الشافعي، نشأ بحلب وتلقي علومه بها، كما توجه إلى ماردين ودرس بها ، تولى قضاء ملطية ثم قضاء حلب ثم قضاء طرابلس، ثم كتابة السر بصفد، توفي بطرابلس سنة٨٢٩هـ/١٤٢٥م ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص١٩١-١٩٢.

(٣) هو محمود بن عبد البر بن محمد بن قاضي القضاة حسام الدين ابن الشحنه الحنفي، ولد بالقاهرة سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م، تولي قضاء حلب، وقتله طومان باي سنة ٩٢٦هـ/١٥١٩م. السيوطي: نظم العقيان ، ص١٧١-١٧٢؛ السخاوي: الذيل على رفع الإصر، ص٣٥٧-٤٠٦ ؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج١، ص٣٠٥.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص١٠٨.

(٥) هو أبو الفضل العباس بن المتوكل، تسلطن بعد خلع السلطان الناصر فرج سنة ٨١٤هـ/١٤١١م ، وكان كارهاً لهذا المنصب، لكنه مالبث أن خلع سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م وسجن بالإسكندرية إلى أن مات سنة٨٣٣هـ/١٤٢٩م السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٥٤؛ ابن طولون: النزهة السنية، ص١٣١-١٣٢.

(٦) للوقوف على مزيد من التفصيلات انظر: فائزة الجعيد.

هذه المحنة التي استمرت اثنتى عشرة سنة ضاع فيها كثير من المال والعتاد والرجال، رغم دور العلماء الجلي في محاولات إخماد هذه الثورات .

والظاهر أن هؤلاء الأمراء اعتادوا على الثورة ، فعندما تسلطن المؤيد شيخ خرج عليه في ٤ ذي القعدة ٨١٥هـ /١٤١٢م الأمير نوروز نائب بلاد الشام بسبب عزله للخليفة المستعين بالله وحبسه في القلعة، ونصب نفسه سلطاناً على البلاد، وكان الأمير نوروز قد استشار الفقهاء والقضاة بدمشق في أمر سلطنة شيخ، فلم يفتوه بشيء، والظاهر أن ذلك راجع إلى خوف العلماء من عاقبة مثل هذه الفتوى التي يتذرع بها الثوار للعصيان والثورة على السلطان، ولما سيؤول إليهم حالهم إذا انتصر أحد الأمراء على الآخر من تصفية الحسابات، التي يقوم بها الطرف المنتصر ضد كل من ساعد الثائر ضده .

وقد حاول الملك المؤيد شيخ إنهاء الثورة ودياً واللجوء للصلح، فأرسل إلى الأمير نوروز القاضي الحنبلي مجد الدين سالم[(١)] ، لكن الأمير نوروز رفض كل مساعي الصلح، وقرر الدخول في حرب مع المؤيد شيخ ،انتهت بانتصار المؤيد شيخ وحصار نوروز في قلعة دمشق وإرساله في طلب الصلح[(٢)]. وأخذ العهود من الملك المؤيد على أنه لا يغدر به إذا نزل إليه وسلم نفسه، وقد قام بهذه المهمة كاتب سر الملك المؤيد شيخ، القاضي ناصر الدين محمد بن البارزي[(٣)].

---

(١) سالم بن أحمد المقدسي المصري، ولد سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، تولي قضاء مصر، كان يعد من الفقهاء البارزين، توفي سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٣٧٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٢٨٢-٢٨٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٣، ص١٧١-١٧٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٣-١٥.

(٣) هو محمد بن محمد بن عثمان، ولد سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م تولي قضاء الشافعية بحلب وكتابة السر بالقاهرة. توفي سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٢م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص١٦١.

حيث قام بتحليف المؤيد شيخ وأخذ الأيمان منه لنوروز أمام رسله، ويحكى ابنه القاضي كمال الدين البارزي[(١)] تلك الواقعة فيقول: " قال لي الوالد: أخذتُ في تحليف الملك المؤيد بحضرة رسُل الأمير نَوروز، والقضاة حضروا أيضـاً، فشرعتُ ألحنُ في اليمين عامداً في عدّة كلمات حتى خرج معنى اليمـين عـن مقصُود نوروز، فالتفت القاضي ناصر الدين محمد بن العديم الحنفي – وكـان فيه خفَّة – وقال للقاضي الشافعي: كأنَّ القاضي ناصر الدين بن البارزِي، ليس له مُمارسة بالعربية والنحو، فإنه يلحن لحناً فاحشاً، فسكَّتهُ البُلقينـي لوقتـه"[(٢)]. وأخذ رسول نوروز صورة اليمين إليه ، فأطمأن وخرج من قلعة دمشق حيـث لقيه المؤيد شيخ وأجلسه في مجلسه وأكرمه وكان في ذلـك المجلـس القضـاة والأمراء و عسكر السلطان (فقال القضاة: "والله هذا يوم مبارك بالصلح ولحقن الدماء بين المسلمين" فقال القاضي ناصر الدين بن البارزي كاتب السر" نهـارٌ مباركٌ لو تم ذلك " فقال الملك المؤيد: "ولِمَ لا يتم وقد حلفنا لـه وحلـف لنـا؟" فقال ا لقاضي ناصر الدين للقضاة: "يا قضاة، هل صح يمينُ السلطان؟ " فقـال قاضي القضاة جلال الدين البلقيني: "لا والله لم يصادف غرض المحلف") عنـد ذلك ألقي المؤيد شيخ القبض على الأمير نوروز وأصـحابه، وقـام بقـتلهم[(٣)]. ونلاحظ هنا دور العلماء البارز في قمع هذه الثورة، فقد فطـن القاضـي ابـن

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن عبد الرحمن بن هبة الله بن عبد الله بن أنـيس الصحابي الجهني رضي الله عنه، ولقب بالبارزي نسبة إلى باب أبرز أحد الأبواب في مدينة بغداد، ولد سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م، تولي القضاء بدمشق وكتابة السر بها، عرف عنه الحكمـة والكـرم وحسـن الأخلاق. السيوطي: نظم العقيان، ص ١٦٨– ١٧٠ .

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٣، ص١٧٣.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٣، ص ١٧١– ١٧٤.

البارزي إلى ميل هؤلاء الأمراء إلى الثورات، ونزوعهم إلى العصيان فأراد استئصال هذه الحركات من جذورها، بالقضاء على أصحابها فقام بإخراج اليمين الذي حلفه المؤيد شيخ عن مقصوده، ليتمكن من القبض على نوروز وأتباعه وقتلهم لتسكن هذه الفتنة وليكونوا عبرة لغيرهم من الأمراء .

والذي يمكن إضافته هنا أن تدخل العلماء لإصلاح ذات البين بين الأمراء المتصارعين، لم يقتصر على أراضي مصر والشام، بل تعدى ذلك إلى أراضي الحجاز، خاصة مكة المكرمة، ومن ذلك على سبيل المثال ماحدث سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م عندما احتدم الصراع بمكة بين الشريف حسين بن عجلان(١)، وابن أخيه رميثة(٢)، حيث انبرى عدد من فقهاء مكة وعلمائها ومعهم المصاحف وطلبوا من الأخوين السماح لهما بالتدخل للصلح بينهما، فوافق الأخوان على ذلك، حيث قام العلماء في ذلك بدور فاعل في تهدئه الأمور بين الطرفين(٣).

---

(١) هو الشريف حسن بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي الحسني المكي بدر الدين، تولى إمارة مكة المكرمة سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م وحكم أكثر من عشرين سنة، اشتهر بكثرة العقار والعبيد والأموال، توفي سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢٦٤؛ عبد الحفيظ السالمي: الثورات الداخلية، ص١٠٠، هامش٢.

(٢) هو الشريف رميثة بن محمد بن عجلان بن رميثة الحسني المكي، أظهر العصيان على عمه حسن بن عجلان سنة٨١٥هـ/١٤١٢م، عين أميراً لمكة سنة٨١٨هـ/١٤١٥م لكنه مالبث أن عزل سنة٨١٩هـ/١٤١٦م بعمه الشريف حسن بن عجلان، فأعلن الخضوع والطاعة له، قتل في أحد المعارك التي خاضها ضد القبائل البدوية سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م .ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ١٣٠، السالمي: الثورات الداخلية، ص١٠٣، هامش١.

(٣) للوقوف على تفاصيل هذا الدور انظر، السالمي: الثورات الداخلية، ص١١١-١١٣.

ومن ذلك أيضا ما حدث سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م. عندما هاجم الشريف بركات قبائل بني سعد[١] ونهب مواشيهم. الأمر الذي أغضب أخوه الشريف أبو القاسم وكادت الحرب تقع بين الأخوين لولا تدخل بعض العلماء ومعهم بعض الرجال المصلحين بزعامة الشيخ عبد الكبير الحضرمي[٢] حيث نجح هذا الفريق في إقناع الشريف بركات بإعادة معظم مانهبه من هاتين القبيلتين[٣] ومن ذلك أيضا ماحدث سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م. عندما خرج الشريف هزاع بن محمد على أخيه بركات. وحاولت السلطة المملوكية في مصر تدارك الأمر قبل أن يستفحل بين الأخوين. حيث أرسلت كاتب السر إلى الحجاز للتوسط في الصلح بين الأخوين فقام بجمع عدد من وجهاء مكة وفي مقدمتهم قاضي المالكية وقاضي الشافعية وقاضي الحنفية لمساعدته في أداء هذه المهمة، وقام الجميع بدور كبير في محاولة رأب الصدع بين الأخوين[٤].

وفي عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ثار عرب الصعيد وهم عرب هوارة على السلطان الظاهر جقمق وخرجوا عن الطاعة وكثر فسادهم في بلاد الصعيد فأرسل إليهم السلطان أتابك العسكر الأمير يشبك لكنه لم يستطع الظفر بهم، وانتهت هذه الثورة سلمياً عندما توسط مشايخ وعلماء هوارة عند الأمير يشبك وأعلنوا الطاعة والمثول لأوامر السلطان فقبل الأمير يشبك منهم ذلك[٥] .

---

(١) بنو سعد قبيلة من العدنانية من هوازن، وهم بنو سعد بن بكر، منهم مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم، تشمل أراضيهم قرن المنازل وجنوب الطائف، السالمي: الثورات الداخلية، ص١٣٠، هامش٣.

(٢) عبد الكبير بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله أبو حميد الأ نصارى وهو من ذرية أبى حميد الصحابي الحضرمي اليماني، ولد سنة ٧٩٤هـ/١٣٩١م بحضرموت ونشأ بها ودرس، مات وعمره أكثر من سبعين سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٤م. السخاوي: الضوء، ج٤، ص٣٠٤.

(٣) السالمي: الثورات الداخلية، ص١٣٠.

(٤) السالمي: الثورات الداخلية ، ص١٣٥-١٣٦.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤، ق ٣، ص ١١٢٤- ١١٢٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٥، ص٧٤، ٧٥.

كما حرص السلاطين على أخذ موافقة القضاة والعلماء، عندما يرغبون في معاقبة الخارجين من الأمراء والثوار،من ذلك ما حدث في عهد السلطان الظاهر جقمق حيث قام السلطان بجمع العلماء والقضاة وتشاور معهم في أمر الأتابك قرقماس الشعباني[1] الذي كان قد ثار على السلطان وحاربه في ربيع الآخر سنة ٨٤٢هـ /١٤٣٨م. واستطاع السلطان أن يلقي القبض عليه ويسجنه، وقد كان في نفس الظاهر جقمق شئ على قرقماس، لأنه كان يطمع في تولى السلطنة عوضاً عن جقمق، لذلك أعلن عصيانه وحارب السلطان لكن مساعيه باءت بالفشل[2]. وقد وجه السلطان الظاهر جقمق عدة تهم إلى الأمير قرقماس منها أنه خرج عن الطاعة، ووثب على السلطان وحنث بالأيمان التي حلفها للسلطان ، وشهد بصحة ذلك عدد من الأمراء فحكم قاضي القضاة شمس الدين الباسطي[3] المالكي على الأمير قرقماس بالقتل [4]. وتظهر أهمية العلماء في الثورات الداخلية في كون الفريق الذي ينضم إليه القضاة والعلماء والخليفة تكون كفته راجحة ، وخير شاهد على ذلك ما ذكره ابن تغري بردي في حوادث شهر رمضان سنة ٨٦٥هـ /١٤٦٠م عندما ثار الأمراء على السلطان المؤيد أحمد بن إينال[5] وخلعوه من السلطنة وسلطنوا الظاهر خوشقدم

---

(١) هو الأمير الكبير قرقماش الظاهري، وهو من مماليك الظاهر برقوق، عرف عنه الشجاعة والفروسية والعفة. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٤، ص ٤٠؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج٥، ص٦٥- ٦٦ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، ف ٣، ص ١٠٩٢- ١٠٩٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص ٣٨- ٤٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٠١- ٢٠٣؛ العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من (٨٢٤-٨٠٥هـ)، ص ٥١٨- ٥١٩.

(٣) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن نعيم بن محمد بن حسن أبو عبد الله، شيخ الإسلام، ولد سنة ٧٥٦هـ/١٤٥٢م، درس بالشيخونية والجمالية والبرقوقية، وناب في الحكم، وتولى قضاء المالكية بمصر توفي سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣٩٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص ٢٤٥- ٢٤٦ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤، ق ٣، ص ١١٠٤؛ العيني: عقد الجمان ، حوادث وتراجم السنوات من(٨٢٤-٨٠٥هـ)، ص ٥٣٩- ٥٤٠؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٥، ص ٥٢- ٥٣.

(٥) هو أحمد بن إينال الظاهرى الناصرى تولى السلطنة بعهد من أبيه سنة ٨٦٥هـ/١٤٦٠م ، لكن سرعان ما خلعه أتابكه خشقدم بعد خمسة أشهر وخمسة أيام من حكمه، وظل خاملاً إلى أن توفي سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م . ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧،ص٣٥٤؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠٩.

وقد نشبت حرب بين الطرفين، لم يكن مع الملك المؤيد سوى قلة من المماليك والأمراء[1].أما الظاهر خوشقدم فيصف ابن تغري بردي حاله فيقول: (مع حضور الخليفة والقضاة الأربعة عند الأمير الكبير وجميع أعيان الدولة من المباشرين وأرباب الوظائف وغيرها)([2]).

كما ظهر دور العلماء في ثورة شاه سوار[3] ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م الذي ملك قلعة إياس، فأرسل إليه السلطان قايتباي جيشاً لتأديبه بقيادة الأمير يشبك الدوادار[4]، وقد حاصر الأمر يشبك قلعة زمنط[5] وضيق عليهم الخناق ،حتى أرسل سوار يطلب أن يرسل له يشبك من يتفاوض معه للصلح، فأرسل له الأمير يشبك أحد الأمراء بصحبة قاضي العسكر القاضي شمس الدين بن أجا الحلبي[6] الحنفي ،وقد تمكنوا بعد عدد من المحاولات من إقناع شاه سوار

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٧٦- ٣٧٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٦، ص ٢٠٥- ٢١٥.

[٢]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج١٦،٦١٥.

(٣) شاه سوار: هو محمد بن سليمان بن ناصر الدين بك بن دلغادر التركماني، تولى نيابة أبلستين ومرعش، ثم خرج على طاعة السلطان قايتباي فقضي عليه، قتله سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م.

السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٤) هو يشبك بن مهدي الدوادار الكبير، تولى إمارة السلاح والوزارة والأستادرية، ثم أصبح مدبر المملكة في عهد الأشرف قايتباي توفي سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م، السخاوي: الضوء اللامع، ج، ص٢٧٢-٢٧٤؛ ابن الحمصي: حوادث الزمان، ص١٦٤؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج ٧، ص ٢٦٧.

(٥) قلعة زمنطو: ذكر محمد دهمان أنه لم يعثر لها عن موقع لكنه عاد واستدرك وقال إنه وجد في كتاب (جغرافي لغاتي) لنهر يجري في قضاء فكة يدعى ضمانتي، ويعتقد أن القلعة بنيت على طرف هذا النهر واتخذت اسمه، وذلك على اعتبار أن الضاد في اللغة التركية تقرأ زاياً مضممة وبالتالي فإن كلمة ضمانتي تقرأ زمانتي. انظر ابن أجا: العراك بين المماليك والقماش الأتراك، ص٥٥، هامش (٨٢).

(٦) هو محمد بن محمود بن خليل الشمسي الحلبي، اشتهر بابن أجا، وهو لقب والده، ولد سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م بحلب اتصل بالأمير يشبك الدوادار فعلا شأنه ، تولي قضاء العسكر، حميدة سيرته، توفي في جمادى الآخرة ٨٨١هـ/١٤٧٦م، ابن أجا: العراك بين المماليك،مقدمة المحقق، ص١٣.

بالتسليم والخروج معهم سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م[١]. وعندما قدم شاه سوار إلى القاهرة حرص السلطان الأشرف قايتباي على استشارة العلماء في أمره حيث أفتاه العلماء بجواز قتله[٢].

كما شارك العلماء في تهدئة الأوضاع الداخلية لسكان الأحياء، وعقد الصلح بينهم، ومن أمثلة ذلك ما حدث عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م عندما تخاصم أهالي حى القبيبات[٣] وأهالي ميدان الحصى[٤] بدمشق، وتطور الأمر إلى نشوب حرب بينهما ، فحاول القضاة التوسط لوقف الحرب وعقد صلح بين الطرفين، لكن مساعي القضاة باءت بالفشل، واستمرت الحرب بين الفريقين حتى تدخل الشيخ برهان الدين الناجي[٥] والشيخ شهاب الدين بن الموصلي[٦] والشيخ شهاب محمد بن الشيخ محب الدين الحصني[٧] وأصلحوا بين المتخاصمين وسكنت الفتنة[٨].

كما نجح عدد من العلماء في إصلاح ذات البين بين الشواغرة[٩] والحصوية[١] ووقف الحرب بينهم[٢].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٧٣- ٧٤؛ أجا: العراك بين المماليك، ص ٥٥-٥٧؛ ابن العماد:شذرات الذهب، ج٧، ص٣٣٣؛ فائزة الجعيد: حركات العصيان، ص ١٩٣-١٩٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٧٥؛ ابن أجا، العراك بين المماليك، ص ٥٠.

(٣) محلة القبيبات: تقع جنوب دمشق، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ح١، ص٣٢، ص ١٧٧-٢٠٩، ح٢، ص ١٠٤؛ ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج١، ص ٢٠٥.

(٤) ميدان الحصى : حي يقع جنوب دمشق خارج السور. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ح١، ص ٢١٢، ٢٩٦؛ ابن الحمصي: حوادث الزمان، ص٢٠٣.

(٥) هو إبراهيم بن محمد بن محمود بن بدر الحلبي القبيباني الشافعي، توفي بدمشق ٩٩٠هـ/١٥٨٢م، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ٣٦٥ .

(٦) هو أحمد بن عبد الملك بن أبي بكر بن علي بن عبد الله الموصلي الشافعي، السخاوي: الضوء اللامع، اللامع، ج١، ص٣٧٤.

(٧) لم أقف له على ترجمة.

(٨) ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج١، ص٢٠٣- ٢٠٤.

(٩) الشواغرة: وهم أهل حي الشاغور بدمشق، النعيمي: الدارس، ج١، ص ١٧٧، ح٢، ص ١١٦-١٥٦؛ ١٥٦؛ ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج١، ص٢٠٥.

وكما ناصر العلماء السلاطين وضمنوا لهم ولاء العسكر والأمراء بتحليفهم فقد ساهم العلماء أيضاً في خلع السلاطين وتعيينهم كما حدث عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م عندما قام القاضي عبد القادر بن النقيب الشافعي[٣] بكتابة صيغة حلف للأمراء وكانت كما ذكر ابن إياس" أيمانات مغلظة" حلف بها الأمراء حتى لا ينحازوا إلى العادل طومان باي وذلك في أوائل سلطنته قبل قدومه إلى القاهرة مما أثار حفيظة السلطان طومان باي، وانتقم من هذا القاضي ونكل به بعد أن استتب أمره في السلطنة[٤].

كما أسهم العلماء في رفع الظلم الواقع على الرعية من قبل بعض الولاة والنواب ففى ١٤ جمادى الأولى سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م ثار أهالي أحدى الحارات في دمشق على النائب قانصوه البرج[٥] وذلك بسبب كثرة الضرائب التي فرضها ذلك النائب على أهالي دمشق مما أدى إلى نشوب قتال بين النائب وأهالي دمشق،فأرسل النائب إلى القضاة يطلب منهم التوسط للإصلاح بينه وبين أهالي دمشق، فتمكن القضاة من إقناع أهالي دمشق بعقد صلح مع النائب، على أن يلغي النائب تلك الضرائب والمظالم التي فرضها على أهالي دمشق[٦].

وختاماً يمكن القول أن دور العلماء في مواجهة حركات العصيان والثورات الداخلية استمر حتى المراحل الأخيرة التى سبقت سقوط هذه الدولة من ذلك ما حدث عندما انهزم الجيش المملوكي أمام الجيش العثماني في

---

(١) الحصوية: هم سكان محلة ميدان الحصى. النعيمي: الدارس، ح١، ص٣٢- ٦٥، ح٢، ص ٢١، ٤١؛ ابن الحمصي: حوادث الزمان، ح١، ص٢٠٥.

(٢) ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج١، ص٢٠٥.

(٣) هو عبد القادر بن علي بن محي الدين بن النقيب المعري الظاهري الشافعي، تولى مشيخة الصلاحية وسعيد السعداء ودرس بالظاهرية والبرقوقية، توفي سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص٢٨٠-٢٨١؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج١، ص ٢٥٣ .

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٤٥٤؛ لمزيد من التفاصيل انظر: فائزة الجيعد: حركات العصيان، ص١٩٧- ١٩٨.

(٥) لم أقف له على ترجمة.

(٦) ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج٢، ص٤١١.

معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦هـ عندما قرر الأمــراء إســناد قيــادة الدولة إلى طومان باي فتردد في قبول هذا الأمر خشية خروج الأمــراء عليــه في مثل هذه الظروف . فما كان من الأمراء الأ أن تدخلوا في الأمــر وعقــدوا مجلساً للمشورة في منزل أبي السعود[١] بكوم الجارح[٢]، وأخبــروه بــإعراض طومان باي عن السلطنة، فقام الشيخ وأحضر مصحفاً وحلّــف الأمــراء علــى الولاء والطاعة لطومان باي إن هو تسلطن وعــدم الخــروج عليــه والانقيــاد لأوامره فحلفوا على ذلك[٣].

(١) هو محمد بن دغيم الجارحي القاهري الفقيه الصوفي، وهو من العباد و الزهاد، كان سلاطين وأمــراء المماليك يقدرونه ويحترمونه وله مكانة خاصة لديهم، كان عارفــاً بالفقــه والنحــو، تــوفي ســنة ٩٢٩هـ/١٥٢٢م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص١٦٦-١٦٧.

(٢) كوم الجارح: الكوم يطلق على الرمال والحجارة المتجمعة بمقدار ذراعين إلى السماء، وهو يطلق على عدد من الأماكن في مصر يضاف إليها أسماء أشخاص أو حادثة عرفت أو اشتهرت به ككوم شــريك وكوم الشقاف، أما كوم الجارح فهو كوم متصل برحبة الطحانين.ابن دقماق :الانتصار لواسطة عقــد الأمصار، ص٥٣؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٤٩٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٨٥-٨٦ .

المبحث الثاني

أثر العلماء في توجيه سياسة الدولة تجاه أهل الذمة

لقد أحاط الإسلام نفسه بهالة من المبادئ العظيمة التي تنم عن سماحة الإسلام واحتوائه لكافة متطلبات الفرد المسلم، وطريقة تعايشه داخل المجتمع. ومن أسمى هذه المبادئ العظيمة التسامح الديني وحسن المعاملة مع أهل الذمة[1] حيث أرسى الإسلام قواعد التعامل معهم، وحث على حسن معاملتهم، مما كفل لهم حياة كريمة، حتى أصبح أهل الذمة عنصرا فاعلا داخل المجتمع المسلم.

فقد وفر المماليك لأهل الذمة كل سبل العيش الكريمة داخل دولتهم،حتى إنهم تركوا لهم حرية الاتصال بالدول الأجنبية خارج دولة المماليك ،فقد بقيت الصلات وثيقة بين الطرفين، ونستشف ذلك من كتابات أحد الرحالة الروس، ويدعى باسيل يوسينا كوف الذى ذكر أن رئيس الأساقفة في روسيا أرسل معه رسالة يطمئن فيها على أحوال النصارى في مصر ويطلب منهم الدعاء، كما أرسل مبلغاً من المال لرهبان جبل سيناء وبطريرك الإسكندرية وذلك سنة ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م[2].

كما شملت هذه العلاقه الدولة البيزنطية ،حيث سمح لهم سلاطين المماليك برعاية شؤون النصارى في الدولة الإسلامية حيث أخذت الطابع الودي الممزوج بنوع من الاستعطاف والرجاء، وذلك حينما يطلب أباطرة بيزنطة

---

(١) أطلق هذا اللفظ على اليهود والنصارى، وكل من يصح عقد ذمة معهم، كما اشتمل اللفظ على المجوس أيضاً والسامرة والصابئة ومن عاهدهم المسلمون على حماية أنفسهم وأموالهم مقابل دفع الجزية. الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٥١-٢٦١؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٥٥؛ الشيرزي: نهاية الرتبة، ص ١٠٦؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص ٢١؛ إبراهيم المزيني: التعامل مع الآخر، ص ١٩.

(٢) فايز نجيب اسكندر: مصر في كتابات الحجاج الروس، ص ٣١-٣٣.

رعاية النصارى المتواجدين في الدولة المملوكية، وهذا يرجع إلى قلة المسلمين في الدولة البيزنطية ، على حد رأي أحد المؤرخين[١].

وتذكر المصادر أنه في عام ٧٠١هـ/١٣٠١ م أرسلت سفارة بيزنطية إلى القاهرة، رسالة يطلب فيها الإمبراطور البيزنطي من السلطان الناصر محمد أن يتعطف ويتكرم على النصارى بفتح كنيستين كانتا قد أغلقتا في القاهرة وهما كنيسة المعلقة[٢] وكنيسة ميكائيل[٣]، كما أرسلت رسالة أخرى من دولة أجنبية أخرى لم يذكرها المقريزي أسفرت عن فتح ثلاث كنائس أخرى في القاهرة[٤].

وفي عام ٨١٤هـ / ١٤١١م وصلت إلى البلاط السلطاني في القاهرة رسالة من الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني[٥] يطلب فيها من السلطان الناصر فرج بن برقوق حسن معاملة النصارى والإحسان إليهم والترفق بهم[٦].

ولا يخفي علينا أيضاً دور تجار البندقية[٧] وجنوة وملوك[٨] أرغونة[٩] الذين استغلوا التبادل التجاري بينهم وبين مصر المملوكية لتحسين أوضاع النصارى هناك والتدخل في شؤونهم ، فقد نجح في عام٧٠٢هـ / ١٣٠٢م وفد مرسل من قبل ملك أرغونة أن يقنع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون

---

(١) قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر، ص٨٨.

(٢) كنيسة المعلقة: تقع في طريق قصر الشمع، وهي من الكنائس العظيمة عند النصارى؛ المقريزي؛ الخطط؛ ج٤، ص٤٣٨.

(٣) كنيسة ميكائيل: تقع خارج مدينة مصر عند خليج بني وائل؛ المقريزي: الخطط، ج٤، ص٤٤٧.

(٤) المقريزي: السلوك، ج، ق٣، ص٩١٢-٩١٣؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص٨٨-٨٩.

(٥) هو الأمبرطور البيزنطي مانويل الثاني باليولوجس، حكم من سنة ٧٩٤-٨٢٩هـ/١٣٩١-١٤٢٥م، كان في حروب مستمرة مع العثمانيين. أدونالد نيكول؛ معجم التراجم البيزنطية، ص١٤٦-١٤٨.

(٦) القلقشندى: صبح الأعشي، ج٨، ص١٢١-١٢٢؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص٨٩.

(٧)عن علاقة المماليك بالبندقية انظر عفاف صبره:العلاقات بين الشرق والغرب ،علاقة البندقية بمصر والشام.

(٨) عن علاقة المماليك بالجنوين انظر مصطفى الكناني:العلاقات بين جنوة والشرق الأدني الإسلامي.

(٩)عن علاقة المماليك بأرغونه انظر حياة حجي:العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية.

بإعادة فتح كنيسة لليعاقبة، وكنيسة للملكانية في القاهرة، وذلك في مقابل إعطاء المسلمين المقيمين في أرغونة الحرية الدينية وسلامة العيش[١].

أما الحبشة التي ارتبطت بالكنيسة الأرثوذكسية في الإسكندرية ارتباطاً وثيقاً، حتى إن بطريرك الإسكندرية كان يتولى مهام تعيين أسقف للكنيسة في الحبشة ، وبالرغم من ذلك إلا أن العلاقات بين المماليك في مصر والأحباش كانت متذبذبة، واتسمت بالعداء في مجملها، والظاهر أن سبب ذلك العداء بين مصر المملوكية ودولة الأحباش المجاورة لها، هو اهتمام وعناية سلاطين المماليك بشؤون المسلمين المقيمين في الحبشة، وتعسف أباطرة الحبشة في معاملة المسلمين المقيمين في دولتها، وسوء أحوالهم، مما انعكس سلباً على النصارى المقيمين في ظل الدولة المملوكية.ولعل ممايؤيد هذا ما ذكر من أن السلطان المنصور قلاوون استقبل سفارة حبشية في القاهرة سنة ٦٨٩هـ /١٢٩٠م يطلب فيها إمبراطور الحبشة (يجبا صيون) من المنصور قلاوون، إقامة علاقات طيبة بين الطرفين، وإعادة المحاولة في طلب إرسال مطران تعينه الكنيسة بالإسكندرية، كما أوصى السلطان برعاية النصارى والرهبان المقيمين في مصر [٢].

وبعد الأحداث الشنيعة التي قام بها ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان[٣] في مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م[١] أمر بطرك النصارى في

---

(١) قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص٩٠.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٤٧، ١٧٠-١٧٢؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص ٩٢.

(٣) بطرس الأول لوزجنان ولد سنة ١٣٢٩م/٧٣٠هـ، تربى تربية دينية، كما اعتاد على حمل السلاح صغيراً، أنشأ جماعة أطلق عليها جماعة إخوان السيف كان هدفها دينيا حربيا للقضاء على المسلمين، تولى عرش قبرص سنة١٣٥٩م/٧٦١هـ. خاض معارك ضارية ضد الأتراك العثمانيين على سواحل شرقي البحر المتوسط، حتى تمكن سنة١٣٦١م/٧٦٣هـ من الاستيلاء على أنطاليا ،توفي سنة١٣٦٩م/٧٧١هـ. سهير نعينع: الحروب الصليبية، ص٢٢، ٧٤، ٧٧، وعن أنطاليا ودورها في الصراع الإسلامي الصليبي انظر: على الغامدي: أنطاليا في عصر الحروب الصليبية، ص٧١ وما بعدها.

القاهرة بكتابة رسالة إلى ملك قبرص بطرس الأول يصف فيها وضع النصارى المزري في القاهرة الذي أصبحوا فيه بعد أفعاله الشنيعة وغزوه للإسكندرية[٢] كما ألزم النصارى بدفع جزء من أموالهم، وذلك لإعادة عمران الإسكندرية بعد خرابها على يد بطرس، وعلى الرغم من أن بعض فقهاء مصر قد أجازوا ذلك وأصدروا فتوى تتضمن السماح بأخذ أموال النصارى لعمارة الخراب الذي كان سببه غزو بطرس على الإسكندرية، إلا أن المؤرخ والمفسر ابن كثير عارض هذا القرار ووضح ذلك لنائب الشام، وبين له أنه ماداموا باقين على ولائهم للدولة ويدفعون الجزية فلا يجوز أن يأخذ من أموالهم ، لكن تلك الإجراءات التعسفية ضد النصارى جرت مجراها وذلك بسبب فتوى فقهاء القاهرة[٣].

أما اليهود المقيمون في الدولة الإسلامية، فلم تتدخل دولة أجنبية لتحسين أوضاعهم، وذلك لانعدام القوة المركزية لهم، فلا توجد دولة في ذلك الوقت تدين بدين اليهودية، وذلك بسبب تشتت اليهود في الأرض[٤]. بل يصف أحد المؤرخين النصارى حال اليهود في الدولة الإسلامية فيقول: (على إنه منذ ظهر العرب حتى اليوم لم يترق يهودي واحد في بلادهم فكلهم إما دباغون أو صباغون أو سكافون. وإذا كان بينهم طبيب أو كاتب فإنما يقيم في أماكن لا يرضى الإقامة فيها غيره)[٥] .

---

(١) عن سبب غزو بطرس الأول للإسكندرية انظر: النويري الإسكندري: الإلمام، ج٢، ص٩٢-١٠٩؛ سهير محمد نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة، ص١٠٩-١١١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٧٥٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص ٧٤٥-٧٤٦ لأول مرة يدافع أحد العلماء عن أهل الذمة، بل ينكر الأعمال التعسفية ضدهم، فعلى الرغم من أن المقريزي والعيني وغيرهم من المؤرخين الذين كانوا فقهاء أيضاً وملمين بأحكام الشريعة إلا أنهم كانوا يصرحون بقبولهم وفرحهم تجاه الأعمال التعسفية والقرارات الجائرة التي يصدرها الحكام ضدي النصارى المقيمين في الدولة.

(٤) قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص٩٦.

(٥) ابن العبرى: تاريخ الزمان ، ص٣٦٣.

وبالرغم مما سبق ذكره عن العلاقة بين الغرب الأوربي ورعايا الدولة المملوكية من النصارى، إلا أن المصادر تذكر أن أهل الذمة تمتعوا بالحياة الكريمة في ظل الحكم الإسلامي من أول الفتح الإسلامي لمصر حتى العهد المملوكي الذي تخلله بعض فترات من الاضطهاد لأهل الذمة لا تكاد أن تنتهي حتى يعود أهل الذمة لوضعهم السابق سواءً في الملبس أو المركب أو حتى تقلد الوظائف الإدارية في الدولة، ويعزو أحد المؤرخين سبب تلك النزوات والاضطهادات التي كان يقررها سلاطين المماليك على أهل الذمة في دولتهم إلى تأثير الحروب الصليبية، وما خلفته في النفوس من حقد دفين على النصارى، واعتبارهم من أتباع الصليبين، إضافة إلى رغبة بعض سلاطين المماليك في السيطرة على ثروات أهل الذمة، خاصة أن هذا العمل لن يلاقي أي معارضة من العلماء في الدولة، وأخيراً لعل سلاطين المماليك أرادوا أن يثبتوا للعالم بأسره أنهم حماة الدين الإسلامي، المقيمين لشعائره، المنقادين لأوامره [1].

وإلى جانب سماح سلاطين دولة المماليك لبعض القوى الخارجية بالحديث عن بعض عناصر أهل الذمة في دولتهم فقد حظي أهل الذمة في الداخل باهتمام واضح ومعاملة حسنة من قبلهم. فقد أشارت المصادر إلى أن تعيين رأس الهرم التنظيمي لليهود والمتمثل في رؤساء اليهود[2] وبطركية[3] النصارى كان يتم بتقليد من القضاة المسلمين، وقد أورد القلقشندى

(١) ابن الإخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٤٧-٤٨؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٤٢.

(٢) رئيس اليهود: وهو كالبطرك عند النصارى، ويقوم بالإشراف على جميع شؤون اليهود من الطوائف الثلاث والفصل بينهم في قضاياهم، كما روعي أن يتوفر فيه عدد من الشروط، أهمها أن يكون أكبر الكهنة وذا علم، وأن تتوفر فيه النزاهة والأخلاق الحسنة. القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥، ص٤٤٥، ج١١، ص٢٧٨-٢٧٩؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص١٠٩.

(٣) البطرك: ومفردها بطرك، وهو لقب يمنح للشخص الذي يتولى الإشراف على النصارى، وذكر القلقشندي أن البطاركة أربعة كراسي: أحدها في روما وفيها يكون البابا، وآخر في أنطاكية، والثالث في مدينة القدس، أما الرابع فهو في الإسكندرية. القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٤٣-٤٤٤،

نص تعيين رئيس لليهود، اشترط فيه أن يكون من طائفة اليهـــود الربـــانيين[١] ويقوم بالإشراف على جميع الطوائف الأخـــرى كـــالقرائين[٢]. والســـامرة [٣]، وعادةً ما يحوي نص التقليد، وصايا لرئيس اليهود بمراعاة الفـــرق الأخـــرى، وتحري العدل بينهم، وعدم التفريق بينهم في المعاملة، من ذلك ما جاء في أحـــد نصوص التقليد: "وجماعة الربانيين فهم الشـــعب الأكبـــر، والحـــزب الأكثـــر، فعاملهم بالرفق الأجدى والسر الأجدر ولكونك منهم، لا تمل معهم على غيـــرهم فيما به من النفس الأمَّارةِ تؤمر" كما يلتزم رئيس اليهود بحث اليهود علـــى أداء الجزية والتقيد بلبس الملابس المغايرة للمسلمين والركوب بخلاف المســـلمين[٤].

وللوقوف على المزيد عن تاريخ البطارقة، راجع سايروس بن المقنع، تاريخ البطارقة المجلد الثالث من البطريريك، مقاره الثاي إلى البطريريك كيرلس الخامس ١١٠٢هـ/١٨٩٥م.

(١) الربانيون: مفردها ربان، وتأتي بمعنى الفقيه والإمام والحبر، وهي أكثر فرق اليهود، ويطلق علـــيهم أسم "الفريسيون" أي الأحبار المتشددون، أما لفظ (الرباني) فيعني العارف بـــالله.المقريـــزي:تـــاريخ اليهود،ص١١٧-١١٨، وهامش ٢؛ القلقشندي:صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٦٠-٢٦١؛الموســـوعة الميسرة للأديان،ص٥٦٨؛ قاسم عبده قاسم:أهل الذمة،ص١٠٣-١٠٤.

(٢) القراؤون: وهي أقل فرق اليهود عدداً، وقد نادت هذه الفرقة بحرية شرح التوراة، فهـــم لا يتقيـــدون بالتلمود، ولا يعترفون إلا بالعهد القديم أي التوراة، دون التلمود لأنهم يؤمنون أنها شرح للتوراة ولم تنزل على موسي عليه السلام. المقريزي: تاريخ اليهود ، ص١١٨-١١٩، هـــامش٢؛ القلقشـــندى: صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٦٠-٢٦١، الموسوعة الميسرة للأديان ص ٥٦٨؛ قاسم عبـــده قاســـم: أهل الذمة، ص١٠٤- ١٠٦؛ علي عبد الواحد وافي: الأسفارالمقدسة في الأديان السابقه للإســـلام، ص٧٠.

(٣) السامرة: وهم من أتباع السامري الذي ذكر في القرآن الكريم وقد أضل اليهود، فقد قال تعـــالى فـــي سورة "طه" آية ٨٥: (وأضلهم السامري) ولهذه الفرقة توراة خاصة بهم، وهم يؤمنون بنبوة موسى وهارون ويوشع بن نون فقط، ويستقبلون طور نابلس بدلاً من صخرة بيت المقدس، ويتكلمون لغـــة غير العبرية، كما عرفت هذه الفرقة باسم (الكويتين) كوتيم أي الخارجين عن الدين المقريزي: تاريخ اليهود، ص١٢١، هامش٢؛ القلقشندى: صبح الأعشى ج١٣، ص٢٧٠-٢٧٢ وهامش٢؛ الموسوعة الميسرة، ص٥٦٨، قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص١٠٦-١٠٨؛ علي عبد الواحد وافى: الأســـفار المقدسة، ص٦٦.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى، ج١١، ص٣٧٨-٣٨٣.

أما بالنسبة لإشراف القضاة على تعيين هؤلاء الرؤساء، فقد قام أحد القضاة المسلمين بتعيين شخص من اليهود في وظيفة رأس مثيبة اليهود[1]، فقال له، بعد أن حمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "وقد وليتك الزعامة على أهل شريعتك المنسوخة التي نسختها شريعة الإسلام أدامها الله مادامت السماوات والأرض على أن تحكم بين المترافعين إليك منهم، فتأمرهم بما أمروا به في دينهم وتنهاهم عما نهوا عنه في دينهم"[2]

أما النصارى فقد كان تعيين بطاركة كافة طوائفهم وخاصة طائفتي الملكانية[3] وطائفة اليعاقبة[4]. وذلك بإشراف مباشر من قبل القضاة، الذين كانوا يشترطون أن يتوفر فيمن يتولى هذا المنصب عدد من الشروط، أهمها الإلمام بالإنجيل والورع والتقشف، كما يوصى البطريرك بمراعاة قواعد الدين المسيحي، وإدارة شؤون أتباعه. أما أبرز مهام هذا البطريرك فهي تنظيم علاقة النصارى بالدولة المملوكية وبالدول الأجنبية، كما يجب عليه الاهتمام بالكنائس والأديرة والاضطلاع بشؤون الرهبان والقساوسة ورجال الدين

---

(١) رأس مثيبة اليهود:أصلها مشتق من الكلمة الآرمنية "مثيبتا" وهي كلمة تطلق على رؤساء الحلقات الفقهية التلمودية الأساسية في بابل. عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهودو اليهودية والصهيونية، ص٣٣٩، مقوع صيد الفوائد .www.saaid.net ١٤٣٠/١١/١٣هـ

(٢) ابن الفوطي: كتاب الحوادث الجامعة، ص٢٩٣.

(٣) الملكيون أو الملكية: وهم الطائفة التي عرفت بالأرثوذكس، كان ظهورهم نتاج مجمع أفسس الأولى سنة ٤٣١م الذي أعلن قبول فكرة أن للسميح طبيعة واحدة، وهم ينسبون للأمبرطور البيزنطي مركيان (مرقبانوس) (٤٥٠-٤٥٧م) وهم القائلون بعقيدة التثليث؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٢٧٩-٢٨٠، المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٢، هامش٥، الموسوعة الميسرة في الأديان، ص٥٠٢-٥٠٣؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص٩٧-٩٨؛ ولمعرفة المزيد عن مجمع أفسس انظر، رؤوف شلبى: أضواء على المسيحية، ص١٠٢-١٠٤؛ على وافى: الأسفار المقدسة، ص١٣٣.

(٤) اليعاقبة: وهم الذين اتبعوا مذهب ديسقورس أحد بطارقة الأسكندرية، وخلاصة مذهبه بأن للمسيح: (جوهر من جوهرين، وأقنوم من أقنومين، ومشيئة من مشيئتين). كما عرف أصحاب هذا المذهب بـ المونوفبزيتيين، أي أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، ويشرح القلقشندى هذه العبارة بقولة: (فجوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث تركبا تركب النفس والبدن فصارا جوهراً واحداً أقنوماً واحداً، وهو إنسان كله وإله كله). القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٨١-٢٨٢؛ الموسوعة الميسرة، ص٥٠٣؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص١٠٠.

عموماً. كما يُحذر البطريرك من الخيانة ومكاتبة الدول الأجنبية المعادية للدولة المملوكية[1].

وعلى الرغم من أن الدين الإسلامي كفل لأهل الذمة حياة كريمة في ظل الدولة الإسلامية كما تنص على ذلك العهدة العمرية[2] إلا أن العصر المملوكي شهد بعض التجاوزات من قبل أهل الذمة ضد المسلمين والعكس، كما شهد عصر المماليك نوعاً من الصراع بين المسلمين وأهل الذمة وخاصة النصارى، وذلك يرجع إلى تأثير الحروب الصليبية على المسلمين والنصارى، إضافة الى تلك الحروب التى دارت رحاها في عرض البحر المتوسط[3] على حد سواء، ولكن بالرغم من تلك الأزمات التي كانت تعصف بأهل الذمة بين الفينة

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى: ج١١، ص٣٨٧، ٣٩٨؛ العمري: التعريف، ص١٨٣-١٨٥؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص١٠٠-١٠١.

(٢) نص العهدة العمرية:
"بسم الله الرحمن الرحيم "=
=" هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألنكم الأمان لأنفسنا وذرا رينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها قليلة- وهي كالصومعة- ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها: ديرا ولا كنيسة، ولا نخفي ما كان منها في خطط المسلمين، ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نؤوي في منازلنا ولا كنائسنا جاسوسا، ولا نكتم غشا للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركا ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع من ذوى قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم: في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور وأن نجز مقادم رؤوسنا ... وأن نشد زنانيرنا على أوساطنا ... ولا نتخذ من الرقيق ما يجري عليه سهام المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم " ابن الإخوة: معالم القربة؛ ابن تيمية: الفتاوى، ج١٤، ص٦٢١؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٣٥٧-٣٥٨؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٣، ص٣؛ عبد العزيز الغامدي: سماحة الإسلام مع غير المسلمين، ص١٥٦-١٥٧.

(٣) عن هذه الحروب الصليبية المتأخره انظر:النويري السكندري، الإلمام، ج، ص٩٢-١٠٩؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية؛ سهير نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة، ص١٠٩-١١١؛ عبد العزيز عبد الدايم: الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة في مياه البحر المتوسط، بحث منشور ضمن أبحاث ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، التى عقدت في كلية الآداب، جامعة القاهرة في المدة من ١٣-١٥إبريل ١٩٨٥م،ص٢٠٥-٢١٩؛ مارينو سانوتو: كتاب الأسرارللمؤمنين بالصليب،ص١٥،١٦،٦٢.

والأخرى حيث، أخذت شكل أزمات عابرة فبمجرد أن تنتهي كان يعود الحال إلى ما كان عليه من قبل، حيث التعايش السلمي بين الطرفين، وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة على اضطراب العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة سواء في النواحي الدينية أو الاجتماعية أو السياسية.

ففي عام ٧١٤هـ / ١٣١٤م تطاول أحد كتاب النصارى على الرسول صلى الله عليه وسلم بكلام لا يليق به، إضافة إلى أنه سعى لتنصير أحد المسلمين، فأصدر القاضي جمال الدين المالكي[(١)] فتوى تتضمن قتله. وتم تنفيذ الحكم على هذا الكاتب النصراني في نفس السنة[(٢)].

وفي عام ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م حكم قاضي القضاة المالكي جمال الدين المسلاتي بإرقة دم أحد النصارى المقيمين في إحدى ضواحي مدينة بعلبك[(٣)]، ويدعى داود بن سالم، وذلك لأنه سب الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكره بما لا يليق به عليه أفضل الصلاة والسلام[(٤)].

كما حدث سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م أن سبّ أحد النصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعقد له مجلس حتى يرجع عن أقواله لكنه أصر على ذلك، فحكم عليه القضاة بقتله، وفعلاً تمّ قتله أمام العامة الذين حملوا جثمانه وأحرقوها ثم رموها[(٥)].

ولم يكتف النصارى بسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل تجرؤوا على مهاجمة الدين الإسلامي وشككوا في صحته.من ذلك ما حدث سنة

---

(١) هو محمد بن عبد الرحيم المسلاتي، قاضي قضاة المالكية، درس بالجامع الأموي وبدار الحديث الظاهرية، وكان محبباً للناس، توفى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص١٧٧.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٧٩٢؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق٢، ص٣٥٠-٣٥١؛ النويري: نهاية الأرب، ح٣٢، ص١٦٥.

(٣) بعلبك: مدينة قديمة بينها وبين دمشق مسيرة ثلاث أيام؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٥٣-٤٥٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ح١٤، ص٦٧٩.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ح٤، ص٢٨٦.

٧٥٤هـ / ١٣٥٣م أن قدم من الطور أحد النصارى وشكك في دين الإسلام، حيث ادعى أن لا دين إلا دين النصارى، فحاول القاضي تاج الدين المناوي[١] أن يرجعه عن أقواله فأمر بضربه، لكنه أصر على موقفه، وعندما أبى الرجوع أفتى بقتله فقتل وأحرق جثمانه[٢]. كما حدث أن صرح أحد الرهبان في مصر سنة ٧٨١هـ / ١٣٧٩م بالاستهانة بالإسلام والحط من شأنه، وظل مصراً على تلك الادعاءات، فحكم العلماء بقتله[٣].

وفي عام ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م أراد عدد من الرهبان مناظرة علماء مسلمين في مدينة القدس، لكنهم لم يراعوا قواعد الأدب في المناظرة، واحترام الرأي الآخر، فشنعوا بالإسلام وأهله و نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، زاعمين أن النصرانية هو دين الحق. مما اضطر علماء المسلمين إلى إصدار فتوى ضدهم،نصت على اعتقالهم ومن ثم قتلهم وحرقهم في حال تمسكهم بما ذهبوا إليه[٤].

ومما يذكر في التصدى على تجاوزات بعض النصارى في هذا المجال ، ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمة كتابة الشهير "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " أنه جعله رداً على رسالة وصلته من قبرص ، منسوبه إلى بولس الراهب أسقف صيدا الانطاكي، كان قد كتبها إلى بعض أصدقائه، فيها احتجاج لدين النصارى ، مما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم من الحجج السمعيه والعقليه –حسب زعمهم – اسماها "الكتاب المنطيقى الدولة خانى المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم" ضمنها ست دعاوى، شملت

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم السالمي الشافعي ، تولى نيابة الحكم عن العز ابن جماعة وقد اتصف بالأخلاق الحسنة؛ السخاوي: وجيز الكلام ، ج١ ص١٣٩-١٤٠.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٩٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٤٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١٠، ص٣٧٢-٣٧٣.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٧٩٢، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق٢، ص٣٥٠-٣٥١.

تهجماً على الإسلام ونبيه وتشكيكاً في صحة قرآنه الكريم ،مع محاولة الاستشهاد ببعض الأدلة الزائفة لاثبات صحة عقيدة النصارى وكتبها[1].

ولم يقتصر هذا الأمر على النصارى، بل تعدى ذلك إلى اليهود فقد أقدم جماعة من اليهود سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م على إحضار رجل منهم ووضعوه على نعش، وكأنه مسلم ميت ثم أخذوا يهللون ويقرأون سورة الإخلاص أمام الميت استهزاء بالمسلمين، فشكا المسلمون ذلك الفعل إلى نائب السلطنة، فأحال أمرهم إلى القاضي الحنبلي الذي أنبهم على فعلتهم تلك وحذرهم من تكرارها ثم عرض عليهم الإسلام فأسلموا ، وفرح المسلمون بإسلامهم وأكرموهم غاية الإكرام واحتفوا بإسلامهم[2].

وكما تجرأ بعض النصارى على مهاجمة خطيب ومؤذن أحد الجوامع في قرية برما[3] من قرى الغربية سنة ٧٨٥هـ١٣٨٣م فحدث أن النصارى كانوا يقيمون عرساً لهم في أحد الأيام، وعندما صعد المؤذن للتسبيح في الليل سبه النصارى، ورجموه بالحجارة ،ثم أنزلوه من المئذنة وضربوه وعندما حاول خطيب الجامع حمايته ،انهالوا عليه ضرباً وشتماً، فما كان من المؤذن والخطيب إلا أن توجهوا إلى القاهرة وقدما شكوى بذلك إلى نائب السلطنة الأمير سودون[4] فأحالهما إلى الأمير الذي تتبع هذه القرية إقطاعه، لكن الأمير لم ينصف الخطيب والمؤذن بل زج بهما في السجن، الأمر الذي أثار مشاعر أهل القرية، وحضر وفد منهم إلى القاهرة وشكوا أمرهم إلى السلطان الظاهر برقوق، فأرسل السلطان أحد الحجاب إلى برما لتقصي الحقائق، وعندما ثبت

---

(١) انظر الجواب الصحيح ،ج١، مقدمة المحقق ،ص٥-٨؛وانظر ،مريم عبد الرحمن الزامل :موقف ابن تيمية من النصرانيه ،ص٨،٩ـ١٤،١٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٦٦٥.

(٣) برما: من قرى مصر تقع في الطريق من الفسطاط إلى الإسكندرية؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٠٣.

(٤) هو سودون الفخري الشيخوني نائب مصر، كان يحب العلماء والصالحين ويقربهم، توفي سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٣٢٣.

عنده جرم النصارى قبض عليهم وتوجه بهم إلى السلطان الذي أحالهم إلى القاضي المالكي فزج بهم في السجن(١).

كما حرص علماء المسلمين وقضاتهم على إقامة حد القتل على من أسلم من أهل الذمة ثم ارتد عن دينه، وقد وجد في التاريخ المملوكي عدد من الأمثلة عن ردة أهل الذمة عن الإسلام، وذلك يرجع من وجهة نظر الباحثة إلى أن إسلامهم أصلاً كان دون قناعة، حيث إن بعضهم كان يسلم حتى يأمن القتل أو بسبب الإجراءات التعسفية التي تفرض عليهم أحياناً كعزلهم من المناصب الإدارية ، وفرض نوع معين من اللباس لهم وهيئة مخصصة للركوب فاتقاءً لذلك، وحتى لا تطبق عليهم مثل هذه الإجراءات كان بعضهم يشهر إسلامه ثم ما يلبث أن يعود مرة أخرى لدينه.من ذلك ما حدث سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م فقد ارتد أحد الكتاب الأقباط عن الإسلام، فحاول القضاة إقناعه بالعدول عن ذلك وحثه على العودة إلى دين الإسلام لكنه رفض، وعمدوا إلى استتابته وعندما أصر على موقفه أفتوا بقتله(٢).

كما أشار المقريزي إلى أن نصرانيا ضبط في خلوة مع امرأة أجنبية، فتظاهر بالإسلام، إلا أنه ما لبث أن تنكر لذلك، وصرح بنصرانيته، فعرض أمره على بعض العلماء وقضاة البلد الذين حاولوا إقناعه باعتناق الإسلام، إلا أنه أبى، فأفتى القاضي بقتله وقتل وأحرقت جثته(٣).

وقد حرص علماء دولة المماليك على التصدي لحركة التنصير التي قام بها بعض النصارى المقيمين فيها ،من ذلك ماحدث سنة ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م، حيث تصدّى لهذا الأمر ناظر الجوالي القاضي شرف الدين موسى التتائي

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٣٠-٣٣١؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٢٧٣-٢٧٤؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص٢٧٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥١٠-٥١١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٨٨٤.

الأنصاري[1]، فأحضر ما عند النصارى من جواري ليطلع على أحوالهن وهل كن مسلمات وأجبرن على التنصر، وذلك لأنه نما إلى مسامعه أخباراً مفادها أن النصارى يشترون الجواري المسلمات ويكرهونهن على التنصر، وقد نجح في اكتشاف عدد من الجواري اللاتي أجبرن على التنصر، فكان يأمر صاحبها ببيعها ويرد من تنصرت إلى الإسلام[2].وكذلك ما فعله قاضي القضاة تاج الدين الأخناي المالكي حيث أمر بضرب أعناق مجموعة من النصاري الرجال والنساء أرتدو عن الإسلام سنة ٨٧١ه /١٣٧٩م[3]. وكذلك فعل مع جماعة أخرى من النصارى المرتدين عن الإسلام سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م[4].

أما ما يتعلق بالجزية التي كانت تفرض على أهل الذمة في الدولة المملوكية[5] فقد كان للعلماء دور بارز في توجيه سياسة الدولة تجاه أهل الذمة وأخذ الجزية منهم، وذلك وفق الأحكام الشرعية المنصوص عليها في هذا، من غير ضرر ولا إضرار، ففي الوقت الذي كان العلماء يمنعون المغالاة في أخذ الجزية من أهل الذمة ، فقد كانوا في الوقت ذاته يتصدون لمن يحاول الإخلال بهذا الأمر منهم . فقد أشارت المصادر أن بعض اليهود في مصر أخرجوا

---

(١) هو موسى بن علي بن محمد بن سليمان شرف الدين التتائي، شغل عدداً من الوظائف، توفي سنة ٨٨١هـ/١٤٧٦م؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٧٥٠؛ السخاوي: وجيز الكلام ج٣، ص٨٧٨.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهر، ص٢٩٨.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٥٠.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٣١.

(٥) للوقوف على مقدار الجزية التي كانت تفرض على أهل الذمة انظر: ابن القيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج١، ص١٨-٢٨، ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج١٦،ص٣٦٦-٣٣٨؛ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٤٢، عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين :مكانة اهل الذمة في المجتمع الإسلامي ،بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي التي يصدرها اتحاد المؤرخين العرب ،العدد السادس عشر، مارس ٢٠٠٨م،ص١٩٨.

كتاباً مزوراً زعموا أنه عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن لا تُؤخذ منهم جزية، فعقد علماء المسلمين مجلساً، أثبتوا خلاله بطلان هذا العهد الذي زعمه اليهود وذلك لعدة أسباب، أهمها العبارات الركيكة التي استخدمت في العهد، إضافة إلى الخلط الواضح في التواريخ الواردة فيه، وكان من ضمن العلماء الذين تصدوا لهذه الفرية شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية، اللذان ذكرا أن هذا الكتاب حوى شهادة سعد بن معاذ رضي الله عنه في عام وقوع معركة خيبر، وسعد بن معاذ رضي الله عنه كان قد توفي قبل هذه المعركة بثلاث سنين، كما اكتشفا أن اليهود ذكروا أن معاوية بن أبي سفيان شهد على هذا الكتاب، بينما هو لم يكن آنذاك قد أسلم بعد رضي الله عنه، أيضاً زعم اليهود أن كاتب هذا الكتاب هو على بن أبي طالب كرم الله وجهه، والكتاب يحوي عبارات ركيكة وألفاظ مغلوطة، فكيف يكون علي رضي الله عنه كاتب هذا الكتاب ويقع في تلك الأخطاء وهو "مرسى قواعد علم النحو"[1].

ورغم هذه التجاوزات والمغالطات التي صدرت من أهل الذمة فإن علماء دولة المماليك حرصوا على حث حكام دولتهم على عمل إحصاءات لأسماء أهل الذمة ومعرفة أحوالهم لتقدير مقدار الجزية التي تؤخذ منهم، فقد عقد مجلس لهذا الغرض سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م حضر عدد من العلماء ومحتسب مصر صدر الدين العجمي[2]، وقام بكتابة أسماء أهل الذمة الذين تجب عليهم الجزية، فأقرت على الغني أربعة دنانير ، ومتوسط الحال دينارين، وأما الفقراء فيدفعون ديناراً واحداً لا غير[3].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٢٧؛ ابن تيمية: الفتاوى ج١٤، ص٦٢٧؛ ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ص٢٢؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٩٠-١٩١؛

(٢) هو أحمد ابن الجمال محمود ابن محمد بن عبد الله القيسري القاهري الحنفي، تولى الحسبة ونظر الجيش والجوالي ومشيخة الشيخونية، توفي سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م ؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص٥١٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٠٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٢٤٧ العيني: عقد الجمان، ج الأخير، ص١٤٩ ؛.

ومن الملاحظ أيضاً أن العلماء كان لهم دور فاعل، للفصل فيما قد يحدث من تجاوزات من قبل أهل الذمة في مجال الحياة الاجتماعية، فقد حدث سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م أن أنكر أحد وزراء المغرب[١] أوضاع النصارى في مصر من ركوب الخيول والتعاظم في الملبس وتولى الوظائف الإدارية في الدولة ، فقد ذهل هذا الوزير عندما شاهد أحد النصارى وهو يرتدي أفخر الثياب ويركب أحسن الخيول، والمسلمون من حوله مشاة يطلبون ويتضرعون إليه لقضاء حوائجهم ، وهو متأفف منهم ويأمر غلمانه بطردهم، وعندما علم أن هذا الشخص من النصارى أنكر ما هم عليه من هيبة وعز، وتوجه إلى الأمراء بيبرس وسلار واستهجن وضع أهل الذمة في مصر، وقال لهم: "كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمائم البيض، وتذل المسلمين وتمشيهم في خدمتهم"[٢] فما كان من الأميرين إلا أن جمعا العلماء والقضاة وتشاورا معهم في أحوال أهل الذمة، وخلص المجتمعون إلى ضرورة جمع قضاة المسلمين وبطرك النصارى وديان اليهود[٣]، والوصول معهم إلى رأي في أحوال أهل الذمة، وفعلاً تم ذلك وتمخض عن هذا الاجتماع الذي أداره القاضي الحنفي شمس الدين أحمد السروجي[٤]، على تخصيص العمائم الزرقاء للنصارى والعمائم الصفراء لليهود، كما منعوا من ركوب الخيل والبغال، ومراعاة جميع شروط العهدة العمرية والتزم بطرك النصارى ورئيس اليهود بتطبيق هذه الشروط على رعاياهم من اليهود والنصارى على اختلاف طوائفهم. وبعد ذلك بأيام قلائل منع أهل الذمة من العمل في الديوان السلطاني أو ديوان الأمراء، وشدد عليهم في تطبيق جميع شروط الاجتماع السابق وهدد

---

(١) قصد به ملك مراكش وهو أبو فارس المتوكل؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٠٩-٩١٠.

(٢) المقريزي: السلوك ، ج١، ق٣، ص٩١٠.

(٣) هو رئيس اليهود الديني، وهو لفظ معرب من الكلمة الأسبانية (dean)، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية (decanus). المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٠ هامش ٣.

(٤) هو محمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي، وهو قاضي قضاة الحنفية، توفي سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٣.

من خالف ذلك بالعقاب ، فامتعض أهل الذمة من تلــك الأوامــر والشــروط، وحاولوا بذل الأموال لإبطالها، لكن الأمير بيبــرس الجاشــنكير رفــض كــل محاولاتهم في إبطال تلك الشروط وإلغاء ذلك القرار سواء بالمال أو الوساطة، ولم يلتفت إلى ما أظهره بعض النصارى خاصة الذين يعملون في الدواوين مــن تذمر وتأفف من تطبيق تلك الشروط(١). وقد التزم أهل الذمة في بــلاد الشــام بهذا القرار باستثناء أهل الكرك والشوبك(٢).

وقد عمم هذا القرار على جميع مدن مصر وبلاد الشام ودجلــة والفــرات، ونتيجة لهذا القرار تجرأ العامة على هدم كنائس اليهود والنصارى وذلك بســبب فتوى الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد بن الرفعة(٣)، الذي أجاز لهم ذلــك، أمــا ابن دقيق العيد فلم يجوز هدم الكنائس إلا إذا وجدت بينة تثبــت أن بنــاء هــذه الكنائس كان بعد الإسلام، ولم تكن أوضاع اليهود والنصارى فــي الإســكندرية بأحسن منهم في القاهرة، إذْ عمد العامة إلى هدم كنيستين للنصارى، كما هدموا عدد من منازل وحوانيت أهل الذمة التي كانت تعلو منازل وحوانيت المسلمين، وكذلك فعل العامة بالفيوم(٤)، فهدموا كنيستين لأهل الذمة، أما بلاد الشــام فقــد ألتزم أهل الذمة بذلك القرار وطبقوا بنود العهدة العمرية كمــا وردت باســتثناء

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٠٩-٩١٢؛ أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص٤٦؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٣٣؛ العيني: عقد الجمان: ج٢ ص١٤٠-١٤١؛ النــويري: نهايــة الأرب، ج٣١، ص٢٥٩-٢٦١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص١٠٧-١٠٩؛ وانظر نص الفتوى التي أصدرها ابن تيمية في حكم تغيير ملابس أهل الذمة؛ الفتاوى: ج١٤، ص٢٦٤، قاسم عبــده قاســم: عصــر سلاطين المماليك، ص٢٧٧-٢٧٨.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٢-٩١٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص١٠٩.

(٣) هو أحمد بن محمد بن علي بن بن حزم الأنصاري البخاري الشافعي، ولد ســنة ٦٤٥هـــ/١٢٤٧م، توفي ٧١٠هـ/١٣١٠م، تولى الحسبة في القاهرة، وتولي نيابة الحكم والتدريس بالمدرسة المعزية، كان من العلماء المتبحرين في مذهبه؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٢-٢٣.

(٤) الفيوم: تقع ما بين الغرب والجنوب لمدينة الفسطاط، ويمر بوسطها نهر، وهي من مدن الصعيد؛ أبــي الفداء: تقويم البلدان ، ص١١٤-١١٥.

أهل الكرك والشوبك، فقد بقى حالهم كما هو عليه سابقاً، لأن غالبية أهلها من النصارى[١].

كما تجرأ بعض أهل الذمة في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م على مخالفة أوامر السلطان في الملبس، فضلاً عن فتح إحدى الكنائس التي تم إغلاقها للنصارى، فتوجه العامة إلى نائب السلطنة الأمير سلار وشكوا له ذلك، فأرسل النائب من ينادي في القاهرة والفسطاط بالتهديد والوعيد لمن خالف أوامر السلطان من أهل الذمة، وأنه من يتجرأ على فعل ذلك "نهب وأحل ماله وحريمه"[٢] – معتمداً في ذلك على ما أقر في المجلس سالف الذكر الذي حضره عدد من العلماء، وقد لقي أهل الذمة جراء هذا النداء الأمرين من العامة سواء بالضرب أو الأهانة حتى اختفى أهل الذمة وامتنعوا من النزول إلى الشوارع خوفاً على أرواحهم من بطش العامة[٣].

وبما أن أهل الذمة المقيمين كانوا يعدون من رعايا الدولة، فقد حرص حكام هذه الدولة على حماية مقدساتهم وعاقبوا كل من أساء إلى مشاعر أهل الذمة ومقدساتهم.من ذلك ماحدث يوم الجمعة ٩ ربيع الآخر سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م عندما اعتدى بعض الأهالي على كنائس النصارى وهدموا بعضاً منها بعد ما نهبوها، الأمر الذي أثار غضب السلطان الناصر محمد، فاستفتي العلماء فيما فعله هؤلاء العامة، فأفتاه العلماء بتعزيرهم، فحبس بعضهم وضرب بعضهم "وشق منا خير البعض" كما أخرج بعض أرباب الجرائم الذين حكم عليهم بالقتل ووسطهم أمام العامة لتخويفهم[٤].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٢-٩١٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص١٠٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٤-٩١٥.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٤-٩١٥.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢١٦-٢٢٠؛ القول الإبريزي، ص١٩٧-٢٠٢. النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص٨ ؛

والواقع أن السلطان الناصر هنا طبق نصوص العهدة العمرية، وذلك بهـدم كل ما يستجد منها فقط. وهذا ما ذهب إليه معظم الفقهاء في ذلك الوقت وعلـى رأسهم ابن دقيق العيد الذي اعترض على الفتوى التي أطلقها الشيخ نجم الـدين أحمد بن الرفعة بجواز هدم كنائس النصارى، فرد علية ابن دقيق العيـد بعـدم جواز ذلك إلا ما كان قد بنى بعد الإسلام.

وعندما احترقت كنيسة لطائفة من طوائف النصـارى فـي مصـر سـنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م أجاز العلماء لهم إعادة بنائها[١] وبعد أن تأكد لهم أنها بنيت قبل الفتح كما يلاحظ أن السلطات المملوكية كانت تراقب أحوال الكنائس فـي مصر، فعندما لوحظت الزيادة التي أحدثها النصارى في الكنيسة المعلقة[٢] سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م توجه الأمير سودون نائب السلطنة ومعه القضاة وعدد مـن العلماء للوقوف على هذه الزيادة التي أحدثها النصـارى فحكمـوا بهـدم هـذه الزيادة [٣].

كما شارك العلماء سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٧م في إصدار فتـوى لهـدم ديـر المغطس[٤] الذي يقع بالوجه البحري بسبب تقديس النصارى لهذا الدير والتوجه إليه للحج ، فقام في هذا الأمر الشيخ ناصر الدين محمد بن على الطنبـاوي[٥]، الذي أوصل خبر هذا الدير للسلطان الأشـرف برسـباي ، فأصـدر القاضـي

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٢٠.

(٢) كنيسة المعلقة: تقع في خط قصر الشمع، ولها شأن عند النصـارى، المقريـزي: القـول الابريـزي، ص١٩٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥١٨؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج٢، ص٢١٧؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١ ص٢٦؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص٧٧.

(٤) دير المغطس: هو دير روماني بني قبل الإسلام، وقد عظمه النصارى حتى إنهم خصصوا يومـاً مـن السنة يتجمعون فيه ويذهبون إلى هذا الدير للحج وذلك في يوم عيد الطهور، وتظهر فيه المنكـرات من بيع الخمور وشتم الصحابة ، وتتجمع الباعة هناك كما في الأعياد؛ ابن حجر: أنباء الغمر، ج٤، ص٧٠-٧١؛ المقريزي: الخطط ، ج٣، ص٥٦٢؛ الوقل الإبريزي، ص١٧٥.

(٥) الشيخ ناصر الدين محمد بن على الطنتناوي أو الطنباوي، كان من الرجال الصـالحين، تـوفي سـنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢ ، ص١٩٣.

المالكي شمس الدين الباسطي أوامره بهدم ذلك الدير، وفعلاً أمر السلطان الأشرف برسباي أحد الأمراء بأن يتوجه إلى الوجه البحري لهدم ذلك الدير[١].

كما حرص القضاة والمحتسبون على تفقد كنيس اليهود، وتتبع ما تجدد منها ، فقد خرج القضاة والمحتسب سنة ٨٤٥هـ ١٤٤١م للوقوف على كنيس لليهود قد بني فيه منبر جديد كتب، على الدرجة التي يقف عليها خطيبهم اسم "محمد" و"أحمد" فأصدر القضاة حكمهم بهدم المنبر، كما قام القضاة بغلق عدد من الكنائس التي ظهر عليها أثر البناء الجديد[٢].

كما عقد السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م مجلساً للتشاور مع عدد من القضاة والفقهاء في أمر عدد من الكنائس في منطقة الطور[٣]. ثبت له أن جدار إحداها يعلو مسجداً بجوارها، وأن جدار المسجد الملاصق للكنيسة مائل، فأراد السلطان هدمها لأنه أراد الانتفاع بالرصاص الذي كان في سقف الكنيسة، فاعترض القضاة على هدم الكنيسة فعقد مجلساً آخر في الصالحية، لم يتمخض عنه شيء، فأمر السلطان بإرسال فرقة استكشافية مكونة من القاضي شرف الدين التباني الحنفي[٤] والخطيب شمس الدين بن محمد بن عمر الحنبلي[٥] نائب الحكم وعدد من الموقعين والنواب وذلك للذهاب إلى الطور ونقل الصورة الصحيحة عن وضع الكنائس هناك، وعندما وصل النواب

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٧٥-١٨٣؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج٤، ص٤١٦.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص١٨٦؛ السخاوي: التبر المسبوك، ج١، ص٦٨-٦٩؛ ابن شاهين الظاهري: نبيل الأمل، ج٥، ص١٥٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٣٣؛ قاسم عبده قاسم: أهل ذمة، ص٧٨.

(٣) هو طور سيناء، وقد اعتبره ياقوت أنه من ضمن بلاد الشام، وهو الجبل الذي كلم الله فيه نبيه موسى عليه السلام.

(٤) لم أقف له على ترجمة .

(٥) هو محمد بن عمر بن عبد المحمود الحراني أبو عبد الله، ولد سنة ٦٣٧هـ /١٢٣٩م وتوفي سنة ٨٦٣هـ/١٤٥٨م. ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، ص١٣٧٣ ؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص٧٢٦.

إلى الطور وجدوا ثلاث كنائس هناك، الأولى جدارها يعلو عن الجامع بمقـدار ثلاثة عشر ذراعاً ونصف، والثانية جدارها يعلو الجامع بمقـدار خمسـة أذرع، أما الثالثة متصلة "برحاب الجامع" وهي تعلو عن الجامع بثلاثة أذرع ونصف، إضافة إلى وجود جملون[1] فوقها وخمسة قلالي[2] لسكنى الرهبـان، فأحضـر القاضي شرف الدين التباني شهوداً من الرهبان القاطنين هناك، وشـهدوا بمـا أوجب هدم الزيادة، ويكون ريعها لبيت مال المسلمين[3].

وفي عام ٨٥١هـ / ١٤٤٧م عقد السلطان الظاهر جقمق مجلسـاً حضـره عدد من العلماء للتشاور في أمر الكنيسة التي كانت بقصر الشمع فـي مصـر القديمة، أراد السلطان هدمها، لأن النصارى استحدثوا فيها بناء جديداً، وفعـلاً تم هدم ما استحدث منها، وأخذت أخشابها ورمم بها مسجد مجاور لهـا، وهـو مسجد أبي عبد الله النعمان[4].

وقد سعى العلماء في العصر المملوكي للحد من استخدام أهل الذمـة فـي الوظائف الإدارية في الدولة، واستخدموا نفوذهم وسـلطتهم للحـد مـن هـذه الظاهرة فلم يترك العلماء سبيلاً إلى ذلك إلا وسلكوه سواءً، بالاحتجاج على هذا

---

(١) الجملون :هو الجزء الأعلى من المثلث، ويستخدم المصطلح في الهندسة المعمارية لتعريف نوع مـن الأسقف للبيوت والمباني القرميدية. الموسوعة الحرة "ويكيبيديا"، مادة جملون،١٤٣٠/١٢/٧هـ.

(٢) قلالي: مفردها قلال، وهي الخشب المنصوب للتعريش وهي أعمدة ترفع بها الكروم من الأرض؛ ابـن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص١٨١.

(٣) العيني: عقد الجمان حوادث وتراجم السنوات من (٨٢٤- ٨٥٠هـ) ص٦٤٤-٦٤٥؛ السخاوي: التبر المسبوك، ج١، ص٢٦٣-٢٦٤، ٣٠٠-٣٠١؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص٢٣٧؛ ابن شـاهين الظاهري: نيل الأمل، ج٥، ص٢٠٧؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص٦٠١؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص٧٨.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢،ص٢٥٩؛ السـخاوي: وجيـز الكـلام، ج٢، ص٦١٤؛ ابـن شـاهين الظاهري: نيل الأمل، ج٥، ص٢٣٦. ومسجد أبي عبد الله النعمان: يقع بين مربعة العطـارين إلـى مربعة الحدادين، في منطقة بين القصرين. ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص٨٥.

الوضع عند السلاطين أنفسهم، أو بتأليف الكتب والرسائل التي تنكر هذا الوضع.

فها هو أحد الكتاب يتعجب من الإفراط في تولية أهل الذمة مهاماً إدارية في الدولة حيث يقول الإسنوي: ".. العجيب أنه لا يعرف في إقليم من الأقاليم من الشرق إلى الغرب توليتهم إلا في إقليم مصر خاصة، فيا لله العجب، ما بال هذا الإقليم دون سائر الأقاليم مع أنه أعظم أقاليم الإسلام وأوسعها عالماً وأكثرها علماً..."(١).

أما المؤلفات التي ألفت لتناقش قضية عمل أهل الذمة في الوظائف الإدارية في الدولة الإسلامية فمنها كتاب "الكلمات المهمة في مباشرة أهل الذمة" لجمال الدين أبي محمد عبد الرحيم الأسنوي(٢) وكتاب "الذمة في استعمال أهل الذمة" لأبي إمامة محمد بن على النقاش(٣) وكتاب "شروط النصارى" من تأليف الشيخ أبي محمد عبد الله بن زين القاضي(٤). كما حوى كتاب "أحكام أهل الذمة" لابن القيم الجوزية فصلاً تحدث عن حكم عمل أهل الذمة في الوظائف الإدارية في الدولة الإسلامية(٥). وكذلك الحال بالنسبة لكتاب "معالم

---

(١) قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص٧٩.

(٢) هو محمد بن علي بن يوسف الأسنوي الشافعي، درس وأفتي وناب في الحكم، توفي سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٢٦١-٢٦٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص١٩٠- ٢١٦.

(٣) هو شمس الدين أبو أمامة محمد بن علي بن عبد الواحد الدكالي الشافعي، وهو أحد الوعاظ والفقهاء، توفي سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص١٢٤-١٢٥.

(٤) هو أحمد بن حسن بن الزين محمد الأمين محمد بن القطب محمد القيسى القسطلانى الشافعي، ولد سنة٧٧٠هـ/١٣٦٨م ناب في القضاء، كان له علم بالفقه، ومعرفة بكتابة الوثائق والسجلات والدعاوى، مات سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م، السخاوي: الضوء، ج٥، ص٥.

(٥) ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج١، ص١٦٤-١٨٣، ص١٨٧-١٨٨.

القربة" لابن الأخوة الذي صرح بعدم جواز استخدام أهل الذمة في الوظائف الإدارية في الدولة، وساق الأدلة والشواهد على ذلك(١).

أما أهم الوظائف التي باشرها أهل الذمة في مصر المملوكية، فمنها جباية الأموال، إضافة إلى الكتابة عند الأمراء والصيرفا في الجوالي، والقيام بمسح الأراضي للخراج، ووظائف الترجمة في الديوان السلطاني، كما أشرف أهل الذمة في بعض الأحيان على دار ضرب العملة في مصر(٢).كما باشر بعضهم وظيفة نظر الجيوش، ونظر بيت المال، والكتابة في ديوان الجيوش، ونظراً لأهمية هذه الوظيفة فقد عمل الملك المنصور علي كف أيديهم عن العمل فيها سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م وعين مكانهم علماءً ومسلمون(٣). وعندما آلت السلطنة إلى السلطان حسن بن قلاوون أمر بصرفهم عن وظيفتي نظر الجيش ونظر بيت المال واستبدلهم بعلماء مسلمين(٤).

واللافت للنظر، أن بعض سلاطين دولة المماليك كانوا بتأييد من العلماء يعمدون إلى استخدام تولية بعض أهل الذمة لبعض الوظائف في دولتهم كوسيلة لحثهم على اعتناق الإسلام . فقد خيّر السلطان المنصور قلاوون في سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م. عدداً من كتاب الدواوين في دولته، من اليهود والنصارى بين اعتناق الإسلام أو التخلي عن مناصبهم، فتظاهر عدد منهم بإشهار إسلامه. فشك السلطان في صدق نواياهم ودعا إلى عقد مجلس لهم حضره عدد من العلماء والقضاة للنظر في أمرهم. فحكم القاضي المالكي جمال الدين بن أبي

(١) ابن الإخوة: معالم القربة، ص٤٤-٤٥.

(٢) قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص٨١-٨٢.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٥٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٦٢-٦٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٧٨.

يعقوب[1] بالسماح لمن أسلم مكرها منهم بالعودة إلى دينه، والاكتفاء بفرض الجزية عليهم[2].

و قد خالف السلطان الأشرف خليل والده في هذا الأمر. فقد مارس نوعاً من الشدة مع أهل الذمة في هذا المجال، ولعل ذلك كان بسبب تخوفه من ردة فعل نصارى الشام ومصر من نجاحه من اقتلاع الوجود الصليبي من ساحل الشام من جذوره آنذاك. يدلنا على ذلك ماحدث سنة عام ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م. عندما لاحظ الأشرف تغيّراً ملحوظاً في تعامل النصارى مع المسلمين. حيث أصدر أوامره بتسريح أهل الذمة من المناصب الإدارية في دولته. ورفض توسل بعضهم في ذلك، واتفق الرأي "أن من أسلم يبقى في منصبه" وأحضر من وافق منهم على الإسلام إلى مجلس نائب السلطة، ليشهد القضاة على إسلامهم، وعندما سئل القاضي تاج الدين بن السفلوري[3] عن رأيه في إسلام هؤلاء الجماعة من أهل الذمة أجابهم بقوله: "أقول إن الذليل منهم صار عزيزاً، والعزيز من المسلمين صار ذليلاً لهم، فإنه كان يمنعهم من ظلم الناس ومن التكبر عليهم كونهم نصارى، فالآن يقولون: نحن مسلمون فيتسلطون عليهم، والله يتولى سرائرهم"[4].

وقد سار السلطان الناصر محمد بن قلاوون على نهج أخيه الأشرف في هذا الأمر. فقد أصدر سنة٧٠٠هـ / ١٣٠٠م مرسوماً ألزم فيه أهل الذمة بتطبيق العهدة العمرية، والتخلي عن وظائفهم الإدارية ولبس ما اصطلح على تسميته في ذلك العصر بالغيار، ومنعهم من ركوب الخيل وحمل السلاح، وأن

---

(١) هو يوسف بن عبد الله بن عمر الرازي، قاضي قضاة المالكية في مصر، توفي سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٥١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٤٢؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ص٤ ، ص٩٨-٩٩.

(٣) لم أقف له على ترجمة .

(٤) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص١٨١-١٨٤.

يركبوا الحمير عرضاً، ولا يرفعون أصواتهم فوق أصوات المسلمين إلى غير ذلك من الشروط التي ألزمهم بها الناصر محمد، و قد رفض كل المحاولات التي أبداها اليهود والنصارى لإسقاط ذلك المرسوم(١).

ويبدو أن منع أهل الذمة من العمل أصبح مطلباً ملحاً من قبل العلماء في دولة المماليك ، ولعل مما يؤكد ذلك قول المؤرخ ابن تغري بردي في معرض حديثه عن امتداح السلطان المؤيد شيخ، الذي عقد اجتماعاً في حضرته حضره عدد من العلماء والقضاة، وصدر عنه تأكيد التزام أهل الذمة بالزى الذي قرر عليهم، فضلاً عن منعهم من العمل في الديوان السلطاني، أو عند أحد الأمراء حيث قال ما نصه: "ولعل الله أن يسامح الملك المؤيد بهذه الفعلة عن جميع ذنوبه ، فإنها من أعظم الأمور في نصرة الإسلام ومباشرة هؤلاء النصارى في دواوين الديار المصرية من أعظم المساوئ التي يؤول منها تعظيم دين النصرانية، لأن غالب الناس من المسلمين محتاج إلى التردد إلى أبواب أرباب الدولة لقضاء حوائجهم "(٢). كما وصف المؤرخ نفسه، حال أهل الصعيد مع موظفي الدولة من النصارى بقوله: "حدثني بعض الثقات من أهل صعيد مصر قال: كان غالب مزارعي بلدنا أشرافاً علويةً، والعامل بالبلد نصرانياً، فإذا قدم العامل إلى البلد خرج الفلاحون لتلقيه، فمنهم من يسلم عليه السلام المعتاد، ومنهم من يفشى السلام عليه ويمعن في ذلك، ومنهم من يمشي في ركابه إلى حيث ينزل من البلد، ومنهم من يقبل يده – وهو الفقير المحتاج أو الخائف من صاحب البلد – ويسأله إصلاح شأنه فيما هو مقرر عليه من وزن الخراج حتى يسمح له بذلك ، فلما منع الملك المؤيد هؤلاء النصارى عن المباشرة بطل

---

(١) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص١١٧؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٣٣؛ أبو الفداء المختصر، ج٤، ص٤٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٥٩–٢٦٠؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٣، ٣٧٧؛ محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص١٠٦.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٢٣٠–٢٣٢.

ذلك كله ، فيكون الملك المؤيد على هذا الحكم فتح مصر فتحاً ثانياً ، وأعلى كلمة الإسلام وأخذل كلمة الكفر، ولا شيء عند الله أفضل من ذلك"(١).

كما أصدر الظاهر خشقدم سنة ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م قراراً بمنع أهل الذمة من العمل في الدواوين ، ثم عقد مجلساً مع القضاة والعلماء وذلك للتشاور في أحوال أهل الذمة، فأخرجت العهود القديمة التي كتبت عليهم، وقرئت بين يدي العلماء، عند ذلك أصدر قاضي القضاة الشافعي علم الدين صالح البلقيني حكما نص على:

- إلزام أهل الذمة بما ورد في العهود القديمة من لبس الغيار وتصغير العمائم وغير ذلك مما ورد في العهدة العمرية.

- أن يمنعوا من العمل في الدواوين أو عند أحد الأمراء، وأن يقتصر عملهم فقط في صرف النقود والطب ولا يكون ذلك إلا بشروط. وعندما خرجت تلك البنود إلى حيز التطبيق، اضطر عدد من النصارى إلى اعتناق الإسلام، وذلك لرغبتهم البقاء في وظائفهم ومراكزهم المرموقة ولتعففهم عن لبس الغيار، واللافت للنظر هنا أن كلاً من ابن تغري بردي وابن إياس، اتهما السلطان خشقدم بأنه لم يطبق هذا القرار إلا لمدة عام واحد فقط، لأن كبار النصارى والأقباط دفعوا أموالاً للسلطان للتنازل عن تلك الشروط وترك الحرية المطلقة لأهل الذمة(٢).

كما يلاحظ أيضاً تفاوت في بعض الفترات التي كانت تصدر فيها المراسيم التي تفرض القيود على أهل الذمة، إذ إن الفترات التي لم يفرض فيها

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣ ص٢٣٠-٢٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٢٤٩-٢٥٠؛ ابن إياس بدائع الزهور، ج٢ ص٤١٢-٤١٣.

أي شروط على أهل الذمة في مصر كانوا يتمتعون بكامل حرياتهم سـواءً فـي الملبس أو العادات الاجتماعية أو حتى تولي الوظائف.

وعلى الرغم من أنه كانت تصدر من حين لآخر أوامر من السلاطين تلـزم أهل الذمة الشروط التي سبق أن فرضت عليهم. إلا أن أحد المصادر يـذكر أن الوزير ابن الخليل(١) حاول سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م تخفيف بعض القيـود عـن النصارى والتي فرضها عليهم مرسوم عام ٧٠٠هـ /١٣٠٠م في عهد الناصـر محمد بن قلاوون، لكن الشيخ ابن تيمية تصدى لتلك المحاولات ومنـع مـن أن يعود أهل الذمة للبس العمائم البيض(٢).

كما أصدر السلطان والعلماء مرسوماً عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م بـالتزام أهـل الذمة بشروط المعاهدة العمرية وما تضمنته من شروط، وذلك بتحـريض مـن العامة وبعض "أهل الخير"(٣).

أما مرسوم عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م فقد اشتمل على تفصيلات أخـرى عـن نوع اللباس الذي ترتديه نساء النصارى، فالزمن بلـبس إزار(٤) أزرق، ومنـع دخول أهل الذمة من اليهود والنصارى للحمامات إلا وفي أعنـاقهم أجـراس، وشدد على هذا الأمر باستدعاء بطرك النصارى ليشهد على نفسه أنـه وافـق على هذه الشروط(٥).

وفي عام ٨٢٠هـ /١٤١٧م وبسبب ترك أهل الذمة للشروط التي فرضـت عليهم سابقاً سواءً في الملبس أو المركب وخروجهم عن الحد في ذلك وتشـبههم

---

(١) هو خليل بن شاهين الشيخي الصفدى الأشرفي، تـولى الـوزارة ونيابـة الكـرك والقـدس وملطيـة والإسكندرية، وهو حنفي المذهب، درس على ابن جماعة فأجازه، تـوفي سـنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م ،ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣،ص٢٥.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٤١؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص٧١-٧٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٩٢١-٩٢٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٠، ص٢٢٢.

(٤) الإزار: كل ما وارى الإنسان وستره من أنواع الملابس، انظر ابـن منظـور: لسـان العـرب، ج١، ص٩٧.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٤٠.

بالقضاة في الملبس فقد صدر مرسوم آخر يأمر أهل الذمة بالتقيد بالأحكام التي فرضت عليهم سابقاً[1].

وفي عام ٨٢٢هـ / ١٤١٩م تولى محتسب القاهرة مراقبة أوضاع أهل الذمة، فكان يأمرهم بمخالفة المسلمين في الملبس وتصغير العمائم وكان يتتبعهم بنفسه[2].

كما صدر مرسوم عام ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م يقضي بكف أهل الذمة عن مزاولة مهنة الطب. حيث منع أهل الذمة من تطبيب المسلمين[3]. وذلك للخوف من غائلتهم وخيانتهم للمسلمين،والواقع أن مثل هذا القرار لا يصدر إلا بعد أخذ مشورة العلماء ، خاصة أن المصدر لم يشير إلى سبب إصدار هذا القرار أو من الذي كان وراء إصدار هذا القرار، كما أن مرسوماً آخر صدر عام ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م نبه أهل الذمة إلى تصغير العمائم وشدد على ذلك، وهذا بسبب تغاليهم في لبس العمائم الكبار تشبهاً بالمسلمين والقضاة[4].

والملاحظ مما سبق، أن مثل هذه الأمور ومايصدربها من مراسيم تجاه أهل الذمة تكون في الغالب بتوصية من العلماء والمشايخ والصلحاء الذين يعيشون داخل المجتمع المصري، ويخالطون عامة الشعب، فهم المرآة التي تعكس للسلطان هموم ومشاكل هذا الشعب، وعندما نذكر مسألة دخول أهل الذمة للحمامات بالأجراس فإن ذلك يعنى حكماً شرعياً،لم يصدر من فراغ، فحدود عورة المسلم للمسلم تختلف عن حدود عورة المسلم للذمي أو الكافر، والله أعلم.

ومما يدخل ضمن دور العلماء في توجيه سياسة سلاطين المماليك تجاه أهل الذمة، ما أثر عن تصديهم لبعض البدع التي كان يجاهر بها النصارى في

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٤١٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٤٨٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٢٣٢.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٦٥؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج٥، ص٢٥٩.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٧٨.

البلاد. ومن ذلك على سبيل المثال ما عرف بعيـد الشـهيد[1]: حيـث يظهـر النصارى فيه تابوتاً يضعون به إصبعا، يزعمون أنه لأحد شـهدائهم، ويجتمـع النصارى من جميع الأراضي المصرية في منطقة شبرا، ليشهدوا إلقـاء هـذا التابوت في موضع معين من النهر، ظناً منهم أن زيادة منسوب ميـاه النيـل لا تتم إلا بذلك .ويحدث خلال اجتماعهم الكثير من المنكرات حيث يشاركهم فـي هذا الاحتفال بعض ضعاف النفوس من المسلمين. فقد تصدى العلماء لهذا الأمر وطالبوا بإبطال هذا المشهد. ولهـذا أمـر الأميـر بيبـرس الجاشـنكير فـي سنة٧٠٢هـ / ١٣٠٢م بإبطالة، وعلى الرغم من محاولات الأقباط في إعادتـه إلا أن الأمير بيبرس الجاشنكير كان مصراً على رأيه ومنع عودة ذلك العيـد[2] ولكن هذا العيد ما لبث أن أُعيد سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م بعـد أن ألغـي سـتا وثلاثين سنة، وأعاده الناصر محمد بن قلاوون، لكن السلطان الملـك الصـالح صلاح بن محمد بن قلاوون ألغى هذا العيد سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م حيث قـام الأمراء المتصرفون في دولته آنذاك بهدم كنيسة النصارى التي تقع فـي شـبرا الخيام[3] وإحراق أصبع الشهيد، وألقي رماده في النهر [4].

---

(١) **عيد الشهيد: من الأعياد المهمة عند النصارى، ويكون في الثامن من شهر بشنس ويعتقدون أن النيل بمصر لايزيد في كل سنة، حتى يلقي النصارى فيه اصبعاً من أصـابع أسـلافهم المـوتى، انظـر: المقريزي: الخطط، ج١، ص١٢٩-١٣١؛ ناريمان عبد الكريم: معاملة غيرالمسـلمين فـي الدولـة الإسلاميه، ص١٦٦.**

(٢) **المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٤١-٩٤٢؛ الخطـط، ج١، ص١٢٩-١٣٠؛ القـول الإبريـزي؛ ص٢٥٠-٢٥٢ ؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٢٦٧-٢٦٩؛ ابن تغـري بـردي: النجـوم، ج٨، ص١٦١؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر، ص١٥٣.**

(٣) **شبرا الخيام: هي من ضواحي القاهرة، تقع على شاطئ نهر النيل. عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ص١٧١؛ عبد الرحمن زكي: موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، ص٢٠١.**

(٤) **المقريزي: القول الإبريـزي، ص٢٥٣-٢٥٤؛ السـلوك: ج٢، ق٣، ص٩٢٦-٩٢٧؛ الخطـط، ج١، ص١٣٠-١٣١؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج١، ص٢٦٨؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة فـي مصر، ص١٥٣.**

وما قيل عن عيد الشهيد يمكن أن يقال عن عيد النـــوروز[1] الـــذي كـــان يظهر خلاله الكثير من المنكرات والمجاهرة بالمعاصي كشرب الخمر واختلاط النساء بالرجال وغيره، وكان يشترك في ذلك الكثير من طبقة العامـــة. فضـــلاً عما كان يحدث خلال هذه الاحتفالات من تعطيل الكثير مـــن مصـــالح الخلـــق وإلحاق الضرر الاقتصادي والاجتماعي بهم. ولهذا فقد تصدى العلمـــاء لـــذلك وأنكروا ما يصاحبه من منكرات، فما كان من السلطان الظـــاهر جقمـــق إلا أن أصدر أوامره بمنع الاحتفال بهذا العيد[2].

---

(١) عيد النوروز: هو عيد من أعياد النصارى، وهو في أول السنة القبطية، والنوروز لفظة فارسية تعنـــي اليوم الجديد ، وهم يزعمون أن هذا اليوم خلق الله النور، وأن في هذا اليوم يبدأ دوران الفلك، وقيل إن أصل هذا العيد يعود إلى سليمان بن داود، وهو اليوم الذي وجد فيه خاتمه، وقيل إن هذا اليـــوم الذي شفي فيه أيوب عليه السلام من مرضه، ويرجح أحد المؤرخين أن يكون هـــذا اليـــوم عنـــدما يستوفي ماء النيل، وذلك يكون في فصل الخريف / ويؤكد المؤرخ قاسم عبده قاسم على ترجيح هذا الرأي؛ لأن المصريين على اختلاف طوائفهم شاركوا في هذا العيد المـــرتبط بزيـــادة ميـــاه النيـــل، انظر:المقريزي: القول الإبريزي، ص٢٤٢-٢٥٠، الخطط، ج٢، ص٣٣-٣٧؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر، ص١٥٣-١٥٤، هامش٥؛ سلام شافعي محمود: أهل الذمة في مصر فـــي العصـــر الفاطمي الأول، ص٢٠١-٢٠٤؛ ناريمان عبد الكريم:معاملة غير المسلمين في الدولـــة الإســـلامية، ص١٦٦.

(٢) المقريزي: القول الإبريزي: ص٢٤٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٦٣-٣٦٥.

الفصل الرابع
دور العلماء في العلاقات الخارجية

- العلماء وتحديد فرضية الجهاد.
- أثر العلماء في إعداد الجيوش.
- الوفود والسفارات.
- مشاركة العلماء في حركة الجهاد.

-المبحث الأول

العلماء وتحديد فرضية الجهاد

أشارت المصادر المعاصرة لدولة المماليك وبعبارات واضحة جلية إلى مشاركات فعلية لعدد كبير من العلماء والفقهاء الذين كانت لهم مكانه عالية واحترام كبير لدى سلاطين المماليك في حث عامة الناس وخاصتهم على الاستجابة لداعي الجهاد متى طرق العدو أي جزء من أراضي المسلمين، وذلك فيما يعرف "بالنفير العام" أو المشاركة بما يسمى جهاد الدفع(١).

إذ عمد العلماء إلى إقناع الناس بضرورة الجهاد الذي عده بعضهم في مثل هذه الحالة ركناً من أركان الإسلام، ولم يتركوا سبيلاً إلى ذلك إلا سلكوه سواء عن طريق الوعظ أو خطباء المساجد لحث الناس على الجهاد ،كما كان العلماء يعقدون المجالس والمحاضرات لحث الناس على الجهاد ولشحذ هممهم وترغيبهم في الجهاد والشهادة في سبيل الله، ولا نغفل دور المؤلفات القيمة التي ألفها العلماء في الجهاد وفضله وأجر المجاهد والشهادة في سبيل الله ومن أشهر هذه المؤلفات(٢) :

---

(١) جهاد الدفع: هو جهاد واجب على المسلمين جميعاً ، حر وعبد إذا طرق العدو بلاد المسلمين أو عندما يصدر الخليفة أو من يقوم مقامه أوامره للناس بالنفير العام والخروج لدفع الخطر عن أراضي المسلمين . وذلك عموم قوله تعالى في سورة التوبة: (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) آية ٤١. ولمزيد من التفاصيل عن هذا النوع من الجهاد انظرابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص١٣١، العز بن عبد السلام: أحكام الجهاد، ص٩٣، محمد بن ناصر بن عبد الرحمن الجعوان: القتال في الإسلام أحكامه و تشريعاته ، ص٢٥ ؛صالح اللحيدان: الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع.

(٢) من الكتب التي سبقت عهد المماليك: (كتاب الجهاد) لعلي بن طاهر جعفر السلمي ت (٥٠٠هـ/١١٠٧م) كتاب (تحفة الطالبين في الجهاد والمجاهدين) لتقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد بن علي الجميعيلي المقدس في (٦٠٠هـ / ١٢٠٣م) كتاب (فضائل الجهاد) للقاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن شداد ت (٦٣٢هـ / ١٢٣٤م). انظر عبدالله الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٩٥، هامش٢.

– كتاب (أحكام الجهاد وفضـــائله)[١] العلامـــه العـــز بـــن عبـــد الســـلام. ت (٦٦٠هــ/١٢٦١م)[٢] وكتاب (الاجتهاد في طلب الجهـــاد)[٣] لعمـــاد الـــدين إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير. ت (٧٧٤هـــــ / ١٣٧٢م)[٤] . ثـــلاث رسائل في الجهاد لشيخ الإسلام ابن تيمية[٥] ت (٧٢٨هــ / ١٣٢٧م)[٦] .

وقد برزت جهود العلماء في الدعوة للجهاد منذ السنوات الأولى لقيام دولة المماليك، من ذلك ما قام به الشيخ العز بن عبد السلام سنة ٦٥٧هـــــ/١٢٥٨م حينما زحفت جحافل المغول على بلاد المسلمين ووصلت بـــلاد الشـــام حيـــث أصدر فتواه الشهيرة لعامة الناس بأنه: "إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس قتاله"[٧]. وعندما نجح السلطان الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباســـية فـــي القاهرة جاء في نص تقليد الخليفة العباسي المستنصر بالله للســـلطان الظـــاهر بيبرس سنة ٦٥٩هــ/١٢٦٠م إن الاستجابة للنفير العام والخروج للجهاد ضـــد المغول "أضحى على الأمة فرض عين"[٨]. ومثله ما أكـــده الخليفـــة العباســـي الحاكم بأمر الله في خطبة الجمعة التي ألقاها في جامع القلعة بالقـــاهرة حيـــث خاطب الناس في الجامع بقوله "فشمروا ســـاق الاجتهـــاد فـــي إحيـــاء فـــرض

---

(١) حقق هذا الكتاب نزيه حماد، وطبع في دار الوفاء للنشر سنة ١٤٠٦هــ/١٩٨٦م.

(٢) ابن عبد السلام : أحكام الجهاد وفضائله.

(٣) حقق هذا الكتاب سهيل زكار، وطبع في دار التكوين في دمشق سنة٢٠٠٧م.

(٤) ابن كثير: أربع رسائل في الجهاد.

(٥) حقق هذا الكتاب محمد أبو صعيليك وإبراهيم العلي ، وطبـــع فـــي دار النفـــائس فـــي عمـــان ســـنة ١٤١٣هــ/١٩٩٣م.

(٦) ابن تيمية : ثلاث رسائل في الجهاد.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤١٦-٤١٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٦٨؛ ابن إيـــاس: بدائع الزهور، ج١، ق١،ص٣٠٢؛ ابن عبد السلام: أحكام الجهاد وفضائله، ص١٦؛ سليم بن عيـــد الهلالي: صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ص٦٢.

(٨) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٠٧؛الألطاف الخفية من السيرة الشريفة الســـلطانية الملكيـــة الأشرفية،ص١٢؛ شافع بن علي: حسن المناقب السرية، ص٤٢؛ المقريـــزي: الســـلوك، ج١، ق٢، ص٤٥٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٧؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٤٧.

الجهاد"[1]. والذي يمكن تأكيده هنا أنه عندما يـداهم العـدو بلـداً مـن بلـدان المسلمين يصبح الجهاد فرض عين على المسلم القادر بماله أو بنفسه، شأنه في ذلك شأن الحج الذي هو ركن من أركان الإسلام.

كما يعد دور شيخ الإسلام ابن تيمية في حث الناس على الجهـاد وشـحذ الهمم من أبلغ الأمثلة على دور العلماء البارز في هذا المجال ، فقد قام رحمـه الله بأعمال جليلة كتبها له التاريخ بمداد من ذهب في سبيل صد العـدوان عـن بلاد المسلمين، وذلك عندما داهم المغول بلاد الشام، فقد انبرى شـيخ الإسـلام ابن تيمية ومعه جماعة من العلماء لحثّ عامة الناس وخاصتهم، على الخـروج إلى ميادين القتال لصد هجوم المغول، بكل الطرق، فقد حرص ابن تيمية علـى وعظ الناس وحثهم على الخروج للجهاد وتذكيرهم بفضل الجهاد ووجوبـه فـي حالة مداهمة العدو بلاد المسلمين، وقد اعتاد الشيخ على جمع الناس في مكـان عام وزمان يحدده هو، فيلقي عليهم الدروس والخطب التـي تـذكرهم بأهميـة الجهاد وفضائله، وحث الناس عليه، من ذلك ما فعله يوم الجمعة ٢٧شـوال ٦٩٧هـ /١٢٩٧م عندما اشتد البلاء على المسلمين من قبل المغول فـي هـذه السنة[2] .

والملاحظ هنا أن بن تيمية كان يريد تكوين جبهة داخلية قوية تحمي بـلاد الشام متى، ما تعرضت لأى هجوم مباغت، خاصة أنه كان لا يعتمد فـي ذلـك على الجيش المصري بسبب الظروف السياسية المتـدهورة فـي مصربسـبب صغر سن السلطان الناصر محمد وتحكم الأمراء في زمام الأمـور، والـدليل على ذلك ما ذكرته المصادرعن خروج ابن تيمية بنفسه للقاهرة لحث السـلطان والأمراء على الخروج للقاء المغول وحربهم خاصـة بعـد موقعـة الخزنـدار

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٤٣ -١٤٤؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص٥٢؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٧٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٤٠٤؛ البرزالي: المقتفي، ج٢، ص٧٣؛ مريم بن لادن: دور ابن ابن تيمية في الجهاد ضد المغول الأيخانيين، ص١٤٦.

٦٩٩هـ/١٢٩٩م[1] التي هزم فيها الجيش المصري أمام المغول، مما أثار الخوف والهلع في قلوب أهل دمشق الذين حصنوا مدينتهم وقاموا بحمايتها بأنفسهم وظلوا مرابطين على أسوار المدينة لحمايتها، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية أحد هؤلاء المرابطين وكان يحفز الناس على الجهاد والمرابطة في سبيل الله بتلاوة الآيات القرآنية الداعمة لقوله وفعله [2].

وعندما سمع بن تيمية بخبر استعداد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون للخروج إلى الشام لملاقاة المغول جمع عامة الناس وخاصتهم في الجامع الأموي في مطلع شهر صفر من سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م وحثهم على الاستعداد للجهاد،وتلا عليهم عدداً من الآيات القرآنية وكذلك الأحاديث النبوية التي ترغبهم في الجهاد والإنفاق في سبيل الله ، وعندما وصلت الأخبار إلى بلاد الشام باقتراب وصول المغول إليها، وذلك في أوائل جمادي الأولى سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، خرج الشيخ ابن تيمية بنفسه لحث الجيش المرابط في المرج على الصبر على هذا البلاء، وقوى عزائمهم بخطبه الشهيرة، وأكد لهم أنهم منصورون بإذن الله في هذه المرة، وذكرهم بقول الحق تبارك تعالى (ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور)[3] .

وقد غضب -رحمه الله- من تأخر خروج السلطان لقيادة الجيش بنفسه في هذه المحنة، وتوجه بنفسه إلى القاهرة لحث السلطان والأمراء هناك على المبادرة للخروج لملاقاة العدو ونصرة المسلمين في بلاد الشام وأغلظ لهم في القول حيث خاطبهم بقوله: "إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه، ويحميه، ويستغله في زمن الأمن" وأخبرهم أن خروجهم لنصرة المسلمين في بلاد الشام واجب عليهم، حتى لو لم تكن بلاد الشام وأهلها

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه المعركة انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٨٢-٨٨٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٤١ وما بعدها؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص٩٤-٩٩ وما بعدها؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٠٣-٤٠٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ١٨، ٤١٨؛ البرزالي: المقتفي، ج٢، ص٧٣.

(٣) سورة الحج آية ٦٠.

من رعاياهم، وقوى عزائمهم على الخروج لملاقاة المغول وجـزم لهـم أن الله سينصرهم في هذه المرة وكان من شدة تفاؤله بالنصر:

" يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم فـي هـذه المـرة " فيقولون له قل إن شاء الله "فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً" [١] كمـا أجـاز للمقاتلين الفطر في نهار رمضان وأفطر هو أيضاً، وكان يـدور علـى الجنـد بشيء في يده يأكله حتى يثبت لهم أنه أفطر في نهار رمضان كي يقتدوا به فـي ذلك[٢] .

ولم يكن ابن تيمية وحده من يحث الناس على الجهـاد ويقـوي عـزائمهم ويبعث الروح المعنوية في صفوف الجند، بل كان يشاركه في هذا العمل عـدد آخر من علماء المسلمين في بلاد الشام، ففي نفس الوقت الذي كـان فيـه ابـن تيمية في القاهرة يشحذ الهمم ويحث السلطان والأمراء علـى الخـروج لقتـال المغول ، توجه جماعة من العلماء الأفاضل أمثال الشيخ زين الدين الفارقي[٣]، والشيخ شرف الدين ابن تيمية[٤] وغيرهم إلى الجيش المرابط في المرج، وذلـك

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٢٣-٤٣٤؛ البرزالي: المقتفي، ج٤، ص١٢٠؛ العيني: عقـد الجمان، ج٤، ص٢٢٣-٢٢٤؛ عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠١؛ مريم بـن لادن: دور ابن تيمية في الجهاد ضد المغول الأيلخانين، ص١٨١-١٨٣ .

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٢٣-٤٣٤؛ البرزالي: المقتفي، ج٢، ص١٣٨؛ العيني: عقـد الجمان، ج٤، ص٢٢٣-٢٢٤، عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠١.

(٣) هو عبد الله بن مروان بن عبد الله بن فيروز الفارقي الشافعي، ولد سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م، تـولي الخطابة بدمشق ومشيخة دار الحديث، توفي سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م؛ ابن العماد: شـذرات الـذهب، ج٦، ص٨.

(٤) هو عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي القاسم بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلـي أخـو الشيخ أحمد بن تيمية، ولد سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، كان له إلمام بالتراجم والوفيات، كما برع في علم الفرائض والحساب ودرس بالمدرسة الحنبلية، توفي سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م، فصلى عليه ابن تيمية وهو في السجن؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٧٦-٧٧؛ ابن رجـب: الـذيل علـى طبقـات الحنابلة، ج٢، ص٣٨٢-٣٨٤ .

لمؤانستهم وتقوية عزائمهم على الجهاد والاستبسال في سبيل الله، كما توجه نفر آخر من العلماء إلى أمير العرب مهنا[١] وحثوه على الخروج للجهاد ونصرة دين الله ، فوافق على ذلك.

والذي لاشك فيه أن هذه الجهود العظيمة التي بذلها العلماء أثمرت عن توافد أعداد كبيرة من المجاهدين من كل حدب وصوب للقاء المغول، وقد تمخض عن ذلك تحقيق ذلك النصر العظيم على المغول في معركة شقحب ٢/رمضان/٧٠٢هـ/١٣٠٢م. و أجبروا المغول أن يولوا الأدبار منهزمين بعد أن أثخنوا فيهم قتلاً وأسراً[٢] .

ومن الأمثلة على ذلك ماحدث سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م عندما حاول المغول معاودة الكرة لغزو بلاد الشام حيث خرج العلماء ومعهم القضاة إلى طرقات بلاد الشام يحثون الناس على الجهاد والاستعداد لملاقاة العدو ، وأخبروهم بأن السلطان الظاهر برقوق على مشارف بلاد الشام قادم لنجدتهم من المغول[٣] .

وعلى الرغم من وصول السلطان على رأس جيش إلى بلاد الشام إلا أن تيمورلنك عاد أدراجه إلى بلاده، من غير وقوع أي نزال بين الطرفين، والظاهر أن ذلك كان بسبب سوء الأحوال الجوية في مشارف بلاد الشام ، لكنه عاود الكرة مرة أخرى وهاجم بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م وعاث في البلاد الحلبية فساداً تشيب من ذكره الولدان مما استدعى العلماء لحث الناس

---

(١) هو حسام الدين مهنا بن الملك عيسى بن مهنا الطائي، توفي وقد ناهز الثمانين سنة بالقرب من قرية سلمية سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١١٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٢٤؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٣٠-١٣١. عن معركة شقحب انظر:البرزالي: المقتفي،ج٢، ص٢١٧-٢٢٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٤١٣-٤١٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٢٦-١٣١؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦-٢٠

(٣) ابن صصري: الدرة المضيئة، ص١٤٤-١٤٥، لمزيد من التفاصيل عن حروب تيمورلنك في البلاد الإسلامية انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٦٠-٤٦٩؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٤٥٠-٤٦٩ وما بعدها.

على الجهاد، فقام شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني والقضاة بالخـــروج في شوارع القاهرة في ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م يستنفـــرون النـــاس من أجل الجهاد و كانوا ينادون في الناس بقـولهم: " الجهـــاد فـــي ســـبيل الله، لعدوكم الأكبر تيمورلنك فإنه أخذ البلاد، ووصل إلى حلب، وقتل الأطفال علـــى صدور الأمهات، وأسر العباد، وخرّب الدور، والمساجد والجوامـــع، وجعلهـــا اصطبلات للدواب، وهو قاصدكم يخرب بلادكم، ويقتـــل رجـــالكم وأطفـــالكم، ويسبي حريمكم" [١] .

كما شمل هذا الدور علماء بلاد الشام أيضاً، وخاصة عندما شـــاهدوا مـــا أصاب أهل حلب من الهلع والخوف، وخـــافوا مـــن أن تكـــون دمشـــق هـــدفاً لتيمورلنك. وبعد أن دخل حلب وأهلك بها الحرث والنســل خـــرج عـــدد مـــن علمائها وفي مقدمتهم القضاة وذلك يوم الخمـــيس الثالـــث مـــن صـــفر ســـنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م وأخذوا يتجولون في شوارع دمشق ،يذكرون الناس بفـــرض الجهاد ويحثونهم على الخروج لصد هجوم تيمورلنك المرتقب على مـــدينتهم[٢] ولعل هذا الدور قد بلغ تيمورلنك، فبادر بإرسال رســـالة إلـــى قضـــاة دمشـــق وعلمائها يخبرهم بسبب مجيئه إلى بلاد الشام،و يطلـــب مـــنهم التوســـط لـــدى السلطان الناصر فرج في مصر لإعادة أحد أقربائه الذي كان أسـيراً هنـــاك . وهدد بأن انتقامه سيكون قوياً إذا تعرض قريبه هذا لمكـــروه، وحمَّـــل هـــؤلاء العلماء مسئولية ما سيلحق الناس الأبرياء من سفك لدمائهم[٣] وهنا يبدو للباحثة أن أحد علماء دمشق قد انطلى عليه تهديد تيمورلنك خاصة بعد عودة السلطان المملوكي بعسكر مصر إلى القاهرة، وشروع تيمورلنك في حصار دمشق فـــي

---

(١) **المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٣٦؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص١٨٣؛ ابـــن إيـــاس: بدائع الزهور ج١، ق٢، ص٦٠١.**

(٢) **المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص١٠٣١؛ ابن حجي: تاريخ ابن حجي، ج١، ص٤٥٥ـ٤٥٦؛ ابـــن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٩٥.**

(٣) **المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص١٠٣١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٩٥-٥٩٦؛ ابن حجر: أنباء الغمر، ج٢، ص١٣٣؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج٣، ص٤٨.**

شهر جمادى الآخرة من سنة ٨٠٣/١٤٠٠م .وعندما شـــاهد تيمورلنـــك مـــدى استبسال أهلها في الدفاع عنها وأدرك عجز قواته عن اقتحام أسوارها بـــالقوة. عمد إلى استخدام الخدعة والمكيدة للسيطرة على المدينـــة ، فأرســـل يعـــرض عليهم الصلح، وطلب من أهل دمشق رجلاً عاقلاً يجيد فن الحـــوار والمناقشـــة والتحدث باللغتين الفارسية والتركية، حتى يبرم معه الصلح ، فخرج له قاضي قضاة الحنابلة القاضي تقي الدين بن مفلح[(١)] الذي خدع بكلام ووعود تيمورلنك، وتوجه إلى أهل دمشق يثبط عزائمهم عن الجهاد، ويخبرهم أن تيمورلنـــك عفـــا عنهم، وأعطاهم الأمان شرط أن يرسلوا له بعض الهدايا والأمـــوال، وبـــالرغم من انقسام الناس داخل مدينة دمشق بين مؤيد ومعارض لرأى ابن مفلـــح، فقـــد كانت الغلبة في النهاية للفريق المؤيد لما ذهب إليه ابن مفلح الذي أهلـــك أهـــل دمشق بسوء تصرفه[(٢)] ويعلق أحد المؤرخين على موقف ابن مفلح، هـــذا بأنـــه أراد أن يحذو حذو ابن تيمية ودوره البطولي في معركة شقحب، ولكـــن جـــاء عمل ابن مفلح في الاتجاه المعاكس والمغاير لما قام به ابن تيمية، فبينمـــا كـــان ابن تيمية يشحذ الهمم للقتال ويحث الناس على الجهاد والاستبسال من أجل نيـــل الشهادة، نرى ابن مفلح يرخي العزائم عن الجهاد ويدعو للتســـليم والاستســـلام لتيمورلنك مما أدى إلى وقوع تلك الكارثة بدمشق وأهلها[(٣)] .

ولم يقتصر دور علماء الشام على تذكير الناس بفرضية الجهاد متى داهـــم العدو بلادهم على خطر المغول فقط، بل تعدي ذلك الأخطـــار الأخـــرى التـــي

---

(١) هو إبراهيم بن محمد بن مفلح ا لصالحي، تولي قضاء الحنابلة بدمشق ودرس وأفتى بها، ولـــد ســـنة ٧٥١هـــ/١٣٥٠م، وتوفي في أواخر شعبان سنة ٨٠٣هـــ/١٤٠٠م وقد ناهز الخمسين؛ ابن حجـــر: إنباء الغمر، ج٢، ص١٥٠؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٣٥٧.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٤٦-١٠٤٩؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص١٩٠-١٩٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦١٠-٦١٨ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص١٣٧-١٣٩؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٣٥٢-٣٥٣؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج٣، ص٥٣؛ محمد بن سليمان الراجحي: لقاءات "تيمورلنك" ومجادلاته مع العلماء في بـــلاد الشـــام، ص٢٠٩-٢١٦، مجلة الدرعية، العدد ٣٦، السنة التاسعة، ذوالحجة، ١٤٢٧هـــ/٢٠٠٧م.

(٣) أكرم حسن العلبي: تيمورلنك، ص١٦٠.

طالما أحدقت ببلادهم. ومنها على سبيل المثال ما حدث سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م عندما هاجم زعيم إحدي الإمارات التركمانية، وهو الأمير قرايوسف الحدود الشمالية لدولة المماليك. حيث توغلت قواته في أراضي الدولة المملوكية حتى وصلت مشارف مدينة حلب. وعندما سمع السلطان المملوكي المؤيد شيخ المحمودي بذلك الخبر، الذي أثار الهلع والخوف في نفوس الناس جمع العلماء والقضاة وعلى رأسهم شيخ الإسلام جلال الدين البلقيني، واستفتاهم في قتال قرايوسف، فأجاز العلماء قتاله وكتبت فتوى بمعنى ذلك ، ثم خرج شيخ الإسلام جلال الدين البلقيني والقضاة الأربعة والخليفة إلى شوارع القاهرة، يحثون الناس على الجهاد ويدعونهم إلى النفير العام من أجل صد هذا العدو وهم ينادون في شوارع القاهرة: "بأن قرايوسف طرق البلاد الشامية وأنه يستحل الدماء والفروج والأموال ويخرب الديار، فالجهاد!! الجهاد!! ولا يتأخر أحد من المساعدة بنفسه وبماله"(١).

وختاماً يمكن القول إن علماء الدولة المملوكية على اختلاف مشاربهم قد قاموا بدور فاعل في حث الناس على النفير العام لمواجهة الأخطار التي كانت تهدد أراضي الدولة المملوكية خلال عصريها البحري والبرجي.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٤٦٠؛ العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من ٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٣١٩-٣٢٠؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٣، ص٢١٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص١٦٩.

المبحث الثاني
أثر العلماء في إعداد الجيوش

لقد أسهم علماء دولة المماليك بجهود فاعله في تجهيز الجيوش وإعدادها بشكل مباشرأوغير مباشر لمواجهة الأخطار التي هددت دولتهم بين آونة وأخرى ، وتعد فتوى العز بن عبد السلام للمظفر قطز سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م أبرز تلك الجهود التي بذلها العلماء في هذا المجال، وذلك عندما اشتكى الملك المظفر قطز إلى العز بن عبد السلام نقص الأموال في بيت المال، وأنه بحاجة لأخذ الأموال من الرعية لصرفها على الجيش الذي سيخرج لملاقاة المغول في عين جالوت، وطلب من العز بن عبد السلام أن يصدر فتوى تبيح له فرض قدرٍ من المال على الناس لهذا الغرض، ورغم أن العز بن عبد السلام أبى أول الأمر أن يجيز لقطز أخذ أي مبلغ من المال من الرعية قبل أن يقوم السلطان المظفر قطز نفسه وكبار أمرائه بإخراج ماالديهم من أموال وحلي وآلات الحرب، وأن يحتفظ كلٌّ منهم فقط بفرس وسلاح، إلا أنه عندما استجاب السلطان ومماليكه إلى ما طلبه منهم العز بن عبد السلام أباح له العز أن يأخذ من أمول الناس مايحتاجه لتجهيز جيشه الذي كان يعده لملاقاة المغول(١).

والذي لا شك فيه أن هذه الفتوى، قد لقيت صدى كبير في أواسط الناس في كافة أراضي الدولة المملوكية، حيث بادر عامة الناس وخاصتهم إلى الامتثال لدفع ما طلب منهم من أموال وغيرها للصرف على الجيش المملوكي الذي كان على وشك الخروج لملاقاة المغول وصد خطرهم عن الأراضي المصرية . وذلك لما كان يحظى به العز بن عبد السلام، من احترام وتبجيل

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤١٦-٤١٧؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٨، ص٢١٥-٢١٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٦٧-٦٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور ج١، ق٢، ص٣٠٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٣؛ العز بن عبد السلام: أحكام الجهاد، ص١٦؛ عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص٩٨؛ سليم الهلالي: صفحات مطوية من حياة العز بن عبد السلام، ص٦٢.

لدى المصريين في ذلك الوقت. وهذا في حد ذاته يدحض ماذهب إليه أحد المؤرخين المحدثين، الذي اعتبر فتوى العز هذه والتي رفض من خلالها موقف السلطان قطز على فرض الضرائب على الرعية إلا بعد إخراج ماالديه ولدى أمرائه من الأموال والحواصل بأنها كانت عقبة وقفت في طريق قطز لتجهيز الجيش المصري آنذاك[1].

كما كان للشيخ محي الدين النووي موقفه الحاسم من السلطان الظاهر بيبرس ، وذلك حينما وافقه علماء الشام على أخذ أموال الناس للاستعانة بها على قتال المغول، وذلك بسبب وصول أخبار تفيد عزم المغول معاودة هجومهم على بلاد الشام[2]. حيث امتنع الشيخ النووي عن التوقيع على الفتوى التي أصدرها بعض فقهاء الشام والتي أجازوا من خلالها الأخذ من أموال الناس. فسأله الملك الظاهر بيبرس عن سبب امتناعه وعدم موافقته على هذه الفتوى، وألح السلطان الظاهر بيبرس في طلب الإجابة فأجابه الشيخ النووي بقوله: " أعرف أنك كنت مملوكاً للأمير بندقدار وليس لك مال، ثم يسر الله لك أمراً على المسلمين فوليت الملك، وسمعت أن عندك كذا ألف مملوك، كل مملوك منهم حياصته[3] بألف دينار، وعندك مائتا جارية كل جارية عندها حق[4] حلي يزيد على عشرة آلاف دينار، فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك ببنود الصوف بدلاً من تلك الحوايص وبقيت جواريك بثيابهن دون الحلي حينئذ

---

(١) انظر: العبادي: قيام دولة المماليك، ص١٦١.

(٢) فعلاً التقى الظاهر بيبرس مع التتار الذين تحالفوا مع سلاجقة الروم، وذلك في معركة الإبلستين سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م وقد انتصر فيها الظاهر على جموع التتار وقتل قائدهم تتاون؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص١٧٦-١٧٧؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٢٨-٦٢٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣١٥؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص٨٤-٨٥؛ زبدة الفكرة، ج٩، ص١٥١-١٥٢.

(٣) الحياصة: وجمعها حوائص، هو الحزام. انظر ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٢٨٨؛ عاشور: العصر المماليكى، ص٤٣٢.

(٤) الحق : هو ما نحت من الخشب أو العاج، انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص١٧٩، والمقصود هنا العلب التي يوضع بها الحلى.

أفتى لك بجواز أخذ المال من الرعية" وقد أغضبت اجابتة للسلطان الظاهر بيبرس، فأمر الشيخ النووي بالخروج من دمشق، لكن علماء دمشق أوضحوا للسلطان الظاهر بيبرس أن الإمام النووي من كبار العلماء وأجلائهم وأن هذا الخروج لا يليق بعالم مثله ،فتراجع السلطان عن قراره، وسمح للشيخ بالبقاء في دمشق، لكن الإمام النووي رفض طلب بيبرس وقال: "لا أدخلنها والملك الظاهر بالحياة أبداً"[1].

أما العلامة ابن دقيق العيد فقد كان له موقف صارم مع الأميرين بيبرس وسلار زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وذلك عندما أرادا أخذ شيئ من أموال الناس لتجهيز الجيش الخارج للقاء المغول سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م ، فأخرجا فتوى العز بن عبد السلام – سالفة الذكر –وطلبوا من ابن دقيق العيد أن يوقع عليها، ليتم بموجبها جمع الأموال من الناس، لكن ابن دقيق العيد رفض التوقيع عليها ، فقرر الأميران بيبرس وسلار –وكانا هما المتصرفيْن في شؤون الدولة زمن الناصر محمد بسبب صغر سنه– مقابلة ابن دقيق العيد، وخلال لقائهما به ذكرا للشيخ ابن دقيق العيد، قلّة موارد بيت المال، وأنها لم تعد كافية لتجهيز الجيش، وأنهما يرغبان موافقته على تطبيق الفتوى التي تجيز لهم الأخذ من أموال الناس، وذكروا له فتوى العز بن عبد السلام، وكيف أنه أجاز للسلطان الظاهر بيبرس الأخذ من أموال الناس فقال الشيخ: إن ولاة الأمر إذا أصدروا قراراً أطاعهم الناس، لكن الأمراء أصروا على الشيخ أن يصدر فتوى شرعية للأخذ من أموال الناس، فرد عليهم قائلاً: "إن الفتوى في هذا لها شروط إن فعلتموها صحت الفتوى فقالوا: ما هي؟ فقال: أن يتقدم كل أمير منكم ويحلف بالله أنه لا يملك فضة ولا ذهب ولا لزوجته وأولاده مصاغ ولا غيره" فلما سمع الأمراء قوله هذا بادروا جميعاً بإحضار مالديهم من مصاغ وذهب وانقادوا الأوامر الشيخ، وعلى الرغم من ذلك فلم يوافق ابن دقيق العيد

---

(١) **النويري الإسكندراني: الإلمام، ج٤، ص٨١-٨٢؛ عبد الله الغامدي: دور المتطوعة في حركة الجهاد، ص٣٤٠.**

على كتابة الفتوى وقال لهم: " إن كل أمير يجهز بنته بأنواع اللؤلؤ والفصوص، ويعمل بكالي فضة لبيت الماء، وقباقيب مكللة بأصناف الجواهر، وتريد مني أن أكتب فتوى على ما لا يحل" وخرج من غير أن يوقع على الفتوى، والذي يظهر هنا أن رفض ابن دقيق العيد التوقيع على الفتوى قصد به، جعل مسألة جمع الأموال تتم تحت إشراف الجهة المسئولة عن هذا الأمر مراعاة لعدم التضييق على الناس في هذا. يؤكد هذا ماأشارت إليه المصادر أنه رغم عدم توقيعه على الفتوى إلا أنه لم يعترض على قيام الفقيه المحتسب مجد الدين عيسى بن الخشاب بمهمة جمع الأموال من الناس(١)، وذلك حسب أحوال وقدرة كل شخص منهم(٢).

كما اهتم العلماء بحث الناس على تعلم رمي السهام وحثهم على ذلك في مثل هذه الظروف الصعبة، التي كان يمر بها العالم الإسلامي ففي سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م أمر قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة عامة الناس وخاصتهم في بلاد الشام ومنهم الفقهاء والعلماء، وكذلك الباعة في الأسواق بتعلم الرمي بالسهام، وعين على كل جماعة شخصاً منهم يتولى مهمة تعليمهم(٣).

وعندما وصلت الأخبار في جمادي الأولى سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م إلى القاهرة بوصول تيمورلنك إلى الرها وهو في طريق غزو بلاد الشام اجتمع السلطان الظاهر برقوق بشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني والقضاة الأربعة وأخبرهم أن بيت المال خاوٍ من الأموال، وأنه يريد أخذ أموال الأوقاف

---

(١) هو عيسى بن عمر بن خالد عبد المحسن المخزومي، كان من تلامذة شيخ الإسلام العز بن عبد السلام تولي حسبة القاهرة ووكالة بيت المال ونظر الأحباس، ودرس بعدد من المدارس، توفي سنة ٧١١هـ/١٣١١م؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج١٠، ص٣٧٩؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١١٣.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٩٧-٨٩٨؛ العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٧٢-٧٥.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٠٣؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٧٤-٧٥، عبد الله الشهري: دور العلماء المسلمين في الجهاد الإسلامي، ص١٥٦ .

لتجهيز الجيش لصد هذا الهجوم، فرفض البلقيني والقضاة موافقته علـــى ذلـــك ،ثم وافقوا بعد جدال طويل وشروط اشترطوها على أخذ أجرة سنة واحدة فقــط من الأوقاف وأراضي الخراج، وأن يتولى محتسب القاهرة القاضي جمال الدين محمود[(١)] بنفسه أخذ الزكاة من التجار وأصحاب الأملاك، ويقوم القاضي شمس الدين محمد الطرابلسي قاضي الحنفية[(٢)] بتحليفهم على أن هذا كل ما يملكونـــه، وفعلاً قام المحتسب والقاضي بما أمرا به ليوم واحد فقط، ولما وصلت الأخبـــار برجوع تيمورلنك لموطنه قام المحتسب بإرجاع الأموال إلى أصحابها[(٣)].

وعندما وصلت الأخبار إلى القاهرة في شهر محرم سنة ٨٠٣هـــ/١٤٠٠م باقتراب جيش تيمورلنك من بلاد الشام أمر السلطان الناصر فرج بـــن برقـــوق بعقد اجتماع ضم الأمراء والخليفة المتوكل على الله وحضره القضـــاة الأربعـــة وعدد من العلماء، وتشاور المجتمعون في كيفية تجهيز الجيش الـــذي ســـيخرج للقاء العدو في ظل الأوضاع المالية السيئة في الدولة آنذاك، إذ لم تكـــن توجـــد أموال كافية في بيت المال للصرف على هذا الجيش، وهنا طرح السلطان أمـــام الحضور فكرة أخذ الأموال من الناس خاصة التجار والأغنياء لتجهيز الجـــيش، فاعترض قاضي القضاة الحنفي جمال الدين الملطي على ذلك[(٤)] وأصـــر علـــى

---

(١) هو جمال الدين محمد علي القيصري الرومي الحنفي المعروف بالعجمي، تـــولي الحســـبة والأوقـــاف ودرس بالمنصورية وتولي قضاء الحنفية ونظر الجيش، وكان يعرف العربية والتركية والفارســـية، توفي سنة ٧٩٩هــ/١٣٩٦م؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٦٢؛ السخاوي: وجيز الكـــلام، ج١، ٣٢٥.

(٢) هو محمد بن أحمد بن أبى بكر الطرابلسي الحنفي، أخذ العلم في دمشق على أئمة عصـــره، ثـــم قـــدم القاهرة ودرس في مدارسها، كما أخذ من جمال الدين الأسيوطي بمكة وناب في الحكم في القاهرة ثم تولى القضاء مرتين، كان عارفاً ملماً بالحكم والوثائق، وله معرفة بعـــدد مـــن العلـــوم والمعـــارف والشعر. توفي سنة٧٩٩هــ/١٣٩٦م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٦١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٦٤؛ ابن إياس: بدائع الزهر، ج١، ق٢، ص٣٨٧؛ ابـــن حجـــر: إنباء الغمر، ج١، ص٣٣٧.

(٤) هو يوسف بن موسى بن محمد بن أحمد بن أبي بكر الحنفي، ولد سنة ٧٢٦هــ/١٣٢٥م أفتى ودرس وتولي قضاء الحنفية بمصر، كما درس بالمدرسة الصرغتمشية، توفي سنة ٨٠٣هــ/١٤٠٠م؛ ابـــن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٤٠.

المنع وقال السلطان والأمراء: " أنتم أصحاب اليد، وليس لكــم معــارض، وإن كان القصد الفتوى ، فلا يجوز أخذ مال أحد ويخاف من الدعاء علــى العســكر إن أخذ مال التجار"و لكن الأمراء تعللوا بأن سبب أخذهم للأموال هو لصــرفها على الجنود العاطلين ليخرجوا في ركاب الجيش فرد عليهم القضاة: " وما قــدر ذلك؟ ومتى اعتمد في الحرب على البطالين من الأجناد، خيف أن يأخذوا المــال ويميلون عند اللقاء مع من غلب"[1]. والذي يبدو للباحثة هنا هــو أن اعتــراض القضاة على هذا الإجراء لم يكن مطلقاً في حد ذاته، وإنما الهدف هــو ضــبط أعمال جمع الأموال من الناس، وأن يبدأ السلطان والأمراء والخليفــة بأنفســهم فيخرجون ما عندهم تأسياً بما فعله العز بن عبد السلام مع المظفر قطز، فضلاً عن لفت نظر السلطان إلى أن الاعتماد على البطالين في مهام الجهــاد يعتريــه كثير من المخاوف والمحاذير.

وعندما هــاجم تيمورلنــك بــلاد الشــام فــي يــوم الســبت ١١/ربيــع الأول/٨٠٣هـــ٣١ تشرين الأول/١٤٠٠م ، ووصل إلى مشارف حلــب، عقــد نائب دمشق اجتماعاً مع "نواب البلاد الشامية والقضاة والفقهاء" وذلك من أجل التشاور لوضع خطة محكمة تم خلالها حث الناس على بذل الغالي والنفيس من أجل الخروج لمقاومة تيمورلنك ورده عن حلب[2].

كــذلك عقــد الســلطان الأشــرف برســباي فــي ربيــع الأول ســنة ٨٣٩هـــ/١٤٣٥م عندما وصلت الأخبار بقدوم شاه روخ[3] واقترابه مــن بــلاد الشام، مجلساً ضم عدداً من العلماء والقضاة، واستفتاهم في أخذ أموال النــاس

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٢٨-١٠٢٩؛ ابن إياس: بدائع الزهــور، ج١، ق٣، ص٥٩٣-٥٩٤؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص١٣٤؛ الجنابي: العيلم الزاخر في علم الأوائل، ص٣٢٧.

(٢) أكرم حسن الحلبي: تيمورلنك وحكايته مع دمشق ص١٢٨.

(٣) هو معين الدين شاه روخ بن تيمورلنك ،صاحب سمرقندوبخارى. توفي سنة٨٥١هــــ/١٤٤٧م. ابــن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٣٤٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٦٩.

لتجهيز الجيش، فتردد هؤلاء في إصدار فتوى تحقق ماكــان يســعى إليــه[١]، وقالوا:

"كيف نفتيه بأخذ أموال المسلمين ، وكان لبس زوجته يوم طهور ولــدها – يعني الملك العزيز يوسف – ما قيمته ثلاثون ألف دينار وهــي بدلــة واحــدة، وإحدى نسائه!" [٢]. فعدل السلطان عن مسألة جمع أموال النــاس مــن عامــة الناس، واكتفي بأن يقتصر ذلك فقط على كل من لديه قدرة واستطاعة[٣]. كمــا تذكر المصادر أنه في ربيع الأول سنة ٨٩٤هــ/١٤٨٨م اجتمع الملك الأشرف قايتباي بالعلماء والقضاة عندما وصلت إليه الأخبار بسقوط قلعتي إياس وسيس بيد العثمانيين[٤]، عندها أراد السلطان تجهيز العسكر لاسترداد هاتين المدينتين، وكان بيت المال خاوياً من الأموال، فجمع العلماء والقضاة وأخبــرهم بالحــال، وانتهى الاجتماع بتقرير فرض أجرة شهرين على أصحاب الأملاك والأوقــاف بهدف صرفها على الجيش الذي كان يعده لتنفيذ هذه المهمة[٥].

ومن مساهمات العلماء في إعداد الجيوش ما قام به القاضي علاء الدين بن الإمام[٦] ناظر الخاص سنة ٩١٣هــ/١٥٠٧م بالإشراف على بناء السفن التــي كانت تصنع في الطور، وكانت هذه السفن متجهة إلى جــدة ثــم إلــى الهنــد لحمايتها من غارات البرتغال زمن السلطان قنصوه الغوري[٧].

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٩٦٢؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص١٤؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج٤، ص٣٩٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٢٥٢.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٢٥٢؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ١٤.

(٤) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج٨، ص١١٦-١١٧؛ غيثاء نافع: العلاقات العثمانيــة-المملوكيــة، ص١٢٦-١٢٨.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٦٠-٢٦١؛ الجنابي: العيلم الزاخر، ص٣٥١.

(٦) لم أقف له على ترجمة

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٥٠-١٥١.

ومن جوانب اهتمام العلماء بإعداد الجيوش اهتمامهم ومشاركتهم في تحصين وبناء المباني العسكرية والإشراف عليها لما لهذه المباني من أهمية سواءً كانت حصوناً أو أبراجاً أو قلاعاً، فقد اهتم الأشرف خليل بن قلاوون بعمارة قلعة الكرك عندما تعرضت بعض أجزائها للخراب إثر زلزال ضرب المدينة فهدم أجزاءً من قلعتها، فكلف أحد الأمراء والمهندسين المسلمين بعمارتها وترميم الأجزاء المتهدمة منها وذلك سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م[١]، كما قام القاضي زين الدين عبد الباسط بالسفر إلى حلب سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م لتفقد أسوار حلب وترميم ما تهدم منها[٢].

وعندما سافر السلطان قنصوه الغوري سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م إلى مدينتي الإسكندرية ورشيد[٣] للوقوف على أحوال الأبراج التي بها وليضع حجر الأساس للسور بثغر رشيد ،خرج معه في هذه الرحلة التفقدية للمباني العسكرية الأمراء وكبار رجال الدولة و عدد من العلماء يتقدمهم القاضي أبو البقاء[٤] وعدد من موظفي الدولة على رأسهم نائب كاتب السر الشهابي أحمد بن الجيعان[٥].

ومن إسهامات علماء المسلمين في إعداد الجيوش الإسلامية تلك الابتكارات العظيمة في مجال اختراع الأسلحة التي تجلى فيها بوضوح مدى التحضر والرقي الذي وصل إليه هؤلاء العلماء في مجال اختراع الأسلحة، فقد

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٨٢؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٨٣؛ عبد الله النايل: صناعة الأسلحة الثقيلة والنارية في الدولة المملوكية، ص٦.

(٢) العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من (٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٣١٥.

(٣) رشيد: بلدة تقع غربي النيل عند مصبه في البحر المتوسط، وتقع هذه المدينة شرقي الإسكندرية، وتعتبر من الثغور الإسلامية المصرية؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١١٧؛ وللوقوف على المزيد عن هذه البلدة ودورها الثغري، انظر: صفاء حافظ: الموانئ والثغور المصرية من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصرالفاطمي، ص١٨٤.

(٤) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن الفرفور الدمشقي قاضي القضاة الحنفية بالشام بدر الدين أبو البقاء، تولي الحسبة ونظر بعض المدارس إضافة إلى التدريس بعدد من المدارس، توفي سنة ٩٢٦هـ/١٥١٩م؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص١٤٧.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٧٤-٤٧٥.

ترك لنا علماء المسلمين مؤلفات عظيمــة شــرحوا فيهــا تلــك الابتكــارات والمركبات التي استخدمت في تطوير الأسلحة، وقد ساهم فــي تطــوير هــذه الصناعة اهتمام سلاطين المماليك بتشجيع الصناعات الحربية ومتابعة آخر مــا توصل إليه العلماء المسلمون في هذا المجال، كما حرص الســلاطين علــى أن تكون تلك الأسلحة المتقدمة متوفرة في خزائن السلاح الخاصة بهم، كما وفــروا لهؤلاء العلماء المواد الخام اللازمة وكذلك الصناع المهرة لعمــل تلــك الآلات الحربية[١].

ومن أشهر علماء المسلمين في صناعة السلاح العالم الطرسوســي[٢] وقــد قام هذا العالم الجليل بتأليف كتاب مفيد ودقيق عن الأســلحة وصــناعة الآلات الحربية، وشرح تركيب المواد الكيميائية المستخدمة فــي الحــروب للســلطان صلاح الدين الأيوبي.

وقد أسمى هذا الكتاب "تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأنواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقــاء الأعــداء" والذى لاشك فيه أن القائمين على الدولة المملوكية قد استفادوا من هذا الكتــاب في تطوير صناعة الأسلحة في دولتهم، فالمعروف أن الدولة المملوكية ورثــت عن الدولة الأيوبية معظم نظمها وطرق إدارتها [٣].

كما أبدع العالم المسلم المعلم حسن الرماح[٤] في تأليف كتابــه (الفروســية والمناصب الحربية) [١] وفي وصف الآلات الحربية وكيفية صناعتها وتركيبهــا

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر: عبد الله النايل، صناعة الأسلحة، ص٥٨.

(٢) هو مرضي بن علي الطرسوسي ت ٥٨٩هـ/١١٩٨م .عبدالله النايل :صناعة الأسلحة،ص٤٧٩.

(٣) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص٥٨، عبد الله النايل: صناعة الأسلحة، ص١٤، وهذا الكتــاب مطبوع سنة ١٩٩٨م من دار صادر في بيروت، قام بتحقيقه كار بن صادر، النايل: صناعة الأسلحة، ص٤٧٩-٤٨٠

(٤) هو نجم الدين حسن الرماح، المعروف بالأحدب، سكن بلاد الشام ونشأ بها، وهو من أشــهر علمــاء المسلمين الذين برعوا في صناعة البارود والأسلحة، توفي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م؛ نجم الدين حسن الرماح: الفروسية والمناصب الحربية،مقدمة المحقق، ص١٢-١٥.

بدقة متناهية وشرح وافٍ وتفصيل دقيق يدل على مدى براعة هذا العالم المسلم وإلمامه بتفاصيل صناعة البارود والأسلحة النارية، وقد صنف هذا العالم عدداً من الكتب الأخرى مثل كتاب (الغزو والجهاد) [٢]وكتاب (في عمل الرمح على الأرض والفرس)[٣] ويعد هذا العالم من أشهر علماء صنع السلاح في عصر المماليك.وهو أول من ذكر طريقة تحضير البارود بدقة وبمقادير مقننة[٤].

أما الملك المظفر يوسف بن رسول[٥] ملك اليمن فقد صنف كتاب (المخترع في فنون من الصنع) [٦] ووصف في هذا الكتاب بعض الآلات الحربية وكيفية صناعتها، كما أورد شرحاً موجزاً لصناعة بعض القنابل والألعاب النارية[٧]. وترى الباحثه أنه من منطلق التعاون الذى كان بين الدولتين الرسوليه والمملوكيه ، أن علماء المماليك قد أفادوا من هذا الكتاب.

كما عد الطرابلسي[٨] من علماء المسلمين الذين برعوا في صناعة السلاح، وقد ترك لنا في مؤلفه (تحفة المجاهدين في العمل بالميادين) [٩]وصفاً دقيقاً لتنظيم الجيش المملوكي أثناء الحروب، وذلك بحكم عمله في الجيش المملوكي

---

(١) كتاب مطبوع قام د/ أحمد يوسف الحسن بتحقيقه، وهو من منشورات جامعة حلب ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

(٢) مخطوط توجد نسخة منه في رامبور Rampur I, 677 ، وفي مكتبة الفاتح رقم ٣٥٠٩ وهو يقع تحت عنوان: كتاب في الغزو والجهاد.

(٣) تتوفر من هذا الكتاب نسختين في الفاتيكان V.300 (2).

(٤) الرماح: الفروسية، ص١٥-٢١٦، ١٣٠؛ عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص٥١-٥٥؛ محمود نديم: الفن الحربي، ص١٧٧.

(٥) هو الملك المظفر يوسف ابن الملك المنصور عمر بن رسول، حكم اليمن ما يقرب من أربعين سنة أو أكثر، وكان من الملوك الذين اهتموا بالعلوم والعلم، كما كان يحب العلماء ويقربهم إليه، توفي سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م ؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٤٢٧.

(٦) قام بتحقيق هذا الكتاب محمد عيسى صالحية وطبع في مؤسسة الشراع العربي بالكويت سنة ١٩٨٩م.

(٧) النايل: صناعة الأسلحة، ص١٤-١٥.

(٨) هولاجين بن عبد الله الذهبي الحسامي الطرابلسي، توفي سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م. ؛ أحمد عدوان: العسكرية الإسلامية، ص١٣٦.

(٩) هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً بالجامعة العربية تحت مسمى الفنون الحربية رقم ١٢.

كمقدم للمماليك في الجيوش الإسلامية[١]،كما ألف هذا العالم الجليل مؤلفاً آخـــراً هو (كتاب في لعب الدبوس والصراع على الخيل فـــي أوقـــات الحـــروب) [٢]. ومن المؤلفات الهامة في صناعة السلاح كتاب (نهاية السؤل والأمنية في تعلـــم أعمال الفروسية)[٣] لمؤلفه العالم الجليل الأقسرائي[٤] وهـــذا الكتـــاب يحـــوي وصفاً لصناعة القنابل والدخان التي تساهم في دك أسوار الحصون[٥].

كما ألف ابن أرنبغا الزردكاش[٦] كتاباً في الأسلحة الحربية هو (الأنيق في في المنجنيق) [٧] ويصف في هذا الكتاب أنواع المنجنيقات وكيفية الرمـــي بهـــا وصفاً دقيقاً، ثم يتبع مؤلفة هذا برسومات توضيحية دقيقة للمنجنيقـــات وطـــرق تصميمها وبنائها، إضافة إلى عدد من الآلات المستخدمة في الحروب[٨].

أما العالم المسلم البلكميشي[٩] فقد ألف كتاباً سماه (غنيـــة الرامـــي وغايـــة المرامي في علم الرمي عن القوس) [١٠] وقد اهتم هذا الكتاب بكل مـــا يخـــتص بفنون الرمي بالقوس[١١].

المبحث الثالث

---

(١) أحمد عدوان: العسكرية الإسلامية ، ص٤٥-٤٦ ؛ عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص٢٨.

(٢) النايل: صناعة الأسلحة، ص٤٦٦. أما كتاب (لعب الدبوس) فهو مخطوط بمركز الملك فيصل بالرياض بالرياض تحت رقم ٤٥٣١٨ ف ب ضمن مجموعة برقم ٦٦٠٤ ف ب.

(٣) مخطوط في مركز الملك فيصل بالرياض برقم ٢٨٢٨ ف ب.

(٤) الأقسرائي ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م؛ النايل: صناعة الأسلحة، ص١٥.

(٥) النايل: صناعة الأسلحة، ص١٥.

(٦) يوجد لبس وعدد من الآراء حول اسم وحياة ومؤلف هذا الكتاب يورده المحقق إحسان الهنـــدي فـــي مقدمة الكتاب الأنيق في المنجنيق، ص١٣-١٥، ولكن الظاهر أنه توفي سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م.

(٧) قام بتحقيق هذا الكتاب الدكتور إحسان هندي، وهو من منشـــورات جامعـــة حلـــب وآخـــرون ســـنة ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م.

(٨) ابن أرنبغا الزردكاش: الأنيق في المنجنيق.

(٩) هو طبيق الأشرفي في البكلميشي، توفي سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م ؛ النايل: صناعة الأسلحة ص٤٧١.

(١٠) قام بتحقيق هذا الكتاب عبد القادر الظاهري، وطبع في دار عمار في عمان سنة ١٩٩٨م.

(١١) النايل: صناعة الأسلحة، ص١٥.

لقد اهتم المسلمون منذ القدم باختيار سفرائهم، فحددوا لمن يقوم بهذه المهمة عدداً من الشروط ذكرها ابن الفراء في كتابه "رسل الملوك ومن يصلح للرسالة أو السفارة"وقد حدد شروط اختيار السفيربقوله: "اختر لنفسك في هدنتك وصلحك ومهامك ومناظرتك والنيابة عنك رجلاً حصيفا، قليل الغفلة، ينتهز الفرصة، ذا رأي جزل وقول فصل ولسان سليط وقلب حديد، فطنا للطائف التدبير، مستغلاً لما ترجو أن تحاول بالحزامة وإصابة الرأي، ومعقبا بالحذر والتمييز) [١]. هذا بالإضافة إلى المظهر العام وحسن الهيئة[٢] . كما أن هناك عدداً من القواعد المحددة لاستقبال السفراء وتوفير الحماية والأمن لهم،وإذا كان السفير من دولة معادية يحاط بهالة من التكتم والسرية فلا يقابل أحداً ولا يرى أحداً، ولا يسلك إلا الطرق الوعرة الصعبة حتى يتم له مقابلة السلطان، و ذلك لأن السفير يكون عين الحاكم في الدولة التي يرسل إليها، فهو يرى مدى قوة الدولة ونواياها في الحرب أو السلم ضد دولته، كما يجب على السفير الإلمام بمعظم أخبار الدولة التي يرسل إليها وطرقها ومعابرها وكل ما يتصل بتقاليدها[٣] .

والذي يهمنا هنا أن سلاطين دولة المماليك في عصريها البحري أوالبرجي قد حرصوا على إسناد مهام الوفود والسفارات لعدد من العلماء الأفذاذ في دولتهم، والشواهد على ذلك كثيرة طوال التاريخ المملوكي، ومن الأمثلة على هذا ما قام به الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الإسعردي[٤] سنة سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م عندما خرج على رأس سفارة إلى بلاد الشام لإبلاغ

---

(١) محمد التابعي: السفارات في الإسلام، ص٨٦-٨٧، نقلاًعن ابن الفراء الرسل والملوك، ص١٠.

(٢) انظر محمد التابعي: السفارات، ص٩٣،

(٣) محمد التابعي: السفارات، ص١٠٤-١٥٨-١٥٩.

(٤) هو محمد بن إبراهيم بن عمر أبوعلي العوفي، تولي الخطابة في الجامع الأموي بدمشق وخطابة جامع جامع الصالح في القاهرة، كما ناب في الحكم عن قاضي القضاة بدر الدين السنجاري، كان ديناً ذا صوت جميل عند تلاوة القرآن الكريم، توفي سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م. المقريزي: المقفى، ج٥، ص٤٤-٤٥.

الأمراء الأيوبيين خبر مقتل الملك المعظم توران شاة وتولى شجر الدر زمام الحكم في القاهرة ،كما كلف هذا السفير بتحليف الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام بالولاء لشجر الدر(١) .

كما خرج الشيخ نجم الدين البادرائي رسولاً من قبل الخليفة العباسي المستعصم بالله لتهدئة الأوضاع ولمّ الشمل وتوحيد الكلمة بين الملك الناصريوسف الأيوبي صاحب حلب دمشق، والملك المعز أيبك ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م سلطان الأراضي المصرية، وذلك في محاوله من الخليفة لتوحيد الصفوف من أجل مواجهة المغول، وقد تكللت مساعي الشيخ البادرائي بالنجاح، إذ تمكن من أن يبرم صلحاً بين السلطان المملوكي المعز والملك الناصر يوسف الأيوبي، كما استطاع إخماد نيران تلك الحرب التي كانت وشيكة الحدوث بين الطرفين، وتم الاتفاق على ترسيم الحدود بين الطرفين على أن تكون القدس وغزة للملك المعز، إضافة إلى البلاد الساحلية في بلاد الشام حتى نابلس(٢)، وقام الشيخ البادرائي بتحليفهما على هذا الصلح(٣) . كما نجح الشيخ نجم الدين البادرائي سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م في إبرام صلح آخر بين الناصر داود صاحب الكرك والملك المعز، فقد أرسله الخليفة المستعصم بالله كرسول سلام ليوقف الحرب التي كانت ستنشب بين الطرفين، وتم الصلح الذي أعيد فيه ترسيم الحدود بين الطرفين، إضافة إلى اشتراط الملك المعز على الملك الناصر عدم إيواء أحد الخارجين على الملك المعز من المماليك البحرية، وقام بمهمة التوقيع على الصلح نيابة عن الملك المعز قاضي القضاة برهان الدين خضر السنجاري وعدد من الفقهاء(٤) .

وفي عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م أرسل الناصر يوسف صاحب دمشق المؤرخ كمال الدين ابن العديم إلى السلطان المنصور بن المعز سلطان الديار المصرية

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١١؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢.

(٢) نابلس: مدينة من مدن فلسطين، تقع بين جبلين، وبينها وبين القدس عشرة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٤٨.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٥٥-٥٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٧؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨١-٣٨٣؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٧٠؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٧٥. ذكر النويري وابن كثير هذا الصلح في حوادث عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م.

(٤) ابن دقماق: نزهة الأنام، ص ٢٢٦؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٩٧ – ٣٩٨.

في ذلك الوقت؛ ليستنجد بالمصريين ضد جحافل المغول التي كانت قد عبرت نهر الفرات وهي في طريقها إلى بلاد الشام[١] . كما كررت هذه السفارة سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م إلى الديار المصرية، وكانت هذه المرة برئاسة القاضي برهان الدين السنجاري الذي طلب من الملك المظفر قطز النجدة والعون على جحافل المغول التي كانت قد وصلت إلى مدينة نابلس[٢] .

كذلك أسهم السفراء المسلمون في توطيد أواصر الصداقة بين الدولة المملوكية والدول الأجنبية الصديقة، فقد أرسل السلطان الظاهر بيبرس سفارة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م إلى الملك بركة خان[٣] زعيم القبيلة الذهبية وكانت هذه السفارة تتكون من الفقيه مجد الدين الروذراوري[٤] والأمير سيف الدين كشريك[٥] وأرسل معهما السلطان الظاهر بيبرس كتاباً يتضمن مبايعة الخليفة العباسي المستنصر بالله له ، كما ذكره في ثنايا رسالته بوجوب الجهاد ضد المغول الكفار أعداء الإسلام، وقد حمل السفراء للملك بركة بعض الهدايا، وورقة تتضمن نسب الخليفة الجديد متصلاً برسول الله صلى الله عليه وسلم[٦].كما أرسل بيبرس سفارة أخرى في نفس

---

(١) أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٩٩؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤١٦-٤١٧؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٢١٨.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج١، ص٢٣٢-٢٣٣؛ عبد الله الشهري: دور علماء المسلمين في الجهاد الإسلامي، ص١٢٣-١٢٤.

(٣) هو ابن عم هولاكو، وقد أسلم هذا السلطان وحسن إسلامه، وكان عاقلاً لايحب سفك الدماء ،وقد ربطته بالسلطان المملوكي الظاهر بيبرس علاقات طيبة. البرزالي: المقتفي، ج٢، ص١٦٨-١٦٧.

(٤) هو أمجد الدين أبو محمد عبد المجيد بن أبي الفرج بن محمد الروذراوري، توفي سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م. المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٨٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٢٤.

(٥) الأمير سيف الدين كشريك أو كسر بك التركي ، كان يعمل جمدار عند خوارزم شاه، وله خبرة باللغات والمنطق. ابن عبد الظاهر: الروض، ص١٣٩؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٧٩، هامش٣.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٦، ص٣٤٨-٣٤٩؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٥٣٣-٥٣٤؛ ٥٣٤؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٨؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص١١٤؛

العام إلى إمبراطور الدولة الرومانية الغربية المقدسة مانفرد بن فردريك الثاني[١] ، وكانت هذه السفارة برئاسة القاضي أصيل الدين خواجا[٢]، وأحد الأمراء، واصطحب السفراء معهم عدداً من أسرى المغول وبعض الهدايا الثمينة[٣] .

وفي رمضان من سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م خرج المؤرخ ابن واصل[٤] رسولاً من قبل السلطان الظاهر بيبرس إلى الإمبراطور اللماني مانفرد بن فردريك الثاني، ونزل ضيفاً عليه، فاستقبله واجتمع به مراراً، ونجح ابن واصل في خلق جو من الود والتقارب بين الدولتين وصنف خلال إقامته هناك كتاباً سماه "الامبروزية" وأهداه لمنفرد [٥].

المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٧٥؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص٣٨-٣٩؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٢٨٩. أورد اليونيني، وبيبرس الدوادار، والنويري خبر هؤلاء الرسل سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م عند وصول هذه السفارة من بلاد التتار. أما ابن واصل فذكرها سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م.

(١) مانفرد بن فردريك الثاني حكم صقلية وجنوب إيطاليا مابين سنتى ١٢٥٨-١٢٦٦م. العيني: عقد الجمان، ج١، ص٢٩٠، هامش١.

(٢) لم أقف له على ترجمة.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٦، ص٣٢٩؛ ابن عبد الظاهر: الروض، ص١٢٤؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٦٣، هامش٢ و٤، ص٤٦٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص٣٢ جميع هذه المصادر ذكرت خبر هذه السفارة عند وصولها سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م إلا العيني ذكرها سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م ؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٢٩٠، ص٣٣٢.

(٤) هو المؤرخ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، توفي سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٦،مقدمة المحقق، ص١٧.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٦، مقدمة المحقق، ص ١٧؛ ولعل المقصود بالامبروزية أي الامبرطوية.وترى الباحثة أن هاتين السفارتين هم سفارة واحدة لكن المصادر لم تشر إلى خروج ابن واصل في السفارة التي خرج على رأسها القاضي أصيل الدين خواجا ولعل ذلك يرجع إلى ان تلك المصادر ذكرة هذه السفارة في السنة التي عادة فيها السفارة وابن وصل لم يعد مع هذه السفارة بل ظل في الإمبراطورية الألمانية نشأت بينه وبين الإمبراطور صداقة . وألف له كتاباً ،ومما يؤكد ذلك ماذكره المؤلف ابن المغيزل الذي كان ابن واصل يملي علية الجزء السادس من مفرج الكروب حيث ذكر المؤلف ان ابن واصل لم يملى عليه المعلومات في هذه السنة ،ولكن نحن نستغرب من عدم ذكر

كما شارك القاضي شمس الدين بن قريش[1] مع جماعة من الأمـــراء فـــي تحليف الإسبتارية المقيمين في بلاد الشام في حصني الأكراد والمرقـــب علـــى الصلح مع الملك الظاهر بيبرس ســـنة ٦٦٥هـــ / ١٢٦٦م، علـــى أن يكـــون للملك الظاهر بيبرس حق نقض هذه الهدنة متى شاء، وقد قرر زمن هذه الهدنة بـــ عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات[2] . وكـــذالك الحـــال بالنسبة للقاضي محي الدين ابن عبد الظاهر الذي أسهم مع الأمير كمال الـــدين ابن شيث[3] في عقد صلح بين الملك الظاهر بيبرس وهيوبن هنري[4] ملك عكـــا سنة ٦٦٦هـــ/ ١٢٦٧م وكانت مدة هذا الصلح عشر سنوات[5] .

أما الصراع الدموى بين أشراف الحجاز وأحوالهم التي لم تكـــن ليرضـــي عنها سلاطين المماليك دائماً، فقد ساهم قاضـــي المدينـــة المنـــورة ووزيرهـــا الشريف شمس الدين الحسيني[6] في تحسين العلاقات بين الأشراف وســـلاطين المماليك، وذلك عندما أرسل من قبل شـــريف مكـــة كســـفير للنوايـــا الحســـنة ولتحسين العلاقات بين الطرفين وإزالة سوء التفـــاهـــم بين الأمير عـــز الـــدين

ابن المغيزل سفر شيخة ابن واصل في تلك السفرة ،وربما يرجع ذلك لكثرة الحوادث المهمـــة التـــي كانت في تلك السنة من غزوات وحروب ضد الصليبين في بلاد الشام.

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي القرشي الزبيري، كان كاتباً بديوان المارستان النوري توفي سنة ٦٧٨هـــ/١٢٧٨م.ابن العماد :شذرات الذهب، ج٥، ص٣٦١.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص٢٨٣؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص٦٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٠.

(٣) كمال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحيم بن علي بن إسحاق بـــن علـــي شـــيث، تـــوفي ســـنة ٦٧٤هـــ/١٢٧٥م. المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٢٥.

(٤) هو هيو الثالث ملك قبرس، حكم مملكة بيت المقدس مـــن عكـــا مـــن ســـنة ١٢٦٩-١٢٨٤م/٦٦٨-٦٨٣هـــ. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٣٩.

(٥) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٣٢؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص٦٤؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٧١.

(٦) محمد بن نصير بن علي الحسيني من فضلاء المدينة، توفي سنة ٦٨٧هـــــ/١٢٨٨م. ابـــن العمـــاد: شذرات الذهب، ج٥، ص٤٠٢.

جماز[1] أمير المدينة المنورة والملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ/

وعندما عقدت هدنة في أوائل شهر رمضان سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م بين الصليبين المقيمين في أنطرطوس[3] والمرقب والسلطان الظاهر بيبرس أمر السلطان الظاهر بيبرس كلا من الأمير فخر الدين المقري[4] والقاضي محي الدين بن عبد الظاهر، بالتوجه إلى هاتين المدينتين، للتفاوض في شروط الصلح التي شرطها الملك الظاهر بيبرس عليهم، وهي أن يعين له نائباً في المدينتين وأن يحصل على نصف غلالها، وأن تكون مدة الهدنة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام فتم الصلح على ذلك[5].

وعندما تقدم الملك الظاهر بيبرس في شوال سنة ٦٦٩هـ /١٢٧٠م نحو طرابلس لاستردادها، أرسل إليه البرنس صاحب طرابلس بوهيموند السادس[6] يطلب منه الصلح، فأرسل إليه الملك الظاهر بيبرس سفارة لمفاوضته على شروط الصلح، وقد تكونت هذه السفارة من القاضي شمس الدين الإخنائي والأمير فخر الدين بن جلبان[7] وتم عقد الصلح لمدة عشر سنين وعشرة شهور

---

(١) هو جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين، تولي إمارة المدينة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م وفي سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢٥٠.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٠٨؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٥٢؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٨٠.

(٣) انطرسوس: من أعمال بلاد الشام، وهو حصن يقع على بحر الروم، وهو يعد ثغراً لأهالي مدينة حمص.أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٢٩.

(٤) لم أقف له على ترجمة.

(٥) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢ ، ص٤٤٧-٧٧٨؛ ابن عبد الظاهر: الروض، ص٣٧٩؛ البرزالي: البرزالي: المقتفي، ج١، ص٢٣٠؛ العيني: عقد الجمان، ج٢ ، ص٧٢.

(٦) بوهيمند السادس حكم إمارتي أنطاكية وطرابلس من عام٦٤٩-٦٨٦هـ/ ١٢٥١ -١٢٦٧م، وحكم إمارة طرابلس منفردة حتي عام ١٢٨٧م/٦٨٦هـ. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٤٠.

(٧) لم أقف له على ترجمة.

شهور وعشرة أيام[1] .

وفي شهر ذي الحجة سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م حدثت مفاوضات بين السلطان الظاهر بيبرس وفرقة الإسماعيلية، وذلك حتى يتمم الاتفاق على تسليم حصونهم التي في بلاد الشام للملك الظاهر،على أن يعوضهم الملك الظاهر، بإقطاعات في مصر، وبعد مفاوضات وجدال بين الطرفين استقر الحال على أن يرسل الملك الظاهر لنواب الإسماعيلية في الشام قاضي حمص ليقوم بتحليفهم على تسليم بعض القلاع للملك الظاهر، وعدم خيانته والامتثال لأوامره[2] .

وكما كان العلماء سفراء لتحسين العلاقات الخارجية للدولة المملوكية مع الدول المجاورة، كانوا أيضاً سفراء لتحسين الأوضاع الداخلية للدولة أيضاً، فبعد ما نفي الملك المسعود خضر بن الملك الظاهر بيبرس إلى الكرك، أرسل سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م يطلب من المنصور قلاوون مدناً أخرى زيادة على الكرك لكن الملك المنصور قلاوون رفض طلبه، وحدد للملك المسعود فقط مدينة الكرك وأعمالها، وأن يبعث له إخوته من الأولاد والبنات، فوافق الملك المسعود على ذلك، ومن ثم أرسل إليه الملك المنصور سفارة مكونة من الأمير بدر الدين بيلبك المحسني السلاح دار[3] والقاضي عماد الدين بن الأثير[4] وذلك

---

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٥٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٩٢-٥٩٣؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٧٧؛ سعيد عاشور: الحركة الطيبة، ج٢، ص١٠٩٦-١٠٩٧.

(٢) ابن المغيزل :ذيل مفرج الكروب،ص ٧٥،اليونيني: ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص٤٧٢ ؛ ابن عبد الظاهر: الروض ، ص٣٩٣-٣٩٤؛ البرزالي:المقتفي، ج١، ص٢٦٢؛ المقريزي: السلوك،،ج١، ق٢، ص٥٩٩.

(٣) الأمير بدر الدين بيلبك بن عبد الله الصالحي الأمير بدر الدين أمير سلاح، شارك في عدد من الغزوات توفي سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص٥١٢.

(٤) هو إسماعيل بن إسماعيل بن أحمد بن سعيد، عماد الدين بن الأثير، تولي كتابة الدرج بالقاهرة، توفي توفي سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٣٩١-٣٩٢؛ الدليل الشافي، ج١، ص١٢٣.

وذلك حتى يقوموا بتحليف الملك المسعود على الطاعة، وعدم الوثوب على السلطان أو خيانته[١].

وفي أوائل شهر ذي القعدة سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م توجه كلٌ من القاضي شرف الدين إبراهيم بن فرج[٢] أحد كتاب الدرج مع الأمير ناصر الدين محمد ابن المحسني[٣] الجزري الحاجب إلى اليمن، وذلك لتوطيد العلاقات بين الطرفين، وقد حُمل الرسل عدداً من الهدايا الفاخرة، وكانت هذه السفارة رداً من الملك المنصور قلاوون على سفارة أرسلها ملك اليمن إلى المنصور، يؤكد فيها على الود بين الدولتين، ولإرسال الهدايا التي اعتاد ملك اليمن المظفر شمس الدين بن رسول تقديمها للسلاطين المماليك[٤]، والظاهر أن هذه السفارة كانت من أجل استمرار وتوثيق العلاقات الطيبة بين الدولتين، وإثبات حسن النوايا.

كما أسهم العلماء في الخروج كسفراء لتخفيف وطأة الحروب على أهالي البلاد المنكوبة، فهذا الشيخ تقي الدين بن تيمية، وبعد معركة وادي الخازندار التي دارت رحاها بين الملك الناصر محمد والمغول سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م والتي انهزم فيها الجيش المملوكي، يخرج بنفسه إلى معسكر المغول، بعد التشاور مع رؤساء وعلماء دمشق على ملاقاة غازان، وفي يوم الاثنين ٣/ربيع

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٢٣٤؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة ، ص٢١٨–٢٢٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٠٤.

(٢) لم أقف له على ترجمة.

(٣) لم أقف له على ترجمة.

(٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٢١٨ـ٢٢٠؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٢٣٤؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٠٢ .

الآخر ٦٩٩هـ/١٢٩٩م قرر الخروج هو والقاضي بدر الدين بن جماعة وعدد من الفقهاء والعلماء إلى معسكر غازان لملاقاته، وطلبوا الأمان لأهالي دمشق، فأجابهم غازان لما طلبوا(١) .

وفي عام ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م وصلت إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون سفارة من قبل غازان تطلب الصلح، فردعليه السلطان بسفارة للتفاوض معه سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م مكونة من القاضي عماد الدين بن السكري والأمير شمس الدين محمد بن التيتي(٢)، والأمير حسام الدين أزدمر المجيري(٣).

ولما ساءت العلاقات بين ملك اليمن المؤيد هزبر الدين(٤) وبين الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧ بسبب قطع ملك اليمن للأموال التي كان يدفعها لسلاطين مصر، واستاء من معاملة التجار الواردين إليه من مصر، أرسلت السلطة المملوكية في مصر سفارة إلى الملك الرسولي لهذا الغرض مكونة من القاضي شمس الدين بن عدلان(٥) وأحد الأمراء وهو شمس الدين سنقر السعيدي(٦) حيث حملا إلى ملك اليمن كتاباً شديد اللهجة، تضمن مطالبته

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٨٩؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٢٩-٣٣ ؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص١٠٠، هامش١.

(٢) لم أقف له على ترجمة.

(٣) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص١٦١؛ زبدة الفكرة، ص٣٨٤؛ ابن أيبك الدوادار: كنز الدرر، ص٦٥؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٥-٩١٦؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٥٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص١١٣. وحسام الدين أزدمر المجيري لم أقف له على ترجمة.

(٤) هو داود بن يوسف بن عمر، لقب بالمؤيد هزبرالدين، حكم أكثر من عشرين سنة،وهو من الحكام العلماء، اشتهر بالعلم والمعرفة، وكان يحفظ كتاب التنبيه، وله عدد كبير من الكتب جاوز الألف مجلد،مع حسن سياسة وشجاعة وجود وكرم، توفي سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٥٥.

(٥) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم بن عدلان بن محمود بن لاحق ابن داود الكناني، تولي قضاء العسكر، وناب في الحكم عن ابن دقيق العيد . ولد سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م وتوفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. السبكي: طبقات الشافعية، ج٩، ص٩٧-١٠٠.

(٦) هو شمس الدين سنقر السعيدي أحد مقدمي الحلقة. النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص٩٧.

بالكف عن الأعمال التي كان يقوم بها، والعودة إلى ماكان عليه حكام اليمن السابقين من الولاء للسلاطين المماليك، وإلا فإنه سيرسل له حملة عسكرية لتأديبه بالقوة[١] .

وعندما حاول الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م استرداد ملكه الذي سلبه منه المظفر بيبرس الجاشنكير، وتمكن من بسط نفوذه في بلاد الشام، عند ذلك اضطربت أحوال بيبرس الجاشنكير وجمع رؤساء دولته واستشارهم في أمر الناصر محمد، فأشاروا عليه بالنزول عن الحكم ،ثم اقتضى الرأي أن أرسل الجاشنكير الأمير بيبرس الدوادار المؤرخ للتفاوض مع الناصر محمد بن قلاوون في أمر العفو عنه، ووافق الجاشنكير على التنازل عن الحكم وأن يتوجه إلى أي مدينة يعينها له الناصر، وفعلاً تم له ذلك[٢] .

ولما وردت إلى العاصمة المملوكية القاهرة في سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م سفارة رسمية من منطقة في شبه القارة الهندية، يطلب حاكمها المسلم تقليداً من الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله، يخوله حكم تلك المنطقة. فضلاً عن طلبه من الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون[٣] بأن يتكرم بإرسال رجل من فقهاء مصر يعلمهم أمور دينهم، وقد استقبل السلطان المملوكي هذه السفارة أحسن استقبال، وأجاب طلبهم بأن أوفد إليهم العلامة شيخ الشيوخ ركن الدين الملطي[٤] للقيام بهذه المهمة[١].

---

(١) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٣٥٣-٣٥٤، ٤٤٦٣-٤٤٦٤؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص٩٦-٩٧.

(٢) أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص٥٨؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ص١٩٧؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٧٠-٧١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص٢١٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٢٨-٤٢٩.

(٣) الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون، تولى السلطنة سنة٧٤٣هـ/١٣٤٢م. وكان يميل إلى العفة وعدم الظلم، حكم ثلاث سنين وثلاثة أشهر، وتوفي سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١٤٨؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠٢.

(٤) لم أقف له على ترجمة.

وعندما اشتد أذى ملك الحبشة داود بن سيف أرعد[٢] على المسلمين في بلاده، وكذلك المناطق الواقعة في أطراف مملكته، وبلغت هجماته منطقة أسوان[٣] في صعيد مصر، أرسل إليه السلطان المملوكي الصالح صلاح الدين[٤] سفارة جعل على رأسها العالم برهان إبراهيم الدمياطي[٥] في جمادي الآخرة سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م الذي حمل إلى ملك الحبشة رسالة منه كتبها بطرق النصارى اليعاقبة في مصر. اشتملت على تهديد مباشر لملك الحبشة من مغبة استمراره في التعدي على المسلمين وممتلكاتهم في تلك المناطق[٦]. والذي يمكن للباحثة استنتاجه هنا هو أن سبب اختيار السلطان المملوكي لأحد بطارقة النصارى اليعاقبة في مصر ليكتب له هذه الرسالة، هو تأكيد ولاء النصارى في مصر للسلطنة المملوكية، فضلاً عن إشعار ملك الحبشة بأن الامتعاض من تصرفاته تلك شملت حتى نصارى مصر أتباع الكنيسة القبطية التي كانت تتولى إرسال البطارقة إلى كنائس الحبشة.

كما أسهم العلماء كسفراء في إخماد العديد من الثورات الداخلية التي كانت

---

(١) أبو راس: شيخ الشيوخ، ص٧٥؛ غيثاء نافع: العلاقات العثمانية المملوكية، ص٨٦. وقد ذكر ابن إياس أن سفارة أخرى وصلت سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م من ملوك الهند لطلب التقليد أيضاً، انظر: بدائع الزهور، ج٣، ص٦٥؛ محمود رزق سليم: موسوعة عصر سلاطين المماليك، م٢، ص٢٢٢، وقد ذكر سفارة أخرى سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م، انظر نفس المرجع ، ص٢٢٥.

(٢) داود بن سيف أرعد، ويقال له الحطي، توفي سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م. السخاوي: وجيز الكلام،ج١، ص٤٠٥.

(٣) أسوان: من مدن الصعيد الأعلى، بالقرب من الجندل، واشتهرت بكثرة النخيل، وهي من أعمال قوص. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١١٢-١١٣.

(٤) هو الصالح زين الدين أبو الجود أمير حاج بن الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن محمد بن قلاوون، تولى السلطنة بعد موت أخيه المنصور علي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م وكان عمره إحدى عشرة سنة،لكنه عزل بأتابكه برقوق، ثم عاد للحكم سنة٧٩١هـ/١٣٨٨م، وتوفي سنة ٨١٤هـ/١٤١١م. الصيرفي :نزهة النفوس، ج١، ص٢١٤؛ ابن حجر: إنباء الغمر: ج١، ص٢٣٢.

(٥) لم أقف له على ترجمة.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٤٤٥؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٨٩.

تحدث في داخل الدولة المملوكية من قبل أحد النواب أو الأمراء و خاصة في بلاد الشام ، فقد شهد عصر السلطان الناصر فرج ــ بسبب صغر سنه ــ ثورات متتالية من نواب بلاد الشام، من ذلك ماحدث في رمضان سنة ٨١٠هـ / ١٤٠٧م عندما خرج النائب شيخ على طاعة السلطان الناصر فرج، حيث أرسل شيخ سفارة مكونة من قاضي القضاة نجم الدين عمر بن حجي الشافعي، والقاضي صدر الدين على بن الآدمي الحنفي، وعدد من الأمراء، ومعهم كتاب العفو عن شيخ، وأعطاه نيابة الشام على أن يحلف يمين الولاء للسلطان، وأن يتعهد بعدم الثورة عليه مرة أخرى(١).

وفي رمضان سنة ٨١١هـ /١٤٠٨م وصلت إلى السلطان الناصر فرج أخباراً-يبدو أنها غير صحيحة- تفيد بعصيان الأمير شيخ مرة أخرى، ولكي ينفي شيخ عن نفسه هذه التهمة أوفد إلى السلطان الناصر فرج، الشيخ نجم الدين بن حجي أحد قضاة الشام، برسالة يشهد فيها على نفسه أنه لم يخل بالأيمان التي سبق أن حلفها، وأنه لم يعص السلطان أو يخرج عن طاعته، فأجابه السلطان برسالة حملها إليه ابن حجي نفسه يطلب منه بعض المطالب فإذا قام بتنفيذها ثبت عند السلطان حسن نوايا الأمير شيخ، ولم يخرج لقتاله، فأذعن لأوامر السلطان وأثبت حسن نواياه(٢) .

وعندما كرر الأمير شيخ خروجه على السلطان الناصر فرج سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م، ورد عليه السلطان بأن حاصره في قلعة صرخد(٣). حتى اضطر الأمير شيخ إلى طلب الصلح ، فأرسل له السلطان سفارة مكونة من الأمير تغري بردي والد المؤرخ ابن تغري بردي، وكذلك المؤرخ تقي الدين

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٦٣-٦٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٧٨٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٣٧٩.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم ، ج١٣ ، ص٣٨ ؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٧٩٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٣٩٨.

(٣) صرخد: بلدة تقع بالقرب من حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة. ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٤٠١.

المقريزي، حيث تفاوضا معه في أمر الصلح وتم لهما ذلك،ثم حلفاه على طاعة السلطان(١) .

وعندما نجح السلطان المؤيد شيخ في السيطرة على مقاليد السلطة في الدولة المملوكية أرسل سفارة إلى بلاد قرمان(٢) سنة ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م مكونة من الدوادار أسنبغا(٣)، والقاضي محمود العيني، من أجل أن يجدد أمراء تلك المناطق ولاءهم للسلطان، وقام القاضي محمود العيني بتحليفهم على الولاء والطاعة(٤) .

وفي عام ٨٢٤هـ / ١٤٢١م ثار على السلطان المظفر أحمد بن المؤيد شيخ(٥) نائب بلاد الشام الأمير جقمق، فتوجه إليه السلطان بجيش لقتاله ،و نجح في إجباره على ترك ثورته ،مقابل الحصول على الأمان ،فأرسل إليه السلطان لإقرار هذا الأمر، الأمير برسباي الدقماقي(٦) ومعه القاضي بدر الدين بن

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص١٠٣-١٠٥؛ ابن تغري بردي: ج١٣، ص٤٨-٥٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٧٩٧.

(٢) بلاد قرمان: تمتد من مايحاذي طرسوسى إلى بلاد الروم، ويسكنها جماعات من التركمان.أبو الفداء: تقويم البلدن، ص٣٧٨.

(٣) هو اسنبغا الناصري محمد بن رجب ثم الطياري كان أمير طبلخانة ، توفي سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٢١١.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٥٢٤؛ العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من(٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٣٧٧-٣٧٨ .

(٥) أحمد بن المؤيد، شيخ تولى الحكم بعد والده سنة٨٢٤هـ/١٤٢١م بعهد من أبيه المؤيد شيخ، وكان عمره سنة ونصف، ولقب بالمظفر أحمد، وخلع من السلطنة بعد ثمانية أشهر وعشرة أيام، تولى عوضة الظاهر ططر ،وسجن المظفر أحمد في سجن الإسكندرية، إلى أن توفي. السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص٤٦٦-٤٦٥؛ الشرقاوي: تحفة الناظرين، ص١٠٨.

(٦) هو الملك الأشرف برسباي بن عبد الله أبو النصر الدقماقي الظاهري، وهو جركسي الأصل،أعتقه السلطان الظاهر برقوق، وكان ساقياً في أيام الناصر فرج، وكان ممن ثار عليه مع الأمير شيخ والأمير نوروز،فلما تسلطن شيخ أصبح برسباي من جملة أمرائه حتى تقلد إمرة مائة وتقدمة ألف، ثم تولى نيابة طرابلس .وعندما تولى السلطنة فتحت في أيامه جزيرة قبرص، كان ملكاً مهاباً متواضعاً حسن الخلق شهماً شجاعاً عارفاً بالسياسة ، توفي سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م .ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٣٧-٢٣٩.

مزهر[1] .

وعندما توجه السلطان الأشرف برسباي إلى آمد[2] لتأديب صاحبها قرايلك، وقام بمحاصرته في عاصمته حتى طلب قرايلك الصلح ، أوفد إليـه السـلطان للتفاوض معه في أمر الصلح القاضي شرف الدين الأشقر[3] نائب كاتب السـر ومعه جماعة من المماليك، وقد نجح هذا الوفد في إقناع صـاحب آمـد بقبـول الصلح، وأن يذعن بالولاء والطاعة للسلطان، ويخطـب باسـمه علـى منـابر مدينته، وينقش اسم السلطان على العملة، فوافق قرايلـك علـى ذلـك وأبـرم الصلح[4] .

وعندما حاول السلطان الأشرف قايتباي إقامة علاقـة طيبـة مـع الدولـة العثمانية، أرسل لتحقيق هذا الغرض في ذي القعدة سـنة ٨٧٧هـــ / ١٤٧٢م سفارة من قبله برئاسة القاضي شمس الدين بن أجا قاضي العسـكر ، حملـت معها هدايا قيمة للسلطان العثماني، ورسالة تتضـمن توطيـد العلاقـة بـين الدولتين، وإقامة تحالف بين الدولتين ضد أي اعتداء[5] .

ومما يذكر في هذا المجال أيضاً، أنه عندما حاصر الأمير يشبك الـدوادار قلعة زمنطوا سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م وأحكم عليهما الحصـار، وأراد صـاحبها

---

(١) العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من(٨٢٤-٨٥٠هـــ)، ص١٤٢-١٤٣؛ ابـن تغـري بردي: النجوم، ج١٤، ص٢٩؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٢٤٦-٢٤٧.

(٢) آمد: مدينة تقع على نهر دجلة، وهي من ديار بكر، يكثر فيها الشجر والزرع، وهي محكمة التحصين. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٨٦.

(٣) هو أبو بكر بن سليمان بن إسماعيل الحلبي، تولى كتابة السـر، وتـوفي سـنة ٨٤٤هــ/١٤٤٠م. السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص٥٧٤؛ الضوء،ج١١، ص٣٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر،ج٩،ص١٤١.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص٢٢٠-٢٢١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٤٩؛ ابن حجر: حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٤٩٧-٤٩٨.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج، ص٨٦؛ ابن أجا: العراك بين المماليك، ص١٦٦؛ غيثاء أحمـد نـافع: العلاقات العثمانية – المملوكية، ص٧٨.

شاه سوار طلب الصلح منه ، وبعث إليه يطلب المفاوضة، أرسل إليه الأمير يشبك الأمير تمراز الشمسي[1] ومعه القاضي شمس الدين بن أجا، وأسفرت تلك السفارة في نهاية المطاف عن تحقيق أهداف الأمير يشبك[2].كما أرسل القاضي شمس الدين بن أجا رسولاً إلى الشاه حسن الطويل[3] في بلاد تبريز[4] سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م لتسوية بعض الأمور بين الطرفين، خاصة ما يتعلق منها بالأمن والإقطاعات[5].

وفي إطار سعى المماليك للحفاظ على علاقة جيدة مع الدولة العثمانية، أرسل السلطان قايتباي الشيخ عبد المؤمن العجمي[6] رسولاً من قبله إلى قادة الدولة العثمانية لمعرفة نواياهم تجاه دولته، فجاء جواب هذا الشيخ سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م، مطمئناً للمماليك بأنه لا نية لدى العثمانيين في غزو دولتهم[7] .

ومن قِبَل حرص سلاطين المماليك على استتباب الأمن في مكة المكرمة أرسل السلطان الظاهر قانصوه سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م كاتب السر القاضي بدر الدين بن مزهر، ليكون سفيراً للإصلاح بين أمير مكة الأمير بركات بن

---

(١) لم أقف له على ترجمة.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٧٣-٧٤؛ محمد ابن أجا: العراك بين المماليك، ص٩٨؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص٨٣٩.

(٣) هو حسن بك بن علي بن قرايلُك، المعروف بحسن الطويل ملك العراقين ودياربكر وأذربيجان ،قتل سنة٨٨٢هـ/١٤٧٧م. السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١١٢؛ وجيز الكلام، ج٣، ص٨٨٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٣٤.

(٤) تبريز: من أشهر مدن أذربيجان وقاعدة ملكها، توجد بها المباني الجميلة وعدد من المدارس والبساتين. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٤٠.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١١٠؛ ابن أجا: العراك بين المماليك، ص١٠٦؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج٧، ص١٤١.

(٦) لم أقف له على ترجمة.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣١٥-٣١٦.

محمد بن الشريف[1] ،وأخيه هزاع[2] وفي سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م، سافر كاتب السر محمود بن أجا، وأحد نوابه وهو الشهابي أحمد بن الجيعان إلى مكة لتحليف أمير مكة الشريف بركات على الولاء والطاعة للسلطان قانصوة الغوري وعدم الخروج على السلطان[3] .

وللمكانة التي حظي بها العلماء في بلاط السلطنة المملوكية، نلاحظ أن السفراء الذين كانوا يفدون إليها من الدول الأخرى كانوا أيضاً من العلماء، ولعل أبلغ دليل على ذلك تلك السفارات التي وصلت إلى القاهرة من ملك اليمن الملك المظفر شمس الدين بن رسول، إلى الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١ مع أخيه الأمير مجد الدين بن أبي القاسم[4] والقاضي محي الدين يحي بن البيقاني[5] وأرسل معهم الهدايا الفاخرة[6].

وفي سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م أرسل الملك بركة خان زعيم مغول القفجاق سفارة مكونة من أحد الأمراء والشيخ نور الدين علي[7] .كما أرسل الملك الأفضل الرسولي[8] صاحب اليمن في محرم سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م

---

(١) هو:الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسين بن عجلان بن رميثة، ولد سنة ٨٦١هـ/١٤٥٦م. كانت له مكانة عند سلاطين المماليك، وكان ذا سطوة في دولته، مع هيبه ووقار، توفي سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٣م. السخاوي: الضوء الامع، ج٣، ص١٤؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص١٧٢.

(٢) ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج٢، ص٣٥٠. وهزاع: هو ابن الشريف محمد بن بركات حاكم الحجاز. السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٠٨.

(٣) ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج٢، ص٣٥٠.

(٤) لم أقف له على ترجمة.

(٥) لم أقف له على ترجمة.

(٦) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٥٩؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٢١٨-٢١٩.

(٧) لم أقف له على ترجمة.

(٨) هو عباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول اليماني، تولى حكم زبيد وتعز سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م كان يحب العلم والعلماء ،بنى مدرستين أحداهما في تعز والأخري في مكة

سفارة من قبله إلى القاهرة لمقابلة السلطان المملوكي، كان على رأسها القاضي جمال الدين الفارقي[١] فأكرم السلطان الأشرف شعبان وفادته، وكان هو شخصيا في استقباله[٢] .

وفي سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م أرسل غازان سفارة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكان من ضمن هذا الوفد الذي سعى إلى الصلح بين الطرفين قاضي الموصل كمال الدين يونس[٣] .

وذكر العيني أنه في ١٤ شعبان سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م وصلت سفارة من شاه روخ بن تيمورلنك، وكان فيها قاضي شاه روخ الخاص، وذكر أن هذا القاضي من العلماء المشهورين في بلادهم[٤] .

وعندما أرسل السلطان العثماني بايزير الثاني[٥] سفارة إلى القاهرة في جمادي الآخرة سنة ٨٩٦هـ /١٤٩٠م كان على رأس الوفد الذي قابل السلطان المملوكي قايتباي قاضي برصة[٦] الشيخ على جلبي[١].

المكرمة ،وألف كتاب نزهة العيون وغيرها من المؤلفات ،توفي سنة ٧٧٨ه.ابن العماد: شذرات الذهب ،ج٦،ص٢٥٧.

(١) لم أقف له على ترجمة.

(٢) ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج٢،ص٣٥٠.

(٣) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص١٦١؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٥-٩١٦؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٣٢.

(٤) عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من(٨٢٤-٨٥٠هـ) ، ص٦٢٧.

(٥) هو أبو يزيد خان بن محمد خان بن مراد خان بن محمد بن بايزيد خان بن مراد خان بن أورخان خان بن عثمان خان، هو الثامن من ملوك العثمانيين، ولد سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م، تولى السلطنة سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م، كان يحب العلم والعلماء، اشتهر بكثرة غزواته في أوربا، واهتم بالعمارة في دولته فبني عدداً من المساجد والزوايا والمستشفيات والحمامات والجسور، توفي سنة٩١٨هـ/١٥١٢م ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص٨٦؛ انظر يلمازأوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١ ،ص١٨٥-١٩٧،١٩١-٢٠١.

(٦) برصة: أوبرصا: مدينة تركية تقع في هضبة الأناضول. السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص١١٦٦، هامش١.

وفي ختام هذا المبحث تؤكد الباحثة أن المكانة التي كـــان يحظـــى بهـــا العلماء لدى الحكام وكبار الأمراء كان لها أبلغ الأثر فـــي اختيـــارهم كســـفراء وزعماء وفود، لإقرار الكثير من الاتفاقات، وإبرام عقود الصلح بين الأطـــراف المتخاصمة .

المبحث الرابع
مشاركة العلماء في حركة الجهاد

سنتناول بالدراسة في هذا المبحث فرقة من الفـــرق التـــي تتكـــون منهـــا الجيوش الإسلامية وهي التي كانت ولا زالت تدعو إلى الجهاد فـــي ســـبيل الله

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٨١-٢٨٢؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص١١٦٦؛ غيثاء أحمد نافع: العلاقات العثمانية، ص١٤٩-١٥٠. والشيخ على جلبي هو ملا علي بن أحمد بن محمـــد بـــن أيوب، وهو حنفي المذهب. السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص١١٦٦؛ غيثاء: العلاقات، ص١٥٠.

وتحث عليه فتبين فضله وأجره وثوابه، هذه الفرقة هي طائفة العلماء الذين شاركوا في صفوف الجيوش النظامية وكانوا يعدون في الغالب من فرق المتطوعة[١] فقد رافق العلماء الجيوش الإسلامية إما كمتطوعين للقتال، أو كقضاة للجيش أو قضاة متطوعين بالجهاد في سبيل الله، وذلك حتى يضفوا الصبغة الشرعية على فرق الجيش التي كانت تخرج للجهاد في سبيل الله، فكان خروج العلماء و القضاة مع الجيوش المحاربة؛ ليؤكدوا للمقاتلين والناس عامة مشروعية هذه الحرب التي يخوضها السلطان، إضافة إلى أن خروج القضاة والعلماء عموماً ومشاركتهم في المعارك التي تخوضها الجيوش الإسلامية هو مما يحفز ويشجع المجاهدين على الاستبسال في المعارك ويشحذ هممهم. وقد وصف لنا المؤرخ النويري السكندري حجرة في قصر السلاح في مدينة الإسكندرية خصصت للجند المتطوعة كانت تسمى قاعة القرافة، حوت هذه الحجرة عدداً للقتال، ويتولى أمر هذه الحجرة شيخ يطلق عليه اسم "شيخ قاعة القرافة" مهمته الإشراف على هذه الحجرة التي يفد عليها الجند والمتطوعة الذين يقاتلون فيأخذون السلاح منها، ويبد من اللقب الذي أطلق على المسئول عن هذه الحجرة وهو لقب "شيخ" أن الجنود المتطوعة الذين كانوا يترددون على هذه الحجرة للتزود بالسلاح، ويشرف عليهم رجل من فئة العلماء والفقهاء[٢] .

ومن أبرز الأمثلة على مشاركة العلماء في حركة الجهاد خروج العز بن عبد السلام مع الجيش المتوجه لقتال المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ ١٢٥٩م على رأس عدد من العلماء والفقهاء حيث قال لهم: "اخرجوا، وأنا

(١) المتطوعة أو المطوعة: هم الجند الذين "يتطوعون بالجهاد" ويشاركون الجيوش الإسلامية النظامية في معاركهم. عبد الله الغامدي: دور المتطوعة في حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول، ص٣٢٨؛ بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، العدد٢، ج١، مارس ١٩٩٤.

(٢) النويري الإسكندراني: كتاب الإلمام، ج٢، ص١٥٠؛ عبد الله النايل، صناعة السلاح، ص١٠٠.

أضمن لكم على الله النصر) [١]. وممايذكر في هذا المجال أيضاً الجيش الذي جهزه الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م والذي خرج على رأسه الخليفة المستنصر بالله العباسي لحرب المغول و محاولة استعادة عاصمة الخلافة العباسية بغداد منهم، وقد رافق هذا الجيش القاضي كمال الدين محمد السنجاري[٢] وعدد من الكتاب وأصحاب القلم من العلماء[٣] .

وعندما خرج السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيش لمهاجمة الصليبيين في مدينة عكا سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م اصطحب معه عدداً من العلماء والقضاة والكتاب منهم القاضي جمال الدين الحنفي، والصاحب فخر الدين بن لقمان[٤]، والصاحب فتح الدين بن سناء الملك[٥]. إضافةً إلى القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، الذي كان راوياً وشاهد عيان على حروب الملك الظاهر بيبرس ضد الصليبيين[٦]. والذي تحدث في موضع آخر من كتابه إلى أنه عندما استعاد

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٧١-٢٧٢؛ سليم الهلالي: صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، ص٦٢-٦٣؛ عبد الله الغامدي: دور المتطوعة في حركة الجهاد ، ص٣٣٩.

(٢) هو محمد بن عزيز أبو عبدالله بن عزالدين السنجاري الحنفي، الدمشقي، اشتهر بالفضل والكرم ودرس بعدد من مدارس دمشق، خرج مع الخليفة المستنصر بالله أحمد لغزو التتار، فاستشهد هناك سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م. المقريزي: المقفي، ج٦، ص١٢٤.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض، ص١١١-١١٤؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة،ص٩٣-٩٥؛المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٥٨، وللوقوف على المزيد عن هذه المحاولة، انظر، عبدالله الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبين، ص١٦٧-١٦٨.

(٤) هو إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الشيباني المصري الإسعردي .توفي سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م. البرزالي: المقتفي، ج٢، ص٣٥٩.

(٥) لم أقف له على ترجمة.

(٦) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٦٠ ، ١٦١؛ بيبرس: زبدة الفكرة، ص١١١.

السلطان الظاهر بيبرس أرسوف[١] من الصليبيين سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م شارك معه في هذا النصر" العباد والزهاد والفقهاء والفقراء"وأن بيبرس أعطى بعض هؤلاء الصلحاء أموالاً طائلة[٢]. منهم الشيخ على البكاء[٣] .

وعندما وصف ابن عبد الظاهر حصار السلطان الظاهر بيبرس لمدينة صفد سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م، ذكر مشاركة عدد من العباد والفقهاء والفقراء والقضاة في هذا الحصار[٤] كما شارك عدد من القضاة والعلماء، منهم القاضي القاضي شمس الدين الحنبلي قاضي دمشق[٥] والشيخ تقي الدين بن الواسطي[٦] الواسطي[٦] وعدد آخر من العلماء ضمن الجيش المملوكي الذي خرج لاستعادة حصن شقيف سنة ٦٦٦هـ /١٢٦٧م[٧]. ويذكر ابن تغري بردي، أن الأمير شرف الدين الهكاري[٨] الذي كان من كبار المحدثين،كانت له مشاركات مشاركات متميزة في عمليات الجهاد في عهد السلطان الظاهر بيبرس، حتى إن

---

(١) أرسوف: مدينة تقع على ساحل بلاد الشام بين قيسارية ويافا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٥١. وللوقوف على المزيد عن هذه المدينة انظر، محمد مؤنس عوض:في الصراع الإسلامي الصليبي معركة أرسوف ،ص٧-٩.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض، ص٢٣٧-٢٣٨٨ ؛ المقريزي: السلوك، ج١ ، ق٢ ، ص٥٢٦ ؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٧٢.

(٣) كانت له زاوية بالقرب من الخليل، عرف عنه كثرة البكاء والعبادة وإطعام المحتاج. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٠٥.

(٤) ابن عبد الظاهر الروض: ص٢٨٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٨٧؛ المقريزي: السلوك، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٤٦.

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن عبد القوي بن بدران المرداوى الحنبلي، ولد سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م. كان من الأئمة الأعلام الحفاظ، برع في الفقه والنحو واللغة، أفتى ودرس، توفي سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٢٢.

(٦) لم أقف له على ترجمة.

(٧) ابن عبد الظاهر: الروض، ص٢٩٦؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٥.

(٨) هو أبو محمد عيسى بن محمد بن أبي القاسم بن محمد الكردي الهكاري، له سماع في الحديث النبوي النبوي الشريف، كما حدث به، وله نظم رائع، ولد سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م، وكان يعد من شجعان الأمراء والقواد المتميزين الذين يعتمد عليهم الظاهر بيبرس في حروبه. ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٢٠٣.

الظاهر بيبرس كان يعتمد عليه في غزواته وحروبه، وأنه استمر على هذه الحال حتى توفي سنة ٦٦٩هـ/١٢٩٩م [١] أما العيني فيصف قاضي القضاة صدر الدين الأذرعي الحنفي المتوفي سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م بأنه كان من المقربين لدى السلطان الظاهر بيبرس، وكان حريصاً على اصطحابه في معظم غزواته التي كان يواجه فيها المغول أو الصليبيين أو غيرهم من أعداء الأمة آنذاك[٢].

كما تذكر المصادر أن الأديب شمس الدين بن مكتوم البعلبكي[٣] شارك في في القتال ضد المغول في معركة حمص الشهيرة سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م واستشهد في هذه المعركة[٤]. وكذالك الحال بالنسبة لمؤرخنا اليونيني[٥] فقد كان كان ضمن من استشهد في هذه المعركة[٦].

---

(١) النجوم، ج٧، ص٢٠٣.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٢٠٥.

(٣) هو محمد بن أحمد بن مكتوم البعلبكي، كان يعرف بابن أبي الخشتين، له معرفة بعدد من العلوم خاصةً الأدب والنظم، عمل معيداً وإماماً ومدرساً بالمدرسة الأمينية ببعلبك، عرف عنه حسن الخلق، استشهد ولم يجاوز الأربعين سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، في معركة حمص. البرزالي: المقتفي، ج١، ص٥٢٤؛ الصفدي: الوافي، ج١، ص١٢٩، ابن العماد: شذارت الذهب، ج٥، ص٣٦٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٠٥؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص١٢١-١٢٢.

(٥) هو عبد الله بن محمد بن عبد الله اليونيني، ولد سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م اشتهر بالصفات الحسنة، لقب لقب بشيخ الإسلام، وتوفي سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م في معركة حمص. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١٤، ص١١١-١١٢؛ الشهري: دور العلماءالمسلمين في الجهاد الإسلامي، ص١٣٧؛ البرزالي: المقتفي، ج١، ص٥٢٣ـ ٥٢٤.

(٦) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص١١١-١١٢؛ الشهري: دور العلماء المسلمين في الجهاد الإسلامي، ص١٣٧.

وعندما استعاد السلطان المنصور قلاوون مدينة طرابلس من الصليبيين سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م شارك في حصارها عدد من العلماء المتطوعين يتقدمهم القاضي نجم الدين بن الشيخ الحنبلي[١] وعدد من علماء بيت المقدس[٢]. وعندما عزم الأشرف خليل استعادة عكا من الصليبيين خرج للمشاركة في هذا العمل العظيم "الفقهاء والمدرسون والصلحاء[٣]. كما اشترك مع السلطان الأشرف خليل في استعادته لقلعة الروم[٤] سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م كلٌ من الأمير المؤرخ بيبرس الدوادار، والقاضي فتح الدين بن عبد الظاهر[٥]، كما تشير المصادر المعاصرة إلى أن الملك الأيوبي أبا الفداء صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر، شارك في معظم الحملات العسكرية التي شنها سلاطين المماليك على مدينة سيس عاصمة مملكة أرمينية الصغرى، وقد نقل لنا مشاهداته الشخصية لتلك المعارك[٦].

---

(١) هو أحمد بن الشيخ قاضي القضاة شمس الدين عبدالرحمن بن الشيخ أبى عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، ولد سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، تولى عدداً من المناصب، منها خطبة الجبل وقاضي قضاة الحنابلة، وشيخ الحنابلة، كما درس في عدد من مدارس بلاد الشام، اتصف بسعة العلم ومعرفة الفقه، إضافة إلى مكارم الأخلاق من شجاعة وشهامة، تولى القضاء ولم يبلغ ثلاثين سنة وسارفي القضاء سيرة حسنة، توفي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م البرزالي: المقتفي، ج٢،ص١٩٣؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ج٢، ص٣٢٢-٣٢٣ .

(٢)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٢٨٤-٢٨٥؛ ابن كثير: البداية، ج١٣، ص٣٦١؛ البرزالي: المقتفي، ج٢، ص١٥٨-١٦١؛ ابن حبيب :تذكرة النبيه، ج١، ص١٢٢؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٣٨٠.

(٣) ابن الجزري: جواهر السلوك، ص١١١؛ ابن كثير: البداية، ج١٣، ص٣٦٩؛ العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٥٦.

(٤) قلعة الروم: من القلاع الحصينة، تقع غربي الفرات مقابل مدينة البيرة. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، الفكرة، ص٣٠٥، هامش ١؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص١٤٧.

(٥) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٩٢-٩٣ ؛ زبدة الفكرة، ص٣٠٥-٣٠٦؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص١٤٧؛ العيني: عقد الجمان، ج٣، ص١٢٢.

(٦) أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص٣٥.

وعندما هاجم إيلخان المغول محمود غازان بلاد المسلمين سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م نودي في مصر والشام بالنفير العام، وشمل ذلك القضاة وعامة الناس، وطُلب من هؤلاء جميعاً تعلم أساليب الرمي بالسهام لضمان فعالية مشاركتهم في صد هذا العدوان عن بلاد الشام(١). وقد استجاب لهذا النداء العديد من العلماء والفقهاء وغيرهم، يؤكد هذا ما ذكره المؤرخون من أن عدداً من العلماء قد استشهدوا في هذه المعركة منهم، عماد الدين إسماعيل بن الأثير(٢) أحد الموقعين، والقاضي حسام الدين الرازي الحنفي الذي فقد في هذه المعركة ولم يعرف له خبر (٣)، والأمير المحدث سنجر الدواداري(٤)، والعلامة الأمير سيف سيف الدواداري(٥).

وعندما خرج السلطان الناصر محمد لملاقاة المغول في معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م، خرج بصحبته القضاة الأربعة والخليفة العباسي الحاكم بأمر الله، كما شارك عدد من الفقهاء في الإعداد لهذه المعركة وكذالك المشاركة فيها، إذ يذكر المقريزي أن الأمراء والفقهاء كانوا يدورون على

---

(١) ابن كثير: البداية، ج١٤، ص٤٢٠؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه،ج١، ص٢٢٤، النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٥٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٨٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص١٥٢. الموقعين: هو موظف يقوم بالتوقيع على الأوامر "القصص" سواءً في مصر أو في بلاد الشام. محمد البقلي: التعريف، ص٣٣٥.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٨٩-٩٠؛ ابن كثير: البداية، ج١٤، ص٤٢٠-٤٢١.

(٤)العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١١٤-١١٥؛ والأمير سنجر هو أبو موسى سنجر الدواداري الرحي البرنلي، من كبار الأمراء، جمع بين العلم والرئاسة، حفظ القرآن، وكتاب الإشارة في الفقه، كما درس الحديث، عرف عنه الشجاعة، توفي ٦٩٩هـ/١٢٩٩م. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٢٩؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١١٤-١١٥.

(٥) بيبرس الدوادار :زبدة الفكرة، ص٣٥٨؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه،ج١،ص٢٢٠؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٩-٢٠؛ والأمير سيف الدين الدواداري: هو سيف الدين الدواداري الصالحي النجمي، كان من الفرسان الشجعان في المعارك، والعلماء المهتمين بالحديث والفقه، استشهد في معركة وادي الخازندار سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م. العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٩-٢٠.

الجند يحثونهم ويعظونهم ويقوون عزائمهم على ملاقاة العـدو[١]. وكـان فـي مقدمة هؤلاء العلماء شيخ الإسلام ابـن تيميـة، الـذي كـان يجمـع الفقهـاء والمتطوعة من العامة ويحلفهم على حضور المعركة وعدم التولي عند الزحـف إليها، والصمود في وجه العدو، كما كان يشجع الجنـد علـى الاستبسـال فـي الجهاد للنصر ونيل الشهادة. كما شارك بنفسه أيضاً في صفوف المجاهـدين[٢]. كما شارك في هذه المعركة عدد من القراء يقرأون القرآن وآيات الجهاد التـي تحث على الجهاد وفضل الشهادة[٣] كما شارك في هذه المعركة عدد من أبـرز مؤرخي هذا العصر، منهم المؤرخ بيبرس الدوادار[٤] والملـك الأيـوبي عمـاد الدين أبو الفداء[٥].

كما شارك هذان المؤرخان أيضاً ومعهما عدد من العلمـاء فـي الحملـة العسكرية التي شنها السلطان الناصر محمد بن قـلاوون علـى مدينـة سـيس عاصمة مملكة أرمينة الصغرى، وذلك بسبب اعتداءات صـاحبها وتجاوزاتـه على حدود دولة المماليك الشمـالية.وذلك فـي سـنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م[٦]

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٨٦-٨٨٧؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٣.

(٢) ابن كثير: البداية، ج١٤، ص٤٣١-٤٣٥؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٢٤٣؛ ابن العماد: شـذرات الذهب، ج٦، ص٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٣٣؛ ابن تغري بردي: النجـوم، ج٨، ص١٢٦؛ العينـي: عقـد الجمان، ج٤، ص٢٢٣-٢٢٤.

(٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٤٠٤ ؛ بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص١٢٣-١٢٧؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٢٣٢.

(٥) أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص٤٨.

(٦) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٤١١-٤١٢؛ أبو الفداء: المختصـر، ج٣، ص٤٦؛ العينـي: عقـد الجمان، ج٤ ، ص٣٨٢-٣٨٣.

وعندما عزم نائب السلطنة الأمير جمال الدين آقوش الأفرم[١] علـــى الخـــروج على رأس فرقة من الجيش المملوكي لمحاربة أهالي جبال الكسروان[٢] لفسادهم وفساد معتقداتهم واستمرار ضلالاتهم، صحِبه في هذه الحملة عدد من العلمـــاء والفقهاء يتقدمهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقد كان لمشاركة ابن تيميـــة أثره البالغ في توافد عدد من العلماء للمشاركة في هذه الحملة، وكان لمشاركتهم دور كبير في تحقيق نصر مؤزر في هذه المواجهة[٣] .

وعندما هاجم المغول بلاد المسلمين سنة ٧١٢هـــ/١٣١٢م. وحاصـــروا مدينة الرحبة[٤]، ووصلت الأخبار بهذا الهجوم إلى القـــاهرة خـــرج الســـلطان الناصر محمد بن قلاوون على رأس جيش كبير من مصر لرد العدو، وصـــحبه في خروجه هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، كما أبدى صاحب حماة الملك المؤيـــد أبو الفداء استعداده للخروج للقاء العدو وخرج بعسكره من حمـــاه إلـــى حلـــب لتقصي أخبار المغول، لكن الله كفى المسلمين شر هذا العدو، فقد عاد المغـــول من حيث أتوا بعد أن حاصروا مدينة الرحبة قرابة شهر واحـــد، ظلـــت خلالـــه صامدة، فعاد العدو يجر أذيال الخيبة [٥] .

ويصف المؤرخ الملك المؤيد أبو الفداء غزوات المسلمين لمدينـــة ملطيـــة سنة ٧١٥هـــ / ١٣١٥م، حيث خرجت لتأديب تلك المدينة جيوش جرارة لكثرة

---

(١) هو الأمير جمال الدين آقوش الأفرم، نائب بلاد الشام وهو جركسي الأصـــل، مـــن مماليـــك المنصـــور قلاوون . موفق فوزي الجبر: حكام دمشق، ص٦٣ .

(٢) جبل الكسروان: أو جبل الدرزية، من أعمال بلاد الشام ،وهو يتصل بوادي التيم، انظر، أبـــو الفـــداء: تقويم البلدان، ص٢٢٩.

(٣) ابن كثير: البداية، ج١٤، ص٤٤٤-٤٤٥؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٤١ ؛ البرزالي: المقتفي، ج٣، ص١٠١؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص٧٠.

(٤) الرحبة: قرية تقع بالقرب من مدينة القادسية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣،ص٣٣.

(٥) ابن كثير: البداية، ج١٤، ص٤٧٧-٤٧٨؛ أبـــو الفـــداء: المختصـــر، ج٤، ص٦٩-٧٠؛ المقريـــزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١١١٩.

أذى أهالي ملطية للمسلمين، وتجسسهم عليهم، ومما زاد الوضع سوءًا هجوم أهالي ملطية على جماعة من المسلمين وقتلهم، مما أثار حفيظة الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأرسل إليهم الجيوش لتأديبهم، وكان الملك المؤيد شاهد عيان ومشاركاً في تلك الحملة التأديبية التي انتهت بتسليم المدينة بالأمان(١).

كما شارك المؤرخ اليوسفي(٢) في غزو مدينة سيس عاصمة مملكة أرمينية الصغرى، حيث كان "مقدماً في الحلقة المنصورة"(٣) وذلك بسبب عصيان صاحبها وقطعه ما كان يدفعه لدولة المماليك من إتاوة، إضافة إلى إقدامه على أسر جماعة من المسلمين، فأرسل إليه الملك الناصر محمد نائب حلب لتأديبه، وذلك في سنة ٨٧٧هـ /١٤٧٢م(٤).

وعندما هاجم تيمورلنك بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م واستولى على مدينة حلب خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون من القاهرة بعسكره ويرافقه الخليفة والقضاة ، كما شارك في هذه المواجهة ضد تيمورلنك قاضي دمشق تقي الدين الكفري(٥) الحنفي، حيث أسره تيمورلنك وتوفي في الأسر، كما

---

(١) ابن كثير: البداية، ج١٤، ص٤٨٤-٤٨٥؛ أبوالفداء، المختصر، ج٤، ص٧٤-٧٣؛ البرزالي: المقتفي، ج٣، ص١٠.

(٢) هو عماد الدين موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي المصري، اشتهر بابن الشيخ يحيى، ولد سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م وتوفي سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٧م. اليوسغي: نزهة الناظر، مقدمة المحقق، ص٤٢.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٤٢-٤٣. و المقدم: هو اسم مفعول من قدم ،وتعني "الرئيس أو المقدم أو كبير القوم أو الطائفة أو الجماعة أو الهيئة أو السفينة أو المتقدم على غيره ،أوالمرشد" والمقدم هو من يقوم بالإشراف على تعليم مماليك السلطان والأمراء في الطابق، كما يركب خلف المماليك إذا ركب السلطان ويشرف عليهم، ويحكم بينهم في جميع أمورهم، أما الحلقة المنصورة: فيقصد بالحلقة الدروع، وحلقة القوم هو لفظ اصطلاحي أطلق على طبقة من الجند عرفت في العصرين الأيوبي والمملوكي، وهذه الفرقة يتكون منها معظم الجيش وهم "عصب الجيش" وكان لكل أربعين جندياً من الحلقة مقدم عليهم يلي أمرهم في حال الحرب، انظر، حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج١، ص٤٢٨،٣٦٥-٤٢٩، ج٣، ص١١٢٠؛ محمد البقلي: التعريف،ص٣٢٢.

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٩٦-٤٠٤.

(٥) هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن الحسين بن فزارة الكفري، تولي قضاة الحنفية بدمشق، وتوفي بالأسر سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص٢٧٣.

شارك في هذه المواجهة قاضي القضـــــاة صدر الـــدين المنـــاوي[١] الشـــافعي الذي توفي غرقاً في نهر الزاب[٢] بعد أن أسره تيمورلنك، كما شارك في هـــذه الحرب العالم شهاب الدين المكاوي، الذي كان يتولى منصـــب نيابـــة القضـــاء بدمشق آنذاك[٣] .

وعندما خرج السلطان المملوكي الأشرف برسباي لمهاجمة جزيرة قبـــرص سنة ٨٢٩هـــ/١٤٢٥م، وذلك كرد فعل لتلك الحملة التي شنها ملكهـــا بطـــرس الأول لوزجنان على مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٥هـــ/ ١٣٦٣م خرج معه عـــدد من الفقهاء المتطوعة من أهل العلم. وكان لمشاركتهم دور فاعل في نجاح هـــذه الحملة التي قادها برسباي بنفسه في السيطرة على جزيرة قبرص بأكملها وأسر ملكها جانوس[٤] وأصبحت جزيرة قبرص بعد ذلك نيابة مملوكية تـــأتمر بـــأمر السلطان المملوكي برسباي في القاهرة[٥] .

---

(١) هو محمد بن إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم العلمي المناوي الشافعي، تولي منصـــب قاضـــي قضـــاة الشافعية بمصر، توفي سنة ٨٠٣هـــ/١٤٠٠م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص٢٧٧.

(٢) نهر الزاب: الزاب اسم لعدد من الأنهر، منها الزاب الأعلى وهو يمتد من بين الموصل وأربل من بداية أذربيجان ويمتد حتى يصب في نهر دجلة، ويسمى الـــزاب المجنـــون لقـــوة جريانـــه، أمـــا الـــزاب الأصغر:فهو يصب من جبال شهرزور ويمر بين إربل ودقوق ويصب أيضاً في نهر دجلة، أما الـــزاب الأسفل: فهو ينبع من الفرات من بين سور وواسط ويصب في دجلة ،أما الزاب الرابع: فهو ينبع من الفرات ويصب في نهر دجلة بالقرب من مدينة واسط. أبوالفداء: التقويم، ص٥٥، وهامش ١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٧٣؛ ابن تغري بـــردي: النجـــوم، ج١٢، ص١٨٣-٢٧٣-٢٧٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٠١-٦٠٢؛ ابن العماد: شـــذرات، ج٧، ص٢٤. وشـــهاب الدين المكاوي: هو أحمد بن راشد المكاوي الدمشقي الشافعي أبو العبـــاس، تـــولي نيابـــة القضـــاء بدمشق، توفي سنة ٨٠٣هـــ/١٤٠٠م. ابن العماد: شذرات، ج٧، ص٢٤.

(٤) جانوس هو سليل أسرة لوزجنان، تولي حكم جزيرة قبرص سنة ١٣٩٨-١٤٣٢م. ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤، ص١٣٠، هامش٢؛ عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٨٨.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٧٢٠-٧٢٣؛ العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم الســـنوات مـــن (٨٢٤-٨٥٠هـــ)، ص٢٧٤-٢٧٦؛ ابن تغري بدري: النجوم، ج١٤، ص١٢٢؛ ابن حجـــر: إنبـــاء

وعندما قرر السلطان المملوكي الظاهر جقمق تجريد حملاته البحرية ضد فرسان الإسبتارية في جزيرة رودس[١] بسبب مشاركتهم الملــك بطــرس الأول لوزجنان في غزوه للإسكندرية، وكذلك لكثرة أذاهم لسواحل دولة المماليك فــي مصر والشام .وذلك في سنة ٨٤٧هــ/١٤٤٣م. خرج للمشاركة في هذه الحملة البحرية عدد من العلماء والفقهاء ،يتقدمهم الفقيه الأمير النائــب ســيف الــدين تغري برمش[٢] نائب قلعة الجبل[٣] .

وفي معركة مرج دابق الفاصلة التي دارت رحاها بين المماليك والعثمانيين سنة ٩٢٢هــ / ١٥١٦م التي أنهت الوجود المملوكي في بــلاد الشــام خــرج السلطان قانصوه الغوري على رأس جيش يتقدمه قضاة الإسلام الأربعــة وهــم القاضي كمال الدين الطويل الشافعي[٤]، وقاضي القضاة الحنفي حســام الــدين محمود بن الشحنة[٥] ، وقاضي القضاة محي الدين يحي بن الدميري المالكي[٦]،

الغمر، ج٣، ص٣٦٦-٣٧١؛ ابن شاهين: نيــل الامــل، ج٤، ص١٩٦-٢٠٢؛ عاشــور: قبــرص والحروب الصليبية، ص١٠٥-١٢١.

(١) عن غارات فرسان الاسبتارية في جزيرة رودوس على شواطئ دولة المماليك انظــر، عبــد العزيــز عبدالديم، الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة في مياه البحر المتوسط، ص٢١٢.

(٢) هو تغري برمش بن عبد الله الجلالي الناصري المؤيدي الفقيه، كان من الفرسان الشجعان، كما عد من العلماء المسلمين الملمين باللغة العربية والتركية وكتابة الشعر بــاللغتين، وكــان ملمــاً بالتــاريخ والحديث و رجاله والأدب وأيام الناس، توفي سنة ٨٥٢هــ/١٤٤٨م. ابن تغــري بــردي: النجــوم، ج١٥ ن ص٢٥٦-٢٥٨.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٢٥٦-٢٥٨.

(٤) هو محمد بن علي القاهري الشافعي، ولد سنة ٨٤٦هــ/١٤٤٢م، عرف بسعة علمه ومعرفته للعلــوم المتنوعة، مع تواضع وعفة، تولى قضاء قضاة الشافعية بمصر وخطب بدمشق، وأخذ عنه الكثيرون، توفي سنة ٩٣٦هــ/١٥٢٩م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص٢٢٠-٢٢١.

(٥) هو سري الدين أبو البركات عبدالبر بن محب الدين أبي الفضل محمد بن محــب الــدين، ولــد ســنة ٨٥١هــ/١٤٤٧م، رحل إلى القاهرة وتلقي علومه بها، تولى قضاء حلب وقضاء مصر، توفي ســنة ٩٢١هــ/١٥١٥م ابن العماد:شذرات الذهب، ج٨، ص٩٨.

(٦) لم أقف له على ترجمة.

وقاضي القضاة شهاب الدين أحمد الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلـــي[١]، وكان بصحبتهم الخليفة المستمسك بالله يعقوب[٢]. وكان خروج هــذا الموكــب بصحبة السلطان في ركاب الجيش المملوكي حتى يصـــبغ الجــيش بالصـــبغة الدينية،وأن العلماء والقضاة موافقون على جواز هذه الحرب ضـــد العثمـــانيين المسلمين ، وكما ذكرنا سابقاً أن مجرد خروج القضاة والعلمـــاء فـــي ركـــاب الجيوش المملوكية هو بحد ذاته فتوى تجيز هذه الحرب.

الفصل الخامس

دور العلماء في إصلاح المجتمع المملوكي

- أبرز مظاهر الفساد المذهبي والاجتماعي.
- دور العلماء في التصدي لمظاهر الفساد.

(١) هو أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي ويعرف بالنجار، ولد سنة ٨٦٢هـــ/١٤٥٧م وهـو مـن العلماء المشهورين بالتواضع وكثرة العلم، انقطع للعبادة والعلم بعد سقوط الدولة المملوكية تـوفي سنة ٩٤٩هـ/١٥٤٢م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص٢٧٦.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٩٢٢.

- المشكلات والصعوبات التي واجهت العلماء في ذلك.

- المبحث الأول

أبرز مظاهر الفساد المذهبي والاجتماعي

بالرغم مما اشتهر به العصر المملوكي من ظهور علماء أفذاذ في شتى ميادين المعرفة خاصة العلوم الدينية و الإنسانية، حيث شهد هذا العصر مؤلفات عدة في هذه المجالات، قام بتصنيفها علماء عاشوا داخل المجتمع المملوكي، وخالطوا عامة الناس وخاصتهم، إلا أن هذا لم يمنع من تفشي بعض مظاهر الفساد داخل هذا المجتمع. بعض هذه المظاهر كان عبارة عن عادات يومية اعتاد الناس -خاصة العامة منهم- على ممارستها، والبعض الآخر انطوى على بدع وخرافات ومعتقدات فاسدة، مس معظمها جوهر العقيدة الإسلامية. ومن هذه المظاهر على سبيل المثال لا الحصر ما تداولته المصادر المعاصرة من إسناد بعض الوظائف الهامة في الدولة المملوكية إلى غير أهلها. وكما هو معروف فإن إسناد هذه الوظائف إلى أناس غير أكفاء يعد من أسباب اضمحلال وتدهور أوضاع الدول ومن ثم زوالها، فبذلك يقع الظلم على الرعية، ويحدث الركود والتخلف عن ركب الحضارة[1].

وقد سجلت لنا المصادر نماذج من هذه المظاهر، منها ما حدث سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م، فقد سعى الوزير ابن السلعوس لدى القاضي تقي الدين بن بنت الأعز[2] في أن يولي أحد الأشخاص المقربين منه غير الأكفاء منصب نيابة الحكم في القاهرة، إلا أن القاضي بما عرف عنه من نزاهة، رفض مساعي ابن السلعوس لكونه يعلم مسبقاً أن هذا الشخص ليس أهلاً لهذا المنصب[3].

---

(١) للوقوف على المزيد عن هذه المظاهر انظر: نعمان عبد الرازق السامرائي: في التفسير الإسلامي للتاريخ ،ص١٣٥-١٣٨ ومابعدها.

(٢) تقي الدين عبد الرحمن بن قاضي القضاة تاج الدين العلائي الشافعي توفي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م؛ ابن العماد: شذرات، ج٥، ص٤٣١.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص١٧٢-١٧٩.

كما تشير المصادر أيضاً أن هذا الوباء لم يقتصر على حاضرة الحكم (القاهرة) بل تعداها إلى الديار المقدسة في الحجاز، من ذلك ما حدث زمن حكم الشريف رميثة بن أبي نمي بمكة، حيث استقبل بعض أبنائه ومنهم ثقبه وعجلان، وعرضا عليه التنازل عن الحكم لهما مقابل مبلغ من المال قيل إنه بلغ ٦٠ ألف درهم ، فوافق رميثة على ذلك، ولم يوقفه سوى تذمر أهل مكة، ولاشك أن في مقدمتهم العلماء الذين أخبروا السلطة الحاكمة في مصر بهذا الخبر فاستدعى الاثنين إلى القاهرة بعد صدور الأمر بالقبض عليهما[(١)].

كما يشير المؤرخ المعاصر المقريزي إلى ما هو أخطر من ذلك، وهو تفشي ظاهرة بيع الوظائف في الدولة المملوكية مقابل حفنة من المال، وأن هذا قد شمل الوظائف الدينية ومنها القضاء ونظارة الأوقاف، وكذلك التدريس في مشيخات الصوفية. حيث يذكر أن بعضاً ممن كان يتولى هذه الوظائف يقوم ببيعها وهو على رأسها لغيره، أو توريثها لأحد أبنائه من بعده مهما كان مستوى ذلك الابن سواء من حيث صغر سنه أو تدنى درجة علمه. ويصف ذلك بقوله:"وسري ذلك حتى في التداريس الجليلة، والأنظار المعبرة، وفي ولاية القضاء بالأعمال يليه الصغير من بعد موت أبيه، ويستناب عنه كما يستناب في تدريس الفقه والحديث النبوي، وفي نظر الجوامع ومشيخة التصوف. فيا نفس جدي إن دهرك هازل!!"[(٢)].

كما يعلق تاج الدين السبكي على تولي المناصب لغير مستحقيها وانتشار البذل وشراء الوظائف بقولة "والسلمة غالباً انما تتوقع في ترك الولايات فكيف تبذل فيها الأموال الحرام ، فإنه لما رجع الأمر فيها إلى بذل الأموال صار يطلبها

---

(١) للوقوف على تفصيلات أكثر انظر عند الحفيظ السالمي: الثورات الداخلية والحملات الخارجية على مكة، ص٧٧-٧٩ .

(٢) السلوك، ج٤، ق٢، ص٦١٩.

من ليس فيه أهلية لها ولا يعرف الأحكام فضاعت أمور المسلمين بسبب طلبها ودخول الأموال فيها وصارت التولية لمن لايستحقها "[1].

كما أرجع المقريزي في كتابه إغاثة الأمة بكشف الغمة أسباب الفساد والغلاء والقحط الذي تفشي في المجتمع المملوكي إلى عدد من الأسباب، منها تولي الوظائف المهمة والدينية في الدولة كالوزارة والقضاء والحسبة وغيرها من الوظائف المهمة بالرشوة "البرطلة"[2]، فيصل إلى هذه الوظائف المهمة في الدولة من ليس أهلاً لها، ويتحمل دفع الأموال الطائلة، إما للسلطان أو لحاشيته ثم يرهق عماله وأعوانه بجمع هذه الأموال، وهم بدورهم يقومون بجمع الأموال من الرعية الذين أثقلت كواهلهم بدفع الضرائب وجور و تعسف الولاة والجباة في أخذ الأموال من العامة بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة[3].

أما حال الولاة فلم يكن بأحسن حالاً من القضاة ، فإلى جانب ما كان شائعاً بين هؤلاء الولاة من شراء المناصب بالمال، فقد كانوا يحصلون على الأموال غير المشروعة بطرق متعددة، سواء أكان ذلك من المال العام الخاص بالدولة، أو أكل أموال عامة الناس بالباطل، ولعل خير وصف لهذا الحال هو قول المقريزي أن عدد نواب القضاة من كل مذهب بلغ ما يقارب المائتين، وهم لا يتوانون عن أخذ الرشوة وتغريم المتخاصمين بدفع الأموال الطائلة، أما حال الولاة في مصر والقاهرة فهو ليس بأفضل منهم، فكل ما يُسَرق يُؤْخذ من السَارِق ويستولي عليه الوالي وأتباعه، وإذا لم يجد الوالي عند اللص ما سُرِق، يفدي اللص نفسه بمبلغ من المال ليفك أسره[4]. الأمر الذي أثر بشكل سلبي على مكانة القضاة، وتفشي

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم،ص١٥٨.

(٢) عن ظاهرة الرشوه، انظر، رأفت النبراوي: أسعار السلع الغذائيه والجوامك في عصر دولة المماليك الجراكسة،ص١٢٦-١٢٩؛ كما أن هناك دراسة متخصصة حول هذا الموضوع، ولكن لم يتسن لي الاطلاع عليها، لأحمد عبد الرزاق: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك.

(٣) إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٣٨-٤٠.

(٤) السلوك، ج٤، ق١، ص٣٨٨-٣٩٤؛ وقد ذكر هذه الأوضاع في حوادث سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م، عن شروط تعيين الولاة. انظر سحر دعدع: ولاة القاهرة الكبرى، ص١٨-١٩ .

الظلم في المجتمع، وضياع الحقوق، وكثرة المظالم، وكذالك تدنى مكانة هؤلاء القضاة في نفوس حكام الدولة وأيضاً انعدام الثقة، إذ لم تعد لهؤلاء تلك الهيبة التي كانت لقضاة الدولة المملوكية السابقين كالعز بن عبد السلام أو بن دقيق العيد أو النووي أو بن تيمية وغيرهم من العلماء الأفذاذ الذين وقفوا في وجه السلاطين لردعهم عن الظلم.كما إن هذه الظاهرة فتحت الباب على مصراعيه للسلطان ليولي كل من يدفع الأموال لأي وظيفة يتنازل عنها القاضي احتجاجاً عن وضع ما، أو لتدخل رجال الدولة في شؤون القضاة[1].

واللافت للنظر أن المصادر تشير إلى أن أخذ الرشوة مقابل تولية بعض الوظائف في الدولة المملوكية وصل إلى حد المجاهرة بهذا الأمر. وقد أرجع المؤرخ المعاصر المقريزي هذه الظاهرة إلى عهد السلطان المملوكي الظاهر برقوق،وأنه كان ممن مارس البرطلة مقابل تعيين بعض الموظفين في مناصبهم وأن هذه الظاهرة باتت في عهده تمارس جهاراً نهاراً، دون أي رادع[2].

والملاحظ أن المؤرخ المتأخر بعض الشيء وهو ابن تغري بردي يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد أرجع تفشي هذه الظاهرة منذ عهد السلطان الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، فقد وجد في عصره ديوان لدفع البراطيل يعرف "بديوان البذل" يذهب إليه الشخص لدفع الرشوة حتى يتولى وظيفة من الوظائف، بل يعين تلك الوظيفة التي يريد الالتحاق بها[3].

وللتوفيق بين الرأيين ترى الباحثة أن الرشوة والبرطلة التي ظهرت منذ عهد الصالح إسماعيل لم تكن من أجل شراء الوظائف المهمة في الدولة كالقضاء والوزارة والحسبة والتدريس في المدارس المشهورة ومشيخة الشيوخ، فكل هذه

---

(١) أكرم حسن العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص٢٠٣؛ السيد محمد عطا:إقليم الغربية في عصر الأيوبيين والمماليك ،ص٣٣٦.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٢٣٩-٢٤١؛ نظير حسان سعداوي: صور ومظالم من عصر المماليك، ص٢٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٢٣٩-٢٤١؛ نظير حسان سعداوي: صور ومظالم من عصر المماليك، ص٢٧.

وظائف دينية تحتاج إلى أشخاص ذوى كفاءة عالية وخبرة، وإنما كانت الرشوة تتعلق ببعض الأمور الأقل أهمية من ذلك. أما ما ذهب إليه المقريزي الذي تحدث عن تفشي الرشوة والمجاهرة بها زمن السلطان برقوق، فقد أصبحت الرشوة أو البراطيل أمراً مُسلَماً به وإلزاماً على أكثر متولي الوظائف حتى إن القاضي يسعى بمال عند السلطان ليعزل قاضياً آخر ويحل هو محله، فهناك فرق في أن تكون البرطلة عند الأمراء وموظفي الدولة الإداريين، ونادراً ما تحدث عند القضاة كما سنلاحظ فيما يلي، أو أن تكون مدعمة من صاحب السلطة العليا في البلاد، فإذا كان هذا هو حال السلطان والقضاة فما هو حال الرعية والموظفين البسطاء في الدولة؟

ولعل مما يؤكد هذا، ما ذكره المؤرخ أبو الفداء ،أنه في عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م تولى أحد القضاة وهو القاضي برهان الدين إبراهيم الرسعني[١] الشافعي منصب القضاء بحلب بدفع رشوة لنائبها، وأنه أول من تولى منصب القضاء بالبراطيل[٢].

ونقول إن دفع الرشوة هنا كان لأحد النواب ولم يكن للسلطان، وحتى لو ظهر قبل هذا العهد فهو في أواخر عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون وبداية عهدٍ كله اضطرابات بسبب تولي سلاطين صغار في السن وتحكم الأمراء ونساء السلطان في الأمور.

كما يذكر العيني أن القاضي بهاء الدين بن حجي الشافعي انتقل إليه منصب قاضي القضاة في دمشق سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م وذلك بعد وفاة والده، فانتقلت إليه الوظيفة وكأنها إرث يرثه، ناهيك عن أنه كان صبياً لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر، وهو "عار من العلوم وثلمة في الإسلام، وماذا إلا من أشراط الساعة وقد لعن صاحب الشرع الرشا في الأمور الدينية"[٣].

---

(١) لم أقف له على ترجمة.

(٢) المختصر، ج٤، ص١٤٢.

(٣) العيني: عقد الجمان، حوادث وتراجم السنوات من (٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٣١٩.

أما ابن إياس فيذكر أن تولى القاضي محي الدين عبد القادر بن النقيب وظيفة قاضي قضاة الشافعية الأراضي المصرية سنة٩٢١هـ/١٥١٥م كان بعد أن تعهد بدفع الأموال الطائلة نظير توليه هذه الوظيفة[١].

ومن مظاهر الفساد الاجتماعي التي تفشت داخل المجتمع المملوكي انتشار التزوير و شهادة الزور، يدلنا على ذلك ما ذكره المؤرخ ابن شاهين الظاهري عند حديثه عن حوادث سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، حيث نص صراحة على تفشى هاتين الظاهرتين بما لهما من مساوئ على عامة الناس وخاصتهم بالقاهرة[٢].

ومن الأمور الشنيعة التي شهدها المجتمع المملوكي، ظاهرة المجاهرة بشرب الخمر و الاتجار به علانية، بل و تعيين مقرر يفرض على تجار الخمور يدفع لخزينة الدولة يومياً، وهو ما عرف بـ "التضمين" والذي تأرجح بين الإلغاء والإعادة في بعض فترات العصر المملوكي، من ذلك على سبيل المثال ما ذكره البعض من أنه رغم أن السلطان بيبرس أمر بإقفال حانات الخمور ومنع المجاهرة بشربها، ومنع ضمانها إلا أن السلطان المنصور قلاوون أمر بإعادة ضمان الخمور بالقاهرة وذلك عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م[٣].

كما شهدت بعض المجتمعات في العصر المملوكي ما عرف بضمان المغاني فقد عرفه ابن إياس بقوله: (وهو عبارة عن مال كبير مقرر على المغاني من رجال ونساء، يردّونه في كل سنة إلى الديوان المفرد، فكانت لا تقدر امرأة من المغاني تضرب بدف في عرس أو ختان أو نحو ذلك، إلا بإطلاق، وعلى كل إطلاق فريضة مقررة من مال، تُرَدّ إلى الديوان المفرد، وكان على كل مغنية مال مقرر تحمله إلى الضامنة، وكان في كل ليلة يدور على بيوت المغاني جماعة من

---

(١)ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٦٠-٤٦١.

(٢) نيل الأمل، ج١، ص٢٦٣.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٦٨.

جهة الضامنة، لمعرفة من باتت منهن خارج بيتها) [1] وقد اشتهرت حارات خاصة في القاهرة بالبغاء واقتراف بعض المنكرات والفواحش مجاهرةً[2]، إضـــافة إلـــى بعض بلاد الصعيد والوجه البحري، حيث يشير البعض إلى وجود حارات خاصـــة للغانيات والبغايا ويفرض على كل واحدة منهن قدر من المال، ولـــو نـــزل بتلـــك الحارات أحد الغرباء ألزم بإتيان إحدى هؤلاء البغايا حتى لو لم يرد ذلك، وإن أبى ألزم بأن يدفع لها مالاً نظير إخلاء سبيله[3].

ومن المظاهر القبيحة التي تفشت في بعض المجتمعات المملوكيـــة خاصـــة المدن الكبيرة كالقاهرة وغيرها، تشبه النساء بالرجال في الملـــبس[4]، وخـــروجهن إلى الساحات العامة والأسواق متبرجات واخطلاطهن بالرجال عند الجلـــوس فـــي الحوانيت ،و خاصة في مناسبات الأعياد والمواسم المشهورة في مصر، ومن هـــذه المناسبات والمواسم الاحتفال برؤية هلال شـــهر رمضـــان، والاحتفـــال بعيـــدى الفطروالأضحى، وكذلك الاحتفال بأول السنة الهجرية، والعاشر من شهر محـــرم، وأول ليلة من ليالي شهر رجب، وليلة الإسراء والمعـــراج، وليلـــة النصـــف مـــن شعبان، والاحتفال عند دوران المحمل، والاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج، كـــذلك شارك أهالي مصر النصارى في احتفالاتهم كالاحتفال بعيد الشـــهيد، وأول الســـنة الميلادية، وعيد الغطاس[5]، وخميس العهد[1] وغيرها من الأعياد[2].

---

(١) بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٦٦-١٦٧؛ ورد في السلوك أيضاً تعريف مشابه. انظر المقريزي، ج٣، ق١، ص٢٦٧.

(٢) علاء طه رزق: عامة القاهرة، ص١١١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢٦٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٦٦-١٦٧؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٢٧؛ أرجع البعض لجوء العامة لمثل هذه المهنة الحقيرة إلى ســـوء الأحوال الاقتصادية وسعي هؤلاء الفتيات للتكسب بهذه المهنة؛ انظر، علاء طه رزق: عامة القاهرة، ص١١١-١١٢.

(٤) وعن ملابس النساء في العصر المملوكي انظر، ل.أ.ماير: الملابس المملوكية،ص١٢٣-١٣٢.

(٥) عيد الغطاس: يقوم النصارى في هذا العيد بغمس أولادهم في الماء، حتى لو كان الماء بارداً، وذلـــك لاعتقادهم أن هذا الفعل يقيهم الأمراض، وهم يزعمون أن هذا اليوم هو يوم ذكري تعميـــد المســـيح عيسى علية السلام. قاسم عبده قاسم :أهل الذمة ،ص١١٤.

ومن مظاهر المخالفات المتعلقة بالنساء ما كان يحدث في بعض المجتمعات من مخالفات عقدية من قبل بعض النساء عند نعى الميت، فقد ذكر لنا المؤرخــون صوراً من هذه المخالفات، ومنها عمل مراسم العزاء واستئجار نساء يــنحن علــى الميت بطارات(٣)، ويظهر لنا هنا أنّ النياحه لم تكن تقتصر على أهل الميــت مــن النساء، بل تعدى ذلك إلي نساء امتهنّ هذه الحرفة، وكنّ يحصلنَ على عائد مــادي مقابل القيام بهذه المهمة(٤)، أيضاً نستشف من انخراط النساء في مثل هــذه المهنــة غير المرضية أن سوء الأوضاع الاقتصادية جعل النساء يمــتهن أي مهنــة تــدر المال وتضمن لهم لقمة العيش .

ومنها على سبيل المثال ما كان يظهر عند دوران المحمل، فكانــت تتجلــى في خروج النساء لمشاهدة دوران المحمل وجلوســهن فــي الحوانيــت للفرجــة، وبالتالي اختلاطهن بالرجال، واعتداء المماليك السلطانية على النساء، وما يحصــل منهم من فساد وسرقات أثناء دوران المحمل(٥).

---

(١) خميس العهد : أو خميس العدس ، وذلك لأن النصارى يقومون بطبخ العدس والسمك والبيض الملون في ذلك اليوم ويتهادون به للمسلمين والنصاري،ويصوم النصارى ذلك اليوم ،ويكون صيامهم فية عن لحوم الحيوان وما يخرج منه من بيض ولبن ،ويجتمع النساء في هذا اليوم ويخرجن لتبخير القبورويلونون دوابهم بالحمرة ،ويقومون بدق النواقيس في الأسواق ،ويعتبرون هذه الأعمال من القربين ، والجدير بالذكر أن هذا العيد مما ذمة شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب فيه رسالة سماها"مسألة ذم خميس النصارى". انظر ابن خطيب الناصرية :الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب،ج١،ص٢٢٠؛ قاسم عبده قاسم :أهل الذمة ،ص١١٤

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٣؛ ابن الحاج :المدخل ،ج١،ص٢٤٥-٢٤٦؛ محاســن محمــد الوقاد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، ص ٧١ ،٢٢٣-٢٣٥؛ علاء رزق: عامة القــاهرة، ص١٢٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٧٦.

(٤) ذكر أحد الباحثين المحدثين أن هذه الظاهره قد انتقلت حتى إلى الأوساط الصليبية في ساحل الــبلاد، حيث تأثروا بما كان يفعله بعض من المسلمين، وقاموا باستئجار نــدابات لمــآتمهم. انظــر، زكــي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج، ص١٤٨.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٨، ص١٢٤؛ محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشــعبية، ص٢٢٩، كان المقصود من دوران المحمل أن يشاهد الناس كسوة الكعبة، وأن يتحفزوا للحج، وقد كان دوران

أما بدعة التبرك بالأثر النبوي، وهي قطعة زعموا أنها من أثـر الرسـول صلى الله عليه وسلم، فالمعتاد عند أهالي مصر ترقب زيادة مـاء النيـل حتـى لا يحدث القحط والغلاء، وذلك عندما لا تحدث الزيادة المنشودة، فإذا نقص ماء النيل عن الزيادة المرادة يتوجه العلماء إلى موضع يعرف بالأثر النبوي[1] ويأخذون منـه بعض القطع التي يزعمون أنها من أثر الرسول صلى الله عليه وسـلم ويغسـلونها في "فسقية المقياس"[2] ويقرأون هناك القرآن ويدعون الله بأن تحدث الزيادة في ماء النيل. والغريب في الأمر أن فئة العلماء أنفسهم كانوا يقومون بهـذا العمـل، ولـم ينكره أحد، فيذكر ابن إياس أنه في سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م قام بهذا العمـل عـدد من العلماء[3]، كما فعل ذلك شيـخ الإسـلام جلال الدين عبد الرحمن البلقينـي سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م فلم يزد ماء النيل، بل نقـص[4].

كما شملت هذه المخالفات العقدية جماعات الصوفية في بعض المجتمعـات المملوكية، فقد تسلل إليها الفساد وأصبحت تدعو إلى خرافات، فقـد ابتعـدوا عـن معنى التصوف الحقيقي من الزهد والتقشف والعبادة إلى البذخ والإسراف وعمـل

المحمل، في شوارع مصر مرتين في السنة في شهري رجب وشوال. أما صفة دوران المحمل فهـو أن تسير الكسوة محمولة وعن يمينها وشمالها فرسان السلطان على خيـولهم مرتـدين دروعهـم وحاملين الرماح، كما يسير في مقدمة المحمل الوزير والقضاة الأربعة ووراءهم نوابهم والمحتسـب وعدد من موظفي الدولة، إضافة إلى الصوفية، وخلف المحمل تدق الطبـول والصـنوج والكوسـات السلطانية، كما تلعب الرماحة أمام هذا المركب. انظر عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليـك ص١٤٥-١٤٦.

(١) الأثر النبوي: هو موضع رباط الوزير تاج الدين ابن حنا الذي يقع في جسر الأفرم خارج القاهرة على النيل، وهو عبارة عن قطع من (القصعة والمبرد والنحاس والمخصف) زعموا أنها من أثر الرسـول صلى الله عليه وسلم اشتراها الوزير ابن حنا من ينبع من قوم يقال لهم بني إبراهيم بمبلغ ستين ألف =درهم فضة وجعلها في رباطة، والناس تتبرك بها ولها فيها اعتقاد؛ ابن أيبك الدودار: كنز الـدرر، ص١٥٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٤٠.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٢٤-١٢٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٢٤-١٢٥.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٠٣.

ما لا يليق بالعبّاد من رقص وغناء[1] وتعاطي الحشيش حتى أطلــق عليهــا اســم حشيشة الفقراء، وهم يعللون سبب تناولهم الحشيشة كى يقللوا من تنــاول الطعــام ويقويهم على العبادة[2]. ويصفهم المقريزي بقوله: "ثم لا ينســبون إلــى علــم، ولا ديانة، وإلى الله المشتكي"[3].

وقد ادعى هؤلاء الصوفية أفعالاً وأقوالاً لا تمت للدين بصلة، فادعوا علــم الغيب والإتيان بالكرامات، والأشياء الخارقة للعادة، كتنقل أوليائهم من مكان إلــى مكان في لمح البصر، والمشي على الماء، والإخبار عن الأمور الغيبيــة[4]، أيضــا كان مما اشتهر به هؤلاء الصوفية أو الدراويش الشطحات التي ينطق بهــا الــولي ويكون فيها الكثير من إساءة الأدب مع الله والأنبياء والرسل واســتهزاء بــالقرآن الكريم وغير ذلك من الأمور المنكرة التي لا مجال لذكرها هنا[5].

---

(١)ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص١١٧؛ أبوراس: شيخ الشيوخ، ص٢٧-٢٨؛ أحمد عدوان: دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، ص٢٥.

(٢) المقريزي: المواعظ، ج٣ ، ص٢٢٦-٢٣١؛ ابن تيمية: اقتضاء الصرط، ص٣١٠؛ ســعيد عاشــور: المجتمع المصري، ص٢٣٠؛ عائض القرني: على ساحل ابن تيمية، ص٥٢. وعن ظــاهرة تعــاطي الحشيش المخدر في الدولة المملوكية ،انظر ليلي عبد الجواد :ظاهرة تعاطي الحشــيش فــي مصــر المملوكية ،بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي التي يصدرها اتحاد المؤرخين العــرب بالقــاهرة ، العدد السادس، مارس ٢٠٠٨م،ص٢٩٤.

(٣) أبوراس: شيخ الشيوخ ، ص٢٧-٢٨.

(٤) أحمد صبحي منصور: العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإســلام والتصــوف، ص٣٤٥-٣٤٦، ص٣٥١،٣٥٠.

(٥) أحمد صبحي منصور: العقائد الدينية، ص١٨٤-١٩٠.

أما النساء المتصوفات فقد تشبهن بالرجال في لباسهن وتشبههن بالراهبات، وكانت الواحدة منهن لا تذهب لإحياء ليلة من الذكر في أحد المنازل حتى تدفع لضامنة المغاني مقداراً معيناً من المال متساوية في ذلك مع الغواني[1].

وقد أرجع بعض المؤرخين المحدثين، لجوء مثل هؤلاء النسوة ممن يدعين الانتساب إلى التصوف إلى هذه الأعمال التي ما أنزل الله بها من سلطان، إلى سوء الأحوال الاقتصادية، فلعل الفاقة وضيق ذات اليد كان وراء انخراطهن في أعمال التصوف وغيرها من الحركات الهدامة[2].

ومن المفاسد العقدية التي ابتليت بها بعض المجتمعات المملوكية الاستعانة بالمنجمين وقد تفشت بشكل واضح وجلي عند عامة الناس وخاصتهم، حتى شمل ذلك علية القوم كالسلاطين وحاشيتهم ونسائهم، وكذلك رجالات الدولة من نواب وأمراء ووزراء وغيرهم [3]. وكذلك الاعتقاد في الأولياء والصالحين والمجاذيب ،ولم يكن هذا الاعتقاد مقتصراً على العامة فقط، بل تعداها إلى الطبقة الحاكمة من السلاطين والأمراء والنواب. فمن ذلك على سبيل المثال شاع في المجتمع المصري الاعتقاد في السيد أحمد البدوي[4] وهو أحد الدراويش الصوفية، وقد ذكر ابن إياس أن الظاهر بيبرس كان يقدره ويتأدب معه، وأن الظاهر برقوق كان يعتقد في المجاذيب والفقراء، حتى أن أحدهم أعطاه طوبة وأمره أن يضعها

---

(١) أحمد عبد الرازق: المرأة في مصر المملوكية، ص٣٥-٣٦.

(٢) محمود إسماعيل: المهمشون في التاريخ الإسلامي، ص١٤١؛ علاء رزق، عامة القاهرة، ص٨٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٥٨١؛ ابن الإخوة: معالم القربة، ص١٩٣؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٤١.

(٤) هو أحمد بن على بن محمد بن أبي بكر البدوي، وأصله من قبيلة بري من قبائل غرب الشام، انتقل والده إلى المغرب، فولد أحمد هذا في مدينة فاس سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م، وحفظ القرآن وشيئاً من الفقه الشافعي، عرف بالبدوي لأن أبوه كان دائم اللثام، ادعى فعل الخوارق والكرامات حتى أفتتن الناس به، توفي سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م. ابن العماد: شذرات، ج٥، ص٣٤٥-٣٤٦؛ وللمزيد عن هذه البدعة، انظر، السيد محمد عطا: إقليم الغربية في عصرالأيوبيين والمماليك، ص٢٤٠-٢٤٢.

في أحد قناديل مدرسته لتظل عامرة ففعل ذلك[1]. كما أوصى أن يدفن تحت أقــدام الفقراء[2].

كما حرص العامة على إحياء مولد هؤلاء الأولياء بزعمهم كمولــد سـيدي أحمد البدوي والسيد الإنبابي[3]. ولا يخفي عنا ما يحصل في تلك الموالد من فســاد ومنكرات وشرب للخمر واختلاط النساء بالرجال[4].

ومن الأمور المنكرة أنه في عام ٨١٩هـ / ١٤١٦م ادعــى رجــل مــن العجم أنه يصعد السماء ويكلم الله فصدقه بعض الناس وكثــر رواده ومؤيــدوه[5]. فكان كل من يحصل له نوع من الخروج عن المألوف ونوع من الشطط قيل عنــه مجذوب وأصبح محطاً للزيارة والتبرك؛ لأن الناس تعتقــد فــيهم معرفــة الغيــب والكرامات[6].

ومن الأمور البدعية التي شهدها المجتمــع المملــوكي مــاعرف بصـــلاة الرغائب والتي عرفها أبو شامة بقوله:"أما صلاة الرغائب فالمشهود بــين النـــاس اليوم أنها هي التي تصلي بين العشاءين – المغرب والعشاء – ليلة النصــف مــن

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٧٣؛ أحمد صبحي: العقائد الدينية، ص٣٢٣.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٩٣٧.

(٣) هو إسماعيل بن يوسف الإنبابي توفي سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م وكان يقام مولده في منطقة الإنبابة من أعمال الجيزة وكذلك في منطقة طنطا؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٧٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٣١١؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٣٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٧٦؛ ابن العماد: شــذرات، ج٦، ص٣١١؛ عاشــور: المجتمــع المصري، ص٢٣٦-٢٣٧؛ علاء رزق، عامة القاهرة، ص١٣٥-١٣٦؛ أحمــد منصــور: العقائــد الدينية، ص٤٠؛قام الدكتور عبدالرحمن زكي بأحصاء جميع الموالد التي يحتفل بهاأهل مصر وذكــر مواعيدها في كتابة موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام ،ص٣٧٥-٣٧٦،كما رد ابن تيمية في كتابة أقتضاء الصراط المسقيم ومخالفة أصحاب الجحيم على بدعة احياء المولد عنــد القبــور والأعيــاد ،ص٣٧٥،٢٦٧-٣٧٧.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٩.

(٦) أحمد منصور: العقائد الدينية، ص٣٢٢.

شعبان كانت تسمى صلاة الرغائب، و الرغائب جمع رغبة، وهي العطاء الكثير"[1].

وكانت العامة أكثر المواظبين على تلك الصلاة بسبب تفريط بعضهم في الفرائض والنوافل وانغماسهم في المعاصي، وهم ينتظرون هذه الليلة للصلاة ويواظبون على أداء هذه الصلاة؛ لأنها بزعمهم تكفر عنهم ما قصروه من فرائض ومعاصي[2].

ومن ذلك أيضاً ماعرف بالألفية: وهي إحياء ليلة النصف من شعبان بالصلاة، وسميت بالألفية لأنه يُقرأ في هذه الصلاة بسورة الإخلاص ألف مرة، فيُقرأ في كل ركعة بالفاتحة وبعدها سورة الإخلاص عشر مرات، وهي من البدع المستحدثة التي يكثر فيها اختلاط النساء بالرجال وحدوث المعاصي[3]، وقد وصف الرحالة ابن بطوطة هذه الصلاة البدعية بقوله: (وليلة النصف من شعبان هي من الليالي المعظمة عند أهل مكة، يبادرون إلى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفراداً والاعتمار ويجتمعون في المسجد الحرام جماعة، لكل جماعة إمام. ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل .. ويصلون مائة ركعة يقرءون في كل ركعة بأم القرآن وسورة الإخلاص يكررونهما عشراً)[4] وكان الناس في كلٍ من مصر والحجاز وبلاد الشام يواظبون على القيام بتلك الصلاة والإكثار من إيقاد الشموع والسروج في المساجد، وكل ذلك من البدع التي أحدثها "المتنسكين المضلين"[5].

---

(١) أبو شامة: الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص٦١.

(٢) أبو شامة: الباعث، ص٨٤.

(٣) أبو شامة: الباعث، ص٥٠.

(٤) رحلة ابن بطوطة، ص١٢٦؛ كما ورد ذكر هذه الصلاة في رحلة ابن جبير، ص١٠٣.

(٥) أبو شامة: الباعث، ص٥٦؛ابن تيمية :اقتضاء الصراط ،ص٣٠٧-٣٠٨.

ومن البدع التي انتشرت في بلاد الحجاز تلك البدعة التي أحدثها الزيدية بإضافة "حي على خير العمل" في الآذان، وكان إمامهم يصلي بأتباعه داخل المسجد الحرام ويجعل له منبراً يخطب فيه يوم العيد بما يوافق مذهبه[1].

كما استحدثت في المسجد الحرام بدعة "العروة الوثقى" وهي عبارة عن مكان مرتفع داخل الكعبة يقابل بابها سمى بالعروة الوثقى وزعم البعض أن من تعلق به فقد استمسك بالعروة الوثقى، وكان يحدث من جراء تزاحم العامة على هذا الموضع رجالاً ونساءً فسادٌ كبيرٌ[2].

ومن البدع التي استحدثت أيضاً في المسجد الحرام ما عرف بـ "سرة الدنيا" وهي عبارة عن مسمار من فضة وضع في وسط البيت الحرام على قطعة من رخام ، يزعم بعض العامة أن من وضع سرته على هذا المسمار فكأنما وضع سرته على سرة الدنيا[3]، ولا يخفى عنا تلك المفاسد التي تحدث من كشف العورة وتهالك الناس على ذلك الموضع[4].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٩٠٤.

(٢) أبو شامة: الباعث، ص١٥٢؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٤٠-٩٤١؛ عائشة العبدلي: إمارة الحج في عصر الدولة المملوكية ، ص٢٨٢؛ عبد الحفيظ السالمي: الحياة الدينية في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير، لم تطبع، جامعة أم القري، عام ص٢٩٣.

(٣) بعيداً عن هذه البدعة التى ما أنزل الله بها من سلطان. فقد أخرج أحد الباحثين المحدثين دراسة قيمة ومتميزة عن تاريخ مكة المكرمة والكعبة المشرفة أثبت من خلالها أن مكة عامة والكعبة خاصة، هي نقطة ارتكاز الكرة الأرضية وسرة الدنيا. للوقوف على تفصيلات هذا الموضوع انظر، أحمد الدراج:الكعبة المشرفة سرة الأرض وسط الدنيا،ص٨-١٠.

(٤) أبي شامة: الباعث، ص١٥٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٢٩٧؛ عائشة العبدلي: إمارة الحج، ص٢٨٤؛ عبد الحفيظ السالمي: الحياة الدينية، ص٢٩٤.

ومما يدل على تفشي الجهل والبدع تلك الدعوة التي أطلقها العامة والجهلة من زيادة ماء زمزم ليلة النصف من شعبان وما يحدث في تلك الليلة من تجمع العامة والتدافع للاغتسال من هذه الزيادة ونيل البركة على حد زعمهم[1].

ومن الأمور البدعية التي انتشرت في ضواحي مكة المكرمة ما يرويه المؤرخون والرحالة عن خبر الدخول إلى الغار في جبل ثور، فللغار بابان أحدهما ضيق ولا يستطيع أي شخص النفاذ خلاله، فيكون مصير من لم ينفذ من هذا الباب أن تقع عليه تهمة أنه ابن غير شرعي، ومن نفذ منه فتنتفي عنه التهمه، وانتشرت هذه البدعة بين العامة وأصبحت من المُسلمَات[2]. ويجدر بالباحثة أن تنهى حديثها عن أبرز مظاهر الفساد في المجتمع المملوكي بما كان يحدث داخل السجون المملوكية من تجاوزات ضد من كان يودع هذه السجون، بالإضافة إلى إنزال الكثير من العقوبات البدنية بهؤلاء السجناء، فقد انتشرت داخل هذه السجون الكثير من المظاهر الاجتماعية اللأخلاقية، ومنها شرب الخمر وممارسة اللواط بين بعض الشواذ. ناهيك عن فرض بعض الضرائب على السجون[3].

---

(١) العبدري: رحلة العبدري: ص٣٦٩-٣٧٠؛ ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص١٠١-١٠٣.

(٢) العبدري: رحلة العبدري، ص٣٩٠-٣٩١؛ ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٨١-٨٢؛ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص١١١-١١٢؛ عائشة العبدلي: إمارة الحج ، ص٢٨٥. ويصف لنا الرحالة ابن بطوطة سبب مقدرة البعض النفاذ من هذه الصخرة وعجز البعض الآخر عن ذلك فيقول:
(أن بداخله مما يلي الشق الذي يدخل منه حجراً كبيراً معترضاً. فمن يمكنه التولج، ولا يمكنه أن ينطوي إلى العلو ووجهه وصدره يليان الأرض. فذلك هو الذي ينشب ولا يخلص إلا بعد الجهد والجذب إلى الخارج، ومن دخل منه مستلقياً على ظهره أمكنه؛ لأنه إذا وصل رأسه إلى الحجر المعترض رفع رأسه، واستوي قاعداً، فكان ظهره مستنداً إلى الحجر المعترض وأوسطه في الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائماً بداخل الغار). انظر الرحلة، ص١١١-١١٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٦٤١، ج٤، ق٢، ص٩٦٧؛ للوقوف على المزيد من هذه التجاوزات. انظر: علاء طه رزق: السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك ص٧٧-٧٨.

المبحث الثاني

دور العلماء في التصدي لمظاهر الفساد

في المبحث السابق تعرض البحث لأبرز مظاهر الفساد التي تفشت داخل المجتمع المملوكي، وسنتطرق في هذا المبحث إلى محاولات تصدى العلماء لهذه الأوضاع السيئة داخل المجتمع المملوكي، وتأتي في مقدمتها ما قام به القاضي تقي الدين بن بنت الأعز سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م الذي رفض تعيين أحد الأشخاص في وظيفة نيابة الحكم بسعي الوزير ابن السلعوس، فقد تصدي لظاهرة تولية الوظائف لغير مستحقيها ، حيث قال القاضي لطالب هذه الوظيفة "ارجع إلى الله تعالى ولا تثقل على بعد ذلك بأحد في ولايتك، واذهب واشتغل بالعلم، ولا ألقي الله وفي صحيفتي ولايتك"[١] فقد تنزه هذا القاضي الفاضل عن تعيين غير الأكفاء في مناصب لا يستحقونها، وعلم أنه مسئول عن هذه الولاية بعد موته.

ولما تولى قضاء الشافعية بالقاهرة شيخ الإسلام ابن دقيق العيد سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م أرسل كتاباً إلى جميع نوابه يدعوهم إلى استشعار الأمانة، وعظم والمسئولية التي يحملونها، ويذكرهم بالحديث النبوي عن القضاة الثلاثة[٢]، كما حثهم على تقوى الله والتنزه عن أخذ الرشوة، مبيناً لهم عواقب ذلك، كما برأ ذمته من أي مخالفة يقومون بها، وجعل هذا الكتاب حجة عليهم ،كما ذكرهم بأنهم مسئولون عن ذلك يوم القيامة[٣].

---

(١) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص١٧٢-١٧٩.

(٢) قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجلٌ عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار" اخرجه أبي داود: سنن أبي دواد، حيث رقم ٣٥٧٣، ص٥٥٠.انظر نص الكتاب في الملحق الخامس.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٣١٩-٣٢١.

كما تعقب القضاة كل من ثبت تورطه في شهادة الزور ،من ذلك ما حدث سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م حيث أمر القضاة بالقبض على من ثبت عليه ذلك وقاموا بتعزيرهم بالضرب وحلق لحاهم والتشهير بهم(١). كما ذكر المقريزي أنه عندما مرض السلطان الظاهر برقوق سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م، وأحس بدنو أجله أحضر عنده القضاة والأمراء والخليفة ، ونصحوه بإبطال المظالم ومنع أخذ البراطيل مقابل تولي الوظائف فوافقهم على ذلك(٢). كما قام القضاة في عام ٨٠١هـ / ١٣٩٨م بالتحري عن الشهود الذين يجلسون في الحوانيت للشهادة ، ومنع من عرف عنه سوء سيرته من الجلوس للشهادة، وفعل القاضي ابن خلدون مثل هذا العمل أيضاً عندما تولي قضاء المالكية(٣). كما اشتهر عن القاضي بدر الدين البغدادي الحنبلي(٤). تعقبه لشهود الزور ومنع قبول شهادتهم(٥). وسار على هذا النهج قاضي القضاة علاء الدين الإخميمي حيث سعى سعياً حثيثاً في سبيل تعقب من كان يأخذ الرشوة مقابل الإدلاء بشهادته، وزاد على ذلك بأن تعقب الراشين وأنزل أقسي العقوبات بهم(٦).

أما القاضي جلال الدين البلقيني فقد كان ممن عرف عنه الغلظة مع هذه الطائفة، حيث عمل جاهداً على استئصال شافتها من المجتمع المملوكي، وذلك أنه اشترط على من يتولى نيابة القضاء في المناطق التابعة له الابتعاد عن هذه الظاهرة، ومن حامت حوله الشكوك في ذلك عزل(٧).

---

(١) ابن شاهين: نيل الأمل، ج١، ص٢٦٣.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٩٣٧.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٢٢.

(٤) هو قاضي قضاة الحنابلة في القاهرة محمد بن القاضي ناصر الدين محمد بن العلامة شرف الدين عبد المنعم البغدادي، عرف عنه سيرته الحسنة في القضاء وحب الناس له، توفي سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٦، ص١٣٩.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٦، ص١٣٩.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٦٠-٤٦١.

(٧) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٣١١.

كما يبدو للباحثة أنه عندما ابتلى المجتمع المملوكي بعد غزو المغول للعراق وبلاد الشام بانتشار ظاهرة تعاطي الحشيش المخدر سعى العلماء لدى السلطان الظاهر بيبرس بالحد من انتشار هذه الظاهرة، وقد امتثل بيبرس لنصحهم وقام بمنع ضمان الحشيش والخمر وأنزل العقوبة على من تعاطاها وذلك في سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م، كما أُغلقت الحانات التي كانت تبيعها وعُزِّر كل من وجد سكراناً[١]. وقد تم تطبيق ذلك فعلاً على شخص يدعى ابن الكازروني فقد قبض عليه وهو سكران فشهر به في شوارع القاهرة ثم صلب، وكان لهذا الفعل أثره البالغ في الحد من المجاهرة بمثل هذه المعاصي[٢]. ويبدو إن هذه العقوبة لم تفلح في القضاء على هذه الظاهرة، ولذلك اضطر بيبرس إلى إصدار عدد من المراسيم التي تنص على منع الخمور والحشيش في سنوات متتالية، فقد سجلت لنا المصادر نصوصاً لهذه المراسيم، ومنها ما صدر في أعوم ٦٦٤هـ / ٦٦٦هـ / ٦٦٨هـ / ٦٦٩هـ ١٢٦٥م / ١٢٦٦م / ١٢٦٩م/١٢٧٠م [٣].

وعلى الرغم من أن المصادر لم تشر إلى تدخل العلماء في إصدار هذه المراسيم، إلا أن مثل هذه الأمور لا تصدر عن السلاطين غالباً إلا بمشورة العلماء ونصحهم، خاصةً أنهم الفئة المخالطة للعامة، وهم عين السلطان في المجتمع. وقد انفرد الذهبي بذكر مساعي الشيخ خضر العدوي[٤] أحد مشايخ الصوفية الذي كان

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٥٠-٥٥٣، ص٥٥٤-٥٧٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢٦؛ الذهبي: دول الإسلام، ص٣٧٠؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص١٣٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٢٤؛ أحمد عدوان: دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص٩٢.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٢٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٥٠-٥٥٣-٥٥٤-٥٧٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور ج١، ق١، ص٣٢٦؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص١٣٩؛ الذهبي: دول الإسلام، ص٣٧٠.

(٤) الشيخ خضر بن أبى بكر المهرانى العدوي، عرف بشيخ السلطان الظاهر بيبرس، وكان الظاهر ينقاد لكلامه، وكان من الصوفية كثيري الشطحات، والكشف عن الغيب، نقل عنه وعن أتباعه ما لا يليق فحبسه الظاهر بيبرس في القلعة حتى توفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٥١-٣٥٢.

مقرباً عند السلطان الظاهر بيبرس، فيذكر المؤرخ الذهبي أن الشيخ خضر قام فـــي أمر منع الخمور بالشام خير قيام[١].

وعندما أعيد ضمان الخمور مرة أخرى سنة ٦٨٠هـــ / ١٢٨١م عـــارض العلماء هذا القرار حتى تم إلغاؤه ومنعت الخمور مرة أخرى[٢]. كما شارك شـــيخ الإسلام ابن تيمية في إراقة الخمور بالشام سنة ٦٩٩هــ / ١٢٩٩م وقـــام بـــإغلاق الحانات التي تبيعها[٣]. كما أقدم أحد قضاة القدس في عام ٧٩٨هــ/ ١٣٩٥م بكسر جرار الخمر في أحد الأسواق التي اشتهرت ببيع الخمـــور جهـــاراً نهـــاراً، وقـــام بتعزير باعة الخمر به[٤].كما قام ابن الشهاب الأسنائى[٥] قاضـــي قـــوص بإراقـــة الخمورفيها، وذلك عندما وصلت شحنة منها كانت تابعة إلى والى قوص لكنه قـــام بإراقة هذه الخمور ثم توجه إلى الأمير وقال له :" يا خوند بلغني وصول خمر فـــي حراقة،فتوجهت إليها ،فقصد الريس أن يتجوه وقال :هذا للأ ميرسيف الدين ،قلـــت :حاشا ،الأمير يكذبُ البعيد، وأرقتُ الخمر، فقال الأمير :أفلحت"[٦].أمـــا تعـــاطى الحشيش المخدر، فقد أجمع فقهاء العصر المملوكي على تحريمها تحريماً مطلقـــاً، من ذلك ما أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الفتاوى، حيث ذكر في ثنايا رده على من سأله عن أكل الحشيشة أن "أكل الحشيشة الصلبة حرام، وهي من أخبـــث

---

(١) الذهبي: دول الإسلام، ص٣٧٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٣٩؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٨٨؛ العينـــي: عقـــد الجمان، ج٢، ص٢٦٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤١٩؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٠٠.

(٤) ابن حجي: تاريخ ابن حجي، ص١٤٨-١٤٩.

(٥) هو علي بن هبة الله بن أحمد بن إبراهيم بن حمزة الأسنائى ، كان من الفقهاء المشهورين ،درس بالمدرسة العزية ،والمدرسة المجدية ،ورباط ابن الفقيه نصر ،كما درس بدار الحديث بقوص ،كان من العلماء المخلصين يأمر بالمعروف وينهى هن المنكر.توفي سنة في قوص سنة ٧٠٧هــ.الأدفوى :الطالع السعيد :ص٤٢٠-٤٢٣.

(٦) الأدفوى :الطالع السعيد ،ص٤٢١-٤٢٢.

الخبائث المحرمة.....وأن من استحل ذلك فهو كافر يستتاب"[1] وقد سارعلى نهجه تلميذه ابن القيم الجوزية، ورافقهما كثير من العلماء في تحريمها، ولم يقع الخلاف إلا في عقوبة ذلك، حيث رأى البعض عدم إقامة الحد والاكتفاء بتعزير متعاطيها. وقد أسهم العلماء في محاربة هذه الظاهره، وذلك بإصدار الفتاوى بتحريمها، وكذلك بالكتابة والتأليف في بيان مضارها .كما تبارى سلاطين المماليك في إصدار المراسيم التي تحرم تعاطيها[2].

وما قيل عن تصدى العلماء لظاهرة بيع الخمور وشربها، وكذلك تعاطي الحشيش المخدر، يمكن أن يقال أيضاً عن دور البغاء التي كانت موجودة في بعض الأحياء خاصة في المدن الكبيرة. فقد سعى هؤلاء العلماء جاهدين لدى الظاهر بيبرس وأقنعوه بضرورة القضاء على هذه الظاهرة المنكرة، ولهذا فقد سجلت المصادر المعاصرة أن السلطان الظاهر بيبرس كان من أوائل مَنْ تصدى للبغاء المنتشر في مصر، فأصدر أوامره عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م بمنع النساء الأجنبيات من العمل في هذه المهنة[3]، ثم كرر إصدار مثل هذا القرار مرة أخرى في عامي ٦٦٥-٦٦٧هـ / ١٢٦٦-١٢٦٨م وأمر بغلق بيوت البغاء في القاهرة ومنع النساء من العمل في هذه المهنة[4]. كما قام كثير من العلماء ومنهم شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني وقاضي القضاة برهان الدين بن جماعة بجهود جبارة لإقناع السلطان الأشرف شعبان بإبطال ضمان المغاني حتى تم لهم ما يريدون، وأصدر السلطان مرسومه بإبطال ضمان المغاني، وذلك في عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م[5].

---

(١) الفتوى :ج١٧،ص٢٧٣.

(٢) للوقوف على تفاصيل أكثر، انظر: ليلى عبد الجواد: ظاهرة تعاطي الحشيش، ومكافحتها في مصر المملوكية،٢٩٢-٣٠٠.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٠.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٢٤.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢١٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٢٣.

وعندما نما إلى مسامع قاضي القضاة الشافعي برهان الـــدين بـــن جماعـــة عودة ضمان المغاني سنة ٧٧٨هـــــ / ١٣٧٦م، أظهـــر احتجاجـــه وامتنـــع مـــن الحضور بدار العدل، كما امتنع عن القضاء والفتوى، ولما علم السلطان الأشـــراف شعبان بذلك أصدر أوامره بإبطال ضمان المغاني مرة أخرى فـــي ســـائر الـــبلاد إرضاءً لابن جماعة(١). كما منع محتسب القاهرة سنة ٨٢٢هـــــ / ١٤١٩م البغايـــا من الوقوف في الأسواق طلباً للبغاء، وعزر النساء اللواتي يمـــتهن النياحـــة علـــى الأموات مقابل أجرة تدفع لهن(٢). كما سعت مجموعة من العلمـــاء إلـــى التصـــدي لظاهرة تشبه النساء بالرجال في الملبس و أقنعـــوا الســـلاطين والـــولاة بإصـــدار أوامرهم سنة ٦٦٢هـــ / ١٢٦٣م بمنع النساء من لبس العمائم كالرجال(٣). وعندما تزايد خروج النساء وخاصة نساء السلطان و الأمراء وهن متبرجـــات مـــتجملات مبالغات في ملبسهن وزينتهن، تصدى لهن قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة(٤)، وأنكر عليهن هذه الأفعال في خطبة العيد سنة ٧٤٦هـــ / ١٣٤٥م(٥).

وعندما عم القاهرة وباء الطاعون فـــي عـــام ٨٤١هـــــ / ١٤٣٧م وازداد خطره اجتمع السلطان الأشرف برسباي بالقضاة، وتناقش معهم في أمـــر ازديـــاد تفشي هذا الوباء، فقال له العلماء: "إنما يظهر الطاعون في قوم إذا فشا فيهم الزنـــا وأن النساء قد تزايد خروجهن في الطرقات وهن متبرجـــات لـــيلاً ونهـــاراً فـــي

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣ ، ق١، ص٢٦٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١١٦٦-١٦٧.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٤٨٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٧٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٣. و يرجع المؤرخ نفسه سبب شيوع ظـــاهرة تشـــبه النســـاء بالرجال إلى ما تفشى في بعض أواسط المجتمع المملوكي من الشذوذ الجنسي، ولم يكن ذلك قاصـــراً على الطبقات الشعبية بل تعداها إلى الطبقات العليا في المجتمع. انظـــر ســـعيد عاشـــور: المجتمـــع المصري ، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٨٢-١٨٣.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٩٣.

الأسواق"[1] وأشاروا عليه بإصدار مرسوم بمنع النساء من الخروج مطلقاً إلا للحمام[2].كما احتج الرحالة ابن الحاج على خروج النساءللأسواق وأخطلاطهن بالرجال وذلك بالجلوس في الحوانيت ،واعتبرها من الأمور المنكرة[3].

والملاحظ هنا أن المرأة دائماً وأبدا تُغلب على أمرها، وتكون في نظر الرأي العام العقبة التي تقف أمام تقدمه أو هي سبب مشكلاته، فهل كان خروج المرأة إلى الأسواق هو سبب الوباء والطاعون؟ أم ما ابتلى به المجتمع من المفاسد والمنكرات، من شرب الخمر والرشوة والتقرب للأولياء والصالحين والتوسل بالقبور، وهي الأدهى والأمر، فكان من الأولى بالعلماء منع هذه الشركيات أولاً، ثم منع النساء من التبرج، لا منعهن من الخروج مطلقاً ، وصب جام غضبهم على هذه الطبقة المستضعفة من الشعب، فها هو المؤرخ ابن إياس بعين الإنصاف يذكر أن النساء تضررنَ غاية الضرر من هذا القرار، خاصة أن الطاعون كان قد ازداد أمره وكثر الموتى واحتاج النساء إلى المغّسلات، فكانت المغسلة لا تخرج إلا بعد أخذ الإذن من المحتسب، وتجعل هذا الإذن مخاطاً في عصابتها[4].

كما سعى القضاة أيضاً إلى إبطال دوران المحمل في القاهرة لما يحصل خلاله من فساد من مماليك السلطان وتسلطهم على النساء وكثرة اختلاط النساء بالرجال ، وكان هذا مما أثار حفيضة الرحالة ابن الحاج الذي دعا إلى تحريم خروج النساء لمشاهدة دوران المحمل وغيرها من المتنزهات [5]، لكن المصادر لم

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٨٢-١٨٣؛ محاسن الوقاد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، ص٧١.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٨٢-١٨٣؛ محاسن الوقاد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، ص٧١.

(٣) المدخل،ج١،ص٢٤٥-٢٤٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢ ، ص١٨٢-١٨٣.

(٥) المدخل ،ج١،ص٢٧٠-٢٧٢.

لم تشر إلى صدور مرسوم بإيقاف دوران المحمل، إلا ما ذكرته سنة ٩٠١هـــ / ١٤٩٥م من أن الأشرف قايتباي أبطل دوران المحمل[١].

ومن الأمور التي تدخل ضمن جهود العلماء في التصدي لمظـــاهر الفســـاد العقدي في المجتمع المملوكي، ما قام به أحد العلماء من محاربـــة بدعـــة الســـجود لتمثال أبي الهول في القاهرة. والتي استشري خطرها بين بعض العامة حتى كـــان هذا العالم يصعد على ظهره كل يوم ليظهر للناس إهانته، وأنه مجرد صنم لا ينفـــع ولا يضر[٢].

ومن الأمور الحسنة التي قام بها أحد محتســـبي القـــاهرة ســـنة ٧٩٠هــــ/ ١٣٨٨م وهو نجم الدين الطنبدي[٣]، تعليم أهل السوق قراءة القرآن، فقـــد انتـــدب إلى ذلك جماعة من فقراء الفقهاء وزعهم على الأسواق ليعلموا أهل السوق قـــراءة السور التي تعينهم على الصلاة، مقابل أن يدفع كل صاحب حانوت فلسين في كـــل يوم[٤]. وبهذا العمـــل الذي قام به المحتســـــب حصلت الفائـــدة لأهـــل الســـوق، وأيضاً أوجد عملاً لطبقة من طبقات الشعب. كما أمر السلطان الأشرف برســـباي في عام ٨٢٩هـــ / ١٤٢٥م القضاة بإلزام الناس بالمواظبـــة علـــى أداء الصـــلاة، فاجتمع القضاة وكتبوا ورقة بشأن ذلك ، قرأها أحد نواب الشـــافعية فـــي شـــوارع القاهرة[٥].كما نجح رجال الحسبة ومعهم جماعة من العلماء يتقدمهم الشيخ العز بن بن عبد السلام في إبطال صلاة الرغائب[٦] وتخصيص ليلة النصف مـــن شـــعبان

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٨-١٢٤؛ ج٣، ص٣٣٠؛ محاســـن وقـــاد: الطبقـــات الشـــعبية، ص٢٢٩.

(٢) أحمد عدوان: دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص٩٣.

(٣) لم أقف له على ترجمة .

(٤) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق١، ص٢٥؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٧٤.

(٥) ابن شاهين: نيل الأمل، ج٤، ص١٨٩.

(٦) للوقوف على نص الفتوى التي أصدرها الشيخ العز بن عبد السلام في هذا الشأن انظر أبـــو شـــامة: الباعث على إنكار البدع، ص٦٨-٦٩.

بالصلاة وكذلك دق الخطباء السيف على المنبر، والتي وصفها أبو شامة بقوله فقال: "فمن البدع دق الخطيب المنبر عند صعوده فيه ثلاث مرات بأسفل سيفه دقاً مزعجاً، فاصلاً بين كل ضربتين بقليل من الزمان"[1].

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد أزال الله على يده كثيراً من البدع، منها على سبيل المثال تصديه لأهالي جبال الجرد وكسروان ومحاربتهم وذلك بسبب ما كانوا عليه من فساد العقيدة، بالإضافة إلى جهوده العسكرية في تأديب هذه الفرقة سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م[2] كما قام أيضاً بالتوجه إليهم سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م في عدد من أصحابه ووضح لهم ضلالهم وفساد معتقدهم واستتاب عدداً منهم، ثم أعاد الكرة عليهم مرة أخرى عندما أصروا على بدعهم وضلالتهم، حيث اتفق مع نائب بلاد الشام على تجريد قوة عسكرية لحربهم سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م[3]. كما يسر الله على يد شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً إزالة صخرة كانت في أحد مساجد دمشق، كان الناس يقومون بزيارتها وتقبيلها للتبرك بها، زعماً منهم بأن الأثر الذي بها هو من أثر الرسول صلى الله عليه وسلم، فما كان من الشيخ إلاّ أن توجه إلى ذلك المسجد ومعه عدد من الحجارين وأمرهم بقطع هذه الصخرة وأزال البدعة [4].

كما تصدى ابن تيمية للمبتدعين من أصحاب الفرق الضالة كفرقة الأحمدية[5]. فقد أظهرت هذه الطائفة أموراً لا تمت للإسلام بصلة، منها زعمهم

---

(١) أبو شامة: الباعث، ص١٤١؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٨، ص٢٠٩-٢١٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٢٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٤٤؛ محمد العبده: رسائل الإمام ابن تيمية من السجن، ص٢٩.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٤٣؛ البرزالى: المقتفي، ج٣، ص٢٧٧؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٨-٩ ؛ ابن إياس: بدائع الزهور ج١، ق١، ص٤١٧؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص٦٥؛ العيني: عقد الجمان، ج٤ ، ص٣٥٧-٣٥٨.

(٥)فرقة الأحمدية :وتنسب إلى أحد أولياء مصر وهو أحمد البدوي ،(٥٩٦-٦٣٤هـ) الذي ولد بفاس ،وحج ورحل إلى العراق ، ثم عاد إلى القاهرة وسكن في منطقة طنطا حيث ظل بها إلى ان توفي ،

الدخول في النيران وأكل الحيات وارتداء الأطواق الحديدية في أعناقهم وأيديهم فقام الشيخ ابن تيمية في سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م بإنكار تلك الأفعال التي يقومون بها ومن ثم قام بتطبيق أحكام الشريعة فيهم[١] كما أبطل الشيخ صلاة الرغائب في مدينة دمشق سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م[٢]، وحرص جماعة من العلماء على إبطال الوقيد بالمساجد ليلة النصف من شعبان، وذلك في سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤ إلا أنه لم يتحقق لهم ذلك .ويبدو للباحثة أن السبب في ذلك يعود إلى تأصل هذه البدعة في نفوس أهل دمشق وفي أوساط كثير منهم، إضافة إلى أن ابن تيمية رحمه الله رأى أنّ الأمر محصور في ايقاد النيران فقط. ولهذا حرص بما عرف عنه من روية وحكمة في عدم استثارة الناس ضده آنذاك، خاصة وأنه لم يمض على نجاحه في إبطال صلاة الرغائب سوى أقل من عامين. ولكنه أخذ يمهد ومعه عدد من العلماء لإلغاء هذه البدعة بواسطة السلطة العليا في الدولة[٣]، ولعل مما يؤكد هذا القول ما أشارت إليه المصادر لاحقاً من أنه في عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م أصدر السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً بإبطال الوقيد بالجامع الأموي، وكان القائم في هذا الأمر الأمير حسام الدين أبو بكر بن النجيبي[٤] الذي تأثر بآراء ابن تيمية، واعتمد في ذلك على

وقد انكب على العبادة ،وامتنع عن الزواج ،وتبعه جماعة من أهالي مصر ،أشتهروا بين الناس بالعمائم الحمراء،الموسوعة الميسرة للأديان،ص٣٤٨.

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٦؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٤٠٦-٤٠٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص٧١؛ انظر نص فتوى ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج٢، ص٢٧٥-٢٧٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٥١؛ ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج١٢، ص٨٠-٨١، ٢٣٢، ٢٣٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٤٢-٤٤٣؛ ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج١٢، ص٨٠-٨١، ٢٣٢-٢٣٣.

(٤) لم أقف له على ترجمة .

فتوى كانت عنده من ابن تيمية والشيخ كمال الدين بن الزملكاني بإبطال هذه الأمر على اعتبار أنه بدعة ما أنزل الله بها من سلطان[1].

كما لا يفوتنا أن نذكر مساعي ابن تيمية لإصلاح أحوال السجون، وذلك بسبب إطلاعه على أحوال هذه السجون لكثرة تردده عليها، وساعده في ذلك أيضاً علاقته الطيبة بالملك الناصر محمد بن قلاوون الذي استجاب لتوجيهات الشيخ ومنع المقرر على السجون، وهو قدر من المال يدفعه كل من أودع السجن حتى قبل أن يحاكم المذنب، وقد تفاوت مقدار هذا المقرر من ستة دراهم إلى مائة درهم[2] كما تمكن الشيخ ابن تيمية من إقناع السلطان الناصر محمد بالإفراج عن كثير من المسجونين الذين سجنوا من غير وجه حق، أو من سجن لدْين عليه وهو لا يستطيع سداد هذا الدْين[3].

ومن الأعمال التي تمت لتحسين حال السجون، ما قام به والي القاهرة والحاجب سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م زمن السلطان الصالح إسماعيل من هدم السجن المسمى "خزانة البنود" فقد امتلأ هذا السجن بأنواع المفاسد بسبب من أودع فيه من الأسرى الصليبين المقيمين مع أسرهم فيه، زمن الناصر محمد، حيث فشى فيه شرب الخمر والزنا واللواط، فقام الوالي بكسر جرار الخمر، وأخرجوا المسجونين ، ومن ثم عمرت هذه المنطقة[4].

وفي عام ٨٤٨هـ/١٤٤٤م أصدر القضاة فتواهم على طائفة من عرب الشرقية تسمى "المطاوعة" كانوا يقومون بأفعال منافية للأخلاق والشرع، منها

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٦٦٠-٦٦١؛ ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج١٢، ص٨١-٨٢.

(٢) علاء طه رزق: السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، ص٥٢، ٧٧، ٧٨.

(٣) علاء رزق: السجون والعقوبات، ص٧٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٦٤١؛ الخطط، ج٢، ص٣١٩؛ وخزانة البنود: كانت خزانة للسلاح زمن الفاطميين، وهي تقع عند القصر الكبير بين قصر الشوك وباب العيد، وقد احترقت هذه الخزانة سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م فعملت بعد ذلك سجناً للأمراء والوزراء، واستمر كذلك في العصرين الأيوبي =والمملوكي، وفي أيام الناصر محمد قام بحبس الأسرى الصليبين فيه فامتلأ بأنواع الفساد وظل على هذا الحال حتى يسر الله هدمه سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م بسعي نائب السلطنة الأمير حاج آل ملك الجوكندار زمن السلطان الصالح إسماعيل؛ المقريزي: الخطط، ج٢ ، ص٣١٦-٣٢٠؛ علاء رزق: السجون والعقوبات، ص٣٩

إباحة النظر للمرد والقيام بالرقص والتصفيق في المساجد، وترك الصلاة على جنازة الغريب، وغير ذلك من الأمور المنافية للشريعة، فتصدى لهم القضاة[١].

كما تصدى العلماء لبعض المفاسد والمخالفات العقدية التي كان يرتكبها بعض طوائف الصوفية ،ومنها استعمال الموسيقي والرقص وادعاء علم الغيب، وإسقاط العبادات عن كبار شيوخهم، حيث أصدر السلطان المملوكي الظاهر برقوق أوامره سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م بمنعهم من عمل هذه الأمور المنكرة في زواياهم من استعمال الآلات الموسيقية والرقص[٢].

والذي يجدر تأكيده هنا أن جهود العلماء في التصدي لمظاهر الفساد العقدي شملت الأراضي المقدسة في الحجاز ومنها مكة المكرمة، ففي عام ٧٠١هـ / ١٣٠١م أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أوامره إلى شريف مكة المكرمة في ذلك الوقت، بإزالة بدعة العروة الوثقى وسرة الدنيا، وتم ذلك بحمد الله ثم بفضل تكاتف جهود العلماء مع أمير ركب الحج[٣] كما أصدر السلطان الناصر محمد أيضاً أوامره عام ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م بمنع الزيادة في الأذان في ساحات الحرم المكي "بحي على خير العمل" وأن لا يُجعل للزيدية إمام خاص بهم، وأمرهم بأن يؤدوا صلواتهم مع إمام الحرم الشريف[٤]. وعندما خالف أحد أئمة الزيدية أوامر السلطان الناصر في عام ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م تم القبض عليه لأنه خالف الأوامر وأم طائفة الزيدية في صلاة منفردة، وعوقب بالضرب والسجن،

---

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ج١، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ص١٣٨؛ أبوراس: شيخ الشيوخ، ص٢٧-٢٨.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٤٠-٩٤١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٥٠٣؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٢٦٧؛ عائشة العبدلي: إمارة الحج، ص٢٨٣-٢٨٤.

(٤) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٢٦٧.

وكان أمير ركب الحج المصري والقضاة المتواجدون معه هم القائمون في هذا الأمر[1].

وهنا يبدو للباحثة أنه رغم هذه العقوبات التي أنزلها أمير ركْب الحج المصري ومن معه من القضاة بإمام الزيدية، إلا أنها لم تجد نفعاً في إقناعه بالامتناع عن إمامة طائفة الزيدية منفرداً داخل الحرم، الأمر الذي جعل السلطان المملوكي يطلب من أمير الحج والقضاة المرافقين له الذين وصلوا إلى مكة في عام ٧٥٥ هـ/ ١٣٥٤م، إلى عقد مجلس بالحرم المكي لاستتابته عما كان يصر على فعله، وإلزامه وجماعته بأداء الصلاة جماعة مع عامة الناس خلف إمام الحرم[2].

أما الشيخ ابن فرحون[3]فقد اهتم بإزالة البدع في المدينة المنورة خاصة ما كانت تتجاهر به فرقة الإمامية من منكرات ومخالفات عقدية ، فقام بالنداء في شوارع المدينة المنورة بإبطال أفعال هذه الفرقة الضالة، وحث الناس على البعد عنهم، كما استأصل شافتهم نهائياً عندما سعى لدى والى المدينة لعزل قضاتهم حتى تم له ذلك بحمد الله[4].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٩٠٤.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص١٠.

(٣) هو عبد الله بن محمد أبو القاسم فرحون بن محمد، تونسي الأصل، قتل على يد الشيعة، ودفن بالبقيع رحمه الله سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م. ابن حجر: الدرر، ج٢، ص٤٠٦.

(٤) هدى سندي: مناهج الكتابة التاريخية عن مؤرخي المدينة في القرن ٨هـ/٦٢٩م، رسالة دكتوراه لم تطبع، جامعة أم القري، ص١٢٥-١٢٦-١٢٩.

أما الأمير تغري برمش[1] فقد كان من الأمراء الذين طلبوا العلـم وتفقهـوا على علماء العصر ، وقد كرس حياته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصـة في مكة المكرمة، فقد منع المؤذنين من قول المدائح النبوية على المنبر في الحـرم، ومنع المنشدين من الإنشاد في المسجد الحرام. وأبطل بدعة الوقيد في ليالي معينـة من السنة في الحرم المكي، وقام بإغلاق الباب الذي في الغـار فـي جبـل ثـور، وأبطل تلك الافتراءات التي زعمها العامة[2].

---

(١) هو تغري برمش يوسف الشيخ زين بن التركماني الجندي الحنفي، وهو رومي الأصل، طلب العلم وأخذ الفقه عن مشايخ القاهرة، توفي سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م؛ ابن تغري بردي: المنهـل الصـافي، ج٤، ص٥٦-٥٧.

(٢) عائشة العبدلي: إمارة الحج، ص٢٨٥.

المبحث الثالث

المشكلات والصعوبات التي واجهت العلماء في ذلك.

لم يكن طريق العلماء للوقوف في وجه المخالفات والمفاسد داخل المجتمع ممهداً وسهلاً، ومن المسلم به أن كل داعية حق و صاحب مبادئ جديدة له مؤيدون ومعارضون، وقد امتلأ طريق هؤلاء المصلحين والدعاة بالمتاعب والمحن ابتلاء من الله -سبحانه وتعالي- تحقيقاً لقوله تعالى: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)[1] وهم جند الله المنصورون بإذنه على مر العصور، ومهما طال بهم الكرب والابتلاء فالنصر قريب لا محالة.

والواقع أن علماء الأمة خلال العصر المملوكي اعترضت طريقهم الكثير من المشكلات والصعوبات، ولكنهم واجهوها بصبر واحتساب. وسنعرض في هذا المبحث صوراً منها، من ذلك ما حدث للشيخ العز بن عبد السلام في قصة بيع الأمراء، فقد تعرض الشيخ للضغط من قبل الأمراء للتراجع عن هذا القرار، وكاد الشيخ أن يتعرض للقتل من جراء هذا الموقف، فما كان من الشيخ إلا أن قرر ترك الأراضي المصرية والتوجه إلى بلاد الشام، وعندما هم بالخروج، تبعه كثير من الناس، فقيل للسلطان إنه متى توجه الشيخ إلى بلاد الشام ذهب ملكك، فما كان من السلطان إلاّ أن خرج للشيخ بنفسه واسترضاه وانقاد لأوامره في مسألة بيع الأمراء[2]، ومن ذلك أيضا ما حدث للإمام النووي رحمه الله مع السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م عندما أراد الملك الظاهر بيبرس أن يأخذ من أموال الناس ليستعين بها على قتال المغول فأفتاه بعض الفقهاء بجواز ذلك إلا الإمام النووي الذي رفض التوقيع على الفتوى وقال للسلطان: "أعرف أنك كنت

---

(١) سورة العنكبوت، آية ٢-٣.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية، ج٥، ص١٠١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢،ص١٤٠-١٤١؛ أحمد عدوان: دور العلماء، ص١٠٠-١٠١؛ البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص١٤٩-١٥٠.

مملوكاً للأمير بندقدار وليس لك مال، ثم يسر الله لك أمراً على المسلمين فوليت الملك، وسمعت أن عندك كذا ألف مملوك، كل مملوك منهم حياصته بألف دينار وعندك مائتا جارية، كل جارية عندها حق حلي يزيد على عشرة آلاف دينار، فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك ببنود الصوف بدلاً من تلك الحوايص وبقيت جواريك بثيابهن دون الحلي حينئذ أفتي لك بجواز أخذ المال من الرعية" وقد أغضب هذا الرد السلطان الظاهر بيبرس فأمر الإمام النووي أن يخرج من بلاد الشام، فامتثل الإمام النووي لأمر السلطان، وقرر الرحيل إلى خارج البلاد .فعزّ الأمر على علماء الشام وقرروا الشفاعة له عند بيبرس، حيث ذكروا السلطان أن شخصاً جليلاً مثل الإمام النووي لا يستحق أن يخرج من البلاد، لكن العلماء أخبروا السلطان أن الإمام النووي هو عالم جليل قدير لا يليق أن يفعل معه هكذا، فأمر بأن يعود إلى دمشق، لكن الإمام النووي رفض أن يدخل بلاد الشام والظاهر بيبرس موجود بها[1].

كما لقي القاضي تقي الدين بن بنت الأعز كثيراً من الأذى على يد الوزير ابن السلعوس، وذلك عندما رفض الانقياد لأوامره وتعيين أحد الأشخاص غير الأكفاء في أحد الوظائف، فحنق عليه الوزير وسعى لعزل القاضي من مناصبه التي كان على رأسها من قضاء وخطابة ونظر الأحباس والخزانة وغيرها، كما اتهمه الوزير بشرب الخمر وإتيان الصبيان والتشبه بالنصارى في الملبس، كما صودر وأهين بسبب هذه التهم، لكن القاضي لم يخضع ولم يستكن، حتى تمت براءته ونصره الله[2].

---

(١) النويري الإسكندري: الإلمام، ج٤، ص٨١-٨٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٣٧؛ البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص٧٤.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص١٧٢-١٧٩.

وفي عام ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م عُزِلَ القاضي عماد الدين بن الأثير[١] كاتب الإنشاء من منصبه؛ لأنه رفض الانصياع لأوامر السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الذي طلب منه أن يكتب لنائب الشام كتاباً يتضمن قتل بعض الأمراء، فرفض القاضي كتابة ذلك وقال للسلطان "ياخوند عاهدت الله أني لا أكتب بخطي في إتلاف مسلم" فغضب السلطان منه وضربه، ثم عزله وولى هذا المنصب غيره، فترك القاضي منصبه بعد أن أطلق عبارته الشهيرة: (رضيت بغضب السلطان ولا غضب الله تعالى)[٢]. وقد ذكر ابن حبيب أن القاضي ابن الأثير ترك كتابة السر (تدنياً وتورعاً)[٣].

ويعد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من أبرز العلماء الذين لاقوا كثيراً من المحن والشدائد في سبيل التصدي للفساد ونشر مبادئه الإصلاحية لما اشتهر به من قول الحق والتصدي للبدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون خوف أو مداراة[٤]. من لك ما حدث له رحمه الله سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م حينما أفتى الشيخ بالعقيدة الحموية، فتصدى له جماعة من الفقهاء وطلبوا منه المثول أمام القاضي لمحاجته، لكن لم يتم لهم ذلك وتمكن شيخ الإسلام من ردهم خائبين ودحض قولهم في اليوم الذي كان يحدده الشيخ لوعظ الناس، حيث ناقشه معارضوه في تلك المسألة ونصره الله عليهم وأسكتوا جميعاً[٥].

---

(١) هو إسماعيل بن أحمد بن سعيد الحلبي، تولي كتابة الدرج في القاهرة، ثم تركها "تعبدا وتزهداً" له نظم ونشر وخطب مكتوبة، قتل في معركة الخازندار مع المغول سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٣٩١-٣٩٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٣٠.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص١٨٠.

(٣) ابن حبيب: تذكر النبيه، ج١، ٢٣٠.

(٤) محمود السيد: تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي من ص ٢١١.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤١٠-٤١١؛ البدري: الإسلام، ص١٥٢.

وفي عام ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م عقد مجلس آخر للشيخ ابن تيمية عند نائب السلطنة للنظر في عقيدته المسمى الوسطية[١] وكان الشيخ كمال الدين بن الزملكاني هو الذي يناظره ويجادله حتى رضي بقوله وقبول عقيدته الوسطية وفيها أشهد ابن تيمية على نفسه أنه شافعي المذهب[٢].

ويرجع ابن كثير سبب عقد هذه المجالس لابن تيمية إلى تحريض القاضي المالكي ابن مخلوف[٣] والشيخ نصر المنبجي[٤] شيخ الأمير بيبرس الجاشنكير على ابن تيمية؛ لأن المبنجي من أتباع ابن العربي[٥] وابن تيمية يهاجم مبادئه وآراءه

---

(١) العقيدة الوسطية:

كان سبب كتابة هذه العقيدة كما رواها ابن تيمية أن أحد قضاة منطقة واسط يدعى الشيخ رضي الدين الواسطي حضر إلى ابن تيمية وشكا إليه ما تفشى في بلاده بسبب حكم التتار من جهل في العلوم والدين، وطلب من الشيخ أن يكتب له عقيدة يستند عليها هو وأهله، فرفض ابن تيمية ذلك في البداية، ولما ألح عليه الشيخ الواسطي باكتابتها، كتب ابن تيمية هذه العقيدة وانتشرت في الأرجاء وسميت بالعقيدة الوسطية. انظر ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج٢، ص١٠٦-١٠٨؛صالح الفوزان :شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية .

(٢) ابن كثير: ج١٤، ص٤٤٥-٤٤٦؛ ابن أيبك الدوادار: كنز الدر، ص١٣٣-١٤٣؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٦٩؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٤١٠-٤١١؛ أحمد صبحي: العقائد الدينية، ص١١٥.

(٣) هو علي بن مخلوف بن ناهض بن مسلم بن منعم بن خلف النويري، كان كثير البر والإحسان، مع مروءة ومحبة لعمل الخير ، توفي سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٥٠٣.

(٤) هو نصر بن سليمان المقرئ، حدث وتفقه، ثم انقطع وأظهر التصوف، توفي سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م.ابن العماد :شذرات الذهب،ج٦،ص٥٢.

(٥) هو أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، كان له علم بالحديث والسنن وعلوم ومعارف كثيرة، تولي كتابة الإنشاء في بلاد المغرب، ثم تزهد في الوظائف، وأظهر الورع والتقوى وانعزل عن الناس، وبدأ في تأليف مصنفاته التي انطوت على كثير من الشطط والخروج عن المألوف، ونادى بوحدة الوجود، وهو آخر فلاسفة التصوف الكبار توفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص١٩٠-٢٠٢؛ أحمد صبحي: العقائد الدينية، ص٨٧-٩٨.

ويحط من قدره، كما يذكر ابن كثير أن من أسباب العداء على ابن تيمية المكانه التي حظي بها عند العامة والخاصة، وحب الناس له وانقيادهم لكلامه إضافة إلى ما يقوم به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعلم الغزير الذي حباه الله تعالى به[1].

وفي نفس العام استدعى شيخ الإسلام ابن تيمية إلى القاهرة، والظاهر أن ما توصل إليه قضاة الشام من الرضا بعقيدة ابن تيمية المسمى بالعقيدة الوسطية لم يرض أعداءه في مصر، فتم استدعاؤه إلى القاهرة، وعقد له مجلساً آخر سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م بحضرة الأمير بيبرس والأمير سلار والشيخ المنبجي وابن عدلان[2] ولم يتمكن ابن تيمية من الدفاع عن مبادئه، بل حكم عليه بالحبس ظلماً وعدواناً[3].

وفي عام ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م أخرج ابن تيمية من سجن الجب بوساطة أمير العرب مهنا بن عيسى الذي قام بإخراجه بنفسه، ثم عقد مجلساً له في دار الأمير سلار بحضرة أعدائه وعدد من الفقهاء، كما أثار الصوفية بعض المسائل والشكاوي على ابن تيمية، وانتهى به الأمر أن دخل السجن هو بنفسه بعد ما امتنع القضاة من الحكم عليه لعدم ثبوت شيء عليه، فرأى هو أن دخوله السجن فمضى

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٤٥-٤٤٦.

(٢) هو القاضي شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم بن عدلان بن محمود بن لاحق بن داود الكناني المصري، ولد سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م، حدث وأفتى ودرس وتولى قضاء العسكر، توفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١٦٤؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص٣٧.

(٣) ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج٢، ص١١٧-١٢٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٤٧؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٦٩؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٤١٥؛ ابن أيبك الدوادار: كنز الدرر، ص١٤٦-١٥٠؛ أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص٥٢؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١١، ص١٧-١٨؛ أحمد صبحي: العقائد الدينية، ص١١٥-١١٦؛ البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص١٥٣.

إليه بنفسه، ثم صدرت الأوامر من السلطان بنقله إلى الإسكندرية معتقلاً بها،و لكن نائب الإسكندرية أحسن إليه وأسكنه في مكان جيد وسمح لـــه بـــالفتوى، ودخـــول الناس عليه للدرس، كما أذن له بالذهاب للمسجد وإلقاء الـــدروس والمحاضـــرات التي كان يحدد لها يوماً معيناً[1].

وبعد كل هذه الشدائد التي لقيها الشيخ ابن تيمية يسر الله لـــه أمـــره وفـــرج كربته باسترداد الملك الناصر محمد لملكه الضائع سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، وقـــرب ابن تيمية إليه وعينه مستشاراً خاصاً له، يتضح ذلك مـــن ذلـــك الموقـــف الـــذي استشاره فيه السلطان الناصر محمد عن رغبته في تصفية عدد من القضـــاة الـــذين عزلوا الملك الناصر ووقفوا مع السلطان بيبرس الجاشنكير ضده ، لكن الشيخ ابـــن تيمية نصح السلطان وحذره من عاقبة قتل العلماء وقال له: (إذا قتلـــت هـــؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم. فقال له: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً، فقال الشـــيخ: مـــن آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصـــر لنفســـي) ولم يترك السلطان إلا وقد سكن عنه غضبه وحنقه على القضاة[2].

ويقول القاضي ابن مخلوف المالكي عن ابن تيمية: (ما رأينـــا مثـــل ابـــن تيمية، حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا) [3].

وعاد ابن تيمية لحياته الطبيعية وإلقاء الدروس والوعظ والأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر حتى كانت سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م حيث أصدر ابن تيمية فتـــواه

---

(١) ابن كثير: البداية والنهايـــة، ج١٤، ص٤٥٤-٤٥٦؛ المقريـــزي: الســـلوك، ج٢، ق١، ص٣٩-٤٠؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٤٥٩-٤٦١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص١٧٨-١٧٩؛ أحمـــد صبحي: العقائد الدينية، ص١٢٢؛ البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص١٥٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٦٤؛ البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص١٥٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٦٤؛ البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص١٥٥.

في مسألة الحلف بالطلاق[1]، التي أثارت الرأي العام فعقد له مجلساً بدمشق، ثم أُحضر مرسوم من السلطان الناصر محمد يمنع ابن تيمية من الفتوى في هذه المسألة، ورغم انصياع الشيخ للأوامر إلا أنه سجن بالقلعة مدة من الزمن ثم أطلق صراحة[2].

وفي عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م اعتقل ابن تيمية بقلعة دمشق بسبب الفتوى التي أطلقها حول زيارة القبور[3]، كما عُزِّر أصحابه واعتقل تلميذه ابن القيم الجوزية فحبس هو أيضا بالقلعة[4].

ورغم أن ما كان يؤنس وحدة الشيخ في خلوته هذه هو العبادة والتصنيف إلا أنه مالبث في ٩ جمادى الآخرة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م أن منع من الكتابة والاطلاع بأمر من السلطان الناصر محمد فأخرج ما كان عند ابن تيمية من أوراق، وأقلام، كما أخرجت كتبه ومصنفاته من عنده وأودعت في إحدى خزائن الكتب[5].

---

(١) مسألة الحلف بالطلاق: فالشيخ ابن تيمية يرى أن الحلف بالطلاق لا يوقع الطلاق، كما لا ينبرم به عقد الزواج. البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص١٥٦.وقد ورد تعريف الحلف بالطلاق عندابن تيمية يقول فيه (الحرام يلزمنى لأفعل كذا والحل على الحرام لأفعل كذا ، وما أحل الله على حرام إن فعلت كذا =، أو ما يحل للمسلمين يحرم على إن فعلت كذا ، والقول الأرجح أن هذه يمين من الأيمان لايلزمه بها طلاق ولو قصد بذلك الحلف بالطلاق) الفتوى :ج١٧،ص٤٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٩٩؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص١١٠ ؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٨٥-٢١٢؛ البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص١٥٦-١٥٧.

(٣) انظر نص الفتوى في مجموعة الفتاوى، ج١٤، ص٦٣-٧٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٥٣٩-٥٤٠؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص١٦٠؛ الذهبي: دول الإسلام، ص٤١٧؛ أحمد صبحي: العقائد الدينية، ص١٣٤؛ البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص١٥٦.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٥٥١؛ البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص١٥٧.

ومن الواضح أن هذا الأمر أزعج كثيراً ابن تيمية، وأثر عليه، فبعد خمسة أشهر وفي ليلة الاثنين ٢/ذي القعدة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م فجع الناس بوفاة شيخ الإسلام الإمام المصلح المجدد قدوة العلماء ابن تيمية، ودفن بدمشق رحمه الله[١].

ولا يفوتنا هنا أن نذكر الأذى الذي لحق ببعض العلماء جراء اتباعهم لأراء شيخهم ابن تيمية ففي عام ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م عزل القاضي شمس الدين محمد بن عثمان الحريري[٢] من قضاء الحنفية بدمشق، بسبب ثنائه على ابن تيمية، واعتباره من أتباع السلف[٣].كما عزل الشيخ كمال الدين بن الزملكاني سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م من نظر المارستان بسبب قبوله لأفكار ابن تيمية[٤].وقد استمرت ملاحقة تلاميذه حتى بعد وفاته بمدة طويله،وممايذكر في هذا المجال أنه في عام ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م وبعد موت ابن تيمية بأكثر من المائة سنة، تعرض أحد اتباع ابن تيمية وهو الشيخ علاء الدين علي الدواليبي[٥] للتشهير والسجن بسبب تمسكه بآراء وفتاوى شيخ الإسلام[٦].

وكما تعرض الشيخ مبارك القابوني[٧] للضرب والحبس من نائب بلاد الشام الشام سنة ٨٩٩هـ / ١٤٩٣م لأنه كان يمنع شرب الخمر ويقوم بكسر جرار

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٥٥٢-٥٥٤؛ البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص١٥٧-١٥٨.

(٢) قال قاضي القضاة شمس الدين الحريري عن ابن تيمية: (إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام ، فمن هو؟). البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ص١٥٠.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٥-١٦.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٤٦٠.

(٥) هو علي بن عبد المحسن بن الدواليبي البغدادي الحنبلي، توفي سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م. ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج١، ص٨٣.

(٦) ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج١، ص٨٣.

(٧) لم أقف له على ترجمة.

الخمر ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وقبض عليه وضرب وحبس، لكن جماعة من العلماء المنصفين استطاعوا إخراجه من السجن[1].

وختاماً فإن ما أوردته من أمثله في هذا المجال، هو غيض من فيض مما تعرض له علماء الأمة خلال العصر المملوكي من تنكيل وتعذيب وسجن وإقصاء من قبل بعض المتحكمين في هذه الدولة سواء أكانوا حكاماً أم أمراء أو أصحاب مصالح خاصة، أو أهل هوىً من بعض العلماء ممن لم يعجبه ويرضيه ما كان عليه رموز أهل السنة والجماعة من أِتباع مذهب السلف الصالح كابن تيمية وعدد من تلاميذه وأتباعه.

---

(١) ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج٢، ص٢٥٢.

الخاتمة :

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات. وبعد ففي نهاية رحلتي الممتعة في كتابة هذا البحث الذي جاء بعنوان "الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك" فقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج المهمة ومنها:- أن موقف العلماء من انتقال السلطة في مصر إلى المماليك لم يقابل بالرفض من قبل العلماء باستثناء تولية الأمر امرأة هي شجر الدر. فقد غلب على موقف العلماء موقف الصمت، ولعل سبب ذلك هو تقاعس أمراء الأيوبيين عن القيام بواجب الجهاد ضد أعداء الأمة الصليبيين، وأن ما يهدد أراضي المنطقة من أخطار وخاصة بعد اقتراب خطر المغول، كان يتطلب ظهور قوة جديدة تقوم بواجب الدفاع عنها.

كما أوضحت الدراسة أيضاً، أنه كان للعلماء دور فاعل في إقناع العقلاء من أمراء البيت الأيوبي في بلاد الشام لاحقاً بوضع أيديهم في أيدي سلاطين دولة المماليك الذين أثبت حكامها بأنهم الأولى والأجدر بحكم بلاد الشام آنذاك، وخاصة بعد انتصارهم على المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م.

وإلى جانب ذلك فقد توصلت الدراسة إلى أنه كان للعلماء دور واضح في مساعدة السلطان الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م بهدف إضفاء الشرعية على دولة المماليك، فضلاً عن شعورهم بأن هذا العمل سيؤدي أيضاً إلى دعم

مركز المذهب السني لهذه الدولة، والذي كان سلاطينها ونوابهم يحرصون على سيادته وثباته في ربوع دولتهم.

ولهذا فقد أثبتت الدراسة الدور الهام الذي قام به علماء الدولة بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة في مواجهته الفرق الضالة، وكيف نجحوا في إقناع حكام الدولة المملوكية بالعمل على القضاء على بعض هذه الفرق والتضييق على البعض الآخر.

كما بينت الدراسة مدى العلاقة القوية التي ربطت بين سلاطين دولة المماليك ونوابهم وعلماء دولتهم، والتي قامت على الاحترام المتبادل بين الطرفين، وبالتالي العمل معاً على ما فيه مصلحة البلاد والعباد.

وأن ذلك لم يقتصر على من كان يعيش من العلماء داخل دولة المماليك، بل شمل أيضاً من كان يفد على أقاليم هذه الدولة من الخارج.

كما أثبتت الدراسة أن هذه العلاقة بين العلماء وحكام الدولة المملوكية لم تقتصر على الاحترام والتقدير فقط بل تجاوزت ذلك، حيث حرص السلاطين والنواب على تعيين عدد كبير من هؤلاء العلماء في عدد من الوظائف الهامة في دولتهم والتي يمكن أن نطلق عليها مواقع النفوذ، وقد أثبت هؤلاء العلماء من خلال توليهم هذه الوظائف أنهم أهلٌ لذلك، وعملوا بكل جهد وإخلاص على درء الكثير من المفاسد الإدارية وذلك من خلال حرصهم على إصلاح الكثير من الأوضاع الإدارية، وكذلك الوقوف في وجه من يحاول التعدي من الحكام وغيرهم على مكتسبات الدولة كالأوقاف والمال العام وغيرها، وكذلك حماية الضعفاء من بطش

أصحاب النفوذ، ورفع الظلم عن عامة الناس، بإلغاء المكوس والضرائب والاحتكار وغيرها.

كما أوضحت الدراسة أيضاً أن دولة المماليك اتصفت خلال عهديها البحري والبرجي بأنها دولة العلماء، وأن هذه الفئة المتميزة شملت حتى الطبقات العليا، ومنها الطبقة الحاكمة سلاطين وأمراء ونواب، حيث أكدت المصادر التي تيسر لي الاطلاع عليها أن عدداً كبيراً من هؤلاء السلاطين والأمراء والنواب كانوا على قدر كبير من الاهتمام بالعلم والمعرفة بمختلف أنواعها ووصل بهم الأمر إلى حد التأليف والتدريس والإجازة والإفتاء والمناظرة.

كما برهنت الدراسة على أنه كان لفئة العلماء دور واضح وجلي في العمل على تهدئة الأوضاع الداخلية في أقاليم الدولة المملوكية، ومواجهة حركات العصيان والثورات الداخلية. وذلك من خلال قيامهم بدور الوسيط بين السلاطين وبعض النواب والأمراء الذين تزعموا بعض حركات العصيان، وإصلاح ذات البين فيما حدث بينهم والوقوف في وجه العصا إذا أصروا على خروجهم على أساس أن استمرارهم في هذا الأمر يعتبر خروجاً على طاعة ولي الأمر.

كما تبين من الدراسة، الدور الذي قام به العلماء في توجيه سياسة سلاطين دولة المماليك ونوابهم تجاه أهل الذمة الذين كانوا يعيشون داخل دولتهم، فقد حظي أهل الذمة باهتمام واضح ومعاملة حسنة، وذلك تمشياً مع تعاليم ديننا الإسلامي، الذي كفل لهذه الفئة حياة كريمة مقابل إلزام المستطيعين منهم بدفع الجزية، رغم ما كان يصدر منهم من

تجاوزات ضد الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك ضد كيان الدولة المملوكية، ولكن هذا كله لم يمنع علماء الأمة آنذاك من حث الطبقة الحاكمة وكذلك عامة المسلمين على احترام مقدسات أهل الذمة وعدم السماح لأحد بالتعدي عليها.

كما أثبتت الدراسة أن سلاطين هذه الدولة ونوابهم وجدوا معارضة من بعض العلماء عند استخدام أهل الذمة في بعض الوظائف المدنية، وكانوا دائمي النصح للحكام بعدم الإفراط في الاستعانة بهم.

كما أكدت الدراسة الدور الكبير الذي قام به العلماء في مجال العلاقات الخارجية لدولة المماليك. فقد قاموا بدور كبير في حث عامة الناس وخاصتهم للاستجابة لداعي الجهاد متى هاجم العدو أي جزء من أراضي دولتهم، وذلك فيما عرف بالنفير العام أو المشاركة في جهاد الدفع، حيث عقد العلماء لذلك المجالس العامة والندوات والمحاضرات وألفوا الكتب التي تحث الناس على المشاركة في حركة الجهاد، كما أسهموا إلى جانب ذلك بجهود عظيمة في تجهيز الجيوش ورفع الروح المعنوية لرجالها، وذلك من خلال إصدار الفتاوى وتذكير الناس بأهمية المشاركة بالمال والنفس.

كما أثبتت الدراسة أن ثقة السلاطين ونوابهم في العلماء وصلت إلى حد استخدامهم كسفراء ووفود على حكام الدول المجاورة، وذلك لعلم السلاطين والنواب بأن الخلفية العلمية والثقافية والاحترام الذي يلقاه العلماء من الغير سيؤدي إلى نجاحهم فيما يوفدون من أجله. وأنه ستكون لديهم القدرة على التحاور مع من يجلسون معه. وقد تبين في

ثنايا البحث نجاح عدد من هؤلاء العلماء في تحقيق الأهداف التي أرسلوا من أجلها وذلك بعقد بعض الاتفاقيات وإبرام عقود الصلح مع بعض الأطراف داخل حدود دولة المماليك وخارجها.

كما بينت الدراسة أن من ضمن الأهداف لمشاركة العلماء في حركة الجهاد بأموالهم وأنفسهم ضد أعداء الأمة المغول والصليبيين، هو تأكيد مشروعية الحروب التي خاضها سلاطين الدولة ونوابهم، كما أن مرافقة العلماء للجيش والمشاركة في القتال كان يزيد من تحفيز وتشجيع المجاهدين على الاستبسال في المعارك والرغبة في تحقيق إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

كما أثبتت الدراسة أن المجتمع المملوكي كغيره من المجتمعات لم يسلم من تفشي بعض مظاهر الفساد العقدي والاجتماعي من بدع وخرافات ومعتقدات باطلة، ومظاهر اجتماعية لا يقرها الإسلام كالرشوة وشهادة الزور ويتعاطى الحشيش المخدر، وغير ذلك.

وأضحت الدراسة كيف تصدى العلماء لهذه المظاهر ونجحوا إلى حد كبير في اجتثاث البعض منها، والحد من انتشار البعض الآخر، كما أثبتت الدراسة أن بعض هؤلاء العلماء قد واجهتهم مشكلات وصعوبات عديدة بسبب تصديهم لهذه المظاهر ووصلت هذه الصعوبات إلى حد التنكيل والتعذيب والسجن والإبعاد، وقد صمد معظم هؤلاء العلماء في وجه هذه التحديات حتى حكم الله بينهم وبين من قام بإيذائهم وهو خير الحاكمين .

الملاحق

الملحق الأول
رسالة ابن تيمية إلى ملك قبرص من كتاب
قواعد الأديان لابن تيمية { ص ٦٥ ـ ٨٦}

من أحمد بن تيمية إلى سرجوان عظيم أهل ملتة ، ومن تحوط به عناية من رؤساء الدين ، وعظماء العيش والرهبان والأمراء والكتاب وإتباعهم سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد / فأنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو إله إبراهيم وآل عمران / نسأله أن يصل على عباده المصطفين وأنبيائه المرسلين وبخص بعملائه وسلامة أولى العزم الذين هم سادة الخلق وقادة الأمم الذين خصوا بأخذ الميثاق ، وهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، كما سماهم الله تعالى في كتابه فقال عز وجل ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم ، وموسى ، وعيسى : أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثقًا غيظًا ليسئل الصديقين عن صدقهم وأعد للكفرين عذاباً أليما ﴾ .

ونسأله أن يخص بشرائف صلاته وسلامه خاتم المرسلين ، وخطيبهم إذا وفدوا على ربهم ، وأمامهم إذا اجتمعوا ، شفيع الخلائق يوم القيامة ، نبي الرحمة، ونبي الملحمة ، الجامع محاسن الأنبياء ، الذي بشر به عبدالله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى الصديقة الطاهرة البتول ، التي لم يسمها بشر قط ((مريم ابنة عمران)) ذلك مسيح الهدى بعوث الجمال والرحمة لما أنجر بنو إسرائيل فيما بعث به موسى من نعمت الجلال والشدة . وبعث الخاتم الجامع بنعمت الكمال ، المشتمل على الشدة على الكفار ، والرحمة بالمؤمنين . والمحتوى على محاسن الشرائع والمناهج التي كانت قبله ، صلى الله عليهم وسلم أجمعين . وعلى من تبعهم إلى يوم القيامة .

أما بعد : فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وأظهر فيهم آثار مشيئته وحكمته ورحمته ، وجعل المقصود الذي خلقوا له فيما أمرهم به هو عبادته ، وأصل ذلك هو معرفته ومحبته ، فمن هداه الله صراط المستقيم آتاه رحمة ، وعلما ومعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ورزقه الإنابة إليه ، والوجل لذكره ، والخشوع له ، والتأله له : فحن إليه حنين النسور إلى أوكارها ، وكلف بحبه كلف الصبي بأمه ، لا يعبد إلا إياه رغبة ، ورهبة ، ومحبة ، وأخلص دينه لمن والآخرة له ، رب الأولين والآخرين . مالك يوم الدين ، خالق ما تبصرون وما لا تبصرون ، عالم الغيب والشهادة ، الذي أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون ، لم يتخذ من دونه أنداداً ، كالذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً، ولم يشرك بربه أحدا ، ولم يتخذ من دونه وليا ، ولا شفيعا ، لا ملكا ، ولا نبياً ولا صديقا ، فإن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ، فهنالك اجتباه مولاه واصطفاه وآتاه رشد . وهداه لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وذلك أن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام وقبل نوح عليه السلام على التوحيد والإخلاص ، كما كان عليه أبوهم آدم أبو البشر – عليه السلام – حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان – بدعة من تلقاء أنفسهم طلاسم الكواكب السماوية، والدرجات الفلكية ، والأرواح العلوية وقوم اتخذوها على صورة من كان فيهم من الأنبياء والصالحين ، وقوم جعلوها لأجل الأرواح السفلية من الجن والشياطين ، وقوم على مذاهب أخر .

....

....

....

والـــذي أخـــتم بـــه الكـــتاب الـــوصية بالشيخ أبي العباس ، بغيره مـــن الأسرى ، والمساعدة لهم ، والرفق بمن عندهم من أهل القرآن ، والامتنـــاع مـــن تغير دين واحد منهم ، وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله .

ونحن نجزي الملك على ذلك بأضعاف ما في نفسه ، والله يعلم إني قاصـــد للملك الخير ، لأن الله تعالى أمرنا بذلك ، وشرع لنا أن نريد الخير لكـــل أحـــد ، ونعطف على خلق الله ، وندعوهم إلى الله ، وإلى دينه ، وندفع عنه شياطين الإنس والجن .

والله المسئول أن يعين الملك على مصلحته التي هي عند الله المـــصلحة ، وأن يخير له من الأقوال ما هو خير له عند الله ، ويختم له بخاتمة خير ، والحمـــد لله رب العـــالمـــين ، وصلـــواتـــه علـــى أنبـــيائـــه الـــمرسلـــين ولا ســـيما محمد خاتم النبيين والمرسلين ، السلام عليهم أجمعين .

الملحق الثاني

رسالة ابن تيمية للحث على حرب المغول {ص ٨٧ - ١٢٧}

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين

سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته ، فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل وهو على كل شيء قدير ، ونسأله أن يصلي على صفوته من خليقته ، وخيرته من بريته ، محمد عبده ورسوله ﴿ ﷺ ﴾ وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً (١) ﴾ والله تعالى يحقق لنا تمام الكلام بقوله :

﴿ وأنزل الذين ظهروهُم من أهل الكتب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً (٢٦) وأورثكم أرضهم وديرهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ (٢) .

فإن هذه الفتنة التي ابتلى بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام ، قد جرى فيها شبيه ما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ في المغازي التي أنزل الله فيها كتابه ، وابتلى بها نبيه والمؤمنين : ما هو أسوة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً إلى يوم القيامة ، فإن نصوص الكتاب والسنة ، اللذين هما دعوة محمد ﴿ ﷺ ﴾ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي ، أو بالعموم المعنوي .

وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال الآخر هذه الأمة ، كما نالت أولها وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم ، لتكون عبرة لنا فنشبه حالنا بحالهم ، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها . فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين ، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين ما كان للكافر والمنافق من المتقدمين . كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة وأجمل ذكر قصص الأنبياء ، ثم قال ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألبب

ما كان حديثاً يفترى ﴾ أي هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة كنحو ما يذكر في الحروب ، وفي السير المكذوبة ٠

وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ٠٠ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ ٠

وقال في سيرة نبيا محمد ﴿ ﷺ ﴾ مع أعدائه ببدر وغيرها ﴿ قد كان لكم ءاية في فئتين التقتا فئة تقتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصر (٣) ﴾ ٠

وقال تعالى في محاصرته لبني النضير ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتب من ديرهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيدهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يأؤلي الأبصر ﴾ ، فأخبرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة ، وممن قبلها من الأمم ٠

وذكر في غير موضع : أن سنته في ذلك سنة مطردة ، وعادته مستمرة ٠

فقال تعالى ﴿ لئن لم ينته المنفقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيهآ إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ قَتَلَكُمُ الذين كفروا لولوا الأدبر ثم لا يجدون ولياً ولا نصير ٠٠ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ٠

وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المتقدمين ٠

فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده ، ودأب الأمم وعاداتهم ، لاسيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبقت الخافقين خبرها ، واستطار في جميع ديار الإسلام شررها ، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه ، وكاد فيه عمود الكتاب أن يجتث ، ويخترم ٠

وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار ، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن ما وعدهم الله ورسوله إلا غرورا ، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبهم وظنوا ظن السوء فكانوا قوماً بوراً ، ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران ، وأنزلت الرجل الصاحي منزل السكران ، وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان ، وتناكرت فيها قولب المعارف والإخوان ، حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان ، وميز الله فيها أهل البصائر والإيقان ، من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق وضعف إيمانه ،

ورفع بها أقواماً إلى الدرجات العالية ، كما خفض بها أقواماً إلى المنازل الهاوية ، وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة ، وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى ،

فالله يتم هذه الثقة تجمع قلوب أهل الإيمان على جهاد أهل الطغيان ، ويجعل هذه المنة الجسيمة مبدأ لكل منمة كريم ، وأساسا لإقامة الدعوة النبوية القويمة ، ويشفي صدور المؤمنين من أعاديهم ، ويمكنهم من دانيهم وقاصيهم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآل وصحبه وسلم تسليماً ،

قال المؤلف رحمة الله :

كتبت أول هذا الكتاب بعد رحيل قازان وجنوده ، لما رجعت من مصر في جمادى الآخرة ، وأشاعوا أنه لم يبق منهم أحد ، ثم لما بقيت تلك الطائفة اشتغلنا بالاهتمام بجهادهم ، وتعمد الذهاب إلى إخواننا بحماة ،وتحريض الأمراء على ذلك ، حتى جاءنا الخير بانصراف المتبقية منهم ، فكملته في رجب ، والله أعلم ،

والحمد لله وحده ، وصل الله على أشرف الخلق ،محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ،

الملحق الثالث

رسالة من عبد الله بن تيمية إلى أخيه بدر الدين ، يطلعه على أحوال أخيهما شيخ الإسلام عند نزوله الإسكندرية من كتاب محمد العبدة : رسائل ابن تيمية في السجن { ص ٢٨ – ٣٠ } وانظر آمال رمضان صديق ، الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله بن تيمية إلى أخيه بدر الدين :

سلام الله ورحمته وبركاته على الشيخ الإمام العالم الجليل بدر الدين ، وإلى الله عليه آلاءه وأتبعها ، وأسبغ عليه نعمه ونوعها ، وجمعنا وإياه في هذه الدار على طاعته ، وفي دار القرار في دار كرامته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين أهل ولايته .

أما بعد : فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير ، وأصلي على سيد ولد آدم وخير خلق الله أجمعين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فنحن والجماعة في نعم الله الكاملة ومننه الشاملة ، فمنها نزول الأخ الكريم بالثغر المحروس ، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً ، يكيدون بها للإسلام وأهله ، وظنوا أن ذلك يحصل عن قريب ، فانقلبت مقاصدهم الخبيثة المعلومة ، وانعكست من كل الوجوه .

وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى الأخ ، متقبلين لما يذكره ينشره من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والحط والوقعية في أعدائهما من أهل البدع والضلالات .

واتفق أنه وجد بها الفرق الضالة فكشف أسرارها وفضحهم واستتاب جماعات منهم ، وتوب رئيساً من رؤسائهم ، واشتهر ذلك واستقر عند عموم المؤمنين وخواصهم من أمير وقاضٍ ، وفقيه ومفتٍ ، وشيخ وعموم المجاهدين ، وعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله .

فنسأل الله العظيم أن يجعل تمام النقمة عليهم ، وأن يقطع دابرهم وأن ينصر دينه وكتابه ورسوله ، نسأل الله العظيم أن يوفقك لما يحبه ويرضاه ، وأن يتولاك في جميع الأمور .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وعلى السعيدة الكريمة الطيبة رضي الله عنها وأرضاها ، الوالدة التي منحها الله تعالى آخر عمرها الكرامة العظيمة والمنزلة الرفيعة والدرجة العلية ، وأكمل السلام وأنماه على جميع الأهل الإخوان ، والأصحاب والمعارف والجيران ...

كتيب والخاطر مشغول بأمر المسلمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد ،إله وصبحه وسلم تسليماً .

الملحق الرابع
وصية ابن دقيق العيد لنوابه من القضاة ، نقلاً عن كتاب معيد النعم ومبيد النقم ، لتاج الدين السبكي {٥٨ ــ ٦٠ }

بسم الله الرحمن الرحيم

(القضاة ثلاثة : واحد في الجنة ؛ واثنان في النار ؛ قاض قضى بالحق وهو يعلم فهو في الجنة ؛ وقاض قضى بالحق وهو لا يعلم فهو في النار ؛ وقاض قضى بغير الحق فهو في النار ٠) ما نصه ونقله من خطه: تنبه أيها القاضي لما أنت فيه من الأخطار ، وطب نفسا إذا حكمت بحق تعلم لله تعالى ، وإلا فلا ، وأعلم أن الحلال بين ، وهو الذي تجده منصوصاً عليه في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﴿ ﷺ ﴾ أو مجمعا عليه ، أو عليه دليل جيد غير ذلك من سائر الأدلة الراجعة إلى الكتاب والسنة ، بحيث ينشرح صدرك لأنه حكم الله تعالى ٠ فهذا حكمك به عبادة تثاب عليه ؛ وينبغي لك أن تقصد به وجه الله تعالى ، فلا يكون حكمك به لمخلوق ، ولا لغرض من أغراض الدنيا ، فبذلك تكمل العبادة فيه ، وتنال الأجر من خالقك ٠ وإن حكمت به لغرض من أغراض الدنيا صح الحكم ، ولكن لا يكون لك فيه أجر ٠ وما سوى هذا فهو على درجات : إحداها أن تحكم بذلك من غير قصد القربة ، ولا غرض من الأغراض الدنيوية ، فهذا خير من القسم (الثاني) الذي قبله ، الذي قصد به غرض دنيوى ، ولكنه يظهر أيضا أنه لا أجر فيه ؛ لعدم قصد القربة ٠ واعلم أنا لا نشترط وجود قصد القربة عند الحكم ؛ بلى نكتفي به في أصل ولاية القضاء ، لأنه قد يشق استحضاره في كل حكم ، فنكتفي به عند الدخول في أوله ، كما اكتفى بنية المجاهد في أول خروجه الرتبة الثالثة أن يكون الحكم مختلفا فيه ، وحصل ما يجوز الإقدام على الحكم به من الأدلة الشرعية مع احتمال يمنع من انشراح الصدر له الانشراح الكلي ، فهذا جائز ، والأجر فيه دون القسم المجمع عليه ؛ لأن المصلحة في المجمع عليه ؛ أتم ، فالعبادة فيه أكمل ، وإن كان لا تقصير في هذا الرتبة الرابعة : أن تحصل شبهة تمنع من غلبة الظن بأن ذلك حكم الله تعالى ، فلا يحل الحكم ، الرتبة الخامسة : أن يعتقد أنه خلاف حكم الله تعالى ، فلا يحل له الحكم ، وإن كان بعض العلماء قال به الرتبة السادسة : أن يكون مجمعاً على أنه ليس بحكم الله تعالى ، فلا يحل الحكم ، وهذه المراتب الثلاث عدم الحل فيها مرتب ترتيباً

لا يخفى ، وأعلم أن المرتبة الخامسة والسادسة ما أظن أحداً يقدم عليهما إن شاء الله تعالى ، والمرتبة الرابعة قد تكون عند قيام الشك ومخالجة الاحتمال ، قد تسول لك نفسك أو الشيطان أو أحد من الناس الإقدام على الحكم لغرض من الأغراض ، ويسهل عليك لأنك لم تجزم بالتحريم فإياك أن تقدم على الحكم ، فتدخل في قوله وقاض (٣) قضى بالحق وهو لا يعلم ، فإذا كان الذي قضى بالحق وهو لا يعلم في النار فالذي قضى وهو لا يعلم والمقضي به متردد بين الحق والباطل كيف يكون حاله ؟ وفي هذه المرتبة تجد كثيراً من إخوان السوء يسولون لك الحكم ، فإياك ثم إياك ، واستحضر بقلبك غداً يوم القيامة إذا انتصب الجبار لفصل القضاء ، وجئ بالنبيين والشهداء وجئ بك يا مسكين وأنت كالقمحة ، بل كالذرة بين أرجل الناس بل أقل من ذلك ، وفي ذلك الموقف رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ الذي أنت نائبة ، وقد بلغك شريعته ، وجبريل الذي نزل بها عليه ، ورسل الله تعالى وأنبياؤه وملائكته والصديقون والشهداء كالسراج المضيئة في ذلك المشهد بين يدي الله تعالى ، وسألك الله تعالى بغير واسطة بينك وبينه : لم حكمت في هذا الأمر ؟ ومن بلغك عني هذا ؟ ونظرت يميناً وشمالاً فلم تجد هنالك سلطاناً ولا أميراً ولا كبيراً ممن سول لك ذلك الحكم ، ورأيت نفسك غريباً حقيراً وحيداً ، ونظرت إلى النبي ﴿ ﷺ ﴾ وهو المقدم في ذلك المشهد العظيم الذي ترجوا شفاعته، وقد حكمت بغير شريعته ، كيف يبق وجهك معه ؟ أو كيف يبق حالك عنده ؟ وسائر الأنبياء والرسل والملائكة وأهل ذلك الموقف من الصالحين ينظرون إليك والله تعالى ينظرك هل ينفعك ذلك الوقت أحد من أهل الدنيا أو مال أو جاه أو غير ذلك ؟ كلا والله لا ينفع فأنظر يا مسكين هذا الوقف ، فما علمت أنه ينجيك لا تستحي بسببه فيه ، فافعله ، وما سوى ذلك كن منه على حذره ، ولو طلبه منك أكبر ملوك الأرض بملئها ذهباً ، وإن قيل لك : قد يكون توقفك تركاً للحكم الواجب ، فقل ، إنما يكون واجباً إذا ظهر ، وعند الشك لا ، وإذا دار الأمر بين الترك مع الشك والإقدام مع الشك ، كان الترك أسهل ، لأنه أخف وأقل جرأة فهذا الذي تيسر ذكره مما أوصيتك به أيها القاضي ،

الملحق الخامس
نص تقليد قاضي العسكر ، نقلاً عن القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، { ٢٠٣ – ٢٠٤ }

الحمد لله الذي رفع للعلم الشريف في أيامنا الزاهرة مناراً ، وزاد بإعلاء رُتب أهله دولتنا القاهرة رفعة وفخاراً وزان أحكامه الشريفة بحكامه الذين طلعوا في غياهب مشكلاته بدوراً وتدفقوا في إفاضته في الأحكام الشرعية بحاراً .

نحمده على نعمه التي حلت فحلت ، ومننه التي أهلت الجود فاستهلت ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لقائلها ذخراً ، وتعلي للمتمسك بها في الملإ الأعلى ذكراً ، ونشهد أن محمد عبده ورسوله الذي هو أسبق الأنبياء رُتبة وإن كان آخرهم عصراً ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أضحوا للمقتدين بهم شموساً منيرة وللمهتدين بعلومهم نجوماً زُهراً ، صلاة لا تزال الألسن تقيمها ، والأسماع تستديمها ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى من نوهنا بذكره ، ونبهنا على رفعة قدره ، وأطلقنا ألسنة الأقلام في وصف مفاخره وشكره ، وأثلنا قواعد مجده التي لو رام بنان البيان استقصاءها حال الحَصَرُ دون حصره ، ونفذنا كلم حكمه ورفعنا في أندية الفضائل ألويةَ فُنُونه وأعلام نصره ، من لم يزل دم الشهداء يعدل مداد أقلامه ، وتقيم منار الهدى أدلةُ فضائله وشواهد أحكامه ، وتوضح الحق حتى يكاد المتأمل يلحظُ الحكم لوضوحه ويبصره ، وينصر الشرع بأمداد علمه ولينصرن الله من ينصُره ، وشيد مذهب إمامه الإمام الفلاني فأصبح فسيح الأرجاء وإن لم يكن فيه فسحة ، وجدد قواعد العدل في قضايا عساكرنا المنصورة فهو مشاهد من كلمه ومن نظره في لمحه ملحة .

ولما كان فلان هو الذي نعتنا بما تقدم من الخطاب خلائقة الحسنى ، وأثنينا على ما هو عليه من الإقبال على جوهر العلم دون التعرض إلى العرض الأدنى ، مع ما حواه من مواد فضائل تزكو على كثرة الإنفاق ، وفرائد فوائد تجلب على أيدي الطلبة إلى الآفاق ، وقوة في الحق ، الذي لا تأخُذُه فيه لومةُ لائم وعدل أحكام في الخلق ألذ من سنة الكرى في جفن نائم – أقتضى حُسنُ الرأي الشريف

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف أن يفوض إليه قضاءُ العساكر المنصورة الشريفة على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، وأن تُبسط كلمتُهُ في كلُ ما يتعلق بذلك من أحكام الشرع الشريف ، فليحكم في ذلك كله بما أراه الله من علِمه ، وآتاه من حكمه وحُكمه ، وبين له من سُبُل الهدى ، وعينه لبصيرته من سنن نبيه ﴿ﷺ﴾ التي من حاد عنها فقد جار وآعتدى ، وليقف من الأحكام عند ما قررته الشريعة المطهرة من أحكام الله التي لا يعقلها إلا العالِمُون ، ويأمُرْ كلاً من المتقاضيين بالوقوف عند ما حُد له : ﴿ وَمَنْ يَتَعدَّ حُدُودَ الله فأُولئك هم الظالمُون ﴾ والوصايا وإن كثُرتَ فمن مثله تُفاد ، وإن جلت فسمْعُه في غني عما يُبْدأ له منها ويُعاد ، وملاكُها تقوى الله تعالى التي هي شِعار أُنسِه ، وحِلْيةُ يومِه وأمسِه، والله تعالى يسدده في القول والعمل ، ويوفقه لما يرضاه ويصُونُه من الخطأ والخَطَل .

الملحق السادس
سلاطين المماليك البحرية والجركسية ، نقلاً عن محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ص { ٥٧٥ ــ ٥٧٦ }

أ – دولة المماليك البحرية

٦٤٨ – ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ – ١٣٨٢هـ

شجر الدر	٦٤٨هـ / ١٢٥٠م
المعز عز الدين أيبك	٦٤٨ – ٦٥٥هـ / ١٢٥٠ – ١٢٥٧م
المنصور نور الدين علي	٦٥٥ – ٦٥٧هـ / ١٢٥٧ – ١٢٥٩م
المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧ – ٦٥٨هـ / ١٢٥٩ – ١٢٦٠م
الظاهر بيبرس البندقداري	٦٥٨ – ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ – ١٢٧٧م
السعيد ناصر الدين محمد بركة خان	٦٧٦ – ٦٧٨هـ/ ١٢٧٧ – ١٢٧٩م
العادل بدر الدين سلامش	٦٧٨هـ / ١٢٧٩م
المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨ – ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ – ١٢٩٠م
الأشرف صلاح الدين خليل	٦٨٩ – ٦٩٣هـ / ١٢٩٠ – ١٢٩٣م
الناصر ناصر الدين محمد : المرة الأولى	٦٩٣ – ٦٩٤هـ / ١٢٩٣ – ١٢٩٤م
العادل زين الدين كتبغا	٦٩٤ – ٦٩٦هـ / ١٢٩٤ – ١٢٩٦م
المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦ – ٦٩٨هـ / ١٢٩٦ – ١٢٩٩م
الناصر ناصر الدين محمد : المرة الثانية	٦٩٨ – ٧٠٨هـ / ١٢٩٩ – ١٣٠٩م
المظفر بيبرس الجاشنكير	٧٠٨ – ٧٠٩هـ / ١٣٠٩ – ١٣١٠م
الناصر ناصر الدين محمد : المرة الثالثة	٧٠٩ – ٧٤١هـ / ١٣١٠ – ١٣٤٠م
المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد	٧٤١ – ٧٤٢هـ / ١٣٤٠ – ١٣٤١م
الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	٧٤٢ هـ / ١٣٤١م
الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	٧٤٢ – ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م
الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	٧٤٣ – ٧٤٦هـ / ١٣٤٢ – ١٣٤٥م
الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	٧٤٦ – ٧٤٧هـ / ١٣٤٥ – ١٣٤٦م
المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد	٧٤٧ – ٧٤٨هـ / ١٣٤٦ – ١٣٤٨م
الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد المرة الأولى	٧٤٨ – ٧٥٢هـ / ١٣٤٨ – ١٣٥١م
الصالح صلاح الدين بن محمد بن الناصر محمد	٧٥٢ – ٧٥٥هـ / ١٣٥١ – ١٣٥٤م
الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد المرة الثانية	٧٥٥ – ٧٦٢هـ / ١٣٥٤ – ١٣٦١م
المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي	٧٦٢ – ٧٦٤هـ /١٣٦١ – ١٣٦٣م
الأشرف أبو المعالي زين الدين شعبان بن حسين	٧٦٤ – ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ – ١٣٧٧م
المنصور علاء الدين علي بن شعبان حسين	٧٧٨ – ٧٨٣هـ / ١٣٧٧ – ١٣٨١م
الصالح صالح الدين حاجي بن شعبان بن حسين	٧٨٣ – ٧٨٤هـ / ١٣٨١ – ١٣٨٢م

ب – دولة المماليك البرجية

٧٨٤ – ٩٢٣هـ / ١٣٨٢ – ١٥١٧م

الظاهر سيف الدين برقوق : المرة الأولى	٧٨٤ – ٧٩٠ هـ / ١٣٨٢ – ١٣٨٨م
الصالح حاجي بن شعبان	٧٩٠ – ٧٩٢ هـ / ١٣٨٨ – ١٣٩٠م
الظاهر سيف الدين برقوق : المرة الثانية	٧٩٢ – ٨٠١ هـ / ١٣٩٠ – ١٣٩٩م
الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق	٨٠١ – ٨١٥ هـ / ١٣٩٩ – ١٤١٢م
الخليفة العباسي المستعين	٨١٥ هـ / ١٤١٢م
المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	٨١٥ – ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ – ١٤٢١م
المظفر أحمد بن شيخ	٨٢٤ هـ / ١٤٢١م
الظاهر سيف الدين ططر	٨٢٤ هـ / ١٤٢١م
محمد بن ططر	٨٢٤ – ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ – ١٤٢٢م
الأشرف بـــرســـــباي	٨٢٥ – ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ – ١٤٣٨م
أبو المحاسن يوسف بن بـــرســـــباي	٨٤١ – ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م
الظاهر جقمق	٨٤٢ – ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ – ١٤٥٣م
المنصور عثمان بن جقمق	٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م
الأشرف اينال	٨٥٧ – ٨٦٥ هـ / ١٤٥٣ – ١٤٦١م
المؤيد أحمد بن اينال	٨٦٥ هـ / ١٤٦١م
الظاهر خشقدم	٨٦٥ – ٨٧٢ هـ / ١٤٦١ – ١٤٦٧م
الظاهر يلباي المؤيدي	٨٧٢ – هـ / ١٤٦٧م
الظاهر تمربغا	٨٧٢ هـ / ١٤٦٨م
الأشرف قايتباي	٨٧٢ – ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ – ١٤٩٦م
محمد بن قاينباي : المرة الأولى	٩٠١ – ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ – ١٤٩٧م
الأشرف قانصوه خمسمائة	٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م
محمد بن قايتباي : المرة الثانية	٩٠٢ – ٩٠٤ هـ / ١٤٩٧ – ١٤٩٨م
الظاهر قانصوه الأشرفي	٩٠٤ – ٩٠٥ هـ / ١٤٩٨ – ١٥٠٠م
الأشرف جانبلاط	٩٠٥ – ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ – ١٥٠١م
العادل طومان باي الأول	٩٠٦ هـ / ١٥٠١م
الأشرف قانصوه الغوري	٩٠٦ – ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ – ١٥١٦م
الأشرف طومان باي الثاني	٩٢٢ – ٩٢٣ هـ / ١٥١٦ – ١٥١٧م

الخاتمة :

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات. وبعد ففي نهاية رحلتي الممتعة في كتابة هذا البحث الذي جاء بعنوان "الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك" فقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج المهمة ومنها:- أن موقف العلماء من انتقال السلطة في مصر إلى المماليك لم يقابل بالرفض من قبل العلماء باستثناء تولية الأمر امرأة هي شجر الدر. فقد غلب على موقف العلماء موقف الصمت، ولعل سبب ذلك هو تقاعس أمراء الأيوبيين عن القيام بواجب الجهاد ضد أعداء الأمة الصليبيين، وأن ما يهدد أراضي المنطقة من أخطار وخاصة بعد اقتراب خطر المغول، كان يتطلب ظهور قوة جديدة تقوم بواجب الدفاع عنها.

كما أوضحت الدراسة أيضاً، أنه كان للعلماء دور فاعل في إقناع العقلاء من أمراء البيت الأيوبي في بلاد الشام لاحقاً بوضع أيديهم في أيدي سلاطين دولة المماليك الذين أثبت حكامها بأنهم الأولى والأجدر بحكم بلاد الشام آنذاك، وخاصة بعد انتصارهم على المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م.

وإلى جانب ذلك فقد توصلت الدراسة إلى أنه كان للعلماء دور واضح في مساعدة السلطان الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م بهدف إضفاء الشرعية على دولة المماليك، فضلاً عن شعورهم بأن هذا العمل سيؤدي أيضاً إلى دعم مركز المذهب السني لهذه الدولة، والذي كان سلاطينها ونوابهم يحرصون على سيادته وثباته في ربوع دولتهم.

ولهذا فقد أثبتت الدراسة الدور الهام الذي قام به علماء الدولة بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة في مواجهته الفرق الضالة، وكيف نجحوا في إقناع حكام الدولة المملوكية بالعمل على القضاء على بعض هذه الفرق والتضييق على البعض الآخر.

كما بينت الدراسة مدى العلاقة القوية التي ربطت بين سلاطين دولة المماليك ونوابهم وعلماء دولتهم، والتي قامت على الاحترام المتبادل بين الطرفين، وبالتالي العمل معاً على ما فيه مصلحة البلاد والعباد. وأن ذلك لم يقتصر على من كان يعيش من العلماء داخل دولة المماليك، بل شمل أيضاً من كان يفد على أقاليم هذه الدولة من الخارج.

كما أثبتت الدراسة أن هذه العلاقة بين العلماء وحكام الدولة المملوكية لم تقتصر على الاحترام والتقدير فقط بل تجاوزت ذلك، حيث حرص السلاطين والنواب على تعيين عدد كبير من هؤلاء العلماء في عدد من الوظائف الهامة في دولتهم والتي يمكن أن نطلق عليها مواقع النفوذ، وقد أثبت هؤلاء العلماء من خلال توليهم هذه الوظائف أنهم أهلٌ لذلك، وعملوا بكل جهد وإخلاص على درء الكثير من المفاسد الإدارية وذلك من خلال حرصهم على إصلاح الكثير من الأوضاع الإدارية، وكذلك الوقوف في وجه من يحاول التعدي من الحكام وغيرهم على مكتسبات الدولة كالأوقاف والمال العام وغيرها، وكذلك حماية الضعفاء من بطش أصحاب النفوذ، ورفع الظلم عن عامة الناس، بإلغاء المكوس والضرائب والاحتكار وغيرها.

كما أوضحت الدراسة أيضاً أن دولة المماليك اتصفت خلال عهديها

البحري والبرجي بأنها دولة العلماء، وأن هذه الفئة المتميزة شملت حتى الطبقات العليا، ومنها الطبقة الحاكمة سلاطين وأمراء ونواب، حيث أكدت المصادر التي تيسر لي الاطلاع عليها أن عدداً كبيراً من هؤلاء السلاطين والأمراء والنواب كانوا على قدر كبير من الاهتمام بالعلم والمعرفة بمختلف أنواعها ووصل بهم الأمر إلى حد التأليف والتدريس والإجازة والإفتاء والمناظرة.

كما برهنت الدراسة على أنه كان لفئة العلماء دور واضح وجلي في العمل على تهدئة الأوضاع الداخلية في أقاليم الدولة المملوكية، ومواجهة حركات العصيان والثورات الداخلية. وذلك من خلال قيامهم بدور الوسيط بين السلاطين وبعض النواب والأمراء الذين تزعموا بعض حركات العصيان، وإصلاح ذات البين فيما حدث بينهم والوقوف في وجه العصا إذا أصروا على خروجهم على أساس أن استمرارهم في هذا الأمر يعتبر خروجاً على طاعة ولي الأمر.

كما تبين من الدراسة، الدور الذي قام به العلماء في توجيه سياسة سلاطين دولة المماليك ونوابهم تجاه أهل الذمة الذين كانوا يعيشون داخل دولتهم، فقد حظي أهل الذمة باهتمام واضح ومعاملة حسنة، وذلك تمشياً مع تعاليم ديننا الإسلامي، الذي كفل لهذه الفئة حياة كريمة مقابل إلزام المستطيعين منهم بدفع الجزية، رغم ما كان يصدر منهم من تجاوزات ضد الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك ضد كيان الدولة المملوكية، ولكن هذا كله لم يمنع علماء الأمة آنذاك من حث الطبقة الحاكمة وكذلك عامة المسلمين على احترام مقدسات أهل الذمة وعدم

السماح لأحد بالتعدي عليها.

كما أثبتت الدراسة أن سلاطين هذه الدولة ونوابهم وجدوا معارضة من بعض العلماء عند استخدام أهل الذمة في بعض الوظائف المدنية، وكانوا دائمي النصح للحكام بعدم الإفراط في الاستعانة بهم.

كما أكدت الدراسة الدور الكبير الذي قام به العلماء في مجال العلاقات الخارجية لدولة المماليك. فقد قاموا بدور كبير في حث عامة الناس وخاصتهم للاستجابة لداعي الجهاد متى هاجم العدو أي جزء من أراضي دولتهم، وذلك فيما عرف بالنفير العام أو المشاركة في جهاد الدفع، حيث عقد العلماء لذلك المجالس العامة والندوات والمحاضرات وألفوا الكتب التي تحث الناس على المشاركة في حركة الجهاد، كما أسهموا إلى جانب ذلك بجهود عظيمة في تجهيز الجيوش ورفع الروح المعنوية لرجالها، وذلك من خلال إصدار الفتاوى وتذكير الناس بأهمية المشاركة بالمال والنفس.

كما أثبتت الدراسة أن ثقة السلاطين ونوابهم في العلماء وصلت إلى حد استخدامهم كسفراء ووفود على حكام الدول المجاورة، وذلك لعلم السلاطين والنواب بأن الخلفية العلمية والثقافية والاحترام الذي يلقاه العلماء من الغير سيؤدي إلى نجاحهم فيما يوفدون من أجله. وأنه ستكون لديهم القدرة على التحاور مع من يجلسون معه. وقد تبين في ثنايا البحث نجاح عدد من هؤلاء العلماء في تحقيق الأهداف التي أرسلوا من أجلها وذلك بعقد بعض الاتفاقيات وإبرام عقود الصلح مع بعض الأطراف داخل حدود دولة المماليك وخارجها.

كما بينت الدراسة أن من ضمن الأهداف لمشاركة العلماء في حركة الجهاد بأموالهم وأنفسهم ضد أعداء الأمة المغول والصليبيين، هو تأكيد مشروعية الحروب التي خاضها سلاطين الدولة ونوابهم، كما أن مرافقة العلماء للجيش والمشاركة في القتال كان يزيد من تحفيز وتشجيع المجاهدين على الاستبسال في المعارك والرغبة في تحقيق إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

كما أثبتت الدراسة أن المجتمع المملوكي كغيره من المجتمعات لم يسلم من تفشي بعض مظاهر الفساد العقدي والاجتماعي من بدع وخرافات ومعتقدات باطلة، ومظاهر اجتماعية لا يقرها الإسلام كالرشوة وشهادة الزور ويتعاطى الحشيش المخدر، وغير ذلك.

وأضحت الدراسة كيف تصدى العلماء لهذه المظاهر ونجحوا إلى حد كبير في اجتثاث البعض منها، والحد من انتشار البعض الآخر، كما أثبتت الدراسة أن بعض هؤلاء العلماء قد واجهتهم مشكلات وصعوبات عديدة بسبب تصديهم لهذه المظاهر ووصلت هذه الصعوبات إلى حد التنكيل والتعذيب والسجن والإبعاد، وقد صمد معظم هؤلاء العلماء في وجه هذه التحديات حتى حكم الله بينهم وبين من قام بإيذائهم وهو خير الحاكمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

لائحة اعتراض

على الحكم الصادر من الشيخ نزار بن صالح الشعيبي القاضي بالمحكمة العامة بمكة المكرمة بالصك رقم ١٧٦/٢٠٠/٥ وتاريخ ١٤٣١/١١/٨هـ

فالاعتراض في مدته النظامية

================

صاحب الفضيلة رئيس محكمة الاستئناف للأحكام الشرعية بمكة المكرمة حفظه الله ورعاه آمين

أصحاب الفضيلة المشائخ قضاة الدائرة المختصة للنظر في الاستئناف حفظهم الله ورعاهم آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد :

أصحاب الفضيلة إن اعتراضي على حكم فضيلة القاضي نزار الشعيبي لما سوف يأتي :

* جاء في حيثيات الحكم التي بنى فضيلة القاضي وفقه الله لكل خير حكمه عليها ما يلي:

١ – ان إزالة الملحق القديم الموصوف بالعقد التفصيلي جاء بعد انتهاء العقد وبعد صدور الحكم عليّ وان هناك تفريط مني .

وللإجابة على هذه الفقرة أقول مستعيناً بالله ،،،

إن عقدي عشرة سنوات وعندما حصلت الخصومة حكم فضيلة القاضي إبراهيم الربعي بأن العقد خمس سنوات وكان ذلك بتاريخ ١٤٣٠/٣/٢٦هـ وصدق من هيئة التمييز بتاريخ ١٤٣٠/٧/٢١هـ وتم تمديد لي من المدعي لسنة سادسة تنتهي في ١٤٣٠/١٢/٣٠هـ بموافقته ورضاه وقناعته واستلم قيمة إيجار هذه السنة كاملة بما فيها العشرة أيام التي منحها لي قاضي التنفيذ فالعقد ساري المفعول لستة سنوات فقط و لم تنتهي مدته كما ذكر المدعي وفضيلة القاضي.

فمن أين جاء التفريط أهو مني أم من المحكوم له بحكم مكتسب القطعية والذي يستطيع المدعي بموجبه أن يقدم الصك لإدارة الحقوق المدنية ويستلم فيلته دون تأخير أو مماطلة ويلزمني بما جاء في الحكم الشرعي والمبالغ التي في العقد التفصيلي فمن هو المفرط ياأصحاب الفضيلة .

إلا أن المدعي أبلغ فضيلة القاضي بما تهوى به نفسه فتمسك بما في صالحه واستبعد ما في ألزامه .

٢ – ذكر فضيلة القاضي غفر الله له في حيثيات حكمه أنه لا أثر لبحث المنع [أي منع المدعي للمدعي عليه من إتمام عمله على الوجه المطلوب حسب العقد لأن ذلك جاء بعد انتهاء مدة العقد . وإجابة على ذلك :

ذكر فضيلة القاضي أنه لا أثر لبحث المنع من وكيل المدعيه ، بينما ذكر المدعي بأن

موكلته لم تمنعنا من أتمام عملنا وإنما منعته الحقوق المدنية من أتمام عمله . فمن نأخذ بقوله فضيلة القاضي أم المدعي . وللخروج من هذه المسألة أبلغت فضيلة القاضي بأن لـدي بينـة أطلـب الاستماع لها بهذا الخصوص ، وحيث رفض القاضي طلبي وماذا يضير فضيلة القاضي لو استمع لها أليس الهدف من الحكم هو إحقاق الحق والعدل .

٣ – ذكر فضيلة القاضي عفا الله عنه في حيثيات حكمه قوله [ولإقرار المدعي عليه بإحداث تلفيات في المسبح وفي الأفياش . وإجابة على ذلك :

لم أقر بذلك أبداً سوى ما ذكرت من البلاطة الوحيدة في أعلى المسبح ودفوعي تثبت ذلك علماً بأن المدعي لم يأتي على ذكر الأفياش وعلب الكهرباء في صحيفة دعواه بتاتاً وصحيفة دعواه الملزم بها تثبت ذلك .

أما ما ذكره فضيلة القاضي في الصورتين وإني أنكرتها فمازالت على كلامي بـأن هـذه مواضع لمبات الحوش التي تخصني وحملتها معي وليس له حق بها وبغيرها وليس هناك ما يلـزمني بتركها له لا شرعاً ولا عرفاً .

أما ما ذكره فضيلة القاضي حفظه الله من كل مكروه في حيثيات حكمه من أن جهـاز تنظيف المسبح والكشافات والسلم والمساكات هي من توابع المسبح فأحيل فضيلته إلى البند الثاني من العقد التفصيلي والذي تم الاتفاق عليه ما نصه : **[عمل مسبح في مكان الملحق المزال فقط]** ولم يشر الاتفاق إلى أي توابع أو اكسسورات أو تجهيزات أو ما يلزمني بتركي أثاث المسبح له .

أما ما ذكره فضيلة القاضي جزاه الله خير من أن دفوعي ليست لها وجاهة . فهذا غـير صحيح حيث أن كل ما قلته لا يخرج عما اتفقت عليه أنا والمدعي بموجب العقـد التفصـيلي والتزمت بما ورد به دون نقصان بل زدت عليها ثم ما هي الوجاهة التي قبل بها فضيلة القاضي فيما ذكره المدعي في صحيفة دعواه التي أبسط ما يقال عنها بأنها باطلة ومبنية على الكذب والـتجني والمبالغة حيث قال أن التقدير المبدئي للأضرار تقدر بـ ٤٠ ألف ريال وهذا المبلغ مرشح للزيادة وهذا التقدير كما ذكر المدعي بأنها لأهل الخبرة والصنعة وإذا بالشيخ حفظه الله يحكم له بأقل من ذلك بكثير .

أما أن الوجاهة التي يريدها فضيلته ما ورد في ضبط الدعوة عندما ذكر المدعي بإني أزلت غرفة [أنشأتها] خلال مدة العقد والتي نسي المدعي بانه الملحق القديم الموجود أصلاً فكيف أزيل ملحق وأنشأ مكانه آخر .

أما الوجاهة ماذكره فضيلة القاضي بأنني سويت الغرفة بالردمة والتي توحي لمن يـدرس

الحكم بأنني أحضرت دماراً من الخارج ظلماً وعدواناً ووضعته داخـــل أرضـــية الملحـــق [**الله المستعان]** .

أما أن الوجاهة في دعوى المدعي الذي أراد أن يدخل الأوراق في بعضها بأن هناك فاتورة للماء لم تسدد و لم يبلغ القاضي بان موضوع الفاتورة منظور لدى فضيلة الشيخ خالد الحقباني في المحكمة الجزئية والتي تراجع عن قوله بعد كشفه كذبه ..

أما أن الوجاهة التي يريدها فضيلة القاضي هي ما ورد في تقرير أصحاب الفضيلة أعضاء هيئة الخبراء الذين قاموا بالمعاينة الغير دقيقة جملة وتفصيلاً ومآخذي وملاحظاتي علـــيهم كـــثيرة والذين استندوا في تقريرهم للعقد في موضع وتجاهلوا العقد في مواضع أخرى كما هو في تقريرهم المرفق والغير منضبط كلياً .

وكذلك جاءت مبالغتهم وإجحافهم في تقديراتهم فكيف يقبل فضيلة القاضي حفظـــه الله تقدير إزالة الملحق القديم المتفق عليه والذي طوله **٣٠ متر في عرض ١٠ متر في ارتفاع ٦ متر بـــ ١٢ ألف ريال – وأزالت أرضية جزء من الملحق بطول ٣×٤م× ٠.٤٠ ســـم بمبلـــغ ١١.٨٠٠ ألف ريال** .

ثم ماهي التلفيات التي في المسبح في تقرير هيئة الخبراء ولماذا لم يذكروا عددها ومواضعها وأماكنها وإنما جاء ذكرها على العموم [**أي أنصاف لهذا التقدير والمعاينة فالتقوى واجبة**] .

ثم إن المدعي في صحيفة دعواه لم يأتي على ذكر أفياش الكهرباء وعلبها وعددها فمن أين أتت ٢٦ علبة كهرباء . أما أنه الحكم بشيء لم يطلبه المدعي ؟

وإذا قبلنا جدلاً أنها **٢٦ فيشة كهرباء فأجود أنواع علب الكهربـــاء لا تتجـــاوز ١٠ ريالات للواحدة فمن أين أتوا بمبلغ ١٥٦٠ ريال ؟**

إذاً ليس لي وجاهة في دفوعي عندما ذكرت أنني لم أخرج عن الحكم الشرعي المبني على العقد التفصيلي الذي بيننا .

ثم أنه أليس من حقي أن أحمل معي بعد خروجي من المترل كل ما يخصني من أثاث ولمبات وحابجيات والتي لم يتم الاتفاق على تركها أي ماكان وزنها وقيمتها .

ذكر فضيلة القاضي حفظه الله في ختام حكمه عندما طلبت منه بأن لي أشياء لم يمكـــنني المدعي من استلمها وعندي ما يثبت ذلك لدى إدارة الحقوق المدنية وأن فضيلة القاضي وفقه الله لا يريد تشعب القضية وليوضح لنا فضيلته كيف تتشعب القضية بمخاطبة إدارة الحقوق لتفيده بما لديها بهذا الخصوص .

أصحاب الفضيلة : أن فضيلة القاضي أيده الله بنصره قد اجتهد في حكمه في شيء منصـــوص ومتفق عليه بموجب العقد التفصيلي المرفق لديكم والقاعدة الشرعية تقول **[لا اجتهاد مع النص]**

أما إيجاد تبريرات ومخارج لتثبيت حكمه كيفما اتفق فهذا هو الشيء الذي لا يقبل مـــن فضيلته نهائيا وهو أحد الموقعين عن الله سبحانه وتعالى في أرضه في أحقاق الحق وإبطال الباطل .

ومن هذه التبريرات أن هذه الأعمال تمت بعد انتهاء العقد – وهذه من توابع المسبح وأن هناك تفريط – وأنه لا أثر لبحث المنع – ولعدم وجاهة دفوعي وغيرها .....

أصحاب الفضيلة : إن فضيلة القاضي سلمه الله قد حكم للمدعي بشيء لم يطلبه في صـــحيفة دعواه الملزم بما ورد بها وموقع عليها بأن المسبح له توابع بل حكم له بأكثر من ذلك بأن أفيـــاش الكهرباء وعلبها وعددها ٢٦ والتي لم يأتي المدعي على ذكرها في صحيفة دعواه .

أصحاب الفضيلة : إن العدل التي قامت عليه السموات والأرض هو المنشود للجميع فسواء كان الحكم لصالحي أو ضدي أطلب من فضيلتكم حفظكم الله زيادة تأمل ونظر وتبصر فلابد مـــن إعمال العقل والفكر في مثل هذه الأمور وأن يكون الحكم وفقاً للقواعد الشرعية .

فإما أن تكون دعواه محقة فيحكم له بها أو أنها دعوى مبنية على المبالغة والأرجاف فيخلى سبيلي منها .

وختاماً ورد عن الإمام أبي موسى الأشعري قوله : [لا يضرك أن قضيت في أمـــراً ثم راجعت أمرك وغيرت قضاءك فلا يضرك هذا فالرجوع للحق خير من التمادي في الباطل] .

والله أسأل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه وأن يرينا الباطل باطلاً وأن يرزقنا اجتنابه .

أصحاب الفضيلة : جعلكم الله مشعل نور وهداية وأجرى الحق والعدل على يديكم بإفهـــام فضيلة القاضي بالرجوع عن حكمه بما توجهونه إحقاقاً للحق وتطبيقاً للشرع . وصـــلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المعترض

خالد بن عبد الله القاسم

المرفقات :

١ – لائحة اعتراض على الحكم .

٢ – صورة عقد الإيجار .

٣ – صورة العقد التفصيلي .

المصادر المخطوطه :

- **ابن حبيب: الحسين بن عمر بن الحسين الحلبي** (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، **درة الأسلاك في دولة الأتراك**، مخطوط بجامعة أم القرى، رقم ٦، ٩٦٢ أ ح د.

- **الجزري: شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر** (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، **جواهر السلوك في الخلفاء والملوك**، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس، ميكروفيلم ٦٧٣٩- ف ب،نسخة مصورة في مكتبة الأستاذ الدكتور/عبدالله الغامدي.

- **جنابي: مصطفي بن حسن بن سنان بن أحمد الحسيني .**

العيلم الزاخر في أخبار الأوائل والأواخر،قطعة مصورة من هذا المخطوط بمكتبة الأستاذ الدكتور /عبدالله الغامدي

المصادر :

- ابن أبي الهيجاء:

(عــــز الــدين محمـــــد بن أبي الهيجاء بن محمد الهمــذاني الاربلـــي، ت ٧٠٠هــ/١٣٠١م) **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، تحقيق صبحي عبد المنعم محمــد، ط١، القاهرة، ١٤١٣هــ- ١٩٩٣م.

- ابن أجا:

(محمد بن محمود الحلبي، ت ٨٨١هــــ/١٤٧٦م) العــراك بـــين المماليــك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، تحقيق محمــد أحمد دهمان، دار الفكر، سوريا، ط١، ١٤٠٦هــ - ١٩٨٦م.

- ابن الأخوة:

(ضيــــاء الــدين محمـــد بن محمـــد بن أحمـــد بن أبي زيـــد القرشـــي، ت ٧٢٩هــ/ ١٣٢٨م) **معالم القربة في أحكام الحسبة**، تعليق إبـــراهيم شـــمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هــ - ٢٠٠١م.

- ابن إياس:

(محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، ت ٩٣٠هــ/١٥٢٤م)

١- **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى ج١، ٢، ٣، ٤، ط٢، القاهرة، الهيئة المصرية العامــة للكتــاب، ١٤٠٤هـــــ - ١٩٨٤م.

٢- **صفحات لم تنشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمــد مصطفى، القاهرة، دار المعارف،بدون تاريخ طبع.

- **ابن أيبك الدواداري:**

(أبو بكر بن عبد الله، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) **كنز الدرر وجامع الغرر، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر**، ج٩، تحقيق هانس روبرت رويمر، سامي الخانجي، القاهرة، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

- **ابن بطوطة:**

(عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواني ثم الطنجي، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب** الأسفار، بيروت، دار الشرق العربي، بدون تاريخ طبع.

- **ابن البيبي:**

(ناصر الدين يحيى بن محمد، ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) **تاريخ سلاجقة الروم**، تحقيق محمد علاء الدين منصور، من غير تاريخ طبع.

- **ابن تغرى بردي:**

(جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ت ٨٧٤/١٤٦٩م)

١- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٢- **الدليل الشافي على المنهل الصافي**، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ج١-٢، القاهرة، مكتبة الخانجي،١٩٣٨م.

٣- **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، تحقيق، فهيم محمد شلتوت، مصر، وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،

"لجنة إحياء التراث الإسلامي"، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٤- **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، حقق، ج١-٢، محمد محمد أمين وسعيد عاشور، وج٥-٣، نبيل محمد عبد العزيز، وج٤-٦-٧، محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

- **ابن تيمية:**

(تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م)

١- **الأموال المشتركة.** تحقيق ضيف الله الزهراني، مكة، مكتبة الطالب الجامعي، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٢- **ثلاث رسائل في الجهاد**، تحقيق محمد أبو صعيليك وإبراهيم العلي، عمان، دار النفائس، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٣- **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تحقيق الأستاذ سعيد عمران، القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٤- **الحسبة في الإسلام**، تحقيق سيد بن محمد بن أبي المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي

- **ابن تيمية:**

- **الأموال المشتركة.** تحقيق ضيف الله الزهراني

- **ثلاث رسائل في الجهاد**

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق الأستاذ سعيد عمران

سعدة

الحسبة في الإسلام،

سعدة، الكويت، مكتبة دار الأرقم، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٥- **الحسبة ومسئولية الحكومة الإسلامية**، تحقيق صلاح عزام،

القاهرة، مطبوعات الشعب، ط١، ١٩٧٦م.

٦- **رأس الحسين رضي الله عنه**،تقديم محمد جميل غازي، جدة، دار المدني، بدون تاريخ طبع.

٧- **الرسالة العرشية**، تحقيق عبد الحميد شانوحة، جدة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٨- **قواعد الأديان**،تحقيق إبراهيم محمد الجمل،الرياض،ط١،دار الرياض،،١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

٩-مجموعة الفتوى، أعتني بها وخرج أحادثيها عامر الجزار وأنور الباز الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، جـ١٤-١٥-.١٠

١٠- **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**، مطابع المجد،١٣٩٠هـ

١١- **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**،تحقيق عبد الباسط بن يوسف الغريب،الدمام،ط١٤٢١،١هـ/٢٠٠٠م.

- **ابن جبير:**

(محمد بن جبير الكناني الأندلسي، البلنسي، الشاطبي (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، **رحلة ابن جبير، بيروت، دار الشرق العربي**، بدون تاريخ طبع.

- **ابن جماعة:**

(محمد بن إبراهيم بن سعد القاضي بدر الدين، ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) **نظام إعداد الجيوش الإسلامي، (تجنيد الأجناد)، تنظيم - إدارة - رواتب، القاهرة**، دار البيان، بدون تاريخ طبع.

- **ابن الجوزي:**

(عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علـــي القرشـــي، ت ٥٩٧هـــ/١٢٠٠م) **صيد الخاطر، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض**، بيروت، لبنان، دار الكتــاب العربي، ط١٠، ١٤٢٢هــ-٢٠٠١م.

- **ابن الجيعان:**

(بدر الدين أبو البقاء محمد بـن يحيى بـن شـاكر بـن عبـد الغنـي، ت٩٠٢هــ/١٤٩٦م) **القــول المستظـــرف في سفر مولانا الملك الأشــرف** أو (رحـلة قايتباي إلى بلاد الشام، ٨٨٢هــ-١٤٧٧هــ)، تحقيـــق عمـــر عبد السلام تدمري، ط١،منشورات جروس برس، ١٩٨٤م.

- **ابن الحاج:**

(أبو عبد الله محمد بن محمد بـن محمـد العبـدري المـالكي الفاسـي، (ت ٧٣٧هــ/١٣٣٦م)، **المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها**، القــاهرة، مكتبـة دار التراث،بدون تاريخ طبع.

- ابن حبيب:

(حسن بن عمر بن الحسن بن عمر، ت ٧٧٩هــ/١٣٧٧م) **تذكرة النبيه فـي أيام المنصور وبنيه**، جــ١، ٢، ٣، تحقيــق محمــد محمــد أمــين وســعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٦م.

- **ابن حجر العسقلاني:**

(أحمد بن علي، ت ٨٥٢هــ/١٤٤٨م)

١- **إنباء الغمر بأنباء العمر**، تحقيق حسن حبشي، لجنة إحيــاء التــراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٨هــ-١٩٩٨م.

٢- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، ضبطه وصححه الشيخ عبــد الوارث محمد علي، بيروت، منشورات محمد علـــي بيضـــون،لبنان،

دار الكتب العلمية،ط١ ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٣- **رفع الإصر عن قضاة مصر**، قسم ١-٢، مجلد ١، تحقيق حامد عبدالمجيد، محمد المهدي أبو سنة، محمد إسماعيل الصاوي، مراجعة إبراهيم الإبياري ،القاهرة ،بدون تاريخ طبع.

- **ابن حزم الظاهري:**

(أبي محمد علي بن أحمد، ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م) **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ج١-٢، وبهامشه، **الشهر ستاني** (أبي الفتح محمد بن عبدالكريم) الملل والنحل، ج١-٢، دار الفكر، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

- **ابن حجي:**

(شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجي السعدي الحسباني، ت٨١٦هـ/١٤١٣م)، **تاريخ ابن حجي**، تحقيق أبي يحيى عبد الله الكندري، لبنان، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

- **ابن الحمصي:**

(أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري، ت ٩٤٣هـ/١٥٢٧م) **حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران**، جـ١، ٢، ٣، تحقيق عبد العزيز فياض حرفوش، ط١، بيروت، دار النفائس، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

- **ابن خطيب الناصرية:**

الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب،ج١،تحقيق فهد بن علي الحارثي ،رسالة ماجستير لم تطبع،جامعة أم القرى،١٤٣٠هـ.

- **ابن خلدون:**

(عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م).

١- **تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر**، مجلد

الأول، دار الكتاب العلمية، بيروت، تحقيق خليل شحادة، ومراجعة سهيل زكار،بيروت،١٤٠٤هـ/١٩٨١م.

٢- **رحلة ابن خلدون**،عارضها بأصولها وعلق على حواشيها،محمدبن تاويت الطنجيي،ط١،بيروت،١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٣- **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق درويش الجويدي، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

- **ابن دقماق:**

(إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)

١- **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، قسم دار الآفاق الجديدة، بيروت،،١٣١٠هـ/١٨٩٣م.

٢- **الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين**، تحقيق سعيد عاشور، مكة المكرمة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث، بدون تاريخ طبع.

٣- **نزهة الأنام في تاريخ الإسلام**، تحقيق سمير طبَّاره، ط١، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

- **ابن رجب:**

(زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد، ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) **الذيل على طبقات الحنابلة**، مكة المكرمة، الفيصلية،بدون تاريخ طبع.

- **ابن زنبل:**

(أحمد الرمال، ت ٩٦٠هـ/١٥٥٢م) **آخره المماليك أو واقعة السلطان**

الغوري مع سليم العثماني، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

- **ابن الشحنة:**

(عفيف الدين حسين بن محمد بن محمد، ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م)

١- **البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر "محمد بن قايتباي"**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢- **الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، تقديم عبد الله محمد الدرويش، دمشق، دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

- **ابن شاهين الظاهري:**

(زين الدين عبد الباسط بن خليل، ت ٩٢٠هـ/١٥١٤م)

١- **نيل الأمل في ذيل الدول**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٢- **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تحقيق بولس **داويس**، مطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٣م.

- **ابن شاهين الملطي:**

(عبد الباسط بن خليل، ت ٩٢٠هـ/١٩١٤م)، **نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين**، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، ط١، مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- **ابن شداد:**

(أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم، ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين**، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤م.

- **ابن صصري:**

(محمد بن محمد) **الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية**، تحقيق وليم م. بريز، جامعة كالفورنيا، بركلي، ١٩٦٣م.

- ابن الطولوني:

(الحسن بن حسين بن أحمد، ت ٩٢٣هـ/١٥١٧م) **النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية (أخبار الخلفاء)**، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، بيروت، عالم الكتاب، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- **ابن طولون:**

(محمد بن علي بن أحمد ابن طولون الصالحي الحنفي، ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م).

١- **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، تحقيق محمد أحمد دهمان، ط٢، دمشق، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

٢- **مفاكهة الخلان في حوادث الأزمان تاريخ مصر والشام**، القسم الأول لتحقيق محمد مصطفى، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، القسم الثاني تحقيق محمد مصطفى، القاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

- **ابن عبد السلام:**

(عز الدين عبد العزيز، ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) **أحكام الجهاد وفضائله**، تحقيق نزيه حماد، دار الوفاء للنشر، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- **ابن عبد الظاهر:**

(محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين، ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)

١- **الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية**

١٩٠٢، م.

١-**الروض الزاهر في سيرة الملــك الناصــر**، تحقيــق عبــد العزيــز الخويطر، ط١، الرياض، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.

٢- **تشريف الأيام والعصور في سيرة الإمام الملك المنصــور**، تحقيــق مراد كامل، مراجعة محمد على النجار، القاهرة، الشــركة العربيــة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦١م.

- **ابن العبري:**

(أبي الفرج جمال الدين، ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)

١- **تاريخ مختصر الدول**، وضع حواشيه خليل المنصــــور، بيــروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

- **ابن العديم:**

(كمال الدين عمر بن أحمد ابن أبي جرادة، ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م).

١-**بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق، تحقيــق ســهيل زكــار، دمشــق، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٢-**زبدة الحلب في تاريخ حلب**، تحقيق سامي الــدهان، دمشــق، المعهــد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، ١٣٧٠هـ-١٩٥١م.

- **ابن عر بشاه:**

(أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشــقي، ت ٨٥٤هـــ/١٤٥٠م)، عجائب المقدور في أخبار تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي، ط١، بيــروت، ١٤٠٧هـ/١٩٦٨م.

- **ابن العماد الحنبلي:**

(أبي الفلاح عبد الحي، ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، مجلد ١-٢-٣-٤،بدون تاريخ طبع.

- **ابن الفرات:**

(ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) **تاريخ ابن الفرات**،ج٨-٩ تحقيق قسطنطين زريق، ج٨، تحقيق قسطنطين زريق و نجلاء عز الدين، بدون تاريخ طبع.

- **ابن فضل الله العمري:**

(شهاب الدين أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).

١- **التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢-**مسالك الأبصار في مماليك الأمصار**، ج١،تحقيق أيمن فؤاد السيد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، بدون تاريخ طبع.

- **ابن الفوطي:**

(كمال الدين عبد الرزاق، ت ٧٢٣هـ/١٣٣١م) **كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، لمؤلف من القرن الثامن الهجري**، تحقيق بشار عواد معروف وعماد عبد السلام رؤوف، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م.

- **ابن القيم الجوزية:**

(شمس الدين محمد بن أبي بكر، ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م)، **أحكام أهل الذمة**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعيد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

- **ابن قنفذ القسنطيني:**

(أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) **كتاب الوفيات**، تحقيق عادل نويهض، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٤، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- **ابن كثير:**

(أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)

١-**البداية والنهاية**، اعتني بهذه الطبعة ووثقها عبد الرحمن اللادقي ومحمد غازي بيصقون، مجلد ٧، ج ١٣-١٤، بيروت، دار المعرفة، ط٦، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٢-**كتاب الاجتهاد في طلب الجهاد** .تحقيق سهيل زكار،**ضمن كتاب أربعة كتب في الجهاد من عصر الحروب الصليبية** ، دمشق، التكوين، ٢٠٠٧م.

- **ابن المغيزل:**

(نور الدين علي بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب الملكي المظفري، ت٦٩٦هـ/١٢٩٦م) **ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب** ،تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، ببيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

- **ابن المقفع:**

(ساويرس، أسقف الأشمونين) **تاريخ البطارقة**، المجلد ٣، من البطريرك مقارنة الثاني ١١٠٢م إلى البطريرك كيرلس الخامس ١٨٩٥م، أعدها للنشر للدارسين بمعهد الدراسات القبطية الراهب صموئيل السرياني.

- **ابن مماتي:**

(الأسعد بن مماتي، ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، **كتاب قوانين الدواوين**، جمعة

وحققه عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- **ابن منظور:**

(محمد بن مكرم بن منظور، ت ٧١١هـ/١٣١١م) **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ط١،بدون تاريخ طبع.

- **ابن ناظر الجيش:**

(تقي الدين عبد الرحمن بن محمد التميمي الحلبي، ت ٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، **كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق رودلف قسلي، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، بدون تاريخ طبع.

- **ابن واصل:**

(جمال الدين محمد بن سالم، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، ج٤، تحقيق ، سعيد عبد الفتاح عاشور، حسنين محمد ربيع، دار الكتب، ١٩٧٧م.

- **ابن الوردي:**

(زين الدين عمر بن مظفر، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) **تاريخ ابن الوردي**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٨، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

- **ابن الوكيل:**

(يوسف اللمواني، ت ١١٣١هـ/١٧١٩م) **تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب**، تحقيق محمد الششتاوي، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

- **الأدفوى:**

(كمال الدين جعفر بن ثعلب ،ت٧٤٨هـ) **الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد**،تحقق سعد محمد حسن ،مراجعة د.طه الحاجرى،القاهرة،الهيئة

المصرية العامة للكتاب،ط٢، ٢٠٠٠م.

- **الأنباري:**

(كمال الدين عبد الرحمن بن محمد، ت ٥٧٧هـ/١١٨١م) **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

- **أوزتونا. يلماز:**

تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ترجمة عدنان محمود سلمان، تحقيق محمود الأنصار، استانبول، مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٨٨م.

- **أبو داود:**

(سليمان بن الأشعت السجستاني الأزدي، ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م)، سنن أبي داود، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- **أبو شامة:**

(شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل، ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)

١- **الباعث على إنكار البدع والحوادث**، تحقيق بشير محمد عبوات، الطائف، مكتبة المؤيد، ط١، دمشق، مكتبة دار البيان. ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

٢-**تراجم رجال القرنين السادس والسابع**، المعروف بالذيل على الروضتين، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.

- **أبو الفداء:**

(المؤيد عماد الدين إسماعيل، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)

١- **المختصر في أخبار البشر**، ج٣-٤، مجلد٢، بيروت، دار المعرفة،بدون تاريخ طبع.

٢- **كتاب تقويم البلدان**؛ صححه رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، بيروت، دار صادر، ١٨٥٠م.

- **أبو الفضائل:**

(محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي اليمـــاني، ت ٤٧٠هــــ/١٠٧٧م) **كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة وبقية مــذهبهم وبيـــان اعتقـــادهم، تحقيق** محمد عثمان الخُشت، القاهرة، مكتبة ابن سينا،بدون تاريخ طبع.

- **البرزالي:**

(القاســم بـــن محمـــد بـــن يوســـف البرزالـــي الإشـــبيلي الدمشـــقي، ت ٧٣٩هــ/١٣٣٨م)، المقتفي علـــى كتـــاب الروضـــتين المعـــروف بتـــاريخ البرزالي، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، بيروت المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٧هــ/٢٠٠٦م.

- **البصروي:**

(علاء الدين علي بن يوسف بن أحمد الدمشقي، ت ٩٠٥هــ/١٤٩٩م) **تـــاريخ البصروي**، تحقيق أكرم حسن الجُلَـــي، دمشـــق، دار الثقافـــة العربيـــة، ط١، ١٤٠٨هــ-١٩٨٨.

- **البغدادي:**

(صفي الدين عبد المؤمن بن عبـــد الحـــق، ت ٧٣٩هـــــ/١٣٣٨م) **مراصـــد الإطلاع على أسماء الأمكنـــة والبقـــاع**، تحقيـــق علـــى محمـــد البجـــاوي، القاهرة،مطابع عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٣هــ-١٩٥٤م.

- **بيبرس الدوادار:**

(ركن الدين بيبـــرس بـــن عبـــد الله المنصـــوري الناصـــري الـــدوادار، ت ٧٢٥هــ/١٣٢٤م)

١- **كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية تـــاريخ دولـــة المماليـــك البحرية في الفترة من ٦٤٨-٧١١ هــ**، نشرة وقـــدم لـــه ووضـــع فهارسه عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة، الدار المصرية اللبنانيـــة، ط١، ١٤٠٧هــ-١٩٨٧م.

٢- **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (عصر سلاطين المماليـــك)** تحقيـــق

زبيدة محمد عطا، ج٩، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،بدون تاريخ طبع.

٣- **مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ)** تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط١، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣.

- **الحنبلي:**

(أحمد بن إبراهيم، ت ٨٧٦هـ/١٤١٧م) **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، تحقيق مديحة الشرقاوي، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ/١٩٩٦م.

- **الحنبلي:**

(مجير الدين الحنبلي) **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مكتبة الجيل، ١٩٧٣م.

- **الجبرتي:**

(عبد الرحمن بن حسن) **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق عبدالرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ج١، مكتبة الأسرة،بدون تاريخ طبع.

- **الجزيري:**

(عبد القادر بن محمد بن عبد القادر، ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) **الدور الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة**، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، ط١، ١٤٠٣هـ.

- **الذهبي:**

(أبو عبد الله شمس الدين محمد، ت ٧٤٨هـ-١٣٧٤م)

١- **تذكرة الحفاظ** ، ج٤، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية،بدون تاريخ طبع.

٢- **دول الإسلام**، بيروت، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٣- **ذيل تاريخ الإسلام**، اعتني به مازن بن سالم باوزير، ط١، المملكة العربية السعودية، دار المغُني للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٤- **سير الأعلام النبلاء**، بيروت، مؤسسة الرسالة، مجموعة من المحققين، ط١١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م،.

- الرماح:

(نجم الدين حسن، ت ٧٣٨هـ/١٣٣٧م) **الفروسية والمناصب الحربية**، تحقيق أحمد يوسف الحسن، حلب معهد التراث العلمي العربي، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- زين الدين بن زين التقاة:

(محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي الحنبلي، ت١١٥٣هـ/١٧٤٠م) **المواكب الإسلامية في الممالك الشامية**، تحقيق أيمن عبد الجابر البحيري، ط١، القاهرة، دار الآفاق العربية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

- الزردكاش:

(ابن ارنبغا، ت ٨٦٧هـ/١٤٦٢م)، **الأنيق في المناجنيق**، تحقيق إحسان هندي، حلب، معهد التراث العلمي العربي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- السبكي:

(تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، ت ٧٧١هـ-١٣٦٩م)

١- **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق محمود محمد الطناجي، عبد الفتاح محمد الحلو، ١٠ أجزاء، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية ،بدون تاريخ طبع.

٢- **معيد النعم ومبيد النقم**،تحقيق محمد النجار، أبو زيد شلبي،محمد أبو العنين،القاهرة ،بدون تاريخ طبع.

- **السخاوي:**

(محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)

١- **التبر المسبوك في ذيل السلوك**، تحقيق نجوى مصطفى كامل ولبيبة إبراهيم مصطفى، ج١، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٢- **الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة**، تحقيق جودة هلال، محمد محمود صبح، مراجعة على البجاوي،بدون تاريخ طبع.

٣- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي،القاهرة ،بدون تاريخ طبع.

٤- **وجيز الكلام في الذيل على دُول الإسلام**، تحقيق بشار عواد معروف، عصام فارس الحرستاني، أحمد الخطيمي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

- **السيوطي:**

(جلال الدين بن أبي بكر، ٩١١هـ/١٥٠٥م)

١- **تاريخ الخلفاء**، **تحقيق** حمدي الدمرداش محمد، ط١، مكة المكرمة،

نزار مصطفى الباز، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٢- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤١٨هـ-١٩٩٨.

٣- **نظم العقيان في أعيان الأعيان**، حررَّه فيليب حتى، بيروت، المكتبة العلمية، ١٩٢٧م.

- **شافع بن علي:**

(ناصر الدين شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل بن عساكر الكناني، المصري، ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م) **حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية**، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، ط١، الرياض، أوفست مطابع القوات المسلحة السعودية، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.

- **الشرقاوي:**

(عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الأزهري، ت) **تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين**، تحقيق رحاب عبد الحميد القاري، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

- **الشيرزي:**

(عبد الرحمن بن نصر، ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) **كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني**، بيروت، دار الثقافة، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

- **شيخ الربوة:**

(شمس الدين محمد بن أبو طالب الأنصار، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) **نخبة الدهر في عجائب البر** والبحر، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة ٢،

١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

- **الصفدي:**

(صلاح الدين خليل بن ايبك، ت ٧٦٤هـ/١٣٢٦م) **كتاب الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرنأووط، تركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

- **الصيرفي:**

(علي بن داود الجوهري، ت ٨٤٢هـ/١٤٣٨م) **نزهة النفوس والأبدان**، تحقيق حسن الحبشي، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

- **الطبري:**

(أبي جعفر محمد ابن جرير، ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) **تاريخ الرسل والملوك**، ج٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٥، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٢م.

- **العبدري:**

(أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود، ت بعد ٧٠٠هـ/١٣٠٠م) **رحلة العبدري** ، تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، ط١، دمشق، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- العيني:

(محمود بن أحمد المعروف بالبدر، ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)

١- **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر "ططر"**، تحقيق هانس أرنست، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢م.

٢- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق محمد محمد أمين، ط١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ج٤ .

٣- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، حوادث وتراجم السنوات من

(٨١٥هـ/ ٨٢٤هـ). تحقيق عبد الرازق الطنطاوي القرمُوط، ط١، القاهرة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.

- **الفاسي:**

(تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م) **العقد الثمين في تاريخ البلد الآمين**، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م.

- **القزويني:**

(زكريا بن محمد بن محمود، ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، **آثار وأخبار العباد**، بيروت، دار صادر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

- **القلقشندي:**

(أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

١- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، بيروت، دار الكتب العلمية، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين.

٢- **مآثر الأنافة في معالم الخلافة**،ج٢، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، عالم الكتب .

- **مؤلف مجهول:**

١- **تاريخ الملك الأشرف قايتباي**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

-**مؤلف مجهول:**

٢- **خزانة السلاح**، تحقيق محمد عبد العزيز، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨م.

- **الماوردي:**

(أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، ط١، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠م.

- **المحامي:**

(محمد فريد بك) **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

- **مسلم:**

(أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري،ت٢٦١هـ/٨٧٤م)

صحيح مسلم ،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي،بيروت،دار إحياء التراث العربي .

- **المقريزي:**

(تقي الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)

١- **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، قدم له وعلق عليه ياسر سيد صالحين، القاهرة، مكتبة الآداب،١٩٩٩م.

٢- **تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريزي**، دارسة وتحقيق عبد المجيد دياب، القاهرة، دار الفضيلة.١٩٩٨

٣- **تاريخ اليهود وآثارهم في مصر**، تحقيق عبد المجيد دياب، القاهرة، دار الفضيلة.

٤- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٢، القاهرة،١٣٧٦م.

٥- **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، وضع حواشيه خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٦- **كتاب المقفى الكبير**، تحقيق محمد اليعلاوي، بيــروت، دار الغــرب الإسلامي، ط٢، ١٤٢٧هـــ-٢٠٠٦م.

- **النعيمي:**

(عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، ت ٩٢٧هـــ/١٥٢٠م)، **الدارس فـــي تاريخ المدارس**، تحقيق جعفر الحسيني، واستدراكات الدكتور صـــلاح الـــدين المنجد، ١٩٨٨م.

- **النويري:**

(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـــ/١٣٣٢م)، **نهاية الأرب فـــي فنون الأدب**، ح٢٩- ٣١،تحقيق نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فـــواز، ح٣٢-٣٣، تحقيق إبراهيم شمس الدين.

- **النويري الإسكندراني:**

(محمد بن قاسم بن محمد، ت ٧٧٥هـــ/١٣٧٢م)، **كتاب الإلمام بالإعلام فيمـــا جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعـــة الإســـكندرية**، تحقيـــق عزيـــز سوريال عطية،وإتيين كومب،١٣٨٨هـــ/١٩٦٨م.

- **النوبختي:**

(أبو الحسن محمد بن موسى، من أعلام القـــرن الثالـــث الهجـــري)، **فـــرق الشيعة**، علق عليه محمـــد صـــادق بحـــر العلـــوم، ط٤، النجـــف الأشـــرف، ١٣٨٨هـــ/١٩٦٩م.

- **الونشريسى:**

(أحمد بن يحي، ت ٩١٤هـــ/١٥٠٨م) **الولايـــات**، تحقيق يحي حمزة عبدالقادر الوزنة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

- **ياقوت الحموي:**

(شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومـــي البغــدادي، ت ٦٢٦هــ/١٢٢٨م)،**معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٩٦م.

- **اليوسفي:**

(موسى بن محمد بن يحي اليوسفى، ت ٧٥٩هــ/١٣٠٨م) **نزهة الناظر فـــي سيرة الملك الناصر**، تحقيق أحمـــد حطـــيط، ط١، بيـــروت، عـــالم الكتـــب، ١٤٠٦هــ-١٩٨٦م.

- **اليونيني:**

(قطب الدين موسى بن محمد، ت ٧٢٦هــ/١٣٢٦م) **ذيل مرآة الزمـــان**، ط٢، القاهرة، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ١٤١٣هــ-١٩٩٢م.

المراجـــع :

- **أبو راس: عبد الرحمن أمين صادق**

شيخ الشيوخ بالديار المصرية في الدولتين الأيوبية والمملوكية، دراسة تاريخية حضارية، القاهرة، - عالم الفكر-، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- **أبو عليان: عزمي عيد محمد.**

مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، الأردن، دار النفائس، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

- **الأشقر: محمد عبد الغنى.**

١- **سلار الأمير التتري المسلم، نائب السلطنة المملوكية في مصر**، ط١، القاهرة، مكتبة المدبولي، ٢٠٠٠م.

٢- **نائب السلطنة المملوكية في مصر (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)**، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٣- **الملحمة المصرية عصر المماليك الجراكسة ورد الاعتبار في عهد برسباي، (٦٦٧-٨٢٩هـ/١٣٦٥-١٤٢٦م)**، القاهرة، مكتبة المدبولي، ط١، ٢٠٠٢م.

- **أحمد: نريمان عبد الكريم.**

معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، ١٩٩٦م.

- **إسماعيل: محمود.**

المهمشون في التاريخ الإسلامي، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.

- **اسكندر: (فايز نجيب)**

١- **مصر في كتابات الحجاج الروس في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، الإسكندرية**، دار الفكر الجامعي، بدون تاريخ طبع.

٢- **أرمينيا بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ٣٩٢-٤٦٣هـ/١٠٧١م**، في مصنف أريستاكيس اللستيفرتي، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

- **إمام: عبد الله**

جيهان سيدة مصر الأولى والأخيرة، القاهرة. روز اليوسف، ١٩٨٥م.

- **أمين: محمد محمد**

الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠/١٥١٧م، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٠م.

- **الباشا: حسن**

١ــ **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار**، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٨م.

2 - الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، دار النهضة العربية، بدون تاريخ طبع.

٣-**مدخل الآثار الإسلامية، القاهرة**، دار النهضة المصرية، ١٩٩٨م.

- **البدري: عبد العزيز**

الإسلام بين العلماء والحكام، بيروت، لبنان، منشورات عالم الشباب،

١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- **بدوى: (أحمد أحمد)**

الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة، دار نهضة مصر، ط٢.

- **بحر: مجدي عبد الرشيد**

القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٩٩م.

- **البقلي: محمد قنديل**

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

- **البطاوي: حسن أحمد**

أهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ط١، ٢٠٠٧م.

- **البنا: عبد الحافظ عبد الخالق**

أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ط١، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

- **البنداق: محمد صالح**

التقويم الهادي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- **بيومي: زكريا سليمان**

قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين "التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي"، عالم المعرفة، جدة، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

- **التابعي: محمد**

السفارات في الإسلام، القاهرة، مكتبة مدبولي، من غير تاريخ طبع.

- **الجبر: موفق فوزي**

حكام دمشق.

- **الجعوان: محمد بن ناصر بن عبد الرحمن**

القتال في الإسلام أحكامه وتشريعاته دراسة مقارنة، الرياض، مطابع المدينة، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- **جلال: آمنة حسين محمد علي**

طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٨-١٥١٧م)، جدة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

- **الجندي: أنور**

تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

- **الجنزوري: عليه عبد السميع**

١- **إمارة الرها الصليبية**، القاهرة، ١٩٨٦م.

٢- **الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى**، القاهرة، ١٩٧٩م.

- **الجورانة: أحمد**

تاريخ الأردن في العصر المملوكي، الأردن، منشورات الجنة تاريخ الأردن.

- **حبشي: حسن**

٣- **نور الدين محمود والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨م.**

٤- **الحرب الصليبية الأولى**، القاهرة، ١٩٥٨م.

- **حتى: فليب**

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جديع حداد وآخرون، مراجعة جبرائيل صبور، بيروت، ١٩٨٢م.

- **حسن: على إبراهيم**

نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، مصر، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨١م.

- **حسن: حسن إبراهيم**

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٤، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٩٦٧م.

- **الحجي: حياة ناصر**

العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية، في القرنين الثامن والتاسع الهجري الرابع والخامس عشر الميلادي، ط١، الكويت، ١٩٨٠م.

- **حمزة: عادل عبد الحافظ**

نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م/٦٤٨-٩٢٣هـ)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- **الخربوطلي: علي حسني**

الحضارة العربية الإسلامية، ط٢، القاهرة، ١٩٧٥م.

- **خفاجي: محمد عبد المنعم**

الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثمـــاني، القـــاهرة، مكتبـــة الكليات الأزهرية، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

- **الخلفات: جمال يوسف وبهاء الدين محمد أسعد**

العسكرية الإسلامية وقادتهـــا العظـــام، مكتبـــة المنـــار، الأردن، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- **خليل: عماد الدين**

١- **عماد الدين زنكي**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٢- **نور الدين محمد الرجل والتجربة**، دمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- **الخويطر: عبد العزيز عبد الله**

الملك الظاهر بيبرس، الرياض، دار الكتـــاب الجـــامعي، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

- **دراج: أحمد السيد**

الكعبـــة المشـــرفة ســـرة الأرضـــى وســـط الـــدنيا، ط١، القـــاهرة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

- **دهمان: محمد أحمد**

معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دمشق، دار الفكـــر، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

- **ربيع: حسنين محمد**

دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- **رزق: علاء طه**

١- **السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك**، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٢م.

٢- **عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك**، القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

- **الرفاعي: أنور**

النظم الإسلامية، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٣٩٣هـ-١٩٨٣م.

- **رمضان: رمضان أحمد**

شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

- **زامل: مريم عبد الرحمن عبد الله**

موقف ابن تيمية من النصرانية، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- **الزحيلي: محمد**

العز بن عبد السلام سلطان العلماء، وبائع الملوك، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

- **الزركلي: خير الدين**

الأعلام. بيروت، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

- **زقلمة: أنور**

المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

- زكى: عبد الرحمن

١- **الجيش المصري في العصر الإسلامي من عين جالوت إلى رشيد [١٢٦٠-١٨٠٧]** ، القاهرة، مطبعة الكيلاني، بدون تاريخ طبع.

٢- **قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار**. القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

- **زيادة: محمد مصطفى**

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، القاهرة، **١٣٨١هـ-١٩٦١م.**

- **سالم: السيد عبد العزيز**

طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٦٦م.

- **سليمان: أحمد عبد الكريم**

تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة مع ترجمة مقال الكاتب اللاتيني "ي ميجنا نللي" عن حياة تيمورلنك، ط١، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- **سبانو: أحمد غسان**

مملكة حماة الأيوبية، دمشق، دار قتيبة، ٢٠٠٠م.

- **سرور: محمد جمال الدين**

١- **دولة بني قلاوون في مصر، الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص**، القاهرة، دار الفكر العربي.

٢- **دولة الظاهر بيبرس في مصر**،القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٠م.

- **السامرائي: حسام الدين**

المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية، ط٢، ١٤٠٣هـ.

-**السامرائى:نعمان عبد الرزاق.**

في التفسير الإسلامي للتاريخ ،الزرقاء،ط١٤٠٦،١هـ/١٩٨٥م.

- **سعداوي: نظير حسان**

صور ومظالم من عصر المماليك، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦م.

- **السيد: إبراهيم علي الدين**

تاريخ الأيوبيين والمماليك، الرياض، دار النشر الدولي، الطبعة ١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

- **السيد: محمود**

تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٧م.

- **الشربيني: البيومي إسماعيل**

مصادرة الأملاك في الدولة المملوكية "عصر سلاطين المماليك"، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم (١)، ١٩٩٧م.

- **شلبي: أبو زيد**

الخلفاء الراشدون، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

- **شلبي: رؤف**

أضواء على المسيحية "دراسة في أصول المسيحية"، بيروت، ١٩٧٥م.

- **الشيخ عيد: يوسف إبراهيم**

أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، عمان، ١٤١٩هـ.

- **صبره: عفاف سيد**

العلاقات بين الشرق والغرب، علاقة البندقية بمصـــر والشـــام، القـــاهرة، ١٩٨٣م.

- **الصياد: فؤاد عبد المعطي**

المغول في التاريخ، بيروت، دار النهضة، ١٩٨٠م.

- **الطراونة: طه ثلجي**

مملكة صَفَد في عهد المماليـــك، بيـــروت، دار الآفـــاق الجديـــدة، ط١، ١٤٠٢هـــ-١٩٨٢م.

- **طقوش: محمد سهيل**

تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشـــام، بيـــروت، دار النفـــائس، ط ٢، ١٤٢٠هـــ-١٩٩٩م.

- **عاشور: سعيد عبد الفتاح**

١- **بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ســـلطنة المماليـــك ومملكة أرمينية الصغرى**،بيـــروت، جامعـــة بيـــروت العربيـــة، ١٩٧٧م.

٢- **أورُبا العصور الوسطى**، القاهرة، مكتبة الأنجلـــو المصـــرية، ط ١٠، ١٩٨٦م.

٣- **الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربـــي فـــي العصور الوسطى**، ج٢، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصـــرية، ط٣، ١٩٧٦م.

٤- **بحوث ودراسات في تـــاريخ العصـــور الوســـطى، الإمبراطـــور فردريك الثاني والشرق العربي**، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٧م.

٥- **العصر المماليكي في مصـــر والشـــام**، القـــاهرة، دار النهضـــة

العربية، ط٢، ١٩٧٦م.

٦- **قبرص والحروب الصليبية**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م.

٧- **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، القاهرة، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٦٢.

٨- **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**، بيروت، دار النهضة العربية.

- **عاشور: فايد حماد**

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، القاهرة، دار المعارف.

- **العبادي: أحمد مختار والسيد عبد العزيز سالم**

تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت، دار الأحد (البحيري أخوان)، ١٩٧٢م.

- **العبادي: أحمد مختار**

١- **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- **العبدلي: عائشة مانع عبيد**

إمارة الحج في عصر الدولة المملوكية وأثرها على الأوضاع الداخلية بمكة المكرمة (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٨-١٥١٧م)، جدة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

- **العبد الجادر: عادل سالم**

الإسماعيليون كشف الأسرار ونقل الأفكار.

- **العبده: محمد**

رسائل الإمام ابن تيمية من السجن (٦٦١-٧٢٨هـ)، الرياض، دار طيبة، ط٤، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- **عبد الرزاق: أحمد**

المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

- **عبد الفتاح: صفاء حافظ**

المواني والثغور المصرية من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة، بدون تاريخ طبع.

- **عدوان: أحمد محمد**

١- **دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية (٤٩١-٦٩٢هـ/١٠٩٧-١٢٩٢م)**، الرياض، الجمعية التاريخية السعودية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٢- **العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي**، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

- **عريكيز: جمال محمد سالم**

فقهاء الشام في مواجهة الغزو الصليبي، القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

- **العريني: السيد الباز**

١- **المغول**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢- **المماليك**، بيروت، دار النهضة، بدون تاريخ طبع.

- **عشري: عثمان عبد الحميد**

الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية (٤٩١-٦٩١هـ/١٠٩٧-١٢٩٠م)، المكتبة التاريخية، ١٩٨٢/١٩٨٣م.

- **عطا: السيد محمد أحمد**

إقليم الغربية في عصر الأيوبيين والمماليك، دراسة تاريخية وحضارية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

- **العلبي: أكرم حسن العلبي**

١- **تيمورلنك وحكايته مع دمشق**، دار المأمون للتراث، دمشق، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٢- **دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٠م)**، دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية، دمشق، الشركة المتحدة، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

- **عمران: محمود سعيد**

تاريخ الحروب الصليبية،الإسكندرية ،١٩٩٦م.

٢-**الحملة الصليبية الخامسة** ،الإسكندرية،١٩٨٥م

- **عوض: محمد مؤنس**

١- **الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى**، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

٢- **في الصراع الإسلامي، معركة أرسوف ١١٩١م-٥٨٧هـ**، ط١، القاهرة، ١٩٩٧م.

- **عيد: محمد خير**

الإمارة الرمضانية التركمانية أولاد رمضان، دمشق، ٢٠٠٦م.

- **الغامدي: عبد الله سعيد**

١- **جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين**، مطابع جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٠هـ.

٢- **صلاح الدين والصليبيون "استرداد بيت المقدس"**، مكة المكرمة، مكتبة الفيصلية، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٣- **مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود**، مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ط١، ١٤١٤هـ.

- **الغامدي: علي محمد**

١- **بلاد الشام قبيل الغزو المغولي (٥٨٩-٦٥٧هـ/١١٩٣-١٢٥٩م)**، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢- **بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي**، مكة الكرمة، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٣- **أنطالية في عصر الحروب الصليبية**، ط١، مكة المكرمة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

- **غانم: حامد زيان**

الأزمات الاقتصادية في مصر، عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

- **غوانمه: يوسف درويش**

١- **التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي**، عمـــان، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٢م.

٢- **إمارة الكرك الأيوبية**، عمان، دار الفكر، الطبعة ٢، ١٤٠٢هـــ.

٣- **التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي، (المماليك البحرية)**، عمان، دار الفكر، الطبعة ٢، ١٩٨٢م.

٤- **تاريخ نيـــــابة بيت المقـــــدس في العصر المملـــوكي**، الأردن، دار الحياة، ١٩٨٢م.

- فرغلي: أبو الحمد محمود

الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، ط١، القاهرة، ١٤١١هـــ/١٩٩١م.

- فهمي: عبد السلام

الدولة المغولية في إيران، القاهرة، ١٤٠١هـــ-١٩٨١م.

- فهمي: نعيم زكي

طرق التجارة الدولية ومحطاتها في الشرق والغرب، (أواخـــر العصـــور الوسطى) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

- فهيم: محمود نديم أحمد

الفن الحربي للجيـــــش المصري فـــي العصـــــر المملـــوكي البحـــري (٦٤٨-٧٨٣هـــ/١٢٥٠-١٣٨٣م)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

- الفوزان: صالح بن فوزان بن عبد الله

شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ((رحمـــه الله)) ،

الرياض، مكتبة المعارف، ط٦، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

- **قاسم: قاسم عبده**

١- **أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك (دراسة وثائقية)**، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٣م.

٢- **عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

٣- **في تاريخ الأيوبيين والمماليك القاهرة**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٣م.

٤- **اليهود في مصر منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٠م.

- **قاسم: قاسم عبده وعلي السيد علي**

الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط٢، ١٩٩٦م.

- **القرني: عائض**

على ساحل ابن تيمية، الرياض، مكتبة العبيكان، ط٣، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

- **الكناني: مصطفى حسن**

العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الإسلامي، القاهرة، ١٩٨١م.

- **اللحيدان: صالح**

الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفع، الرياض، ١٣٦٧هـ.

- ماجد: عبد المنعم

١- **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسـطى**، ط٣، القاهرة، ١٩٧٣م.

٢- **طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر**، مكتبـة الأنجلـو المصرية،القاهرة، ١٩٧٨م.

٣- **نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فـي مصـر**، القـاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة، ١٩٦٧م.

- **مالكي: سليمان عبد الغني**

الطبريون مؤرخوا مكة، انشطتهم التعليمية وظائفهم في الحـرم خـلال القرن الثامن، القاهرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

- **محسوب: محمد صبري**

العالم العربي دراسة جغرافية، القاهرة، دار الفكـر، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

- **محمود: سلام شافعي**

أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.

- **محمود: علي عبد الحليم**

الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، الرياض، عكـاظ، ط٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

- **المحيميد: علي بن صالح**

المغول في آسيا الصغرى. ط١، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

- **مداح: أميرة بنت علي**

نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية، دار الحارثي للطباعة والنشـــر، الطائف، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

- **المزيني: إبراهيم بن محمد الحمد**

التعامل مع الآخر "**شواهد تاريخية من الحضارة الإسلامية**"، الريـــاض، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

- **مسعد: سامية مصطفى**

المغاربة ودورهم الثقافي في مصر عصر سلاطين المماليـــك، القـــاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٢م.

- **المشهداني: محمد جاسم**

تاريخ إمارة بني منقذ العربيـــة (٤٧٤-٥٥٢هـــ/١٠٨٠-١١٥٨م)، بغداد، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- **مقامي: نبيلة إبراهيم**

فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالـــث عشر، القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، ١٩٩٤م.

- **المقدم: محمد عبد الله**

الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة، زمن الحروب الصـــليبية، القـــاهرة، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

- **منصور: أحمد صبحي**

العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإســـلام والتصـــوف، القـــاهرة، الهيئة المصرية للكتاب.

- **المودودي: أبو الأعلى**

حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية، جدة، الــدار الســعودية للنشــر والتوزيع، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

- **الناصر: محمد حامد**

الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري عهد نور الــدين وصــلاح الدين، الرياض، مكتبة الكوثر، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

- **نافع: غيثاء أحمد**

العلاقات العثمانيــة المملوكيــة (٨٦٨-٩٢٣هـــ/١٤٦٤-١٥١٧م)، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

- **النايل: عبد الله بن محمد**

صناعة الأسلحة الثقيلة والنارية فــي الدولــة المملوكيــة، الريــاض، الجمعية التاريخية السعودية، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

- **النبراوي: رأفت**

أسعار السلع الغذائية والجوامك في عصر دولة المماليــك الجراكســة، الرياض، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

- **النبراوي: فتحية**

تاريخ النظم والحضارة الإســلامية، القاهرة، دار الفكــر العربــي، ط٧، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

- **الندوي: أبو الحسن علي الحسني**

خاص بحياة شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيمية، الكويــت، دار القلــم، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- **نديم: محمود**

الفن الحربي، القاهرة، ١٩٨٣م.

- **نعينع: سهير**

الحروب الصليبية المتأخرة، حملة بطرس الأول لو سنيان على الإسكندرية ٧٤٧هـ/١٣٦٥م، ط١، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٢م.

- **النقاش: زكي**

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والأفرنج، خلال الحروب الصليبية، بيروت، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

- **النمر: عبد المنعم**

المؤامرة على الكعبة من القرامطة إلى الخميني تاريخ ووثائق، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

- **نويهض: وليد**

صلاح الدين الأيوبي سقوط القدس وتحريرها، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

- **الهلالي: سليم بن عيد**

صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام (٥٧٧-٦٦٠هـ)، الدمام، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

- **هلال: عادل**

العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.

- **وافي: علي عبد الواحد**

الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام. القـاهرة، بـدون تـاريخ طبع.

- **الوقاد: محاسن محمد**

الطبقات الشعبية في القـاهرة المملوكيـة (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

- **ياغي: إسماعيل أحمد**

الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث،، الرياض، مكتبة العبيكان ، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

- **يوسف: جوزيف نسيم**

العدوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع فـي الأراضـي المقدسة، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م.

المراجع المترجمة :

- **باركر: أرنست**

الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، لا توجد سنة طبع أو رقم الطبعة.

- **بالار: ميشيل**

الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمه بشير السباعي، القاهرة، ٢٠٠٣م.

- **براور: يوشع**

عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم، محمد حسن،القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٩م.

- **برنشفيك: روبار**

تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، نقله إلى العربية، حمادي الساحلي، ط١، بيروت، ١٩٨٨م.

- **جوانفيل**

مذكرات جوانفيل، القديس لويس حياته وحملته على مصر والشام، ترجمة وتعليق، حسن حبشي، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٦٨م.

- **دغترى: مزدهار**

مختصر تاريخ الأسماعيلين، ترجمة سيف الدين القصير.

- **زيتر: شتين**

تاريخ سلاطين المماليك، (لم يعلم جامعه)، نشره: K.V. Zettevsteen، ليدن، ١٩١٩م.

- **سانوتو: مارينو**

كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، إعداد ومراجعة البروفسور: بلليغرينور ونكاليا والدكتور سمير الخادم، نقله إلى العربية الأب سليم رزق الله.

- **سوفاجية: جان سوفاجية**

دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى الانتداب، تعريب، فؤاد أفرام البستاني، تحقيق أكرم حسن العلبي، ط١، دمشق، ١٩٨٩م.

- **لابدوس: إيرا**

مدن إسلامية في عهد المماليك. نقله إلى العربية، علي ماضي، بيروت، ١٩٨٧م.

- **لسترنج: كي**

بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

- **ماير: ل . أ**

الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة وتقديم عبد الرحمن فهمي محمد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٧٢م.

- **موير: السيروليم**

تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عايد وسليم حسن، القاهرة، مكتبة المدبولي، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

- **نيكول: أدونالد**

معجم التراجم البيزنطية، ترجمة وتعليق، أ.د. حسن حبشي، الهيئة

المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٣م.

الرسائل العلمية :

- **أبو الفرج: هيام صالح يحي**

مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)،جامعة أم القرى، رسالة ماجستير، لم تطبع، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- **البدنة: خلود عبد الباقي إبراهيم**

الأسر العلمية في مكة المكرمة وأثرها على الحياة العلمية والعملية خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، لم تطبع، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

- **تركستاني: إيمان بنت عبد الحليم عبد القادر**

نيابة حماة في عصر سلاطين المماليك (٦٩٨-٩٢٢هـ/١٢٩٨-١٥١٦م)، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة،، لم تطبع، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

- **دعدع: سحر بنت علي**

ولاة القاهرة الكبرى خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) رسالة ماجستير، ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، لم تطبع، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

- **الربعي: صالح بن محمد**

الإضاءة في الحرمين الشرفيين منذ ظهور الإسلام في نهاية العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة القصيم، لم تطبع، ١٤٣٠هـ.

- **السالمي: عبد الحفيظ بن حمدي بن حامد**

١- الثورات الداخلية والحملات العسكرية الخارجية على مكة المكرمة

وأثرها على الأوضاع العامة خلال العصرين الأيـوبي والممـلـوكي، رسالة دكـتـوراه، لجامعـة أم القـرى، لـم تطبـع ، ١٤٢٩-١٤٣٠هـ.

٢- **الحيـاة الدينيـة في مكة المكرمة خـلال العصـر المملـوكي ٦٤٨-٩٢٣هـ**، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى،، لـم تطبـع، ١٤٢٤هـ.

- **شحاتة: مي بنت عبد الله بن حسن**

المغول في كتابات ابن تيمية "دراسة تاريخية مقارنة"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الملك عبد العزيز، ، لم تطبع، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م.

- **الشهري: عبد الله بن فراج**

دور العلمـاء المسلمـين في الجهـاد الإسـلامي ضـد المغـول (٦١٦-٧٢٠هـ)، رسـالة ماجسـتير، ، جامعـة أم القـرى، لـم تطبـع، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

- **الغامدي: بدرية بنت أحمد**

الأسرة الطبرية في مكـة المكرمـة فـي العهـد المملـوكي (٦٦٧-٩٢٣هـ/١٢٦٨-١٥١٧م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب ، جامعة الملـك عبد العزيز، لم تطبع ، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م،

- **القثامي: متعب حسين**

مملكة حماة في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير، جامعة أم القـرى، مكة المكرمة، لم تطبع ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

- **بن لادن: مريم محمد**

دور ابن تيمية في الجهاد ضد المغول الأيلخـــانيين (٦٦١-٧٢٨هـــــ)
رســــــالة ماجســـتير، جامعة أم القرى، لم تطبع، ١٤٠٣هــ-١٩٨٣م.

الموســـــوعات :

- **دائرة المعارف الإسلامية**، ط١، الشارقة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

- **سليم: محمود رزق**

موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ج٢، القاهرة، مكتبة الآداب، الطبعة ٢، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

- **شاكر: محمود**

التاريخ الإسلامي (العهد المملوكي)، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**؛ الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

الدوريات :

- **التفاهم بين المذاهب الإسلامية**

أعمال الملتقي الدولي الجزائر، ١١، ١٢، ١٣ محــرم ١٤٢٣هـــ، ٢٥، ٢٦، ٢٧ مارس ٢٠٠٢م، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى.

- **الدامغ: فهد بن عبد العزيز**

مجلة الدرعية، العدد ٣٢، ذو الحجة ١٤٢٦هـ

- **الراجحي: محمد بن سليمان**

لقاءات ((تيمورلنك)) ومجادلاته مع العلماء في بــلاد الشــام، مجلــة الدرعية، العدد ٣٦، السنة التاسعة، ذو الحجة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

- **سيف الدين: عبد الحكيم عبد الحق**

مكانة أهل الذمة في المجتمع الإسلامي حتى نهايــة العصــر العباســي الأول. بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي التي يصدرها إتحاد المــؤرخين العرب، العدد السادس عشر، مارس، ٢٠٠٨م

- **عبد الجواد: ليلي**

ظاهرة تعاطي الحشيش في مصر المملوكة، بحث منشــور فــي مجلــة المؤرخ العربي، التي يصدرها إتحاد المؤرخين العرب بالقــاهرة، العــدد ٦، مارس ٢٠٠٨م.

- **عبد الدائم: عبد العزيز**

الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة في مياه البحــر المتوسط،بحث منشور ضمن الكتاب الذي ضم أبحاث نــدوة مصــر وعــالم البحر المتوسط التي عقدت في كلية الآداب ،جامعة القاهرة ،خلال المدة مــن ١٣-١٥ابريل١٩٨٥م.القاهرة،١٩٨٦م.

- **عبد الرحيم: عبد الرحيم عبد الرحمن**

النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني، مجلـــة الـــدرة، تصدر عن إدارة الملك عبـــد العزيـــز، العـــدد الثـــاني، الســـنة السادســـة، ١٤١٠هـــ/١٩٨١م.

- **الغامدي: عبد الله سعيد.**

١-**شيزر. منذ زوال حكم بني منقذ حتى أواخر القرن السابع الهجري**، بحـــث منشور في مجلة كلية اللغة العربية، جامعة القاهرة فرع أسيوط، العدد الســـابع عشر، ١٤٢٠هـــ/٢٠٠٠م.

٢- **دور المتطوعة في حركة الجهاد ضد الصليبين والمغول**، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، القاهرة، العدد ٢، المجلد ١، مـــارس ١٩٩٤م، تصـــدر عن إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.

٣-**سياسة المماليك إزاءميناء أياس الأرمني** ،مجلة جامعة الأمام بـــن ســـعود الإسلامية ،الرياض،العدد٣٩.

- **المديرس: عبد الرحمن بن مديرس**

نفوذ القواد العمـــــرة الحميضـــــات لـــدى أشـــراف مكـــة المكرمـــة، (٧٣٧-٨٧٣هـــ/١٣٣٦-١٤٦٨م)، مجلة الدّارة، العدد ٣، السنة الحاديـــة والثلاثون، ١٤٢٦هـــ.

.

فهرس المحتويات